

دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

الجزء الأول

ترجمة: سامي الدروبي

الكتاب: الجريمة والعقاب (١) (رواية)

المؤلف: دوستويفسكي

المترجم: سامي الدروبي

الطبعة الأولى: ٢٠١٠

كلمة دوستويفسكي

بقلم: الكاتب دانييل جرانين

في التاسع من فبراير عام ١٩٨١ احتفل العالم أجمع بالذكرى المائة لوفاة فيودور ميخايلوفتش دوستويفسكي. وقد اتجهت أنظار الناس والولايات المتحدة والسويد إلى تلك الدار المكوّنة من ثلاثة طوابق في إحدى حارات بطرسبرج والتي شهدت في شتاء ١٨٨١ وفاة الكاتب. لقد كانت حياة دوستويفسكي في بطرسبرج مرتبطة كلها بأحياء صغار الموظفين، والطلاب، والغرف المفروشة المؤجرة، والأفنية الحجرية الضيقة كالآبار، والأسواق، والحانات..

لقد غيرت المائة سنة التي مرت منذ ذلك الحين أشياء كثيرة في ذهن البشرية. ولكن أعمال دوستويفسكي مرت عبر كل هذه التحولات من دون أن تُمنى بخسائر، بل على العكس، خرجت منها أكثر حداثة، بل واكتسبت طابعاً عصرياً ملحاً، غريباً في بعض الأحيان. وقد يبدو ذلك أحياناً أشبه بالنبوءة. إن كثيراً من المواضع في روايتَيْ «الأبالسة» و«الأخوة كارامازوف» تقرأ كنبوءات، وهي من الكثرة بحيث يصعب اعتبارها صدفة. وكأنما قدّمت عبقرية دوستويفسكي وحدست مجرى تطور البشرية. ولكن، أليس ذلك من واجب العبقرية؟

ذات مرة قادني حفيد دوستويفسكي أندريه دوستويفسكي في شوارع المدينة وهو يريني أماكن أحداث رواية «الجريمة والعقاب». واتضح فجأة أن كل شيء يمكن رؤيته. واكتسب كل شيء مغزى تاريخياً. فهنا كان يعيش دوستويفسكي، وهنا كان يعيش آل مارميلادوف.

ونحن نلاحظ دقة وصف الأماكن لدى كتاب آخرين، مثلما لدى بوشكين في ميخايلوفسكويه، ولدى ديكنز في لندن، ولدى بونين في يلنا. ونجد المناظر الطبيعية والوصف بمثابة ديكورات للأحداث الجارية.

ولكن الأمر مختلف لدى دوستويفسكي. إنه يعد مع راسكولنيكوف الخطوات من دار راسكولنيكوف حتى دار العجوز المرابية. وهو يعثر على تلك الدار، وعلى السلم في تلك الدار، وعلى الشقة المطلة عليه، أي يبدو وكأنه يُخرج مسرحية. إنه كاتب مسرحي ومخرج في نفس الوقت. ولا بد له أن يرى ما يحدث بعينيه، وأن يفهم. والفهم هو الأمر المدهش حقاً. إذ إن راسكولنيكوف يظل بالنسبة له سراً إلى حد كبير. ودوستويفسكي يحاول أن يفهمه، ويقدم لذلك عددا من التفسيرات. وهو لا يتظاهر بعدم الفهم، فلا معنى لذلك، إذ إنه يعرف عن راسكولنيكوف الكثير... يعرف أفكاره وأحاسيسه وكلماته وتصرفاته، ولكن ذلك كله لا يكفي لتفسير وتعليل الدوافع والبواعث الكامنة في اللاوعي والتي حَدَتْ براسكولنيكوف للتصرف بما يخالف المنطق. إن كل ذلك لغز بالنسبة لدوستويفسكي. وهو ينظر إلى أبطاله نظرته إلى سرّ، فالأمير ميشكين سرّ، وإيفان كارامازوف سر، وستافروجين سرّ[١].

إن ليف تولستوى يساعدنا على إدراك الإنسان، ويطلعنا على تطور شخصيته، وعلى منابع أفكاره، ويقودنا إلى أعماق روحه.

أما دوستويفسكي فيساعدنا على إدراك استحالة معرفة الإنسان، ويطلعنا على لا محدوديته، وعلى فوضى مشاعره، ويرينا أي تناقضات وأي أعماق لا يمكن بلوغها تكمن في نفس الإنسان.

وتلك هي ضريبة احترام الإنسان، وهذا هو الدرس الذي يقدمه دوستويفسكي لكل كاتب. فماذا نفعل نحن؟ إننا في أدبنا نعرف الكثير والكثير عن أبطالنا، وهم واضحون لنا حتى أعماق أعماقهم. ونحن على دراية بكل شيء وفي كل الظروف، وكل شيء له دوافعه وكل شيء مفهوم وواضح، وبوسعنا أن نحلل أبطالنا حتى النهاية فلا يبقى منهم شيء مجهول.

---

[١] الأمير ميشكين بطل رواية «الأبله»، وإيفان كارامازوف أحد أبطال رواية «الأخوة كارامازوف» وستافروجين أحد أبطال رواية «الأبالسة».

وذلك يعكس إلى حد ما عصرنا، عصر الثورة العلمية التقنية، حيث الأفعال عادة ما تكون ذات طبيعة نفعية، تخضع للمصلحة والمنطق والظروف. وأمثال هؤلاء الأشخاص يبدو وكأنهم مطلوبون، فهم مريحون، وهم مناسبون... وعندئذ يتضح أن دوستويفسكي يحمينا من هذا الشخص – المنفعة، هذا الشخص – الوظيفة، يحمى كرامة السر والغاية السامية لوجود الإنسان.

والسيكولوجيا لدى دوستويفسكي أداة لدراسة أهم قضايا الحياة، ولدراسة القضية التي ربما كانت الأولى بينها، قضية الإيمان. بم يؤمن الإنسان؟ وهل يمكن أن يوجد الله؟.. لعله من السذاجة الظن بأن الإلحاد يقضي على الإيمان، الإيمان بالانسجام، بالسعادة العامة، بالمغزى والغاية الخاصة من وجود الإنسان...

وإذا ما تحدثنا عن دروس دوستويفسكي بالنسبة لعصرنا فأعتقد أنها ليست تلك الأسئلة الجريئة التي يطرحها في دائرة القضايا التي يثيرها – على الرغم من معايشة دوستويفسكي ومعاناته لكل الهموم السياسية والشعبية لذلك العصر... كلا، بل هي الأسئلة الأكثر إلحاحاً وأزلية. ولعله من المفيد أن نرى كيف كانت القضايا اليومية الملحة تنصهر وتُصفّى في روايات دوستويفسكي لتخرج منها الأفكار الحيّة، لا التهويمات المجردة، الأفكار المضرجة بالدم والدموع لنفس حية.

دوستويفسكي يصوّر بجسارة أناساً فقدوا الإيمان... تخلى الإيمان عنهم وتركتهم الآلهة وماتت. والسؤال الذي يعذب الكاتب هو: ما الذي سيحدث للبشرية إذا لم يكن هناك إله؟ ما الذي سيحدث إذا ما حل محل الإنسان الإله شخص قوي يستبيح لنفسه كل شيء؟ فماذا لو أن النزعة الإنسانية راحت إذًا تنقرض وتفنى؟ كيف نواجه ذلك وندفعه عنا؟ وما الذي يجوز للإنسان أن يفعله؟ هل يجوز له أن يتصرف في أقدار الآخرين وحياتهم من أجل مصلحة الآخرين؟ من الذي يقتل فيدور كارامازوف؟ كيف يدور الصراع بين الخير والشر في النفس البشرية؟ أثمة خلود؟ ومن أين يأتي الازدواج والثنائية في الإنسان؟... إنه يدرس قضايا الوجود، والعذاب. والشر، والحب، والجريمة، والجنون، والأهواء، والمنفعة المغرضة...

لقد تميزت عبقرية دوستويفسكي الفنية بقوة فلسفية هائلة. وهو مهموم دائماً بالقضايا الجذرية، الحاسمة. والأدب بالنسبة له وسيلة تفكير، والكاتب عنده لا يتمتع فقط بالقدرة على ملاحظة تفاصيل الحياة بألوانها وروائحها وكلماتها المميزة ودقائقها، بل وأيضاً بالتفكير المضني في مغزى الحياة. تلك هي قوة دوستويفسكي، وذلك هو المثل الذي يقدمه للأدب المعاصر.

إن مؤلفاته خالية من الأمور العادية، فقد كان قادراً على رؤية خيالية الحياة الروسية.

كل ما يجري يجري في أكثر المدن واقعية، إذا جاز التعبير، ومع ذلك فكل ما يجري خيال. ليس هناك شياطين مرعبة، ولكن الواقع تزحزح قليلاً، وأحياناً بدرجة لا تلحظ، ولذا فقد ظهرت إمكانية النظر في فجاج ومهاوٍ لم تكن تخطر لنا على بال.

قراءة دوستويفسكي أمر صعب، وأحياناً تثير الشعور بالضيق، فما السبب؟ إن رواياته تخلو من المشاهد الطبيعية وليس فيها تلذذ بوصف الأحداث المرعبة وأعمال العنف المقبضة. ولكن هذا السؤال صعب ولا أستطيع أن أتصدى للإجابة عنه، وبودي فقط أن ألفت النظر إلى إحدى خصائصه، إلى أحد جوانب عبقريته والذي يبدو وكأنما يكشف أمرنا.

أريد أن ألفت النظر مثلاً إلى قوله في «المراهق»: «الإحساس الإنساني العادي ببعض السرور عندما تقع مصيبة للآخرين، أي عندما تنكسر ساق أحدهم، أو يتلطخ شرفه، أو يفقد عزيزاً لديه.. الخ...» أو قوله في مشهد الكارثة التي أصابت آل مارميلادوف في هذه الرواية: «... فهاهم أولاء سكان البيت يتجهون نحو الباب واحداً بعد آخر، وهم يشعرون بذلك الإحساس الغريب، إحساس اللذة الذي يُلاحظ دائما حتى لدى أقرب الأقرباء حين يرون شقاء يحل بقريبهم، وهو إحساس لا يخلو منه أي إنسان مهما يكن إحساسه بالأسف والشفقة صادقا...»

بالطبع لا يريد أحد أن يكتشف في نفسه مثل هذا. ولكن دوستويفسكي يجبرنا بطريقة ما على أن نجد في نفوسنا الشيء السيئ، وأن نعثر فيها على تلك الأهواء التي تعصف بأبطاله. وعلى هذا نصبح وكأننا مشاركون، ومذنبون نحن كذلك، وها قد افتضحنا وانكشف أمرنا... ويتضح أننا لسنا أفضل من هؤلاء الأبطال، بل إننا مستعدون لارتكاب ما ارتكبوه. وحينما تتحدث رواية «المراهق» عن أن الإنسان قادر على أن يرعى في روحه أسمى المثل إلى جانب أحط الدناءات، وكل ذلك عن صدق خالص... فهل هذا الكلام عن أناس الماضي فحسب؟

عندما تقرأ دوستويفسكي ينتابك الخجل... وهذه أعظم سمة من سمات عبقريته، وينبغي علينا أن نتعلمها إذا كان من الممكن تعلم ذلك. تشعر بالخجل وتشعر بتأنيب الضمير، ولذلك تصعب القراءة. فهو يجبرك على أن تخجل وتستحي، ويقضي على كافة محاولات التهرب وتبرير الشر والفساد الخلقي. وما أبرعه في تصوير الدناءة والنفاق والرياء والقسوة! كلا، كلا هذه ليست عبقرية مريضة، بل الأقرب إلى الصواب إنها موهبة شافية، ليست قاسية بل إنسانية. أليس من الجائز أننا عندما نسعى بكل جهدنا إلى تصوير المظاهر الطيبة والجميلة والسامية والفاضلة وحدها، وعندما نختار ونمدح أفضل النماذج وأكثرها مثالية فحسب... أليس من الجائز أننا بذلك نخمد يقظة الضمير ونضعف التشدد، وننافق الناس والشعب. إن المكانة التي تبوأها الأدب الروسي إنما تعززت أساساً بفضل ما قام به دوستويفسكي من فضح لا يكلل للرذائل والضلالات. ولم يشارك في هذا العمل دوستويفسكي وحده بل الأدب الروسي كله، الذي تحلى بشجاعة أن يقول لشعبه كلمات الغضب والحزن...

وليس من السهل اليوم أن تهز ضمير الإنسان المعاصر، فهو محصّن بسياج دفاعي متين. ولكن دوستويفسكي يستطيع، كما لا يستطيع أحد غيره، أن يخترق الحواجز والدفاعات، وهو في ذلك واحد من أكثر الكتاب معاصرةً لنا.

وإبداع دوستويفسكي يحفز الفكر، وقد أثر على أكبر الفلاسفة وعلماء النفس والعلماء في العالم. والكتب التي وُضعت عن دوستويفسكي تثير الاهتمام بما تتميز به من قيمة فلسفية وعلمية مستقلة. وهي بحد ذاتها رائعة.

الفنان وحده، والكاتب في المقام الأول، هو الذي يستطيع أن يساعد الناس على اكتشاف حقائق جديدة عن أنفسهم. وبهذا المعنى كان دوستويفسكي وسيبقى مفخرة لروسيا وللأدب الروسي وللأدب العالمي. ولتاريخ الفنون الطويل كله.

أنا لا أرى لماذا تُؤلف الكتب. وقد قال بوشكين ذات مرة: «إن غاية الشعر هي الشعر». فما هو الباعث وما هو الدافع المحرك للفنان ولأي غرض يعمل؟ أللمتعة؟ أم للتربية، أم للبحث؟ لست أدري. بيد أن ذلك كله، وبأسمى درجة، تقدمه لنا كتب دوستويفسكي. وفيها، علاوة على ذلك، الإحساس بالمعجزة التي تشد إليها مشاعرنا وأفكارنا أكثر فأكثر، وتسمو بأفكارنا فتمكننا من رؤية أنفسنا وعالمنا بكل بؤسه وعظمته بكل جدارته وقيمته، عالمنا كله بروعة جماله واستحالة إدراكه.

الجزء الأول

الفصل الأول

في الأيام الأولى من شهر تموز، وكان الحر شديداً للغاية، خرج شاب في نحو نهاية الأصيل، خرج من الغرفة الصغيرة التي كان يسكنها في زقاق س...[٢] واتجه نحو جسر ك.. بطيء الخطى كأنه كان متردداً.

لقد أسعفه الحظ فأفلح أثناء هبوطه السلم في تحاشي لقاء صاحبة الشقة التي يسكن عندها. إن الغرفة التي يسكنها الشاب تقع تحت السقف من منزل عال يتألف من أربعة طوابق، وهي أقرب إلى جحر منها إلى مسكن. وكانت صاحبة الشقة التي تؤجره هذه الغرفة مع الطعام والخدمة تسكن هي نفسها في الشقة المنفردة في الطابق الأدنى، فكان لا بد للشاب، كلما خرج، أن يمر حتماً أمام مطبخها الذي يظل بابه مفتوحاً على السلم دائماً. وكان الشاب يشعر في كل مرة أثناء مروره بضيق وحرج وانزعاج فيحسّ بالخجل من هذا الشعور ويتقلص وجهه، ويغدو قاتم النفس. كان مديناً لصاحبة الشقة فيخشى أن يلتقي بها.

وليس مرد ذلك إلى أنه جبان رعديد، أو إلى أنه مروّع مذعور، بالعكس... ولكنه يعاني منذ بعض الوقت حالة من التوتر والعصبية توشك أن تكون مرض الكآبة. لقد بلغت حياته من الاعتزال ومن فرط الانطواء على النفس أنه يخشى لقاء أي إنسان، لا لقاءَ صاحبة الشقة فحسب. كان يعيش في فقر مدقع، وبؤس شديد، ولكن العوز نفسه أصبح في هذه الآونة الأخيرة لا يثقل عليه. أصبح الشاب لا يهتم بشؤونه ولا يريد أن يهتم بها. والواقع أن صاحبة الشقة كانت لا تخيفه، مهما تكن المكائد التي تدبرها له. ولكن الوقوف على فسحة السلم، والإصغاء إلى ثرثرات سخيفة شتى عن ترهات لا تعنيه في قليل ولا كثير، واحتمال التذكير الدائم المستمر، الذي تصحبه تهديدات وشكاوى، بضرورة مبادرته إلى دفع الأجرة، واضطراره إلى اختلاق الحيل وانتحال الأعذار وتلفيق الأكاذيب... ولكن ذلك كله أصبح من

[٢] «زقاق س...»: هو زقاق ستوليارني بيريئولوك، أي «زقاق النجارين»، القريب من «سوق العلف»، حيث أقام دوستويفسكي من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٧.

الأمور التي لا يمكن أن يطيقها، فهو يؤثر على ذلك أن يتسلل على السلم تسلل هرة، وأن يفرّ دون أن يراه أحد. على أن الخوف الذي شعر به هذه المرة من تصور أن دائنته قد تراه، أدهشه هو نفسه منذ أصبح في الشارع.

حدّث نفسه يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة: «أفكر في الإقدام على عمل مثل ذلك العمل، ثم أشعر بخوف لأمر تافه هذه التفاهة! نعم، إن كل شيء موجود لدى الإنسان، ومع ذلك يدع الإنسان لكل شيء أن يمر تحت أنفه... وما ذلك إلا لأن الإنسان جبان... نعم، هذه بديهة.. إنه لمن الشائق أن نعرف ما الذي يخافه البشر أكثر ما يخافون... إلا أن ما يخافه البشر أكثر ما يخافون هو أن يتقدموا خطوة إلى أمام، هو أن يقولوا كلمة شخصية. على أنني أسرف في الثرثرة كثيراً. وإذا كنت لا أعمل شيئاً، فلأنني أثرثر... أو قل على نحو أصح وأدق: إذا كنت أثرثر فلأنني لا أفعل شيئاً. ومع ذلك فأنا في هذه الأشهر الأخيرة إنما تعلمت الثرثرة قابعاً في ركني أفكر... أفكر في كل شيء ولا أفكر في شيء. مثلاً: فيم أذهب الآن إلى هناك؟ أأنا قادر على أن أفعل «ذلك الأمر»؟ هل «ذلك الأمر» جَدّ حقاً؟ لا... ما هو بالجد البتة! وإنما هو نزوة خيال لا أكثر! إنني «أدغدغ» نفسي ملتمساً تسلية. نعم، أعتقد اعتقاداً جازماً بأنني ألتمس لنفسي تسلية...».

الحر في الشارع ما يزال مرهقاً. يضاف إلى ذلك نقص الهواء، والازدحام، والكلس المنتشر في كل مكان، والسقالات، والآجر، والغبار، ثم ذلك النتن الصيفي الخاص الذي يعرفه كل ساكن من سكان بطرسبرج لا تتيح له موارده أن يستأجر بيتاً صيفياً في الضواحي. إن اجتماع ذلك كله قد أثار أعصاب الشاب الذي كانت أعصابه مهتزة من قبل فأورثه مزيداً من الضيق. وهذه روائح كريهة تنشرها خمارات كثيرة جداً في هذا القسم من المدينة، وهؤلاء سكارى يلقاهم المرء عند كل خطوة رغم أن اليوم ليس يوم الأحد بل هو يوم عمل، فتصطبغ اللوحة بلون حزين منفّر. إن الشعور عميقًا بالاشمئزاز يرتسم للحظة على القسمات

الدقيقة من وجه الشاب. والشاب حسن الصورة وسيم الطلعة، له عينان دكناوان رائعتان، وشعر أشقر ضارب إلى لون كلون الرماد، وقامة فوق الوسط طولاً، نحيلة ممشوقة. ولكنه لا يلبث أن يبدو عليه الاسترسال العميق في التفكير، أو قل الانحدار إلى نوع من الغيبوبة. وظل يسير لا يرى من حوله شيئاً، ولا يرغب في أن يرى أي شيء. كل ما هنالك أنه كان، بين الفينة والفينة، يستأنف محاورة نفسه، جرياً على عادة إلقاء مونولوجات، تلك العادة التي اعترف بها لنفسه الآن. وأدرك في تلك اللحظة نفسها أن خواطره وأفكاره تختلط وتضطرب من حين إلى حين، وأنه ضعيف جداً: إنه لم يكد يأكل شيئاً منذ يومين.

وكان يرتدي ثياباً تبلغ من الرثاثة أن شخصاً آخر غيره كان لا بد أن يشعر بضيق وحرج، مهما تكن عاداته المكتسبة، إذا هو خرج في وضح النهار بمثل تلك الأسمال. الحق أن هذا الحي ليس من الأحياء التي يمكن أن يستغرب فيها الناس منظر رداء. إن هذا المكان القريب من «سوق العلف»[٣]، الذي تكثر فيه محالٌ من نوع خاص، والذي يتألف سكانه أساساً من صُناع وحرفيين متكدسين في هذه الشوارع والأزقة من مركز بطرسبرج، يشتمل على تنوع كبير في الأفراد يُستغرب معه أن يُدهش أحد من شخص متفرد بعض التفرد. على أن نفس الشاب قد بلغت من فرط الامتلاء بالاحتقار الكاره أنه رغم ما يتصف به طبعه من شدة التأذي [الذي يتميز به أحياناً الشباب]، كان لا يشعر بخجل كثير من عرض أسماله البالية في الشارع. ولا كذلك إذا هو التقى بأشخاص يعرفهم أو برفاق قدامى لا يحب على وجه العموم أن يختلف إليهم... ومع ذلك حين أعول سكّير كان مقوداً (لا ندري إلى أين ولا لماذا) في عربة كبيرة يجرها حصان قوي، حين أعول هذا السكير على حين فجأة قائلاً بصوت مجلجل وهو يومئ إليه بيده: «هيه، أنت يا صاحب القبعة الألمانية!»، فإن الشاب توقف بغتة، وقبض على قبعته بحركة عصبية. هي قبعة عالية مشتراة من عند

---

[٣] «سوق العلف»، هو ميدان محاط بحانات وخمارات وفنادق رخيصة.

تسيمرمان[٤] لكنها قد اهترأت اهتراء تاماً، واحمرّ لونها، وغشيتها البقع وثقبتها الثقوب وزالت حافتها وانطوى أحد طرفيها حتى صار زاوية بشعة كريهة. على أن الشاب لم يشعر بخجل، وإنما استولت عليه عاطفة أخرى تشبه الهلع.

ودمدم يخاطب نفسه مضطربًا:

«كنت أعرف هذا حق المعرفة... قدّرته من قبل!.. ذلك أسوأ ما في الأمر! تكفي ترهة سخيفة من هذا النوع، يكفي أمر تافه كهذا، حتى يتعرض كل شيء للخطر! نعم، إن هذه القبعة صارخة... هي مضحكة، وهي لذلك صارخة... ما دمت أرتدي هذه الأسمال البالية فلا بد لي من قلنسوة، أو من أية طاقية عتيقة. أما هذه القبعة الفظيعة فلا!.. ما من أحد يلبس قبعة كهذه القبعة. إنها تُرى من مسافة فرسخ كامل.. ومن رآها مرة يتذكرها ولا ينساها... يتذكرها في المستقبل... فتكون هي الدليل القاطع... إنني أحتاج الآن إلى أن لا ينتبه إليّ أحد!.. إن الأشياء الصغيرة هي التي لها أكبر شأن وأعظم خطر!.. هذه هي الحقيقة، إن أشياء صغيرة كهذه القبعة هي التي تفسد كل شيء في آخر الأمر دائماً..»

لم يكن طريقه طويلاً، حتى لقد كان يعرف عدد الخطوات التي يجب أن يقطعها منذ يجتاز باب منزله: إنها سبعمائة وثلاثون خطوة تماماً. لقد عدّ هذه الخطوات ذات يوم من الأيام بعد أن أفرط في الاستسلام لأحلامه. في ذلك الأوان لم يكن يصدّق بعد أن هذه الأحلام واقعة، وإنما كان يروّح عن نفسه بما تشتمل عليه تلك الأحلام من جرأة دنيئة فتانة في آن واحد. أما الآن، بعد انقضاء شهر على ذلك الأوان، فقد أخذ يرى الأمور رؤية مختلفة، ورغم جميع المحاورات المحنقة التي كانت تجري بينه وبين نفسه، والتي كان في أثنائها يعيب على نفسه ضعفه وتردده، فإنه قد اعتاد، رغم إرادته تقريباً، أن ينظر إلى هذا «الحلم الدنيء»

---

[٤] «تسيمرمان»: رجل ألماني كان يملك محلاً لأزياء القبعات.

نظرته إلى مشروع «عليه أن ينفذه»، دون أن يزداد من ذلك ثقة بنفسه على كل حال. وهو الآن ذاهب لإجراء تمرين على ذلك الفعل الدنيء، فاضطرابه يزداد قوة عند كل خطوة.

وفيما هو منهار القلب تسري في جسمه رعدة عصبية، اقترب من مبنى ضخم يطل من إحدى جهتيه على القناة ويطل من الجهة الأخرى على شارع س...، إن هذا المنزل، المقسم إلى مساكن صغيرة، يسكنه أناس من جميع الأنواع: خياطون، وقفّالون، وطباخون، وألمان مختلفون، وشابات يعشن من جمالهن، وموظفون صغار، وهلم جرا... إن الذهاب والإياب تحت قوسي مدخليه الكبيرين، وفي فناءيه الواسعين، لا ينقطعان. وثمة بوابون ثلاثة أو أربعة يتولون أمره. فما كان أشدّ سرور الفتى حين لم يلتق بأحد منهم. فلما اجتاز المدخل تسلل إلى السلم الأيمن دون أن يراه أحد. إن هذا السلم ضيق، مظلم، «أسود»، ولكن الشاب يعرفه فقد سبق أن درسه، ثم إن هذا الجو يعجب الفتى ويرضيه، فهو في ظلام كهذا الظلام لا يخشى أن تقع عليه نظرة مستطلعة. ومع ذلك قال الفتى لنفسه رغم إرادته حين وصل إلى الطابق الثالث: «إذا كنت أشعر الآن بهذا الخوف كله، فبماذا يمكن أن أشعر إذا اتفق أن مضيت إلى آخر الشوط؟»... وهناك كان يسدّ طريقه صناديق وجنود سابقون كانوا يخلون أحد المساكن من أثاثه. كان الفتى يعرف من قبل أن موظفاً ألمانياً هو رب أسرة كان يقيم في هذا المسكن حتى ذلك الحين. فقال لنفسه أيضاً قبل أن يقرع جرس الباب: «إن هذا الألماني ذاهب إذن الآن، فلا يبقى على الفسحة الثالثة من السلم، خلال فترة من الوقت، إلا مسكن واحد مشغول هو مسكن المرأة العجوز. ذلك أمر تسرّ معرفته... حين تأزف الساعة». ثم ضغط على جرس باب الشقة ورن الجرس رنيناً ضعيفاً كأنه من حديد أبيض لا من نحاس. إن الأجراس تكون دائماً من هذا النوع في المساكن الصغيرة التي تتألف منها عمارة من هذا الطراز. وكان الشاب قد نسي صوت ذلك الجرس، فإذا هو يحس هذا الصوت الآن تذكيراً مباغتاً بشيء تخيله واضحاً... فارتعد. كانت أعصابه في هذه المرة منهكة. وبعد دقيقة شق الباب شقاً ضيقاً، وأخذت ساكنة البيت

تتفحص القادم الجديد، من خلال هذا الشق، بشكل واضح وارتياب ظاهر. إن المرء لا يرى، في هذا الظلام، إلا عينيها الملتمعتين. ولكنها حين أبصرت على فسحة السلم أناساً كثيرين اطمأنت ففتحت الباب فتحاً كاملاً. اجتاز الفتى العتبة، وولج حجرة المدخل المظلمة التي يقطعها حاجز جعل ما وراءه مطبخا صغيرا. وقفت العجوز قبالته صامتة تحدجه بنظرة سائلة. هي امرأة عجوز قصيرة جداً نحيلة جداً، في نحو الستين من العمر، لها عينان حادتان شريرتان، وأنف صغير مدبب. وكانت حاسرة الرأس، فشعرها الفاتح قليل الشيب يلتمع ببريق الزيت. وحول عنقها الطويل النحيل الذي يشبه ساق دجاجة، كانت تلتف خرق مبهمة من قماش «الفلانيل»، وتضع على كتفيها، رغم الحر الشديد، سترة قصيرة فرائية قد اصفر لونها وتنسّل وبرها. وكانت العجوز تسعل وتتأوه في كل لحظة. وأغلب الظن أن الفتى ألقى عليها نظرة خاصة، لأن الشك والارتياب عادا يظهران في عينيها.

تذكر الفتى فجأة أن عليه أن يكون لطيفاً ودوداً، فأسرع يدمدم قائلاً للتعريف بنفسه وهو ينحني نصفياً:

– راسكولنيكوف[٥]، طالب. جئت إليك منذ شهر...

فخاطبته العجوز تقول بصوت واضح متميز دون أن تحوّل نظرتها السائلة عن وجهه:

– أتذكر يا بني، أتذكر جيداً أنك جئت..

فتابع راسكولنيكوف كلامه وقد ساوره شيء من الدهشة والارتباك حين لاحظ شك العجوز وارتيابها:

– ها أنذا أجيء إليك مرة أخرى... لأمر صغير من ذلك النوع نفسه...

[٥] «راسكولنيكوف»: أشتق المؤلف اسم راسكولنيكوف من الكلمة الروسية «راسكولنيك» ومعناها المنشق، ليشير بذلك إلى انشقاق بطل الرواية عن آراء المجتمع. وفي الصياغة الأولى لهذه الرواية، أي الصياغة التي جعل دوستويفسكي عنوانها: «يوميات راسكولنيكوف»، أطلق المؤلف على بطله اسم «فاسيا». ولعله لاحظ بعد ذلك أن اسم «فاسيا» ألطف وأرق من أن يطلق على هذا البطل فجعل اسمه ونسبته إلى أبيه: «روديون رومانوفتش».

وحدث نفسه قائلاً وهو يشعر بضيق: «الحقيقة أنها ربما كانت هكذا دائماً، ولكنني لم ألاحظ ذلك في المرة الماضية».

وصمتت العجوز كأنما لتفكر، ثم تنحت قليلاً، وقالت للزائر وهي تدله على باب الغرفة وتدعه يمر قدامها:

– تفضل ادخل يا بني!

دخل الشاب غرفة صغيرة مفروشة الجدران بورق أصفر، فيها أزهار جيرانيوم، ولنوافذها ستائر من قماش الموسلين. وكانت الغرفة في تلك اللحظة تضيئها أشعة الشمس الغاربة بنور ساطع. قال الفتى يحدث نفسه: «ماذا؟ هل ستسطع الشمس إذن هذا السطوع حينذاك». لقد اخترقت هذه الفكرة ذهن راسكولنيكوف على غير علم منه، فإذا هو يلف الغرفة كلها بنظرة سريعة ليدرس ترتيبها وليحفظه في ذاكرته إن أمكن ذلك. ولكن هذه الغرفة لا تتميز كثيراً بصفات خاصة. إن أثاثها المصنوع من خشب أصفر على طراز عتيق، يتألف من أريكة ذات مسند خشب ضخم له أقواس، ومنضدة بيضاوية الشكل موضوعة أمام الأريكة، وخوان زينة بمرآة صغيرة موضوع بين نافذتين وكراسي مصفوفة على طول الجدران، ولوحتين أو ثلاث لوحات لا قيمة لها، موضوعة في أطر مصفرة، تمثل آنسات ألمانيات في أيديهن طيور. ذلك هو الأثاث. وفي ركن من الأركان، أمام أيقونة صغيرة كان يسطع سراج صغير. والمكان كله تسوده نظافة قصوى. فالأثاث وأرض الغرفة قد دُلكت بالشمع فهي تلمع. قال الفتى يحدث نفسه: «هذا من عمل اليزافيتا!» ما كان لأحد أن يستطيع العثور على ذرة غبار واحدة في المسكن كله. عاد راسكولنيكوف يحدث نفسه فقال: «لا يجد المرء نظافة كهذه النظافة إلا عند الأرامل العجائز الشريرات». قال ذلك والتفت بصره خلسة يستطلع ستارة من قماش قطني تحجب باباً يصل هذه الغرفة بغرفة صغيرة

أخرى فيها سرير العجوز وخزانتها وهي غرفة لم يسبق له أن دخلها قط. إن المسكن كله لا يضم إلا هاتين الغرفتين.

سألته العجوز بقساوة وهي تدخل الغرفة بعده وتقف مرة أخرى أمامه لتتفحصه وجهاً لوجه:

– أي خدمة؟

قال الفتى:

– جئتك بشيء أريد أن أرهنه. هو ذا...

قال ذلك وأخرج من جيبه ساعة عتيقة مصنوعة من فضة، رُسمت على غطائها الكرة الأرضية، ولها سلسلة من فولاذ.

قالت المرأة العجوز:

– ولكن مدة رهنك الأولى قد انتهت. انقضى على الرهن الأول شهر منذ أمس الأول.

– سأدفع لك الفائدة عن شهر آخر. أصبري عليّ.

قالت:

– أنا التي أقرر أأصبر أم أبيع الرهن الآن. هذا شأني أنا يا بني.

– هل تقرضينني مبلغاً كبيراً على رهن هذه الساعة يا أليونا ايفانوفنا؟[٦]

---

[٦] «أليونا» تلطيف شعبي لاسم ايلينا (هيلانة).

– إنك تجيئني دائماً بأشياء صغيرة تافهة ليس لها قيمة البتة... لقد أقرضتك في المرة الماضية ورقتين صغيرتين (أي روبلين) على رهن خاتمك، مع أن في إمكان أي إنسان أن يشترى من عند الصائغ خاتماً جديداً من نوعه بروبل ونصف روبل.

– اقرضيني أربعة روبلات على رهن الساعة. سأفكها قريباً... ورثتها عن أبي. وسيصلني مبلغ من المال بعد مدة قصيرة.

– أقرضك على رهنها روبلاً ونصفاً، والفائدة تدفع سلفاً.

– روبلاً ونصفاً؟

– لا مساومة. إما أن تقبل وإما أن ترفض.

قالت العجوز ذلك ومدّت إليه الساعة، فتناولها الفتى غاضباً حتى لقد همّ أن ينصرف. ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك إذ تذكر أنه ليس هناك مكان آخر يذهب إليه وأنه جاء لغرض آخر أيضاً.

قال بلهجة خشنة:

– هاتي!

فدست العجوز يدها في جيبها لتخرج مفاتيحها، ومضت إلى الغرفة الأخرى وراء الستارة. فلما أصبح الفتى وحيداً وسط الغرفة، أصاخ بسمعه مستطلعًا، وأطلق العنان لخياله.

سمعها تفتح الخزانة. قال يحدث نفسه: «أغلب الظن أنه الدُرج الأعلى... هي تحمل مفاتيحها إذن في الجيب الأيمن... والمفاتيح كلها كتلة واحدة تضمها حلقة من فولاذ... وبين المفاتيح مفتاح مسنّن الرأس أكبر من غيره ثلاث مرات، ولكن من الواضح أنه ليس مفتاح الخزانة... إذن هناك أيضاً سحارة أو

صندوق صغير... هذا أمر هام. إن لجميع الصناديق مفاتيح من هذا النوع... على كل حال، هذا كله كريه بشع...»

وعادت العجوز.

– خذ يا بني. إذا كانت الفائدة عشرة كوبيكات عن كل روبل في الشهر تُقتطع سلفاً، فإن الفائدة عن روبل ونصف روبل تكون خمسة عشر كوبيكا. يضاف إلى ذلك عشرون كوبيكا عن الروبلين اللذين اقترضتهما في المرة الماضية على أساس تلك الفائدة نفسها، فيكون مجموع ما يجب اقتطاعه خمسة وثلاثين كوبيكاً، فيبقى لك عن رهن الساعة روبل وخمسة عشر كوبيكا. إليك المبلغ.

– كيف؟ ألا يبقى لي إلا روبل وخمسة عشر كوبيكاً؟

– تماماً.

لم يناقشها الفتى، وتناول المال. وكان ينظر إلى العجوز ولا يستعجل الخروج، كأنما كان يريد أن يقول شيئاً، أو أن يفعل شيئاً، دون أن يدري ما هو هذا الشيء على وجه الدقة...

وقال لها أخيراً:

– ربما جئتك بشيء آخر في الأيام القليلة القادمة يا أليونا ايفانوفنا... هو شيء من فضة... شيء ذو قيمة... علبة سجائر... نعم، سأجيئك بعلبة سجائر متى ردّها إليّ صديق لي...

ارتبك الفتى وصمت.

فقالت العجوز:

– طيب يا بني... سنتكلم في الأمر في حينه.

قال لها الفتى بلهجة منطلقة على قدر المستطاع، وهو يتجه نحو حجرة المدخل:

– استودعك الله.. أنت إذن وحيدة في البيت دائماً دون أن تكون أختك معك؟

– فيما يعنيك هذا يا بني؟

– لا يعنيني في شيء... انه مجرّد سؤال هكذا... دون هدف.. فإذا أنت... أستودعك الله يا أليونا ايفانوفنا.

خرج راسكولنيكوف وهو فريسة اضطراب عميق ما ينفك يزداد، حتى توقف عدة مرات مذهولاً أثناء هبوطه السلم. فلما صار في الشارع آخر الأمر هتف يقول:

«آه... رباه! ما أبشع هذا كله! هل يمكنني، هل يمكنني حقاً أن...»

ثم أضاف يقول باقتناع:

«لا... هذه حماقة... هذه سخافة... هل يمكن حقاً أن تكون فكرة شيطانية كهذه الفكرة قد ساورت ذهني؟ ما أقذر ما في قلبي إذن من وحل! ثم إن هذا كله وسخ جداً، مقزز جداً، قذر جداً! كيف أمكنني، خلال شهر بكامله، أن...»

ولكن الفتى لم يجد الكلمات التي كان يمكن أن تعبر عن حالته العصبية الرهيبة. إن الإحساس بالاشمئزاز الذي لا نهاية له والذي كان قد بدأ يجثم على صدره ويقبض قلبه ويخنقه خنقاً أثناء ذهابه إلى مسكن العجوز قد بلغ الآن أبعاداً عظيمة وأخذ يتجلى بعنف شديد حتى صار الفتى لا يعرف كيف يتخلص من هذه النازلة التي ألمت به وهذا الحزن الذي عصف بقلبه. كان يمشي على الرصيف كالسكران لا يلاحظ حتى المارة الذين كان يصطدم بهم. ولم يثب إلى رشده إلا في الشارع التالي. فلما نظر حواليه لاحظ أنه أمام خمارة ينزل إليها النازل على سلم يؤدي من الرصيف إلى القبو. وفي تلك اللحظة نفسها كان يخرج من

الخمارة سكرانان يسند كل منهما الآخر، ويتبادلان الشتائم أثناء صعودهما السلم. فلم يلبث راسكولنيكوف أن هبط إلى الخمارة دون تردد. لم يسبق له أن دخل خمارة في يوم من الأيام، ولكنه يشعر الآن بدوار في رأسه، كما أن ظمأ لا يطاق كان يعذبه. اشتهى أن يشرب بيرة باردة، لا سيما وأنه كان يعزو ضعفه المفاجئ إلى الجوع أيضاً. جلس في ركن مظلم قذر أمام مائدة صغيرة متسخة بالدهن، وطلب بيرة فشرب كأساً أولى بشراهة، فلم يلبث أن شعر بشيء من التخفف والراحة، وأصبحت أفكاره أوضح. قال لنفسه وقد ارتد إليه الأمل: «ذلك كله سخافات! لا داعي إلى القلق! هو انزعاج جسمي لا أكثر! فما أن يشرب المرء كأساً من بيرة وما أن يأكل قطعة من بسكويت حتى يشتد فكره ويقوى ذهنه وتتضح أفكاره وتترسخ عزيمته. أوه! ذلك كله باطل!..» ولكن رغم بادرة الاستخفاف هذه، كان راسكولنيكوف كمن تحرر الآن فجأة من حمل ثقيل: ها هو ذا شيء من فرح يتجلى منذ الآن في نظرته التي أخذت تطوف على الحضور بمودة وصداقة. ومع ذلك أحس، حتى في تلك الدقيقة، إحساساً غامضاً بأن حالة التفاؤل التي صارت إليها نفسه حالة مرضية هي أيضاً.

لم يبق في الخمارة في تلك الساعة إلا عدد قليل من الناس. فبعد السكرانين اللذين التقى بهما على السلم خرجت من الخمارة، دفعة واحدة، عصبة تتألف من خمسة شبان يجرون فتاة ومعهم أكورديون. فما أن انصرفوا حتى عاد الهدوء إلى الخمارة، فأصبح المرء يحسّ بحرية أكبر. لم يبق في القاعة إلا شخص ثمل بعض الثمل، جالس أمام كأس بيرة، أغلب الظن أنه تاجر، ومعه رفيقه وهو رجل طويل سمين يرتدي قفطانا قصيرا له لحية شائبة كان قد بلغ السكر منه كل مبلغ، فهو غافٍ فوق دكة، وهو يصفق بأصابعه من حين إلى حين كأنه يخرج من نومه على حين بغتة، ويأخذ يباعد ذراعيه، ويرجح القسم الأعلى من جسمه، دون أن ينهض عن الدكة، مدمدماً بكلام سخيف، محاولا أن يتذكر أبياتاً من الشعر من هذا النوع:

لاعبت زوجتي طوال السنة

لا... عبت زوجتي طوا..ل السنة

أو قائلاً بعد أن يستيقظ من جديد:

حين مررت بشارع بودياتشسكايا[٧]

التقيت بصديقتي القديمة الطيبة

ولكن لم يكن يشاركه أحد سعادته. حتى لقد كان رفيقه الصموت يرد على هذه الانفجارات باتخاذ وضع عدائي ريّاب. وكان هنالك رجل ثالث يدل مظهره على أنه موظف صغير محال على التقاعد. كان هذا الرجل منزوياً أمام كأسه يشرب من حين إلى حين، ويطوف بصره على ما حوله، يبدو عليه أنه يعاني هو أيضًا حالة عصبية.

[٧] «بودياتشسكايا»: أي شارع القسس، وهو أحد شوارع وسط مدينة بطرسبرج، قرب «سوق العلف».

الفصل الثاني

لم يكن راسكولنيكوف معتاداً صحبة الناس، وكان كما سبق أن قلنا يتحاشى كل مجتمع، ولا سيما منذ فترة من الوقت. غير أن شيئاً كان يجذبه الآن إلى البشر على حين فجأة، فكأن شيئاً جديداً قد حدث في نفسه، وكان يشعر في الوقت ذاته بشيء من الظمأ إلى عقد الصلات بينه وبين أقرانه. إن ذلك الشهر الذي قضاه في غم ثقيل واهتياج كالح قد جعله متعباً إلى حد أنه يتوق الآن إلى استرداد أنفاسه ولو لحظة من الزمن، في عالم آخر، في أي عالم آخر. لذلك شعر من بقائه الآن في الخمارة بلذة كبيرة رغم رداءة المكان.

وكان صاحب الخمارة يجلس في غرفة مجاورة، ولكنه يظهر في القاعة الرئيسية مرة بعد مرة. وكان يصل إلى هذه القاعة هابطاً بضع درجات، فكان الجالس في هذه القاعة يرى، أول ما يرى، جزمتيه الملمّعتين بأناقة واللتين لهما حافتان مقلوبتان حمراوان. وكان لا يضع رباط عنق، يرتدي سترة مضيقة عند الخاصرة وصديرية سوداء من قماش الأطلس قد بلغت من الاتساخ حداً رهيباً. أما وجهه فكان يلتمع من الدهن التماع قفل مزيّت. ووراء البسطة كان يجلس صبي في نحو الرابعة عشرة من العمر. وكان هنالك صبي آخر أصغر سناً، يخدم الزبائن. وعلى البسطة كانت تُعرض دوائر خيار، وبسكويت أسود، وشرائح سمك، وكان ذلك كله ينشر رائحة كريهة. الجو خانق لا يكاد يُطاق، والهواء يبلغ من التشبع برائحة الخمرة أنه يكفي أن يمكث المرء فيه لبعض الوقت حتى يسكر.

يتفق للمرء أحياناً أن يلقى أناساً لا يعرفهم البتة فإذا هو يأخذ يهتم بهم منذ أول نظرة قبل أن يبادلهم كلمة واحدة. ذلك كان هو الإحساس الذي أحدثه في راسكولنيكوف الزبون المنزوي الذي يدل مظهره على أنه موظف متقاعد. تذكر الفتى مرارا كثيرة، فيما بعد، ذلك الإحساس الأول، حتى لقد عزاه إلى نوع من النبوءة. كان راسكولنيكوف لا يحوّل بصره عن الموظف، ولعل مردّ ذلك أيضاً إلى أن هذا الموظف كان يلح في النظر إلى راسكولنيكوف، وكان واضحاً أنه راغب رغبة قوية في عقد حديث معه. أما الأشخاص

الحاضرون الأخر، ومنهم صاحب الخمارة، فقد كان الموظف ينظر إليهم نظرة جليس من جلساء الخمارة المزمنين، مع ضجر منهم ومع شيء من الاحتقار لهم والتعالي عليهم في الوقت نفسه، كأنه يعدهم أدنى كثيراً منه، سواء من ناحية منزلتهم الاجتماعية أو من ناحية ثقافتهم وأدبهم، فليس عليه أن يكلمهم. هو رجل تجاوز الخمسين من عمره، متوسط القامة قوي البنية، على رأسه الأصلع قليل من شعر أبيض، له وجه أصفر أو قل ضارب إلى خضرة، قد ورّمه الشراب، تسطع فيه تحت جفنين منتفخين عينان صغيرتان محمّرتان حادتان. ومع ذلك كان في هذا الوجه شيء غريب جدا. إن نظرته تلتمع بنوع من الحماسة بل ولا تخلو من ذكاء وفكر، ولكن تلم بها ومضات جنون في بعض الأحيان. وكان يرتدي «فراكاً» عتيقاً رثاً قد سقطت أزراره، إلا زراً واحداً ما يزال في مكانه مهلهلاً يوشك أن يسقط، ولكن الرجل قد أدخله في العروة حتى لا يجافي آداب اللياقة. ومن صدريته المصنوعة من قماش قطني أصفر كانت تخرج حافة قميص مجعدة متسخة ملطخة. وكان حليق الذقن، كما يليق بموظف، ولكن كان واضحاً أنه لم يكرر حلاقة ذقنه منذ مدة طويلة، فشعرها القاسي قد أخذ يزرّق خديه. هذا عدا أن وضعه يكشف عن شيء من وقار هو ما يتميز به موظف من الموظفين. ولكنه كان يُظهر قلقاً شديداً، وينفش شعره، ويضغط رأسه بيديه حزيناً يائساً، واضعاً كوعي كميه المثقوبين على المائدة الرطبة اللزجة. وفى النهاية نظر إلى راسكولنيكوف محدقا في عينيه، وقال يخاطبه بصوت عال ثابت:

– هل أجرؤ، أيها السيد الكريم، أن أوجه إليك بضع كلمات باحترام؟ فإن تجربتي تكشف فيك، رغم مظهرك البسيط المتواضع، عن إنسان حسنت ثقافته، ولم يألف أن يشرب. لقد كنت طوال حياتي احترم

الثقافة حين تقترن بعواطف القلب. وأنا عدا ذلك أحمل لقب مستشار اعتباري. اسمي مارميلادوف، ولقبي مستشار اعتباري[٨]، أأجرؤ أن أسألك هل أنت موظف؟

أجابه الفتى وقد أدهشته هذه اللهجة المنتفخة في كلام الرجل، وأدهشته أن يخاطبه الرجل مباشرة بلا لف ودوران:

– بل أنا أتابع دراستي.

وشعر راسكولنيكوف، رغم ما أحسّه منذ قليل من رغبة في صحبة أي إنسان، شعر فجأة منذ الكلمات الأولى التي خاطبه بها الرجل، بذلك النفور المألوف الأليم الذي كان يشعر به كلما قاربه إنسان مجهول أو حاول أن يقاربه.

– أنت إذن طالب، أو طالب سابق... ذلك ما قدرته! هي التجربة يا سيدي الكريم، تجربة طويلة متصلة! ومن أجل أن يعبّر عن احترامه لنفاذ بصيرته وسداد حكمه، وضع اصبعًا على جبهته.

أردف يقول:

– لقد كنتَ طالباً، إلا أن تكون قد حضرت عدداً محدوداً من الدروس فحسب... ولكن اسمح لي...

ونهض مترنحاً، فتناول زجاجته وقدحه وجاء يجلس قرب راسكولنيكوف موارباً قليلاً. لقد كان سكران. ولكنه يتكلم بوضوح وطلاقة وحماسة. كل ما هنالك أنه يفقد حبل الحديث من حين إلى حين، فيبطؤ

---

[٨] ... ولقبي مستشار اعتباري... كان «جدول الرتب»، أي لائحة الرتب ونظام الوظائف المدنية المعمول بها في روسيا منذ عام ١٧٢٢ حتى ١٩١٧، يقسم الرتب المدنية كلها إلى ١٤ طبقة (درجة) (أعلى درجة هي الأولى وأدنى درجة هي الرابعة عشرة). وكان لكل رتبة وظيفة معينة. والمستشار الاعتباري رتبة من الدرجة التاسعة تعادل رتبة النقيب في الجيش.

تدفق كلامه. لقد هجم على راسكولنيكوف هجوماً يبلغ من الشراهة أن من يراه يعتقد أنه لم يكلم أحداً منذ شهر كامل هو أيضاً.

بدأ يقول بلهجة توشك أن تكون ذات أبهة:

– أيها السيد الكريم، ليس الفقر رذيلة، ولا الإدمان على السكر فضيلة، أنا أعرف ذلك أيضاً. ولكن البؤس رذيلة أيها السيد الكريم، البؤس رذيلة. يستطيع المرء في الفقر أن يظل محافظاً على نبل عواطفه الفطرية، أما في البؤس فلا يستطيع ذلك يوماً، وما من أحد يستطيعه قط. إذا كنت في البؤس فإنك لا تُطرد من مجتمع البشر ضرباً بالعصا، بل تُطرد منه ضرباً بالمكنسة، بغية إذلالك مزيداً من الإذلال. والناس على حق في ذلك، لأنك في البؤس أول من يريد هذا الذل لنفسه بنفسه. وهذا سبب إدمانك على الشراب! أيها السيد الكريم، منذ شهر، ضرب السيد ليبزياتنيكوف زوجتي، وزوجتي تختلف عني اختلافاً كبيراً! هل تفهم؟ اسمح لي أيضاً أن ألقي عليك سؤالا، هكذا، ولو من باب الفضول: هل حدث لك أن قضيت الليل في مركب علف على نهر النيفا؟

أجاب راسكولنيكوف:

– لا... لم يحدث لي ذلك... ما هذا؟

– أما أنا فإنني آتٍ من هناك، من مركب العلف.. وهذه هي الليلة الخامسة..

قال الرجل ذلك وصب قدحاً ثم أفرغه في جوفه وأخذ يفكر. وكان يُرى فعلا، هنا وهناك، على ملابسه، وحتى على شعره، تبنٌ ما يزال عالقاً. أغلب الظن أنه لم يخلع ملابسه ولا غسل وجهه منذ خمسة أيام. وكانت يداه خاصة قذرتين حمراوين أظافرهما الوسخة طويلة.

ويبدو أن كلامه قد أيقظ في نفوس الحضور اهتماماً عاماً، وان يكن هذا الاهتمام ممتزجاً بالإهمال. أخذ الصبيان، من وراء البسطة، يضحكان. ونزل صاحب الخمارة من الطابق الأعلى خصيصاً، من أجل أن يستمع للرجل «المازح»، فجلس منزوياً بعض الانزواء، وأخذ يتثاءب في كسل، ولكن بكثير من الوقار والكبرياء. لا شك أن مارميلادوف معروف هنا منذ زمن طويل. وأغلب الظن من جهة أخرى أنه قد اعتاد حب الكلام المزوِّق في أعقاب أحاديث كثيرة ألف أن يجريها في الخمارة مع أناس لا يعرفهم. إن هذه العادة تغدو حاجة قوية لدى بعض السكّيرين، ولا سيما لدى أولئك الذين يعاملون في بيوتهم معاملة خشنة ظالمة. لذلك تراهم يحاولون متى سكروا في صحبة الناس أن يدافعوا عن أنفسهم بِخُطَبٍ وكأنهم يبرؤون أنفسهم، وأن يكسبوا اعتبار الآخرين إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

قال صاحب الخمارة بصوت عالٍ:

– هل تمزح! لماذا لا تعمل؟ ولماذا لا تواظب على عملك ما دمت موظفاً؟

أجاب مارميلادوف يقول مخاطباً راسكولنيكوف وحده، كأن راسكولنيكوف هو الذي ألقى السؤال:

– لماذا لا أواظب على عملي أيها السيد الكريم؟ لماذا لا أواظب على عملي؟ ولكن هل تظن أن قلبي لا يتألم لمنظر خستي حين أرى أنني امرؤ لا نفع فيه ولا جدوى منه؟ حين حدث منذ شهر أن ضرب السيد ليبزياتنيكوف زوجتي، وكنت أنا راقداً كالميت من فرط السكر، هل تظن أنني لم أتألم؟ اسمح لي أيها الفتى، هل اتفق لك... هِم... نعم... هل اتفق لك مثلاً أن طلبت من أحد أن يقرضك مالا دون أن يكون لديك أمل؟

– وقع لي هذا... ولكن ماذا تعني بقولك: دون أن يكون لديك أمل؟..

– أعني دون أن يكون لديك أي أمل، فأنت تعلم سلفاً أن طلبك لن يثمر شيئاً!!... مثلاً: أنت تعلم سلفاً على وجه اليقين أن هذا المواطن مهما يكن صالحا ومهما تكن نياته حسنة لن يعطيك المال بحال من الأحوال... ولماذا عساه يعطيك مالاً ما دام يعرف أنك لن تردّه إليه؟ أمن باب الشفقة؟ إن السيد ليبزياتنيكوف، وهو مطلع على الأفكار الجديدة والآراء الحديثة، قد شرح منذ أيام أن الشفقة في أيامنا هذه يحظرها العلم، وأن الأمور تجري على هذا النحو منذ الآن في بلاد الإنجليز التي يسودها الاقتصاد السياسي. فلماذا عساه يعطيك مالاً؟ ومع ذلك، رغم علمك سلفاً بأنه لن يعطيك مالاً، فإنك تمضي إليه، و...

قال راسكولنيكوف:

– ولماذا تمضي إليه؟

– كيف لا أمضي إليه إذا لم يكن هناك أحد غيره، وإذا لم يكن هناك مكان آخر أذهب إليه! لا بد لكل إنسان من أن يجد ولو مكاناً يذهب إليه، لأن الإنسان تمر به لحظات لا مناص له فيها من الذهاب إلى مكان ما، إلى أي مكان! حين ذهبت ابنتي الوحيدة، أول مرة، إلى الشارع مع بطاقتها الصفراء[٩] ذهبت أنا أيضاً...

وأضاف مارميلادوف شارحاً وهو ينظر إلى الشاب بشيء من القلق:

– ذلك أن ابنتي لها بطاقة صفراء.

وضج الصبيان بالضحك، وابتسم صاحب الخمارة، فأسرع مارميلادوف يقول فوراً وهو يصطنع الهدوء:

[٩] «بطاقتها الصفراء»: هي بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالمومسات.

– لا بأس يا سيدي الكريم، لا بأس... لا بأس... إن هزهم رؤوسهم لا يبث الاضطراب في نفسي، لأن الأمر أصبح معروفاً لدى جميع الناس. نعم: كل خبيء مآله إلى ظهور[10]. وأنا لا أتعامل مع هذه الأشياء باحتقار بل بمذلة. طيب.. طيب... «هو ذا الإنسان!»[11]... اسمح لي أيها الفتى: هل تستطيع... لا... يجب أن ألقي عليك هذا السؤال بقوة أكبر، بطريقة أبلغ دلالة وأصدق تعبيراً، يجب أن لا أقول هل تستطيع، بل يجب أن أقول هل تجرؤ أن تؤكد حين تتأملني في هذه اللحظة، أنني لست خنزيراً؟

لم يجب الشاب بكلمة.

وتابع الخطيب كلامه بمزيد من الرصانة، بعد أن انتظر انتهاء القهقهات التي أثارتها أقواله الأخيرة، تابع كلامه فقال:

– طيب... فلنسلم بأنني خنزير، ولكنها هي سيدة! حقاً إنني أشبه «الوحش»[12] كل الشبه، ولكن زوجتي كاترينا ايفانوفنا إنسانة تملك حظاً عظيماً من الثقافة، هذا عدا أنها ابنة ضابط كبير. لنسلم، لنسلم بأنني وغد دنيء، ولكنها هي ذات نفس كبيرة وروح جميلة، ولها بحكم تربيتها عواطف نبيلة ومشاعر كريمة. ومع ذلك... آه... ليتها تشفق عليّ! سيدي الكريم، سيدي الكريم، لا بد لكل إنسان من أن يجد أيضاً، في مكان ما على الأقل، شخصاً يشفق عليه! ولكن كاترينا ايفانوفنا ظالمة، رغم أنها سيدة تفيض نفسها سماحة. ورغم أنني أفهم أنا نفسي، حين تشدني من شعري، أنها إنما تشدني من شعري شفقة عليّ ورأفة بي. لست أخجل من أن أكرر أيها الفتى أنها تشدني من شعري (كذلك أكد مارميلادوف بمزيد من الرصانة حين سمع انفجار القهقهات من جديد)، فإنني أتمنى، يا رب، أن يتفق لها مرة واحدة أن... ولكن

---

[10] «كل خبىء مآله إلى ظهور»: إشارة إلى النص الوارد في إنجيل متى (الإصحاح العاشر: ٢٦): «ليس مكتوم لن يستعلن، ولا خفي لن يعرف».

[11] إنجيل يوحنا. الإصحاح التاسع عشر: ٥.

[12] «إنني أشبه الوحش كل الشبه»: إشارة إلى الوحش الذي جاء ذكره في رؤيا يوحنا.

لا، لا، هذا كله لا فائدة منه، ولا طائل تحته، ولا يستحق أن أتكلم عنه! لا يستحق!.. ذلك أنهم أشفقوا عليّ أكثر من مرة وتحقق ما كنت أتمناه غير مرة. ولكن هذه طبيعتي أيضاً. نعم، إنني إنسان فُطر على الغلظة والفظاظة.

– جداً!

كذلك قال صاحب الخمارة متثائباً.

فضرب مارميلادوف المائدة بقبضة يده ضربة قوية، وقال:

– هذه هي طبيعتي! هل تعلم، هل تعلم أيها السيد أنني شربت خمراً حتى بثمن جوربيها؟ لا بثمن حذاءيها، فلو قد شربت خمراً بثمن حذاءيها لكان الأمر طبيعياً بعض الشيء، ولكنني شربت خمراً بثمن جوربيها، نعم بثمن جوربيها! حتى وشاحها الصغير المصنوع من شعر الماعز، بعته أيضاً وشربت بثمنه خمراً، وكان قد أُهدي إليها من قبل، فهو ملكها، ملكها هي، لا ملكي أنا. ونحن نعيش في غرفة باردة، وقد مرضت في هذا الشتاء، وأخذت تسعل، حتى إنها تبصق دماً منذ الآن... ولنا ثلاثة أولاد صغار، إن كاترينا ايفانوفنا تعمل من الصباح إلى المساء: تمسح وتغسل، وتنظف الأولاد! ذلك أنها معتادة على النظافة منذ صغرها. إن رئتيها ضعيفتان، ومهيأة للإصابة بمرض السل، أنا أحس هذا. أأنا لا أحس هذا؟ بالعكس، كلما شربت مزيداً من الخمرة، أحسست به مزيداً من الإحساس. نعم، إذا كنت أشرب، فإنما أنا أشرب سعياً وراء الشفقة، وراء العاطفة. أنا أشرب لأتألم ألماً مضاعفاً...

قال مارميلادوف ذلك، وأسند رأسه على المائدة وقد عبّر وجهه عن غاية الحزن والكرب. ثم عاد ينتصب ليكمل كلامه قائلاً:

– أيها الفتى، أحسب أنني أقرأ في وجهك حزناً. ولقد قرأت هذا الحزن في وجهك منذ دخولك، لذلك سارعت أخاطبك. فإذا كنت أنقل إليك قصة حياتي، فإنني لا أفعل ذلك لأحقر نفسي أمام هؤلاء الكسالى الذين يعرفونها معرفة تامة على كل حال، بل لأنني أبحث عن إنسان حساس كريم النفس حسن التربية. اعلم أن زوجتي قد تربت في مدرسة داخلية أرستقراطية بالأقاليم، وأنها رقصت رقصة الشال أمام الحاكم وشخصيات أخرى، وأنها قد نالت على ذلك ميدالية ذهبية[١٣] وشهادة فخرية... فأما الميدالية فقد بعناها أيضاً... منذ زمن طويل... هِم... وأما الشهادة الفخرية فهي ترقد حتى الآن في صندوق، وقد حرصت كاترينا ايفانوفنا على أن تريها لصاحبة البيت... نعم... فرغم أن بينها وبين صاحبة البيت مشاجرات مستمرة، فقد راودتها الرغبة في أن تعتز أمام شخص ما، أن تذكّر شخصاً ما بالأيام الجميلة من ماضيها. لست ألومها على ذلك، لست ألومها، لأن هذه الذكرى هي كل ما تملكه الآن، أما الباقي فقد طار كله! نعم... إن زوجتي سريعة الغضب، شديدة الكبرياء، صعبة المراس. إنها تغسل أرض الغرفة بيديها، وتكتفي بخبز أسود، ولكنها لا تسمح أن يقلل أحد من احترامها. ذلك هو السبب في أنها لم تشأ أن تسكت للسيد ليبزياتنيكوف عن فظاظته، فلما ضربها لذلك، فإنها لم تمرض بسبب الضربات التي كالها لها بل بسبب الإساءة التي لحقت كرامتها. لقد تزوجتها أرمل لها أولاد ثلاثة هم جميعاً صغار. كانت قد تزوجت مرة أولى عن حب، تزوجت ضابط مشاة هربت معه من منزل أبيها. كانت تحب زوجها حباً عنيفاً، ولكن زوجها اندفع في المقامرة، وأحيل إلى المحاكمة فمات. وكان في المدة الأخيرة يضربها، ورغم أنها كانت لا تسكت له عن شيء – وهذا ما أعرفه من وثائق مفصّلة يُركن إليها – فإنها ما تزال تبكي حين تتذكره، وتعيّرني بالمقارنة بيني وبينه. وأنا أبتهج بهذا، أبتهج به، فبهذه الطريقة تعتقد على الأقل أنها كانت سعيدة في يوم من الأيام... وبعد موت زوجها بقيت وحيدة مع أولادها الثلاثة في مقاطعة نائية متوحشة كنت

---

[١٣] «نالت ميدالية ذهبية»: في المدارس الثانوية والمعاهد في روسيا كان نجباء التلاميذ ينالون عند حصولهم على شهادة البكالوريا ميدالية ذهبية.

أعيش أنا فيها أثناء ذلك الوقت. كانت في بؤس يبلغ من الهول أنني لن أستطيع أن أصفه لك إذا أنا حاولت ذلك، رغم أنني قد عانيت أنا نفسي أنواعاً كثيرة من البؤس. جميع أفراد أسرتها أداروا لها ظهورهم. وكانت هي شديدة الكبرياء... وفي ذلك الوقت، يا سيدي الكريم، إنما طلبت أنا يدها، وكنت أرمل أيضاً، لي من امرأتي الأولى بنت في الرابعة عشرة من عمرها... طلبت يدها لأنني لم أكن أستطيع أن أحتمل عذاباً كذلك العذاب.

في وسعك أن تتخيل درجة البؤس الذي لا بد أنها كانت تعانيه حين ارتضت، هي المرأة المثقفة التي تربت أحسن تربية والتي تنتمي إلى أسرة مرموقة، حين ارتضت أن تتزوجني؛ صحيح أنها وافقت على ذلك باكية منتحبة عاقفة يديها من الحسرة والحزن، ولكنها تزوجتني، لأنه لم يكن لها مكان تذهب إليه! هل تدرك يا سيدي الكريم، هل تدرك ما معنى أن لا يكون للإنسان مكان يذهب إليه؟ لا، إنك لا تستطيع أن تدرك هذا بعد... وخلال سنة كاملة ظللت أقوم بواجبي بشرف وأمانة وإخلاص، دون أن أقارب هذه (هنا أشار مارميلادوف بإصبعه إلى الزجاجة)، لأنني إنسان ذو عاطفة. ولكنني بهذا أيضاً لم أستطع أن أفوز برضاها. وإذ فقدت أثناء ذلك وظيفتي أيضاً، دون أن يكون لي في هذا ذنب على كل حال، وإنما كان فقدى وظيفتي نتيجة لتغييرات في هيئة الموظفين، فقد أخذت ألامس هذه!... ومنذ سنة ونصف تقريباً إنما هبطنا، بعد ترحال كثير ومصائب لا حصر لها، إنما هبطنا هذه العاصمة الرائعة ذات المباني التاريخية التي لا يحصى عددها. وهنا عثرت على وظيفة. عثرت عليها ثم فقدتها من جديد. هل تفهم؟ لقد كان الذنب في فقدها هذه المرة ذنبي أنا، لأن طبيعتي الحقيقية قد انتصرت... ونحن نقيم الآن في ركن من بيت امرأة اسمها آماليا فيودوروفنا ليبيفكسل، أما ممّ نعيش وكيف ندفع أجرة المسكن، فذلك ما لا أعرف عنه شيئاً! وفي المسكن يقيم أناس كثيرون غيرنا... نحن في سدوم فظيعة... هِم... نعم!.. وفي أثناء ذلك كانت ابنتي من زواجي الأول تكبر. لن أحدثك عن المعاملة التي تحملتها ابنتي من زوجة أبيها. إن

كاترينا ايفانوفنا شديدة الغضب، عنيفة، سريعة الاندفاع، رغم أن نفسها تفيض بالمشاعر السمحة!.. نعم! دعنا من هذا على كل حال. ما فائدة تذكر هذه الأمور الآن! تستطيع أن تتخيل طبعاً أن ابنتي صونيا لم تصب حظاً من تعليم. صحيح أنني حاولت، منذ أربع سنين، أن أعلمها الجغرافيا والتاريخ العام، ولكنني لم أكن قوياً في هذا الميدان، وكانت تعوزني الكتب المناسبة من جهة أخرى، فإن الكتب القليلة التي كانت أملكها... هِم... أصبحت لا أملكها... لذلك توقفت دراسة ابنتي... وصلنا إلى الحديث عن سيروس، ملك الفرس... وبعد ذلك، حين بلغت ابنتي سن الرشد، قرأت بعض الكتب الروائية، ثم قرأت في الآونة الأخيرة، بواسطة السيد ليبزياتنيكوف، كتاب ليويس[١٤] «الفزيولوجيا»، هل تعرف هذا الكتاب؟ قرأته ابنتي بكثير من الاهتمام، حتى لقد قرأت لنا فقرات منه بصوت عال. ذلك هو كل ما حصلته ابنتي صونيا[١٥] من تعليم. والآن أتوجه إليك يا سيدي الكريم، فألقي عليك هذا السؤال بصفة شخصية تماما: هل تستطيع فتاة فقيرة لكنها شريفة، هل تستطيع في رأيك أن تكسب مالا كثيراً بالعمل الشريف؟ إنها لن تكسب خمسة عشر كوبيكا في اليوم، إذا هي كانت شريفة وإذا هي لم تملك أية هبة خاصة، وهذا على شرط أن لا تترك العمل دقيقة واحدة أيضاً. ثم إن مستشار الدولة[١٦] كلوبشتوك، إيفان إيفانوفتش كلوبشتوك – هل سمعت عنه؟ – لم يكتف بأن لا يدفع لها أجرها عن ستة قمصان خاطتها له من قماش هولاندي، بل زاد على ذلك فطردها شرّ طردة وهو يقرع الأرض بقدمه ويصفها بأبشع النعوت، بحجة أن إحدى الياقات لم تكن على قياس عنقه، وأنها قصّتها مقلوبة. والصغار في أثناء ذلك جائعون.. وكاترينا ايفانوفنا في أثناء ذلك تمشي في الغرفة ذاهبة آيبة، عاقفة يديها، وقد أخذت البقع الحمراء تظهر

[١٤] «ليويس»: ج. هـ. ليويس (١٨١٧ – ١٨٤٨)، فيلسوف إنجليزي. ألف كتاباً بعنوان «فزيولوجية الحياة العامة» ترجم إلى اللغة الروسية ١٨٦١ وراج رواجا كبيرا في روسيا، ولا سيما في أوساط الشباب الديمقراطية.

[١٥] «صونيا»، «صونيتشكا»: تصغير اسم صونيا، تحبباً وملاطفة.

[١٦] «مستشار الدولة»: موظف من الدرجة الخامسة.

على خديها، كما يحدث ذلك دائما للمصابين بهذا المرض. قالت كاترينا ايفانوفنا لابنتي صونيا: «يا عالة، إنك تسكنين في غرفة دافئة ولا تزيدين هنا على أن تملئي بطنك طعاماً وشراباً!»، كأن المسكينة قد أتيح لها أن تأكل وأن تشرب. وهي لم تضع في فمها كسرة خبز منذ ثلاثة أيام! وكنت أنا راقداً... نعم... فعلاً... كنت راقداً سكران... وها أنا ذا أسمع ابنتي صونيا تتكلم (إنها عزلاء، لا تملك عن نفسها دفاعاً... ما أعذب صوتها... هي شقراء كل الشقرة... ووجهها شديد الشحوب والنحول دائماً) قالت: «أحقاً يا كاترينا ايفانوفنا، أحقاً تريدين أن أعد نفسي لمثل هذا الأمر؟» والموضوع أن داريا فرانتسوفنا، وهي امرأة سيئة النيات تعرفها الشرطة جيداً، كانت قد استعلمت عن صونيا ثلاث مرات بواسطة صاحبة البيت. أجابت كاترينا ايفانوفنا وهي تضحك ساخرة: «هه! ألا أن كنزاً كهذا الكنز ليستحق أن تحافظي عليه!» ولكن لا تتهمها، لا تتهمها يا سيدي الكريم، لا تتهمها! لم تكن تتكلم هادئة النفس مالكةً وعيها... لقد كانت محطمة الأعصاب مريضة وصغارها يبكون جوعاً. ثم إننا لا يجوز لنا أن نفهم أقوالها بمعناها الحقيقي، وإنما يجب أن نفهم هذه الأقوال على أنها إهانة فحسب... ذلك هو طبع كاترينا ايفانوفنا: حين يبكي أولادها، ولو من الجوع، فإنها تأخذ تضربهم فوراً. وهاأنذا، قبل الساعة السادسة بقليل، أرى صونيتشكا تنهض فتتناول وشاحها وبرنسها وتخرج، ثم تعود قبل الساعة التاسعة. فلما دخلت مضت إلى كاترينا ايفانوفنا قُدُماً فوضعت أمامها على المنضدة ثلاثين قطعة نقدية من فئة الروبل، ثم لم تزد، حتى دون أن تنظر إليها، ودون أن تقول كلمة واحدة، لم تزد على أن تناولت الشال الكبير الأخضر المصنوع من صوف خفيف (نعم، عندنا شال من هذا النوع نستعمله جميعاً)، فغطت به رأسها ووجهها تماماً، ورقدت على السرير متجهة بوجهها نحو الحائط، فكنا لا نرى إلا ارتجاف كتفيها وارتعاش جسمها... وكنت ما أزال على حالتي تلك نفسها... فرأيت عندئذ، أيها الفتى، رأيت كاترينا ايفانوفنا تقترب، دون أن تقول كلمة واحدة هي أيضاً، من سرير ابنتي صونيتشكا، وتظل هنالك طوال السهرة راكعة عند قدميها تقبلها

ولا تريد أن تنهض. وبعد ذلك، بعد ذلك، رأيتهما تنامان معاً متعانقتين... معاً... كلتيهما... وكنت أنا راقداً... على حالة السكر تلك ذاتها...

صمت مارميلادوف كأن صوته قد انقطع، ثم ملأ كأسه فجأة وبسرعة فافرغه في جوفه، ودلك حلقه، وتابع يقول بعد لحظة صمت:

– ومنذ ذلك الحين يا سيدي، على أثر ظرف تعيس ونتيجةً لوشاية أشخاص أشرار، ولا سيما داريا فرانتسوفنا، بحجة أننا لم نراعها، اضطرت ابنتي صوفيا سيمينوفنا أن تكون ذات بطاقة صفراء وأن تتركنا تبعاً لذلك، لأن صاحبة البيت، آماليا فيودوروفنا، لم تشأ أن تحتمل هذا الوضع (مع أنها كانت قد ساعدت داريا فرانتسوفنا في ذلك الأمر في الماضي)، وكذلك السيد ليبزياتنيكوف... وحول موضوع صوفيا هذا إنما جرت تلك الحكاية بينه وبين كاترينا ايفانوفنا. ففي بداية الأمر كان هو نفسه قد حاول التقرب من صونيتشكا والتماس الحظوة بها، ثم ها هو ذا يثور قائلاً: «كيف يمكنني، أنا الرجل المستنير، أن أعيش في نفس المسكن الذي تعيش فيه هذه الـ...». ولكن كاترينا ايفانوفنا لم تستسلم، بل تدخلت... فحدث ما حدث. والان تزورنا صونيتشكا من حين إلى حين (بعد هبوط الليل)، فتساعد كاترينا ايفانوفنا وتمدها باللازم... إنها تقيم في مسكن الخياط كابرناؤموف[١٧] الذي استأجرت غرفة عنده. وكابرناؤموف، عدا أنه يعرج ويتأتئ، له أولاد كثيرون يتأتئون جميعاً كذلك. وامرأته تتأتئ أيضاً... إنهم يسكنون جميعاً في حجرة واحدة. ولكن صوفيا لها حجرة خاصة بها وراء حاجز... هِم... نعم... أناس لا يتصور للمرء أن يكون في العالم من هم أفقر منهم... وهم إلى ذلك تأتاؤون... نعم... ونهضت في ذات صباح، فارتديت أسمالي البالية، ورفعت ذراعي نحو السماء مبتهلا، ثم ذهبت إلى عند صاحب السعادة إيفان آفاناسييفتش. هل تعرف صاحب السعادة إيفان آفاناسييفتش؟ لا تعرفه؟ إذاً فأنت لا تعرف إنساناً قلبه لله، هذا رجل نقي

---

[١٧] كاربناؤموف: نسبة إلى كفرناحوم التي ورد ذكرها في الإنجيل.

نقاء الشمع، نقاء شمع بكر أمام وجه الرب... والشمع يذوب... وقد ذاب هو دموعاً بعد أن تفضل فأصغى إلى كلامي حتى النهاية. فلما فرغت من حديثي قال لي: «اسمع يا مارميلادوف، لقد خيبت ظني مرةً... ولكنني سأوظفك هذه المرة أيضاً، على مسؤوليتي الخاصة – تلك كانت أقواله – فتذكر هذا. والآن في وسعك أن تنصرف». قبلت موطئ قدميه – بالخيال طبعاً، لأن هذا الموظف الكبير الذي آمن بالأفكار الجديدة على صعيد الدولة والثقافة ما كان له أن يسمح لي بأن أقبل موطئ قدميه بالفعل. وعدت إلى مسكني، فلما زففت إليهم بشرى أنني سأعود إلى وظيفتي وأنني سأتقاضى راتباً... آه... رباه... لا أستطيع أن أصف لك ما حدث..

صمت مارميلادوف من جديد، مضطرباً أشد الاضطراب. وفي تلك اللحظة دخلت عصبة كبيرة من السكارى آتية من الشارع، وعلى عتبة الخمارة دوّت أصوات أرغن يدوي استؤجر لهذه المناسبة، كما دوّى صوت نحيل هو صوت طفل في السابعة من العمر كان يغني أغنية «القرية الصغيرة». ضجت القاعة بالصخب. وأسرع صاحب الخمارة والخدم يهتمون بالقادمين الجدد، ولكن مارميلادوف تابع سرد قصته دون أن ينتبه إلى أحد. كان يبدو وكأن الخمرة قد حطمته وسحقته، ولكن كلما ازداد سكره ازداد تدفقه في الكلام. أن ذكرى النجاح الأخير الذي أصابه مسعاه قد أنعشته بعض الإنعاش، حتى لقد أضفت على وجهه نوعاً من الإشراق والإشعاع. وكان راسكولنيكوف يصغي إليه بانتباه..

– حدث ذلك منذ خمسة أسابيع يا سيدي... نعم... فما أن علمت كاترينا ايفانوفنا وصونيتشكا بالنبأ حتى حدث – يا رباه!! – ما يشبه أن أكون قد انتقلت إلى السماء. قبل ذلك كنت ألبث راقداً على الأرض كبهيمة وأتلقى الشتائم وأبلعها! أما الآن فإنهما تسيران على رؤوس الأصابع، وتسكتان الأولاد قائلتين: «لقد تعب سيميون زاخارتش اليوم في مكتبه، فهو الآن يستريح... هست!» وصرت قبل أن أذهب إلى عملي، أؤتى بالقهوة وتسخّن لي القشدة. صارتا تستطيعان الحصول على قشدة... حقيقية... هل تسمع؟ وأين

أمكنهما الحصول على أحد عشر روبلاً وخمسين كوبيكاً لتجهزاني تجهيزاً لائقاً؟ ذلك أمر لم أفهمه في يوم من الأيام. حذاءان، بزة رسمية، قمصان ممتازة... لقد اشترتا هذه الأشياء كلها بأحد عشر روبلاً وخمسين كوبيكاً، وجعلتاها حسنة المظهر لائقة. ماذا رأيت عند أول صباح عدت فيه من المكتب؟ أعدّت كاترينا ايفانوفنا طبقين، حساء ولحم بقر مملحا من فجل حار، وذلك أمر لم يحدث قبل ذلك في يوم من الأيام. ثم إنها لم تكن تملك ما تدثر بها ظهرها... لم تكن تملك أي شيء يمكن أن يسمى دثاراً للظهر... فها هي ذي في ذلك الصباح مرتدية أجمل حلة، كأنها كانت ذاهبة إلى زيارة. وليس لباسها جديداً ولكنها تستطيع أن تخلق من العدم شيئاً. كانت وقد صففت شعرها تصفيفاً جميلاً وأحاطت جيدها بياقة صغيرة بيضاء، وزينت ذراعيها بكمين لطيفين، قد أصبحت إنسانة أخرى تبدو أصغر سناً وأحسن رونقاً وألطف جمالاً! أما صونيتشكا، يمامتي الصغيرة، فقد اكتفت بتقديم المال، وقالت: «ولكنني أنا لن أستطيع أن أجيء إليكم الأن كثيراً، فذلك ليس بلائق، وإنما أجيء إليكم عند هبوط الليل، حتى لا يراني أحد». هل تسمع؟ هل تسمع؟ وبعد الغداء مضيت أرقد على السرير. فهل تصدق؟ إن كاترينا ايفانوفنا لم تطق صبراً. لم يكن قد انقضى على تشاجرها مع آماليا فيدوروفنا صاحبة البيت إلا أسبوع في أكثر تقدير، ومع ذلك دعتها إلى تناول فنجان من القهوة. وقضتا ساعتين كاملتين تتهامسان دون توقف. قالت لها: «إن سيميون زاخارتش[18] له الآن وظيفة، وهو يقبض الآن راتباً. لقد ذهب بنفسه إلى صاحب السعادة، وهبّ صاحب السعادة نفسه إلى لقائه: جعل جميع الناس ينتظرون، وأمام جميع الناس تناول يد سيميون زاخارتش وقاده إلى مكتبه (هل تسمع؟ هل تسمع؟) وقال له صاحب السعادة: إنني أتذكر بالطبع خدماتك الطيبة يا سيميون زاخارتش، ورغم انقيادك لميلك الطائش، فإنني آمل، ما دمت تعد بأن لا تنقاد بعد اليوم لذلك الميل الطائش، وما دام كل شيء، من جهة أخرى، قد جرى هنا أثناء غيابك مقلوباً (هل تسمع؟ هل

[18] «زاخارتش»: تخفيف اسم زاخاروفتش، والشعب يعمد إلى هذا التخفيف مستغنيا عن «فتش» بـ«تش». ولسوف نقع في النص على راسكولنيكوف تارة باسم روديون رومانوفتش وتارة باسم روديون رومانتش، وكذلك سنقع على بروكوفتش وبروكوفيوفتش اسمان لشخص واحد، وهكذا دواليك.

تسمع؟)، فإنني آمل أن تفي الآن بوعدك وأن لا تخون العهد الذي تقطعه على نفسك». الحق أن هذا كله إنما اخترعته اختراعاً وارتجلته ارتجالاً – أنا أقول لك الآن ذلك – ولكنها لم تعمد إلى هذا الاختراع والتلفيق انسياقا مع ميول صبيانية، ولا حبا في إظهار قيمتها وإعلاء شأنها. بالعكس: لقد صدّقت هي نفسها كل ما تخيلته، وما كان أعظم تلذذها به... قسماً بالرب! وأنا لا ألومها... لا... أنا لا ألومها على هذا... وحين أتيتها براتبي الأول كاملاً منذ ستة أيام – ثلاثة وعشرين روبلاً وأربعين كوبيكاً – نادتني بقولها: يا حبيبي... خاطبتني قائلة «ما أجملك يا حبيبي!» قالت إلى هذا وكنا في خلوة، هل تفهم؟ وهل أنا جميل وهل أنا زوج على كل حال؟ ولكنها قرصت خدي وقالت لي: «ما أجملك يا حبيبي!».

انقطع مارميلادوف عن الكلام، وأراد أن يبتسم، ولكن ذقنه ارتجفت فجأة. ومع ذلك كبح جماح نفسه. وها هي ذي الخمارة، وسقوط هذا الرجل، وحبه المريض لامرأته وأسرته كلها، والليالي الخمس التي قضاها على العوّامات ناقلات العلف، ومنظر الزجاجة، ها هي تلك الأمور كلها تغرق راسكولنيكوف في ذهول. كان يصغي بأكبر انتباه ممكن، ولكنه أحسّ بضيق وانزعاج. ولام نفسه على أنه جاء إلى هذا المكان.

صاح مارميلادوف يقول وهو يتمالك نفسه:

– أيها السيد الكريم، أيها السيد الكريم، ربما كانت هذه القصة تضحكك كما تضحك الآخرين، ولعلني لا أزيد من تفاصيل حياتي المنزلية. ولكن هذا كله لا يضحكني أنا، لأن هذا كله إنما أحسه أنا بكل جوارحي. لقد قضيت ذلك النهار كله وتلك السهرة كلها وأنا في مثل الجنة أطير على أجنحة أحلامي. كنت أفكر في الطريقة التي سأدبر بها الأمور: كيف سأكسو هؤلاء الأولاد، كيف سأهيئ لها هي الهدوء والسكينة والطمأنينة، كيف سأنتزع ابنتي الوحيدة من وهدة العار وأردها إلى أحضان الأسرة... وكنت أحلم بأشياء أخرى أيضاً، بأشياء كثيرة جداً. ذلك مسموح به لي يا سيدي. وبعد ذلك أيها السيد. (هنا

ارتعش. مارميلادوف فجأة، ونصب رأسه وحدّق إلى محدّثه) بعد جميع تلك الأحلام الجميلة (أي منذ خمسة أيام على وجه الدقة) أي في مساء اليوم التالي عمدت إلى أنواع الحيل والأكاذيب، فسرقت من كاترينا ايفانوفنا مفتاح صندوقها، كلص الليل[١٩]، فأخذت ما كان قد بقي من أجري الذي أعطيتها إياه... لا أدري كما كان المبلغ تماماً... نعم، ذلك ما حدث... انظر أين أنا الآن... انظروا جميعاً... لقد تركت البيت منذ خمسة أيام. وهم هناك يبحثون عني. ولقد فقدت وظيفتي، وبقيت بزتي الرسمية مرهونة في خمارة، على مقربة من «الجسر المصري»[٢٠] فحصلت على هذه الثياب... كل شيء انتهى!

لطم مارميلادوف جبهته بقبضة يده، وكزّ أسنانه، ثم أغمض عينيه واستند بكوعه إلى المائدة استنادا قويا. ولكن وجهه تغير بعد دقيقة تغيرا مفاجئاً مباغتاً، فإذا هو بنوع من المكر والوقاحة المتظاهرة إنما ينظر الآن إلى راسكولنيكوف. ثم أخذ يضحك وقال:

– واليوم ذهبت إلى صونيا أطلب منها مالاً... لأشرب قليلاً من أجل تخفيف وجع رأسي... ها ها ها!...

صاح يسأله أحد القادمين الجدد وهو يضحك ملء حلقه:

– وهل أعطتك مالاً؟

قال مارميلادوف متجهاً بكلامه إلى راسكولنيكوف وحده:

– لقد جاءتني صونيا بثلاثين كوبيكاً قدمتها إليّ بيدها نفسها. وكان هذا المبلغ كل ما بقي لها... رأيت ذلك بنفسي. لم تقل شيئاً، اكتفت بأن نظرت إليّ صامتة... نظرت إليّ لا كما يكون النظر في هذه الحياة الدنيا، بل في الحياة الآخرة، في السماء، حيث لا يوقظ الأشقياء في القلوب إلا عاطفة الشفقة، حيث يبكي

[١٩] «كلص الليل»: يستعمل مارميلادوف هنا التعبير الوارد في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل تسالونيك (الإصحاح الخامس، ٢).

[٢٠] «الجسر المصري»: جسر مزين بتماثيل فرعونية على قناة فونتانكا، غير بعيد عن «سوق العلف».

الناس على هؤلاء الأشقياء دون أن يوجهوا إليهم كلمة تقريع وحين لا يقرّعك أحد، فإنك تشعر بألم أشد وعذاب أقوى! نعم! تشعر بألم أشد وعذاب أقوى! ثلاثون كوبيكاً... نعم... ولكنها كانت في حاجة إلى هذه الثلاثين كوبيكاً. ها؟ أليس كذلك يا سيدي الكريم؟ عليها الآن أن تعتني بنفسها، وأن تهتم بنظافتها. والنظافة، تلك النظافة، تكلف نفقات كثيرة، هل تفهم؟ هل تفهم؟ هناك دهون يجب أن تشتريها لتتطيب بها... يستحيل عليها أن لا تفعل ذلك! وهناك التنورات المتصلبة، والأحذية الأنيقة التي تسمح بإظهار القدم الصغيرة عند تجاوز بركة ماء بخطوة كبيرة! هل تفهم يا سيدي ماذا تعني نظافة كتلك النظافة؟ وهاأنذا، أنا أبوها، اختلس الثلاثين كوبيكاً التي تملكها لأشرب بها خمراً. ولقد أنفقت ذلك المبلغ فعلاً في الشراب!.. فمن ذا الذي يستطيع أن يرثي لحال رجل مثلي؟ هل ترثي لحالي أنت الآن يا سيدي؟ هل ترثي لحالي؟ تكلم يا سيدي، تكلم: أترثي لحالي أم لا؟ هئ هئ هئ هئ!..

قال مارميلادوف ذلك وأراد أن يصب في كأسه خمراً، ولكن الخمر كان قد نفد... كانت الزجاجة فارغة!

وكان صاحب الخمارة قد اقترب مرة أخرى، فهتف يسأله:

– فيم عسى يرثي الناس لحالك؟

وسُمعت ضحكات وشتائم. كان يطلق الضحكات والشتائم أولئك الذين سمعوا القصة كلها وأولئك الذين لم يسمعوا شيئاً البتة ولكنهم ينظرون إلى الرجل الذي كان موظفا.

زأر مارميلادوف فجأة، وهو ينهض، ماداً ذراعيه إلى أمام، وقد وافاه إلهام حقيقي، كأنه لم يسمع إلا تلك الكلمات، زأر يقول:

– لماذا عسى يُرثى لحالي؟ أهذا ما تقوله؟ نعم، ليس هناك ما يدعو إلى الرثاء لحالي! وإنما ينبغي أن أُصلب، أن أُصلب على صليب، لا أن يرثى لحالي! ولكن اصلبه، أيها القاضي، ثم ارث لحاله بعد أن تصلبه. وعندئذ

سأمضي إليك بنفسي، أواجه العذاب مواجهة، لأن ظمئي ليس إلى فرح، بل إلى حزن ودموع! أتراك تظن أيها البائع أن هذه الزجاجة التي اشتريتها منك قد جاءتني بالفرح وحملت إليّ المسرة؟ ألا إن الألم، ألا إن الألم هو ما كنت أنشده في قرارة تلك الزجاجة.. نعم... الألم والدموع!.. ولقد ذقت فيها الألم، لقد وجدت فيها ما كنت أنشده! ولكن ذلك الذي يشفق على جميع الناس ويرأف بجميع الناس، سيشفق علينا، وسيرأف بنا... لأنه يدرك كل شيء. إنه هو الواحد الأحد. إنه هو القاضي الأعلى. سيظهر في يوم الحساب فيسأل: «أين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها في سبيل امرأة أبيها الشريرة المصدورة، في سبيل صغار امرأة أخرى؟ أين هي تلك الفتاة المسكينة التي أشفقت على أبيها الدنيوي، السكير الذي لا برء له، دون أن تدع لنفسها أن تشمئز من حيوانيته؟» وسوف يقول لها: «تعالي! لقد سبق أن غفرت لك مرة... سبق أن غفرت لك مرة... والآن أعفو عن جميع خطاياك، لأنك أحببت كثيراً»... وسيغفر لها، سيغفر لابنتي العزيزة صونيا... أنا أعلم أنه سيغفر لها... شعر قلبي بهذا حين كنت عندها منذ قليل... وسوف يحكم عليهم جميعاً. سيغفر للأخيار والأشرار، سيغفر للحكماء والبسطاء على السواء. حتى إذا فرغ من الجميع، خاطبنا نحن أيضاً فقال: «تعالوا، تعالوا أنتم أيضاً أيها السكيرون، تعالوا أيها الضعفاء، تعالوا أيها الفاسقون!» وسنقترب منه جميعاً، دون شعور بالخزي والعار وسنقف أمامه، وسيقول لنا: «أنتم خنازير! قد خُلقتم على صورة الوحش، ودُمغتم بخاتمه! ومع ذلك تعالوا!» وسيقول الحكماء عندئذ، سيقول العقلاء: «كيف يا رب؟ كيف تستقبلهم هم أيضاً؟، فيجيبهم: «أنا أستقبلهم أيها الحكماء، أنا أستقبلهم أيها العقلاء، لأن أحداً منهم لم يحسب أنه جدير بأن يُستقبل!» وسوف يفتح لنا ذراعيه، وسوف نرتمي بين ذراعيه... وسوف نبكي... وسوف ندرك كل شيء... سوف ندرك عندئذ كل شيء!... وسوف يدرك جميع الناس عندئذ كل شيء... وسوف تفهم كاترينا ايفانوفنا هي نفسها... فليأت ملكوتك أيها الرب!

انهارت قوى مارميلادوف، فتهاوى على الدكة، دون أن ينظر إلى أحد، كأنه قد غرق في أحلام عميقة فنسي كل ما كان يحيط به. وأحدثت كلماته أثراً. فساد الصمت خلال دقيقة. ولكن القهقهات والشتائم لم تلبث أن عادت تدوّى.

– هكذا يكون الكلام!

– هو يثرثر!

– موظف!

الخ، الخ...

وقال مارميلادوف فجأة وهو يرفع رأسه مخاطباً راسكولنيكوف:

– هيا بنا يا سيدي. رافقني إلى عمارة كوزيل... إلى الفناء... لقد آن الأوان... خذني إلى كاترينا ايفانوفنا!

كان راسكولنيكوف يتمنى منذ مدة طويلة أن ينصرف. وخطر بباله من تلقاء نفسه أن يساعد مارميلادوف. وقد ظهر مارميلادوف أشد وهناً وأضعف قدرة على القيام على ساقيه مما كان في خطابه. اتكأ مارميلادوف اتكاء ثقيلا على الشاب. وكان ينبغي قطع مسافة مائتي خطوة أو ثلاثمائة خطوة. إن القلق والخوف يجتاحان السكير بمزيد من القوة والعنف على قدر اقترابه من منزله.

ودمدم يقول منفعلاً:

– ليس خوفي من كاترينا ايفانوفنا. لست خائفاً لأنها ستشدني من شعري. ما قيمة شعري؟.. شعري لا يهمني. أنا أقول لك ذلك.. والأفضل أن تشدني من شعري... لا... ليس هذا ما يخيفني... إنما أنا أخاف عينيها... نعم... أنا أخاف عينيها... والبقع الحمراء في خديها... أخاف منها أيضاً... وأخاف أيضاً

تنفسها... هل لاحظت كيف يتنفس المصابون بذلك المرض حين تثور ثائرتهم؟ وأنا أخاف كذلك من الأولاد، حين يبكون. ذلك أن من الجائز أن لا تكون صونيا قد أعطتهم ما يأكلون... لست أدري... لست أدري الآن... أما الضربات فلا أخافها... اعلم أيها السيد أن هذه الضربات لا تقتصر على أنها لا تؤلمني، وإنما هي تهيئ لي لذة في بعض الأحيان... لأنني لا أستطيع الاستغناء عنها. ذلك أفضل! ألا فلتضربني!.. ألا فلتخفف عن نفسها!... ذلك أفضل... هذه هي العمارة، عمارة كوزيل... هو قفّال، قفّال ألماني غني جداً. ادخل معي!

اجتازا الفناء، وصعدا إلى الطابق الرابع. وكان ظلام السلم يزداد حلكة كلما تقدما في الصعود. الساعة أوشكت على الحادية عشرة، ورغم أن مدينة بطرسبرج ليس لها ليل حقيقي في مثل هذه الفترة من العام، فقد كانت الظلمة حالكة في آخر السلم.

في أعلى السلم كان باب صغير مدخّن مفتوحاً. وكان هنالك بقية شمعة تضيء أفقر غرفة في المسكن، طولها عشر أقدام. إن المرء يرى الغرفة كلها من فسحة السلم. إن فوضى قصوى تسودها، وإن أشياء لا حصر لأنواعها ملقاة على أرضها، ولاسيما أسمال أطفال. وفي ركن من الغرفة هو آخرها، قد شُدّت ستارة رثة لعل وراءها سريراً، ولم يكن في الغرفة نفسها إلا كرسيان، وأريكة منجدة بقماش مشمّع بالي رث، أمامها مائدة مطبخ عتيقة من خشب الصنوبر ليست مدهونة، لا وليس عليها غطاء. وفي آخر المائدة كانت بقية شمعة توشك أن تذوب كلها، قد غرست في شمعدان من حديد. إن جميع المظاهر تشير إلى أن مارميلادوف لا يحتل في هذا المسكن ركناً من أركانه، بل غرفة مستقلة هي في الواقع ممر أو دهليز. وكان الباب الذي يفضي إلى الغرف الأخرى، أو قل إلى العلب الأخرى التي يتألف منها بيت آماليا ليبيفكسل، كان الباب مشقوقاً، وكانت تصل منه جلبة وصيحات. كان الموجودون هناك يضحكون مقهقهين. يبدو

أنهم يلعبون بالورق وهم يحتسون الشاي. وكان يستطيع المرء أحياناً أن يلتقط وسط الصخب ألفاظاً ليس فيها كثير تأدب.

لم يلبث راسكولنيكوف أن تعرّف كاترينا ايفانوفنا. هي امرأة نحيلة نحولاً رهيباً، طويلة القامة، حسنة الهيئة. وما يزال لها شعر كستناوي اللون رائع، وكان على خديها بقعتان حمراوان فعلاً. إنها تسير في الغرفة الصغيرة ذهاباً وإياباً، وقد شدّت يديها إلى صدرها تضغطه بها، وكانت شفتاها يابستين وأنفاسها قصيرة مقطّعة، وكانت عيناها تسطعان ببريق محموم، ولكن نظرتها حادة ثابتة. إن هذا الوجه المنفعل الذي التهمه مرض السل يحدث مرآه على ضوء الشمعة الصغيرة الذائبة المتراقص أثراً في النفس أليماً. قدّر راسكولنيكوف أنها في الثلاثين من العمر. ما هي في الحق بالمرأة التي تصلح زوجة لمارميلادوف. لم تنتبه إلى وصولهما، ولا سمعت وقع خطواتهما. كانت غارقة في نوع من الخيال. فهي لا ترى شيئا ولا تسمع شيئا. إن حراً خانقاً يسود جو الغرفة، ومن أدنى السلم كانت تتصاعد رائحة كريهة. ومع ذلك لم تغلق الباب المطل على السلم. ومن خلال الباب الآخر كانت تصل سحب من دخان التبغ، فكانت تسعل ومع ذلك لم تغلق هذا الباب الثاني أيضاً. وكانت صغرى البنات، وهي طفلة في السادسة من عمرها، نائمة على الأرض قعوداً، وقد تكببت على نفسها وأسندت رأسها إلى الأريكة. وكان الصبي الصغير، وهو أكبر منها بسنة واحدة، يرتعش ويبكي في ركن من الأركان: لا شك أنه قد ضُرب منذ قليل. أما البنت الكبرى، وهي طفلة في نحو التاسعة من العمر، طويلة نحيلة كعود ثقاب، فكان كل ما يكسوها قميصاً رديئاً قد تمزق وتخرق في كل ناحية، ورداء عتيقاً من صوف خفيف قد ألقى على كتفيها العاريتين، ولعله كان يناسب حجم جسمها منذ سنتين، أما الآن فهو لا يكاد يصل من قامتها إلى الركبتين. وكانت البنت واقفة في الركن تضم إليها أخاها الصغير، وتحيط عنقه بذراعها الطويلة النحيلة. يبدو أنها كانت تحاول أن تسرّي عنه، فهي تكلمه بصوت خافت جداً، رجاء أن لا يستأنف بكاءه، ولكنها كانت في الوقت نفسه تتابع أمها

وقد امتلأت رعباً، تتابعها بعينيها الواسعتين القاتمتين اللتين تبدوان واسعتين مزيداً من السعة في هذا الوجه الهزيل المرتاع. لم يدخل مارميلادوف الغرفة، بل ركع على العتبة، ودفع راسكولنيكوف إلى أمام. فلما رأت المرأة هذا الشاب المجهول، وقفت أمامه ذاهلة، ثم خرجت من تأملاتها لحظة، ربما لتحاول أن تفسر لنفسها سبب مجيئه. ولكن لا بد أنها لم تلبث أن اعتقدت أنه ذاهب إلى سكان آخرين من سكان البيت، لأن الغرفة ممر إلى الغرف الأخرى. فلما وصلت إلى هذه النتيجة، اتجهت نحو باب الدهليز تريد أن تغلقه دون أن تهتم بالقادم، فإذا هي تصرخ على حين فجأة، لأنها اكتشفت زوجها الراكع على الأرض.

صاحت تقول وقد بلغت ذروة الغضب:

– آ... هاأنت ذا عدت! يا لص، يا شيطان، يا مسخ! أين المال؟ ماذا في جيبك؟ أرني!.. وهذا اللباس الذي ترتديه ليس لباسك، فأين رداؤك إذن؟ أين المال؟ تكلم!

قالت ذلك وهجمت عليه لتنبش جيوبه. فسرعان ما باعد مارميلادوف ذراعيه خاضعاً طيّعاً بغية أن يسهل عليها تفتيش جيوبه. ولم يكن في جيوب مارميلادوف كوبيكاً واحداً.

هتفت تقول:

– أين المال؟ آه... يا رب!.. هل يمكن أن يكون قد شرب خمراً بالمال كله؟ كان ما يزال في الصندوق اثنا عشر روبلاً مع ذلك...

وألمت بها ثورة مسعورة من الغضب على حين فجأة، فأمسكت بشعره، وجرّته إلى الغرفة. وسهّل هو عليها هذه المهمة، فكان يزحف على ركبتيه وراءها طائعاً ذليلاً.

صاح يقول بينما كان يُجرّ من شعره حتى لتصطدم جبهته مرةً بأرض الغرفة:

– هذه لذة بالنسبة إليّ! ليس هذا ألماً يا سيدي الكريم بل لذة!

واستيقظت البنية التي كانت نائمة على الأرض، وأجهشت تبكي. ولم يتمالك الصبي الصغير نفسه فأخذ يرتعش ويصرخ وهرع نحو أخته مروّعاً تكاد تجتاحه نوبة عصبية. وكانت البنت الكبرى ترتجف بعد النوم كورقة في مهب الريح.

صاحت المرأة المسكينة تقول:

– شرب بالمال كله، شرب بالمال كله. حتى رداؤه ليس رداءه! إنهم يتضورون جوعاً، يتضورون جوعاً.

قالت ذلك وهي تلوي يديها وتشير إلى الأولاد، ثم أردفت:

– لعن الله هذه الحياة، لعن الله هذه الحياة!

وزأرت تخاطب راسكولنيكوف وهي ترتمي عليه فجأة:

– وأنت أيضاً خارج من الخمارة! عليك أن تخجل! شربت معه، أليس كذلك؟ أنت أيضاً... شربت معه... اخرج من هنا!..

فأسرع الشاب يخرج دون أن يقول كلمة واحدة. وفي أثناء ذلك كان الباب قد فتح على كل سعته، وظهر في فرجته عدد من المستطلعين. كانوا يمدون رؤوسهم الوقحة الضاحكة، وقد وضعوا عليها طاقياتهم، وهم يدخنون سجائر أو غلايين. وكانت تُرى قامات ترتدي معاطف المنازل مفتوحة أو ملابس صيفية ليس فيها شيء من احتشام. وكان بين المستطلعين أناس يحملون بأيديهم ورقاً من ورق اللعب، وقد ضحكوا خاصة حين جُرّ مارميلادوف من شعره، فصرخ يقول إن هذه لذة له. حتى لقد دخلوا الغرفة وسُمعت أخيراً وعوعة غاضبة حانقة: إنها آماليا ليبيفكسل بنفسها قد شقت ممراً بين الجمهور لتعيد

الهدوء، بطريقتها الخاصة، ولترهب المرأة المسكينة بإبلاغها، للمرة المائة، بأن عليها إخلاء المسكن منذ الغد. اتسع وقت راسكولنيكوف، قبل أن ينصرف، لأن يدس يده في جيبيه فيخرج منه جميع النقود النحاسية التي بقيت له من الروبل الذي صرفه في الخمارة، وأن يضع هذه النقود خفيةً على حافة النافذة. فلما صار في السلم، عدل عن رأيه، وأراد أن يرجع أدراجه.

قال يحدث نفسه: «حماقة ما فعلت!.. هم لهم صونيا، وأنا في حاجة إلى مال». ولكنه رأى أن من المستحيل عليه أن يسترد الصدقة التي أعطاها، وأنه لن يستردها ولو لم يكن استردادها مستحيلاً، فأشاح بيده واتجه نحو مسكنه. وتابع حديثه مع نفسه أثناء سيره في الشارع وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: «حقاً إن على صونيا أن تشتري أطياباً تتدهن بها... إنها تكلف ثمنا باهظا، تلك النظافة... هِم... ولكن من الجائز جداً أن يصيبها اليوم إفلاس... إن هذه المهنة معرّضة لمخاطر كثيرة، كصيد الوحوش ذات الفراء الثمين والبحث عن مناجم الذهب سواء بسواء... فبدون هذا المال الذي نفحتهم إياه يمكن أن يتضوروا جوعا في الغد بلا كوبيك واحد. آه... يا لك من صونيا!.. يا لك من منجم اكتشفوه! ويا لها من فوائد يجنونها منه!.. ذلك أنهم يجنون من هذا المنجم فوائد! لقد اعتادوا أن يستفيدوا منه وان ينتفعوا به! بكوا في أول الأمر، ثم ألفوا وتعودوا. إن الإنسان يعتاد كل شيء. يا له من حقير!»

ثم فكر. فإذا هو يصيح قائلاً رغم إرادته على حين فجأة:

– ماذا لو كنت على ضلال! ماذا لو لم يكن الإنسان في حقيقة الأمر حقيراً... أعني الإنسان عامة، أعني النوع الإنساني... سيكون معنى ذلك أن الباقي كله ليس إلا أوهاماً، ليس إلا مخاوف خيالية باطلة، وأنه ليس هنالك أي حد ينبغي الوقوف عنده. نعم، ذلك ما يجب.

الفصل الثالث

استيقظ في الغداة متأخراً، بعد نوم مضطرب لم يجلب له أية راحة. وشعر حين استيقظ بأنه معتكر المزاج سريع الاهتياج خبيث النفس، ونظر إلى غرفته نظرة كره ومقت. إن هذه الغرفة أشبه بقفص صغير طوله ست خطوات، يدل مظهرها على أشد الفقر والفاقة، قد غطيت جدرانها بورق مصفر تراكم عليه الغبار وانتُزع في جميع الجهات. وهي تبلغ من انخفاض سقفها أن رجلاً له قامة تكاد تفوق متوسط القامات، لا بد أن يشعر فيها بأنه مكبوس، ولا بد أن يخشى اصطدام رأسه بالسقف. وأثاث الغرفة يناسبها حقارة ورثاثة: كان فيها ثلاثة كراسي عتيقة تعرج قليلا، وكان في ركن من أركانها مائدة مدهونة عليها دفاتر وبضعة كتب (يكفي المرء أن يرى طبقة الغبار التي تغطي هذه الكتب حتى يدرك أنها منذ مدة طويلة لم تمتد إليها يد)، وكان فيها أخيراً ديوان كبير بشع يشغل كل طول الحجرة ويشغل نصف عرضها تقريباً، ديوان كان في الماضي منجداً بقماش هندي ولكن القماش قد أصبح الآن خرقاً رثة ومزقاً بالية. إن هذا الديوان هو سرير راسكولنيكوف. وكثيراً ما كان يتفق لراسكولنيكوف أن يرقد عليه مرتدياً جميع ثيابه بلا ملايات، غير ملتحف إلا معطفه العتيق الرث، معطفَ الطالب، واضعاً رأسه على مخدة صغيرة كان يُعليها بأن يدس تحتها جميع ما عنده من ملابس نظيفة ومتسخة. وأمام الديوان توجد منضدة صغيرة.

إنه لمن الصعب أن يهمل المرء نفسه إهمالاً أشد من هذا الإهمال. ولكن منظر مسكنه هذا، وهو فيما هو فيه من حالة نفسية خاصة، كان يمضي إلى حدّ أن يولد له شيئاً من لذة. كان قد انفصل عن العالم انفصالًا حاسماً، وكان يعيش كالسلحفاة المحبوسة في قوقعتها. وحتى منظر الخادمة، التي كان عليها أن تخدمه والتي كانت تظهر أحياناً لترى ماذا يجري، كان يبعث في نفسه كرهاً محموماً. هكذا شأن بعض الموسوسين الذين تحاصرهم فكرة واحدة، ويسرف ذهنهم في التركز على نقطة بعينها. لقد كفّت صاحبة البيت منذ أسبوعين عن أن تبعث إليه بوجبات طعامه، ورغم أنه أصبح مضطراً للصيام عن الطعام، فإنه لما يخطر

بباله بعد أن يذهب إليها ليناقشها في الأمر. وكانت ناستاسيا، الطباخة، وهي الخادمة الوحيدة لدى صاحبة البيت، كانت، بمعنى من المعاني، غير مستاءة من الحالة النفسية التي كان عليها المستأجر، وكانت قد انقطعت عن خدمة غرفته انقطاعاً كاملاً، اللهم إلا من حين إلى حين، مرة في الأسبوع، وكانت في هذه المرة تكتفي بأن تكنس الغرفة كنساً سريعاً كيفما اتفق. وهي التي أيقظته الآن. صرخت تقول له وهي تميل عليه:

– انهض. ما بك حتى تنام هذا النوم؟ لقد دقت الساعة التاسعة. هأنا ذا آتيك بشيء من الشاي، هل تريد؟ اعتقد أنك جائع. ستموت جوعاً أليس كذلك؟

فتح الشاب عينيه، وارتجف، وتعرف ناستاسيا، سألها وهو ينهض ببطء عن ديوانه وقد بدا عليه الألم:

– هل صاحبة البيت هي التي أرسلت إليّ هذا الشاي؟

قالت له الخادمة:

– صاحبة البيت؟ هه!..

ووضعت أمامه إبريقها الخاص بها، إبريقها المتصدع الذي يضم بقية قديمة من شاي، ووضعت قطعتين صغيرتين من سكر مصفر كل الاصفرار.

قال لها بعد أن نبش جيبه (كان قد نام لابساً ثيابه)، فأخرج منه عدة قطع نقدية نحاسية:

– خذي يا ناستاسيا، خذي هذا، أرجوك... واذهبي فاشتري لي رغيفاً صغيراً من الخبز، واشترى لي كذلك من عند البقال سجقاً، سجقاً بخص الثمن...

– سآتيك بالرغيف حالًا. ولكن ألا تريد، بدلاً من السجق، أن تصيب شيئاً من حساء بالكرنب؟ هو حساء بالكرنب صنعناه أمس، وادخرته لك مساء، لكنك رجعت إلى البيت متأخراً. هو حساء بالكرنب طيب.

وحين جاءته ناستاسيا بحساء الكرنب، فأخذ يأكل، جلست إلى جانبه على الديوان، وأخذت تثرثر. إنها امرأة قروية مكثارة مهذارة. قالت له:

– إن براسكوفيا بافلوفنا تريد أن تشكوك إلى الشرطة.

فأربد وجهه وسألها:

– تشكوني إلى الشرطة؟ ماذا تريد مني؟

– أنت لا تدفع أجر الغرفة، لا ولا تتركها! ذلك ما تريده منك!

جمجم يقول وهو يكز على أسنانه:

– لم يكن ينقصني إلا هذا! حقاً إن ذلك أسوأ أوان...

ثم أضاف يقول بصوت عال:

– يا للحمقاء! سأمرّ بها اليوم فأكلمها.

قالت:

– أما أنها حمقاء فهي حقاً، مثلي أنا تماماً... ولكن... ما بالك أنت، وأنت ذكي هذا الذكاء كله، تبقى راقداً طول الوقت كصُرّة؟ لا يستطيع أحد أن يحملك على شيء! تقول إنك كنت في الماضي تعطي الأولاد دروساً خاصة، فلماذا أصبحت لا تقوم الآن بأي عمل؟..

– بل أقوم...

كذلك نطق راسكولنيكوف رغم إرادته، بلهجةٍ جافة.

سألته:

– ما الذي تقوم به؟

– أقوم بعمل..

– أي عمل؟

أجابها جاداً بعد صمت:

– أفكر...

انتابت ناستاسيا نوبة ضحك. إنها متأهبة دائماً لأن تنفجر ضاحكة. ويكفي أن تُمازح أقل ممازحة حتى تأخذ في الضحك، ولكن ضحكها صامت، فهي لا تزيد على أن تحرك وترجح جسمها كله، إلى أن يصيبها من ذلك ضجر!..

وأفلحت في أن تنطق أخيراً فقالت له:

– وهل جنيت من التفكير مالًا كثيراً؟

قال:

– كيف يستطيع المرء أن يمضي لإعطاء دروس في حين لا يملك حذاءين؟ على أنني أبصق على هذا.

– لا تبصق على ما ينفعك.

– يجني المرء من تعليم الأطفال كوبيكات، ماذا يستطيع المرء أن يفعل ببضعة كوبيكات؟

كذلك تابع يقول بغير إرادة، كأنه يجيب عمّا يدور في رأسه هو من خواطر وأفكار.

سألته قائلة:

– أتراك تريد الحصول على ثروة طائلة دفعة واحدة؟

نظر إليها نظرة غريبة ثم أجابها بصوت جازم بعد صمت قصير:

– نعم ثروة طائلة...

– هيه... رفقاً! إنك تخيفني. أأمضي لشراء الرغيف؟

– افعلي ما تشائين.

– ها... نسيت... معي رسالة لك وصلت أمس أثناء غيابك.

– رسالة؟ لي؟ ممن؟

– لا أدري ممن. وقد نقدت ساعي البريد ثلاثة كوبيكات من جيبي. ستردها إلي، أليس كذلك؟

صرخ راسكولنيكوف يقول وقد بلغ ذروة الاضطراب:

– هاتي الرسالة! هاتيها ناشدتك الله... آه... يا رب!.

بعد دقيقة جاءت الرسالة. صدق ما كان يقدّره:

إن الرسالة آتية من أمه التي تقيم في إقليم ر... اصفر وجهه وهو يتناول الرسالة. لقد أصبح لا يتلقى أي رسالة منذ مدة طويلة. ولكن شيئا آخر يقبض الآن قلبه ويجثم على صدره.

قال:

– ناستاسيا، اذهبي... ناشدتك الله... ناشدتك الله... انصرفي... إليك كوبيكاتك الثلاثة... اخرجي بسرعة... ناشدتك الله!..

كانت الرسالة ترتعش بين يديه. لم يشأ أن يفضها أمام الخادمة. كان يحرص على أن يبقى وحيداً مع هذه الرسالة. فما أن خرجت ناستاسيا حتى رفع الرسالة إلى شفتيه بحركة سريعة، وقبلها، ثم لبث مدة يُنعِم النظر في خط العنوان، في الخط العزيز الغالي الذي يعرفه حقّ المعرفة، الخط الصغير المائل بعض الميل، خطّ أمه التي علمته القراءة والكتابة في الماضي منذ زمن بعيد. أحجم عن فض الريالة بعض الوقت، حتى لكأنه يخشى شيئاً ما. ثم فضها أخيراً. الرسالة طويلة كثيفة ثقيلة الوزن هي تزن لوتين[٢١]: صحيفتان كبيرتان من ورق تغطيهما كتابة مرصوصة وجهاً وقفا. وهذا ما كتبته أمه:

«عزيزي روديا[٢٢]! أنقضى أكثر من شهرين دون أن أتحدث إليك كتابة، وذلك أمر عذبني كثيراً، حتى لقد حرمني من النوم ذات ليلة من فرط تفكيري فيه. ولكنني على يقين من أنك لن تؤاخذني على هذا الصمت الطويل الذي لست مسؤولة عنه. أنت تعلم كم أحبك! ليس لنا في هذه الحياة، أنا ودونيا[٢٣]، سواك. أنت عندنا كل شيء. أنت كل أملنا. أنت كل إيماننا بالمستقبل! ليتك تعلم الحالة التي صرت إليها حين علمت أنك تركت الجامعة منذ بضعة أشهر لعجزك عن الوفاء بسد حاجاتك، وأنك فقدت الدروس التي كانت تعطيها، وفقدت سائر الموارد الأخرى! كيف كان يمكنني أن أساعدك وأنا لا أقبض إلا مائة وعشرين روبلاً في السنة هي معاش التقاعد! أنت تعلم أن الخمسة عشر روبلاً التي أرسلتها إليك منذ أربعة أشهر،

[٢١] ... هي تزن لوتين... لوت مقياس روسي قديم للوزن يساوي ١٢ ,٨ غرام يستعمل لتحديد وزن الطرود البريدية.

[٢٢] «روديا» مصغر اسم روديون.

[٢٣] «دونيا»، «دونيتشكا»: تصغير اسم آفدوتيا، من باب المحبة والتدلل.

إنما كنت قد اقترضتها سلفة على معاشي من تاجر في بلدتنا هو فاسيلي إيفانوفتش فاخروشين. إنه رجل طيب شهم كان صديق أبيك. ولكنني وقد خوّلته حق قبض المعاش نيابة عني، قد اضطررت أن أنتظر إلى أن ينتهي سداد الدين كاملاً، وذلك ما لم يتم إلا منذ برهة قصيرة. هذا هو السبب في أنني لم أستطع أن أرسل إليك شيئاً طوال ذلك الوقت. أما الآن فأعتقد أنني سأستطيع، ولله الحمد، أن أستأنف إرسال شيء من المال إليك. ثم إننا في وسعنا، على وجه أعم، أن نغبط أنفسنا على أن الحظ قد وافانا قليلاً، وذلك ما أسارع إلى ذكره لك. هل يمكنك، أولاً، يا عزيزي روديا، أن تحزر أن أختك تقيم معي منذ شهر ونصف شهر، وأنا لن نفصل بعد اليوم أبداً؟ لقد انتهت الآن جميع آلامها بفضل الله، ولكن ينبغي أن أقص عليك كل شيء مرتباً متسلسلا، حتى تعرف كيف جرت الأمور، وماذا كتمنا عنك إلى الآن! لقد كتبت إليّ منذ شهرين قائلاً إنك علمت من أحد الناس أن أختك دونيا تتألم كثيراً من قسوة المعاملة في منزل الأسرة التي تعمل عندها، وهي أسرة السادة سفيدريجالوف، وسألتني أن أبعث إليك بشروح دقيقة وتفاصيل وافية عن هذا الأمر. فماذا كان في وسعي أن أجيبك في ذلك الأوان؟ فلو قلت الحقيقة كاملة لكن من الجائز أن تترك كل شيء وأن تجيء إلينا سيراً على الأقدام، لأنني أعرف طبعك وأعرف عواطفك، فما كان لك أن تدع لأحد أن يسيء إلى أختك وأن يهين كرامتها.

ولقد بلغت أنا نفسي عندئذ غاية الكرب واليأس. ولكن ما الذي كان يجب أن أفعله؟ ثم إنني لم أكن أعرف الحقيقة كلها حينذاك. ولقد جاء البلاء أساساً من أختك دونيتشكا، حين أخذت تعمل مربية عند آل سفيدريجايلوف[٢٤]، في السنة الماضية، قد قبضت منهم سلفة مقدارها مائة روبل يقتطعونها من أجورها شهراً شهراً. لذلك كان من المستحيل عليها أن تترك وظيفتها قبل أن تكون قد سدّدت ما لهم عليها من

[٢٤] «سفيدريجايلوف»: اشتق المؤلف هذا الاسم من اسم سفيدريجايلو، وهو دوق كبير من ليتوانيا في القرن الخامس عشر، إشارة إلى نبالة محتد هذه الشخصية من شخصيات روايته.

دين. وذلك المبلغ الذي قبضته (أستطيع الآن أن اعترف لك بذلك يا بني العزيز) إنما أخذته خاصة لترسل إليك الستين روبلاً التي كنت حينئذ في حاجة ماسة إليها والتي تلقيتها منا في السنة الماضية. لقد خدعناك كلتانا حين كتبنا إليك عندئذ أن ذلك المال هو حصيلة مدخرات قديمة جمعتها دونيتشكا، ولم يكن الأمر كذلك. وإنما أنا أقول الحقيقة كلها الآن لأن الله قد أراد أن يبدل كل شيء وأن نصير إلى حال أفضل، ولأن من الواجب أن تعلم مدى ما تحْمله لك دونيا من حب، وأن تعرف ما يتصف به قلبها من نبل لا يضارع؛ بالفعل إن السيد سفيدريجايلوف كان في أول الأمر يعاملها معاملة شديدة الغلظة والفظاظة وكان يوجه إليها أثناء الجلوس إلى المائدة أنواعاً شتى من الكلمات القارصة والأقوال الساخرة.. على أنني لا أريد أن أفيض في الكلام على هذه التفاصيل الأليمة، حتى لا أعذبك في غير طائل، بعد أن انتهى هذا كله الآن! المهم أن وضع دونيتشكا كان شاقاً جداً رغم أن مارفا بتروفنا، زوجة السيد سفيدريجايلوف وسائر أهل المنزل قد عاملوها معاملة فيها كثير من الرعاية واللطف. وكان وضعها يزداد مشقة حين يصبح السيد سفيدريجايلوف تحت سيطرة باخوس[٢٥] على ما ألف من عادة ترسخت فيه منذ كان في الجيش. ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟ تصور أن هذا الرجل المأفون كان منذ مدة طويلة يهيم بأختك دونيا هياماً يخفيه تحت ستار موقف من الفظاظة والاحتقار يصطنعه اصطناعا. ولعله كان يشعر بالخزي والعار في نفسه، أو لعله كان يحس بارتياع حين يرى أنه في هذه السن، هو رب الأسرة، تراوده آمال تبلغ هذا المبلغ من الطيش، فإذا هو يحقد على دونيا رغم إرادته، أو لعله بفظاظة موقفه وغلظة سخرياته أنما كان يريد أن يخفي الحقيقة عن الآخرين لا أكثر. المهم أنه أصبح في نهاية الأمر لا يطيق صبراً، فإذا هو يتجرأ ويتجاسر فيعرض على دونيا عروضا صريحة حقيرة، باذلا لها وعودا بفوائد شتى ومنافع كثيرة، مقترحاً عليها فوق ذلك كله أن يترك كل شيء ليسافر معها إلى قرية أخرى من القرى التي يملكها أو إلى الخارج.. في وسعك

[٢٥] «باخوس»: إله الخمر عند قدماء الإغريق.

أن تتخيل الآلام التي قاستها أختك! كان عليها أن لا تفكر في ترك وظيفتها فوراً، لا بسبب ما عليها من دين فحسب، بل أيضاً من باب المراعاة والمداراة لمارفا بتروفنا التي كان يمكن أن تساورها شكوك كثيرة على حين فجأة فيحدث في الأسرة شقاق يمزقها شرّ ممزق. ذلك عدا أن تركها وظيفتها فوراً يمكن أن يكون لها فضيحة كبرى لا يمكن تحاشيها. وهناك أسباب كثيرة كانت تجعل دونيا عاجزة عجزاً مطلقاً عن ترك ذلك البيت الفظيع قبل انقضاء ستة أسابيع. لا شك في أنك تعرف دونيا وتعرف ما تتصف به من تعقل ومن إرادة قوية. أن دونيتشكا تستطيع أن تتحمل أشياء كثيرة، وأن تجد في نفسها، مهما تكن الظروف حرجة، قدراً كافياً من رفعة الروح ونبل القلب حتى لا تفقد رباطة جأشها وثبات جنانها، لذلك لم تكتب إليّ أنا نفسي شيئاً عن هذا كله، حتى لا تؤلمني وتعذبني، مع أننا كنا نتراسل كثيراً. وقد حدثت خاتمة القصة على نحو لم يكن في الحسبان: إن مارفا بتروفنا سمعت زوجها في الحديقة، مصادفة، يتوسل إلى دونيتشكا ضارعاً مبتهلاً، ففهمت الأمر فهماً لا يتفق مع الحقيقة واتهمت دونيتشكا إذ أنها ظنت أن دونيتشكا سبب كل شيء، فإذا بمشهد رهيب يحدث عندئذ في الحديقة نفسها: لم تشأ مارفا بتروفنا أن تسمع أي قول، حتى لقد ضربت دونيا، وظلت تصرخ ساعة بكاملها، ثم أصدرت أمرها بنقلها إليّ في المدينة على عربة حقيرة من عربات الفلاحين، رُميت فيها جميع أشياء دونيا من ملابس وأثواب، رُميت فوضى بغير نظام، حتى دون أن تربط أو تحزم. وقد أخذ المطر يهطل عندئذ هطولاً غزيراً، فاضطرت أختك دونيا أن تقطع مع الفلاح في عربته المكشوفة مسافة سبعة عشر فرسخا على تلك الحال من المذلة والهوان. أنك لترى الآن أنني لم أكن أستطيع أن أجيبك بشيء على الرسالة التي بعثت بها إليّ منذ شهرين: عم كان يمكنني أن أحدثك وفيم كنت أستطيع أن أكلمك؟ لقد كنت أنا نفسي في غاية الكرب وذروة الكمد. لم أكن أجرؤ أن أكتب لك الحقيقة. فلو فعلت ذلك لشقيت أنت شقاء كبيراً ولشعرت بغضب شديد واضطراب كبير. وما الذي كان في وسعك أن تفعل؟ لا شيء إلا أن تفاقم آلامك ثم إن دونيا قد

حظرت عليّ أن أفعل. وأما أن أملأ رسالتي إليك بترهات وسفاسف، بينما أنا مثقلة القلب بالحزن والكمد، فذلك ما شعرت أنني لا أقوى عليه. وفي أثناء شهر كامل جرت في المدينة عن تلك القصة شائعات وأقاويل ونمائم، حتى لقد بلغت الأمور حداً أصبحت لا أستطيع معه أن أصحب دونيا إلى الكنيسة بسبب نظرات الاحتقار والازدراء التي يلقيها علينا الناس وبسبب الهمسات الكثيرة التي يتبادلونها عند مرورنا، حتى إنهم كانوا لا يتحرجون من إبداء ملاحظات خبيثة بصوت عالي في حضورنا. وأصبح جميع من يعرفوننا يديرون لنا ظهورهم ويشيحون عنا بوجوههم، بل لقد كفوا عن تحيتنا. وعرفت من مصدر مطلع أن عدداً من مستخدمي الدكاكين وصغار موظفي المكاتب أرادوا أن يرتكبوا في حقنا وقاحة سافلة، هي أن يلطخوا باب منزلنا بالقطران، فأخذ أصحاب البيت الذي نسكنه يطالبوننا بإخلائه. وكانت مارفا بتروفنا سبب ذلك كله، فقد اتسع وقتها لأن تذهب إلى جميع البيوت تتهم دونيا وتوسخ سمعتها. أنها تعرف جميع الناس في بلدتنا. وقضت هذا الشهر في زيارات مستمرة. وإذ أنها أميل إلى الثرثرة، وإذ أنها تحب أن تقص شؤونها المنزلية على كل قادم، وأن تشكو زوجها خاصة، وذلك أمر ليس بالجميل كثيراً، فقد نشرت القصة خلال برهة وجيزة من الزمن، لا في المدينة وحدها، بل في المقاطعة كلها. وقد مرضت أنا من ذلك. ولكن دونيتشكا كانت أقوى مني عوداً، وأصلب شكيمة، وأشد بأساً. ليتك رأيت كيف استطاعت أن تحتمل هذا كله بجأش رابط وجنان ثابت حتى لقد كانت هي التي تعزيني وتواسيني، وتقوي عزيمتي، وتشد أزري! إنها ملاك! ولكن رحمة الله اختصرت عذابنا. فإن السيد سفيدريجايلوف قد عدل عن رأيه، وندم على ما بدر منه، ولعله شعر بشفقة نحو دونيا، فقدّم لامرأته مارفا بتروفنا الدليل القاطع والحجة الدامغة على براءة دونيا: كان هذا الدليل القاطع رسالة كانت دونيا، قبل أن تفاجئهما مارفا بتروفنا في الحديقة بزمن طويل، قد اضطرت أن تكتبها وأن تعطيها للسيد سفيدريجايلوف لترفض جميع شروحه وعروضه، ولترفض جميع المواعيد السرية التي كان يضرع إليها أن

تضربها له. وقد بقيت هذه الرسالة بين يدي السيد سفيدريجايلوف بعد رحيل دونيا. وفي هذه الرسالة كانت دونيا تعيب عليه بلهجة عنيفة ثائرة عارمة ما يتصف به سلوكه نحو مارفا بتروفنا من جور وظلم وعسف، وتذكره بأنه زوج، وبأنه أب لأسرة، وتصوّر له في آخر الأمر مدى ما يشتمل عليه سلوكه من خسة إذ هو يعذب ويشقي فتاة فقيرة عزلاء لا تحتاج إلى مزيد من العذاب والشقاء. الخلاصة يا بني العزيز روديا، أن تلك الرسالة تبلغ من رفعة النبل وشدة التأثير أنني أجهشت باكية منتحبة حين قرأتها، وما أزال حتى الآن لا أعيد قراءتها إلا وتترقرق في عيني الدموع. وجاءت شهادات الخدم تبرئ دونيا مزيدا من التبرئة! والخدم كما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات قد عرفوا من الأمر ورأوا من المشاهد أكثر كثيراً مما ظن السيد سفيدريجايلوف. ذهلت مارفا بتروفنا أشدّ الذهول، بل «صعقت من جديد» كما اعترفت لنا هي نفسها بذلك. ولكن لم يبق في نفسها أي شك في أن دونيتشكا بريئة كل البراءة. لهذا بادرت مباشرة، وكان يوم أحد، فذهبت رأساً إلى الكنيسة حيث جثت على ركبتيها باكية وتضرعت إلى السيدة العذراء أن تهب لها من القوة ما يكفيها لاحتمال هذا الامتحان الجديد وما يمكنها من القيام بواجبها على خير وجه. ثم جاءت من الكنيسة قُدُماً إلى منزلنا، دون أن تعرّج على أحد، فقصت علينا كل شيء، وسكبت دموعا حارة، وعانقت دونيا زاخرة النفس بالندم، مبتهلة إليها أن تغفر لها وأن تعفو عنها. ومن منزلنا ذهبت رأساً دون أن تضيع لحظة واحدة، ذهبت إلى جميع بيوت المدينة، فكانت تسكب سيولا من الدموع، وتكيل الثناء لابنتي، دونيا، وتشهد ببراءتها، وتطري نبل عواطفها، وتشيد بحسن سلوكها. وأرادت أن تفعل ما هو خير من ذلك أيضاً، فأظهرت جميع الناس على الرسالة التي كتبتها دونيا إلى السيد سفيدريجايلوف بصوت عال، بل وأذنت لهم بأن ينسخوها (وذلك أمر يبدو إلى أن فيه شيئاً من الغلو). وقد اضطرت أن تقضي عدة أيام متتالية تزور جميع من تعرفهم من الناس في المدينة، لأن بعضهم شكوا من إهمالها زيارتهم، وساءهم أن تؤثر عليهم غيرهم. على هذا النحو تتالت زياراتها متعاقبة متلاحقة، حتى أصبح الناس

ينتظرونها في كل منزل، وحتى أصبح يُعرف أن مارفا بتروفنا ستقرأ الرسالة يوم كذا في مكان كذا، فكان يحضر قراءة الرسالة في كل مرة حتى أولئك الذين سبق لهم أن سمعوها مراراً سواء في بيوتهم هم أو في بيوت أناس آخرين يعرفونهم. في رأيي أن ذلك كان فيه مغالاة، كان فيه كثير من المغالاة، ولكن هذا طبع مارفا بتروفنا! مهما يكن من أمر، فإن مارفا بتروفنا قد ردّت إلى دونيتشكا اعتبارها كاملا، فإذا بعار هذه القضية يرتد إلى زوجها بخزي لا يمحى ولا يندثر، ويجعله المجرم الأول حتى أخذتني به شفقة. لقد أسرفوا في القسوة على ذلك المأفون المسكين. بعد ذلك أسرعت أسر كثيرة تعرض على دونيا أن تعطي أولادها دروساً، ولكن دونيا رفضت جميع هذه العروض. ونستطيع أن نقول بوجه عام إن جميع الناس صاروا يولونها احتراماً خاصا على حين فجأة. وذلك كله قد سهل تسهيلًا كبيراً حدوث الحادث الذي لم يكن في الحسبان، والذي أستطيع أن أقول إن مصيرنا قد تبدل بفضله تبدلا تاماً وتغير تغيراً كاملاً. اعلم يا بني العزيز روديا أن خطيباً قد تقدم لأختك دونيا، وأنها قد أعلنت له موافقتها، وذلك ما أسارع فأنقله إليك الآن. أغلب الظن أنك لن تؤاخذنا، لا أنا ولا أختك، على أن الأمر قد تم دون الحصول على موافقتك، فلسوف ترى بنفسك أنه كان يستحيل علينا أن ننتظر، وأن نرجئ اتخاذ القرار إلى حين وصول ردّك إلينا. هذا عدا أنه ما كان لك أن تستطيع، من بعد، أن تحكم في الأمر حكم العارف المطلع. وإليك تفصيل ما حدث:

الرجل مستشار قضائي[٢٦]، اسمه بيوتر بتروفتش لوجين. وهو يمت بقربى بعيدة إلى مارفا بتروفنا التي شاركت في الأمر مشاركة كبيرة. لقد بدأ الرجل بأن أظهر لمارفا بتروفنا رغبته في التعرف إلينا، فاستقبلناه كما ينبغي أن يُستقبل، فشرب عندنا القهوة، فما أن جاء الغد حتى بعث إلينا برسالة يعرض فيها طلبه بكثير من الكياسة، ويلتمس رداً سريعاً قاطعاً. إنه رجل من رجال الأعمال، مشغول جداً، ولما كان عليه أن

[٢٦] «مستشار قضائي»: موظف من الدرجة السابعة.

يسافر إلى بطرسبرج قريباً، فإن لكل دقيقة قيمتها عنده. طبيعي أننا ذهلنا في أول الأمر: لقد حدث ذلك كله بسرعة مسرفة وعلى نحو مباغت مفاجئ، بطريقة لم تكن في الحسبان! بعد ذلك لبثنا معاً طوال النهار نفكر في الأمر ونزن الأشياء. هو رجل يحتل مركزاً مرموقاً: يشغل وظيفتين في آن واحد ويملك منذ الآن رأس مال له. الحق أنه يبلغ الخامسة والأربعين من العمر، لكن مظهره لطيف، وما يزال يستطيع أن يرضي النساء. وهو عدا ذلك رجل رصين لائق جداً. كل ما هنالك أنه متجهم المزاج قليلاً، متعالي بعض التعالي، ولكن قد لا يكون ذلك إلا شعوراً أول ساورنا حين رأيناه، ولهذا أحذرك يا بني العزيز روديا من أن تحكم عليه بسرعة مسرفة واندفاع عنيف حين ستلقاه في بطرسبرج قريباً (على عادتك في سرعة الحكم وعنف الاندفاع) إذا أنت رأيت فيه عند الوهلة الأولى شيئاً يصدم شعورك. أقول لك هذا من باب الاحتياط لكل مصادفة، رغم يقيني من أنه سيحدث في نفسك أجمل الأثر. أضف إلى ذلك أن على المرء، إذا هو أراد أن يصل إلى معرفة إنسان من الناس، أياً كان هذا الإنسان، أن يتصرف إزاءه تصرفاً فيه كثير من التروي والتعقل والحكمة والحذر، وإلا فقد يقع في الخطأ، وقد ينجرف إلى التحيز، فيصعب عليه كثيراً بعد ذلك أن يصحح ذاك الخطأ وأن يزيل ذلك التحيز. ومهما يكن من أمر فإن قرائن كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن بيوتر بتروفتش رجل جدير بالاحترام. لقد أعلن لنا منذ أول زيارة أنه رجل وضعي عملي، ولكنه في كثير من الأمور يشارك «أجيالنا الجديدة آراءها» على حد تعبيره، وأنه عدو لجميع أنواع التحيز المسبق، ولقد قال أموراً أخرى كثيرة، فهو رجل لا يخلو من شيء من الغرور، وهو يحب كثيراً أن يصغى الناس إلى كلامه وأن يسمعوا لحديثه. ولكن ذلك ليس آفة كبيرة، أنا لم أفهم من حديثه أشياء كثيرة بطبيعة الحال، ولكن دونيا شرحت لي أنه على نقص ثقافته إنسان ذكي، وأنه طيب فيما يبدو. إنك تعرف طبع أختك، يا بني العزيز روديا. هي فتاة ثابتة صلبة عاقلة صابرة كريمة، رغم أن لها قلباً حاراً وشعوراً متقداً، وذلك أمر استطعت أن أدركه فيها. طبعاً، لا مجال للحديث عن حب حقيقي، لا من جانبها هي ولا من جانبه

هو. ولكن دونيا، عدا أنها فتاة ذكية، هي في الوقت نفسه نبيلة كملاك. ولا بد أن تلزم نفسها بإسعاد زوجها الذي لن يسعه إلا أن يسعدها هو أيضاً. فحول هذه النقطة الأخيرة ليس لدينا حتى الآن أي سبب جدي يدعو إلى الشك، رغم أن الأمر قد تم بشيء من السرعة، كما ينبغي أن نعترف بذلك. يضاف إلى هذا أن الرجل إنسان حصيف الفكر سديد الرأي، فلا شك في أنه سيرى بنفسه أن سعادته الزوجية نفسها ستكون مضمونة مزيداً من الضمان إذا سعدت دونيا بفضله مزيداً من السعادة. أما عما هنالك من بعض الاختلافات في المزاج والعادات القديمة وحتى من بعض الاختلافات في الآراء (وذلك ما لا يمكن تحاشيه حتى في أكثر حالات الزواج توفيقاً) فإن دونيا كما قالت لي ذلك سوف تأخذ على عاتقها هذا الأمر. إنها تؤكد أنه لا داعي إلى القلق، وإنها تستطيع احتمال أشياء كثيرة شريطة أن تبقى علاقاتهما على الدوام شريفة صادقة عادلة قائمة على المساواة والإنصاف. يجب أن أقول لك إن الرجل بدا لي أنا أيضاً مسرفاً في الصرامة بعض الإسراف. ولكن ذلك قد يكون ناشئاً عن أنه امرؤ صريح، بل إن الأمر لكذلك حتماً. مثال: أنه أثناء زيارته الثانية، بعد حصوله على الموافقة، قد أعلن أثناء الحديث أنه حتى قبل أن يعرف دونيا كان قد قرر أن لا يتزوج إلا فتاة شريفة لا تملك مهراً، فتاة سبق أن عرفت تجربة الفقر وعانت مرارة البؤس، لأن الزوج يجب أن لا يشعر بأن لزوجته عليه فضلاً، وانما يجب أن تشعر المرأة أن زوجها هو المحسن إليها وصاحب الفضل عليها. يجب أن أذكر أنه قد عبّر عن رأيه هذا تعبيراً أكثر رقة ولطافة، وأقرب إلى المودة والمحبة من الكلمات التي كتبتها أنا الآن، لأنني نسيت الألفاظ التي أستخدمها، وأصبحت لا أتذكر إلا الفكرة التي أفصح عنها. ثم إنه لم يكن قد هيّأ أقواله وحضر عباراته، فلا شك أن ذلك الكلام قد أفلت منه إفلاتا. لذلك حاول بعدئذ أن يتدارك الأمر، وأن يلطف الأثر الذي أحدثته كلماته. ومع ذلك استثقلت كلامه قليلاً ثم فاتحت دونيا في هذا، فأجابتني دونيا، وفي نفسها شيء من الغضب والحزن، بأن «الأقوال لا تطابق الأفعال دائماً»، وواضح أن كلام دونيا صادق. يجدر أن أذكر أن

دونيا، قبل اتخاذ قرارها، لم يغمض لها جفن طوال الليل، وأنها حين ظنت أنني غفوت قد نهضت عن فراشها وأخذت تمشي في الغرفة طولاً وعرضاً إلى أن طلع الصبح، ثم ركعت على ركبتيها، ولبثت جائية امام الأيقونة تصلي مدة طويلة بكثير من الحرارة والخشوع، حتى إذا طلع النهار أعلنت أنها قد اتخذت قرارها.

سبق أن قلت أن بيوتر بتروفتش سيسافر الآن إلى بطرسبرج. أن له هنالك أعمالاً كبيرة: أنه يريد أن يفتتح مكتباً للمحاماة. هو يُعنى بهذا النوع من الأعمال منذ زمن طويل. وقد ربح دعوى هامة في الآونة الأخيرة. وينبغي له أن يسافر إلى بطرسبرج حتماً لسبب آخر هو أنه سيترافع هنالك أمام مجلس الشيوخ[٢٧] في قضية خطيرة. وهكذا ترى يا بني العزيز روديا، أنه سيكون في وسعه أن يفيدك كثيراً. لقد رأينا أنا ودونيا أنك ستستطيع منذ اليوم أن تبدأ مهنتك، وأن تعد مستقبلك مضموناً ضماناً نهائياً. آه! ما أجمل أن يتحقق ذلك! سيكون علينا عندئذ أن نعد هذا أثراً من آثار نعمة الله علينا. إن دونيا أصبحت لا تفكر إلا في هذا. ولقد جازفنا أنا ودونيا، فأسمعنا بيوتر بتروفتش كلمة حول هذا الموضوع، فتكلم عندئذ بشيء من التروي والتعقل فأعلن أنه، بطبيعة الحال، ما دام لا يستطيع أن يستغني عن سكرتير، سيفضل أن يدفع أجوراً لعضو من أعضاء الأسرة على أن يدفع هذه الأجور لشخص غريب، شريطة أن يبرهن القريب على أنه قادر على القيام بهذه الوظيفة وعلى أداء هذه المهمة (كأنك أنت عاجز عن ذلك!). ولكنه لم يلبث أن ساوره شك أفصح عنه فقال إنه يخشى أن لا تدع دراستك في الجامعة متسعا من الوقت للعمل معه. وقد وقف حديثنا عند هذا الحد ولكن دونيا لا يشغل بالها الآن أمر غير هذا الأمر، وهي منذ بضعة أيام فريسة حمى حقيقية، حتى لقد بنت لمستقبلك في خيالها مشروعاً ضخماً: إنها تقدّر أنك ستستطيع في المستقبل أن تصبح مساعداً بل وشريكاً لبيوتر بتروفتش في أعمال المرافعات التي يقوم بها، لا سيما وأنك تدرس القانون. أما

[٢٧] ... كان مجلس الشيوخ أعلى هيئة قضائية في روسيا ما قبل الثورة وكان يراقب عمل جميع المؤسسات القضائية ويعتبر في نفس الوقت محكمة الاستئناف العليا.

أنا، يا روديا، فإنني متفقة معها كل الاتفاق، أشاركها آراءها وأشاطرها آمالها، وأرى أن ذلك ليس بالمستحيل قط. ورغم ما يظهر الآن على بيوتر بتروفتش من تحفظ، وهو تحفظ يمكن فهمه جداً (لأنه لا يعرفك حتى الآن)، فإن دونيا مقتنعة اقتناعاً جازماً بأنها ستصل إلى تحقيق أهدافها بفضل التأثير الطيب الذي تعرف كيف تستطيع أن تحدثه في نفس زوجها المقبل. إنها من ذلك على اقتناع كامل. لقد تحاشينا طبعاً أن نكشف أمام بيوتر بتروفتش، ولو بكلمة واحدة، عن أحلامنا البعيدة، ولا سيما عن حلم أن نراك شريكاً له في المستقبل. أنه رجل وضعي عملي، فقد يسيء النظرة إلى هذا الأمر، لأنه لن يرى فيه إلا أحلاماً. كذلك لم نشر، لا أنا ولا دونيا، أية إشارة إلى أن نراه يساعدنا في أن نرسل إليك ما أنت في حاجة إليه من مال أثناء دراستك بالجامعة. أننا لم نتكلم في هذا الأمر، أولاً لأنه سيتحقق من تلقاء نفسه في المستقبل، ولأن بيوتر بتروفتش سيعرض عليك هذه المساعدة حتماً بدون أقوال زائدة (لن ينقصنا إلا أن يأبى هذا على دونيا!) لا سيما وأنك تستطيع أن تصبح ساعده الأيمن في المكتب، وأن الأمر لن يكون إذن أمر نجدة أو هبة بل أمر أجر تحصل عليه بجهدك. على هذا النحو إنما تريد دونيتشكا أن ترتب الأمور. وأنا متفقة معها في هذا كل الاتفاق. وثانياً: نحن لم نتكلم في ذلك لأنني حرصت خاصة على أن أضعك في موقف المساواة معه منذ لقائكما القادم. فحين كلمته دونيا عنك بحماسة أجاب بأن على المرء إذا هو أراد أن يحكم على رجل من الرجال أن يراه عن قرب، وقال إنه يحتفظ لنفسه بحق تكوين رأي عنك بعد أن يتعرف إليك. هل تعرف يا روديا، يا كنزي، ما هو شعوري الآن؟ يخيل إليّ، استناداً إلى بعض الخواطر التي تساورني (وهي لا تتعلق ببيوتر بتروفتش، ولا تزيد على أن تكون أهواء امرأة عجوز)، يخيل إليّ أنني سوف أحسن صنعاً إذا أنا لم أعش معهما بعد زواجهما بل أعيش منفصلة عنهما مثلما أعيش الآن. أنني واثقة ثقة مطلقة بأنه يملك من الكرم واللطف ما يكفي لأن يدعوني من تلقاء نفسه، ولأن يقترح عليّ أن لا أنفصل عن ابنتي. وإذا كان قد سكت عن هذا الأمر حتى الآن، فلأنه أمر بديهي لا حاجة إلى الكلام

فيه. ولكنني سأرفض. لقد أمكنني أن ألاحظ أكثر من مرة خلال حياتي أن الاصهار لا يحبون حمواتهم كثيراً. وأنا لا أكره أن أحدث أي إزعاج لأي إنسان فحسب، وإنما أريد كذلك أن أحتفظ بحريتي كاملة ما ملكت ولو لقمة من خبز، وما بقي لي أولاد مثلك ومثل دونيتشكا. سأسكن غير بعيد عنكما إذا أمكن ذلك. هاأنذا احتفظت لنهاية رسالتي بأجمل شيء يمكن أن أزفه إليك يا روديا. اعلم يا بني الحبيب أننا ربما اجتمع شملنا كلنا ثانية في القريب، وأننا قد نتعانق نحن الثلاثة بعد هذا الفراق الذي دام قرابة ثلاثة أعوام. نعم لقد أصبح يقيناً منذ الآن أننا سنسافر أنا ودونيا إلى بطرسبرج. أما متى نسافر فلست أدري، ولكننا سنسافر قريباً جداً، ربما بعد أسبوع. أن كل شيء رهن بالاستعدادات التي سيتخذها بيوتر بتروفتش، وسوف يبلغنا هذه الاستعدادات فور استقراره بطرسبرج. إنه يحرص لأسباب معينة أن يتم الزفاف بأقصى سرعة ويتمنى لو يتم الاحتفال به في غضون شهر إذا أمكن، أو بعد عيد رفع العذراء فوراً إذا كان مضطراً إلى تأجيل الزفاف بسبب قصر الوقت. آه! ما أعظم الفرح الذي سأشعر به حين سأشدك إلى قلبي! إن دونيا تضطرب أشد الاضطراب حين تتصور أنها ستسعد بلقائك. حتى لقد قالت مرة من باب المزاح أنها مستعدة لأن تتزوج بيوتر بتروفتش لا لشيء إلا هذا! إنها ملاك، ملاك حقا! لن تضيف دونيا إلى رسالتي هذه شيئاً، ولكنها ترجوني أن أقول لك أن هناك أموراً كثيرة تريد أن تحدثك فيها، أشياء تبلغ من الكثرة أنها لا تستطيع أن تتناول القلم، لأن المرء لا يمكنه أن يقول ببضعة أسطر شيئاً، فلو حاول أن يكتب لما زاد على أن يثير أعصابه. وهي تكلفني كذلك بأن أعانقك عناقاً شديداً، وأن أبعث إليك بقبلات لا حصر لها ولا عد. ولكن رغم أننا سنلتقي قريباً فإن ذلك لن يمنعني من أن أرسل إليك بعض المال في الأيام القريبة. سوف أرسل إليك ما أستطيع ارساله. فالآن وقد علم جميع الناس أن دونيتشكا ستتزوج بيوتر بتروفتش قريباً أصبح في وسعي فجأة أن استدين مبالغ أكبر من المبالغ التي كنت أستطيع أن أستدينها من قبل، ولقد علمت علم اليقين أن آفاناسي ايفانوفيتش سوف يثق بي فيقرضني سلفة على

معاشي تبلغ ستين روبلاً، فقد أستطيع أن أرسل إليك إذن خمسة وعشرين روبلاً بل ثلاثين. كان يمكن أن أبعث إليك بمبلغ أكبر لولا أنني أخشى نفقات الطريق بعض الخشية. فرغم أن بيوتر بتروفتش رجل طيب وأنه يتحمل جزءاً من النفقات التي سيقتضيها سفرنا إلى العاصمة، أي رغم أنه عرض علينا أن يتولى الإنفاق على شحن أمتعتنا وصندوقنا الكبير (بفضل ما له من علاقات) فإن علينا أن نحسب حساب وصولنا إلى بطرسبرج، فليس يستطيع المرء أن يجيء إلى هذه المدينة بلا قرش في جيبه، ولا سيما في الأيام الأولى. على كل حال، لقد أجرينا أنا ودونيا حساباتنا بأكبر دقة ممكنة، فظهر لنا أن رحلتنا لن تكلف نفقات باهظة. إن المسافة بين بلدتنا وبين محطة السكة الحديدية لا تزيد على تسعين فرسخاً، وقد اتفقنا منذ الآن مع فلاح نعرفه على أن نقطع هذه المسافة بعربته كراءً. ومن هناك، سنسافر سفرا مريحا جدا في الدرجة الثالثة من القطار. هكذا ترى أنني قد أستطيع أن أرسل إليك لا خمسة وعشرين روبلاً بل ثلاثين... ثلاثين حتماً. ولكن حسبي هذا الآن! لقد سودت ورقتين كبيرتين وجهاً وقفاً، ولم يبق فيهما متسع لمزيد من الكلام. ثم إنك قد عرفت الآن قصتنا كلها... الله يعلم كم جرى لنا من أحداث! والآن يا روديا، يا كنزي الحبيب... أقبلك بانتظار لقائنا القريب، وأبعث إليك بركات الأم! أحبب أختك دونيا، يا روديا... أحببها كما تحبك... واعلم علم اليقين أنها تحبك حباً لا نهاية له، أنها تحبك أكثر كثيراً مما تحب نفسها! هي ملاك يا روديا!.. وأنت كل شيء عندنا يا روديا... أنت أملنا كله، وأنت مستقبلنا كله! حسبنا أن تسعد أنت حتى نسعد نحن أيضاً! هل تصلي لله دائماً كما كنت تصلي له يا روديا؟ أما زلت تؤمن برحمة خالقنا وفادينا؟ إنني أخشى في قرارة قلبي أن تكون الزندقة الرائجة في هذا الزمان قد سرت عدواها إليك! فإذا كان الأمر كذلك، فإنني أصلي من أجلك، واستغفر الله لك. تذكر يا بني الحبيب كيف كنت في طفولتك أثناء حياة أبيك، تذكر كيف كنت تتمتم صلواتك جالساً على ركبتي، وتذكر كم كنا سعداء في تلك

الأيام!.. استودعك الله يا روديا، بل إلى اللقاء! أنني أشدك إليّ شداً قوياً، أعانقك، وأطبع على وجهك قبلات لا حصر لها...

لك حتى الممات،

بولخيريا راسكولنيكوفا»

منذ بدأ راسكولنيكوف قراءة الرسالة إلى أن أتمها، لم تنقطع الدموع عن الجريان على خديه. ولكنه حين فرغ من قراءتها ارتعش وجهه الذي اصفر على حين فجأة، وطافت به ابتسامة أليمة حانقة شنجت شفتيه. وتهاوى برأسه على وسادته الهزيلة القذرة، وراح يفكر... راح يفكر ملياً... كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً. وكانت أفكاره مضطربه أشد الاضطراب. وأحس أخيراً باختناق في هذه الحجرة الصفراء التي تشبه أن تكون خزانة أو صندوقاً. إن نظراته وأفكاره تحتاج إلى فضاء واسع. فتناول قبعته وخرج... خرج دون أن يخشى في هذه المرة أن يلتقي بأحد على السلم... أصبح لا يفكر في هذا الأمر. ومضى في اتجاه جزيرة فاسيلفسكي سالكاً شارع فـ...، كأن أمراً ملحاً مستعجلاً كان يناديه إلى هناك. ولكنه كان، على عادته، يسير دون أن يلاحظ أي شيء أثناء الطريق، وكان يدمدم بكلام بينه وبين نفسه، بل كان يتكلم أيضاً بصوت عال، فيثير بذلك دهشة المارة، حتى لقد حسبه الكثير من الناس سكران.

الفصل الرابع

أرهقته رسالة أمه إرهاقاً شديداً. ولكنه فيما يتعلق بالنقطة الجوهرية الأساسية لم يساوره الشك لحظة حتى عبد القراءة الأولى. كان قد اتخذ في جوهر القضية قرارا لا رجعة عنه «لن يتم هذا الزواج ما حييت. فليذهب السيد لوجين إلى الشيطان!»

كان يجمجم قليلاً بينه وبين نفسه وهو يبتسم ابتسامة ساخرة ويتلذذ منذ الآن تلذذاً خبيثاً بانتصار قراره: «الأمر واضح لا لبس فيه. لا يا أماه، لا يا دونيا، لن تستطيعا أن تخدعاني... وهي تعتذر أيضاً عن أنها لم تستشرني وعن أنها رتبت الأمر دون علمي ودون إرادتي! ذلك طبيعي! هما تتخيلان إذن أنه لم يبق سبيل إلى فسخ الخطوبة. طيب! سوف نرى أهناك سبيل إلى ذلك أم لا! ويا لها من حجة: «إنه رجل مشغول جداً، بيوتر بتروفتش هذا... يبلغ وقته من الازدحام بالأعمال إنه لا يستطيع أن يتزوج إلا على جناح السرعة، حتى لكأنه يتمنى أن يتم الزواج في عربة سريعة العدو إن لم يكن في القطار!» لا، لا، يا دونيتشكا... وإني لأعلم ما هي الأشياء الكثيرة التي تريدين أن تحدثيني عنها... وإني لأعلم أيضاً ما الذي فكرت فيه طوال الليل وأنت تذرعين الغرفة جيئة وذهاباً، وما الذي طلبته في صلواتك أمام «عذراء قازان» التي توجد أيقونتها في غرفة نوم أمنا. ما أشد وعورة طريق الجلجة... هِمْ... هكذا إذن... كل شيء قد تقرر نهائياً... تريدين يا أفدوتيا رومانوفنا أن تتزوجي رجلاً من رجال الأعمال، رجلاً وضعياً عملياً، يملك رأس مال له (أو فلنقل يملك منذ الآن رأس مال له، فذلك أقرب إلى فرض المهابة والاحترام) يشغل وظيفتين في آن واحد ويشارك أجيالنا الجديدة آراءها (كما كتبت الأم) رجلا هو «فيما يبدو طيب» (كما تلاحظ دونيا نفسها). ما أبلغ هذا التعبير: فيما يبدو! أن دونيتشكا هذه نفسها هي التي ستتزوج ذلك الرجل، الطيب فيما يبدو! رائع! رائع!..

... على أنني يهمني أن أعرف لماذا حدثتني أمي في رسالتها عن «الأجيال الجديدة»؟ تُرى أهي فعلت ذلك من أجل أن تصف لي طبع الرجل فحسب أم فعلته لغاية أبعد من ذلك هي أن تهيئني لأن أحكم على السيد لوجين حكماً حسناً وأن أرى فيه رأياً جيداً؟ آه... يا للماكرتين! وانه ليهمني أيضاً أن أعرف الحقيقة فيما يتعلق بالنقطة التالية: إلى أي حد كانت كل منهما صريحة مع الأخرى في ذلك اليوم وفي تلك الليلة وفي سائر الوقت؟ هل نُطقت جميع الكلمات حقاً، أم أن كلاً منهما قد فهمت ما يدور في قلب الأخرى وما يجري في فكرها، فكان كل كلام زيادة لا طائل تحتها ولا داعي اليها؟ لعل الأمر كان كذلك، في جله على الأقل.. هذا ما يدركه المرء حق الإدراك من الرسالة نفسها: فالرجل قد بدا لأمي مسرفاً في الصرامة بعض الإسراف، ولا بدُ أن تكون أمي بسذاجتها المعهودة فيها قد أسمعت دونيا ملاحظتها الماعاً وتلميحاً، ولا بد أن تكون الأخرى قد اغتاظت طبعا فكان في جوابها شيء من «الغضب والحزن». ذلك طبيعي! من ذا الذي يمكن أن لا يغضب حين يكون الأمر واضحاً يفقأ العينين، وحين لا يكون ثمة حاجة إلى أية ملاحظة تقال، وحين يكون كل شيء قد تقرر فلا داعي إلى كلام؟ ولماذا تكتب لي أمي قائلة: «أحبب دونيا يا روديا. إنها تحبك أكثر كثيراً مما تحب نفسها؟» أليس مرد هذا إلى عذاب الضمير الذي يبرّحها خفية، أنها ضحّت في سبيل ابنها بابنتها؟ «أنت أملنا كله. أنت كل شيء عندنا» آه يا أماه! إن غضباً ما ينفك يشتد ويقوى كان يتجمع في نفسه ويتراكم، فلو لقي السيد لوجين في تلك اللحظة، إذن لقتله في أغلب الظن!

واصل يقول متابعاً إعصار أفكاره الذي كان يعصف في رأسه: «هِم... هذا حق... هذا حق... من أراد أن يعرف أحداً فعليه «أن يتصرف ازاءه تصرفا فيه كثير من التروي والتعقل والحكمة والحذر». ولكن السيد لوجين واضح شفاف. هو قبل كل شيء «رجل من رجال الأعمال» وهو «طيب فيما يبدو». إلا نرى أنه يتولى شحن أمتعتهما وصندوقهما الكبير على نفقته؟ فكيف لا يكون إذن طيباً؟ والخطيبة والأم كلتاهما تستأجران فلاحاً يملك عربة ذات غطاء من قماش خشن (أنا أعرف ما هذا، فقد بلوته، وقطعت هذه

المسافة بتلك الطريقة). أي ضير؟ إن المسافة لا تزيد على ٩٠ فرسخاً[٢٨]، «ومن هنا نسافر سفراً مريحاً جداً في الدرجة الثالثة من القطار». ألف فرسخ في الدرجة الثالثة!! معقول جدا: إن كل إنسان ينفق ما تسمح له موارده بانفاقه! ولكن ما رأيك أنت يا سيد لوجين؟ ما رأيك أنت؟ الفتاة خطيبتك... ولا بد أنك تعلم أن الأم ستقترض سلفة على معاشها لتستطيع سداد نفقات الرحلة! عقلك عقل تجاري محض طبعاً... أنت تنظر إلى الأمر نظرتك إلى مشروع تجاري يشترك فيه طرفان يقتسمان ارباحه نصيبين متساويين، فلا بد أن يسهم كل منهما في نفقاته بنصيبه كاملا. لسان حالك يقول ما يقوله المثل السائر «الخبز والملح لي ولك، أما التبغ. فلكل تبغه الخاص به». ولكن رجل الأعمال قد غشهما وغبنهما في هذه النقطة أيضاً: نفقات شحن الأمتعة أقل من نفقات السفر، وقد يستطيع رجل الأعمال هذا أن يشحن الأمتعة بالمجان. أهما لا تريان هذا أم هما لا تريدان أن ترياه؟ والعجيب أنهما راضيتان، راضيتان! وما هذه إلا الأزهار أما الثمار فستأتي بعد ذلك! وأخطر ما في الأمر ليس هو البخل، ليس هو الشح، وإنما هو هذا الطابع العام الذي يطبع الأمر كله مؤذنا بما ستصير إليه الأحوال بعد الزواج... وأمي: ما بالها تريد ارتكاب حماقات؟ بماذا ستصل إلى بطرسبرج؟ بثلاثة روبلات في جيبها، أو «بورقتين صغيرتين»[٢٩] كما قالت تلك العجوز المرابية. هِمْ... وعلى أي شيء تعوّل من أجل أن تعيش بعد ذلك في بطرسبرج؟ بناء على بعض القرائن لقد استطاعت مع ذلك أن تدرك أنه سيستحيل عليها أن تعيش مع دونيا حتى أثناء الآونة الأولى من الزواج. لا شك أن الرجل العزيز قد كشف القناع عن نفسه بطريقة أو أخرى، لا شك أن هذا قد أفلت من لسانه، رغم أن أمي تستبعد هذا الافتراض بكلتا يديها قائلة: «أنا سأرفض». فعلى أي شيء تعوّل إذن؟ أهي تعوّل على معاشها الذي يبلغ مائة وعشرين روبلاً سيقتطع منها الدين المقترض من آفاناسي إيفانوفتش؟ إنها تقضي الوقت كله في حياكة مناديل شتوية وتطريز أكمام، فترهق بذلك عينيها المتعبتين.

---

[٢٨] مائة كيلو متر تقريبا.

[٢٩] أي بورقتين صغيرتين قيمة كل منهما روبل واحد.

ولكن حياكة المناديل وتطريز الأكمام لا يضيفان إلى المائة وعشرين روبلا في السنة إلا عشرين أخرى. أنا أعلم ذلك! هي إذن تعتمد رغم كل شيء على كرم القلب ونبل النفس لدى السيد لوجين: «سيعرض عليّ من تلقاء نفسه أن يساعدني، وسيلحّ...». لقد أخطأ ظنها فلن تنال ما تتمناه! هكذا حال نفوس شيللر[٣٠] الطيبة دائماً: تظل حتى آخر لحظة تزين الناس بريش الطاووس، تظل حتى آخر لحظة تفترض الخير لا الشر، ورغم تصورها وجود الشر فإنها لا يمكن أن تعترف لذلك لنفسها بحال من الأحوال: إن تصور هذا وحده يصدمها ويهزها هزاً قوياً. فهي بيديها تحجب وجهها حتى لا ترى الحقيقة، إلى أن يأتي الإنسان الذي زينته بريش ملون من خيالها فيصفع وجهها ويدمي أنفها بيده نفسها. ليتني أعرف هل يملك السيد لوجين أوسمة. إنني أراهن على أنه يملك وسام القديسة حنّة[٣١] وإنه يزين به سترته حين يذهب إلى حفلة عشاء يقيمها أحد من المقاولين أو التجار. ولن ينسى أن يفعل ذلك أيضاً يوم زفافها على كل حال... شيطان يأخذه!..

والله... إني لأسامح أمي، فهي كما هي، كان الله في عونها!.. ولكن ماذا أقول عن دونيا؟ إنني أعرف يا عزيزتي دونتشيكا! كنت قد بلغت العشرين من عمرك حين التقينا آخر مرة. وقد أدركتُ طبعك وفهمت خصالك منذ تلك اللحظة. أمي تقول «إن دونتشيكا تستطيع احتمال أشياء كثيرة»... نعم... هذا أمر أعرفه، أعرفه منذ سنتين ونصف سنة... وأنا منذ سنتين ونصف سنة، لا أفكر إلا في هذا، لا أفكر إلا في هذا نفسه... وهو أن «دونتشيكا تستطيع احتمال أشياء كثيرة». لكن استطاعت أن تحتمل السيد سفيدريجايلوف، وأن تحتمل كل العواقب التي ترتبت على سلوكه، فهذا دليل على أنها تستطيع فعلاً أن تحتمل أشياء كثيرة!.. وها هما الآن، هي وأمي، قد تخيلتا أن في الإمكان احتمال رجل مثل السيد لوجين،

---

[٣٠] ... هكذا حال نفوس شيللر الطيبة... الإشارة هنا إلى أبطال مسرحيات الشاعر والكاتب المسرحي الألماني العظيم يوهان فريدريش شيللر (١٧٥٩ – ١٨٠٥) الذي تغنى بالحرية وأشاد بالمشاعر النبيلة.

[٣١] وسام القديسة آنا: يمنح تقديراً لخدمة الدولة وله أربع درجات.

لا يتحرج من شرح مزايا زواج الرجل بامرأة فقيرة كي لا تشعر بفضلها عليه، ولا يتحرج من شرح هذه النظرية منذ أول لقاء! طيب... لنسلم بأن ذلك قد «أفلت» من لسانه على غير إرادة منه، رغم أنه رجل وضعي عملي (فمن الجائز أن شيئًا لم يفلت من لسانه افلاتاً وانما هو أراد عامداً أن يوضح الأمور دون أن يضيع وقتاً). ولكن ماذا أقول في دونيا؟ ماذا أقول في دونيا؟ لا شك أنها قد كشفت الرجل وأزاحت القناع عن وجهه وعرفته على حقيقته، ثم هي تقبل أن تعيش معه! إنها تؤثر أن لا تأكل إلا خبزاً وأن لا تشرب إلا ماء، على أن تبيع روحها!.. إنها لا يمكن في سبيل الحصول على الرخاء أن تفقد حريتها! أنها تأبى أن تتنازل عن هذه الحرية في سبيل دوقيتي شفلفسيج وهولشتاين[٣٢]، فكيف تتنازل عنها في سبيل السيد لوجين؟.. لا! إن دونيا التي أعرفها لم تكن هكذا... من المؤكد أن طبعها لم يتغير حتى الآن... فماذا أقول؟ صحيح أنه أمر شاق عليها أن تحتمل آل سفيدريجايلوف، وأن تظل طوال حياتها تمضي من اقليم إلى إقليم لتعمل مربية في سبيل أن تجني مائتي روبل. ولكن أعلم أن أختي تؤثر أن تساء معاملتها كما يسيء مزارع معاملة زنجي أو كما يسيء ألماني من مقاطعات البلطيق معاملة رجل لاتفي[٣٣]، على أن تدنس روحها وأن تفسد حسها الأخلاقي بالارتباط إلى الأبد ومن أجل مصلحتها الشخصية فحسب برجل لا تحبه ولا يجمعها به شيء! ولا بد أن ترفض أن تصبح خليلة شرعية للسيد لوجين ولو كان السيد لوجين ذهباً كله أو ماساً كله! فلماذا تقبل هذا الزواج الآن؟ ما سبب هذا؟ ما هو مفتاح السر؟ الأمر واضح! لو كانت تنشد مصلحتها هي ورخاءها هي، لرفضت أن تبيع نفسها ولو لتجنب الموت. أما في سبيل شخص آخر فإنها مستعدة أن تبيع نفسها! نعم إنها في سبيل شخص محبوب، في سبيل شخص معبود، مستعدة لأن تبيع

---

[٣٢] إن الحرب التي شنتها بروسيا على الدنمارك (سنة ١٨٦٤) وعلى النمسا (سنة ١٨٦٦) لامتلاك دوقيتي شفلفسيج وهولشتاين. وقد نشرت الجرائد والمجلات الروسية الأنباء الكثيرة عنها في الستينات من القرن التاسع عشر.

[٣٣] كانت الصحف الروسية تتحدث كثيراً آنذاك عن سوء معاملة الزنوج في أمريكا بسبب حرب الانفصال (١٨٦١ – ١٨٦٥)؛ وكان معروفاً أن البارونات الألمان في مقاطعات البلطيق يسومون الليتوانيين سوء العذاب.

نفسها! ذلك هو مفتاح اللغز: إنها في سبيل أخيها وفي سبيل أمها قادرة على أن تبيع نفسها، على أن تبيع كل شيء! آه... نعم إننا نستطيع عند اللزوم أن نخنق حتى إحساسنا الأخلاقي! إننا نستطيع عند اللزوم أن نحمل إلى السوق كل شيء فنبيعه فيها: الحرية، الطمأنينة، وحتى راحة الضمير! ألا فلتتحطم حياتنا إذا كان في ذلك سعادة لأولئك الذين نحبهم! وأكثر من ذلك إننا نلفق لأنفسنا عندئذ سفسطةٍ خاصة نتعلمها من اليسوعيين فنريح ضمائرنا إلى حين، مسوّغين أعمالنا قائلين لأنفسنا: إن ما فعلناه هو ما كان ينبغي لنا أن نفعله ما دمنا نعمل في سبيل هدف نبيل وغاية شريفة! نحن جميعاً هكذا. كل شيء واضح الآن وضوح النهار. لا شك أن روديون رومانوفتش راسكولنيكوف، ولا أحد سواه، قد احتل المقام الأول من الاعتبار في هذه القصة. كيف لا؟ أن من الواجب أن نعمل لتوفير السعادة له، وأن نعيله ما ظل في الجامعة، وأن نجعله في المستقبل شريكاً لرجل من رجال الأعمال، أي أن نضمن له مستقبله، فيصبح غنياً محترماً مرموقاً، حتى لقد يصل في أواخر أيامه إلى المجد. والأم؟ ما قولنا في الأم؟ ولكن الأمر هنا أمر ولدها الأول، أمر ابنها روديا، أمر ابنها الغالي روديا! فكيف لا تضحي في سبيل مثل هذا الولد الأول بمثل هذه البنت؟ يا لظلمك أيتها القلوب العزيزة! أتجهلين إذن أن المرء قد تدفعه نية كهذه النية أن يشاطر صونيا مصيرها؟ نعم صونيا، صونيتشكا مارميلادوفا، صونيتشكا الخالدة، الخالدة خلود العالم! ولكن هل تصورتما كلتاكما مدى هذه التضحية؟ هل هذه التضحية هي حقا ما تفكران فيه؟ هل تملكان القدرة على القيام بهذه التضحية؟ وهل هذه التضحية مفيدة حقاً؟ وهل هي معقولة؟ هل تعلمين يا دونيتشكا أن مصير صونيا ليس أفظع من مصير امرأة قضى عليها أن تعيش مع السيد لوجين؟ أن أمي تقول: «لا مجال للكلام عن حب حقيقي» ولكن ما عسى يحدث، بصرف النظر عن قضية الحب هذه كلها، إذا لم يكن هنالك أيضاً شيء من الاعتبار والاحترام، بل كان هنالك منذ الآن نفور واحتقار واشمئزاز؟ ما عسى يحدث حينذاك؟ سيكون من الواجب عندئذ مرة أخرى... «مراعاة النظافة». أليس الأمر كذلك؟ هل

تفهمان، هل تفهمان حق الفهم ماذا تعنيه هذه النظافة؟ هل تدركان أن هذه النظافة لا تختلف عن نظافة صونيتشكا، بل من الممكن أن تكون أحقر منها وأدنى وأسفل، لأنك يا دونيتشكا تستهدفين مزيداً من الرخاء، أما هنالك فالأمر لا يزيد على الرغبة في تحاشي الموت جوعاً. «إنها تكلف ثمناً باهظاً، باهظاً جداً يا دونيتشكا، تلك النظافة»! وماذا إذا أصبح الحِمل في المستقبل أثقل من أن تطيقيه، فاستبدت بك الندامة؟ ما أشد ما ستشعرين به عندئذ من حزن ومن كرب، وما أكثر ما سيلاحق ضميرك عندئذ من لعن، وما أغزر ما ستذرفين عندئذ من دموع تخفينها عن أعين الناس، لأنك لست امرأة مثل مارفا بتروفنا على كل حال؟ وما عسى تصير إليه أمنا حينذاك؟ إنها منذ الآن قلقة معذبة، فكيف تكون حالها في المستقبل حين ترى كل شئ رؤية واضحة؟ وأنا؟.. ما الذي تظنينه فيّ إذن؟ إنني لا أريد هذه التضحية يا دونيتشكا! إنني لا أريدها يا أماه! لا، لن يتم هذا الأمر ما حييت، لن يتم، لن يتم! إني أرفضه!»

هنا ثاب راسكولنيكوف إلى رشده فجأة، فتوقف عن السير، ثم واصل يخاطب نفسه:

«لن يتم هذا الزواج؟ ولكن ما عساك تفعل حتى تحول دونه؟ أتمنعها؟ ولكن بأي حق تمنعها؟ ما الذي تستطيع أن تعدهما به في مقابل ممارسة مثل هذا الحق؟ أن تقف عليهما حياتك كلها ومستقبلك كله متى أنهيت دراستك ووجدت عملاً؟ أغنية معروفة!.. ذلك كله في المستقبل، فماذا في الحاضر؟ يجب عليك إذن أن تعمل شيئاً منذ الآن، هل تفهم؟ فماذا تفعل أنت الآن؟ إنك تعيش عالة عليهما. والمال الذي تنفقانه عليك إنما تقترضانه سلفة على معاش التقاعد وعلى أجور من أمثال السيد سفيدريجايلوف! وكيف عساك تحميهما من أمثال سفيدريجايلوف وأمثال آفاناسي ايفانوفيتش فاخروشين؟ أنت يا مليونير المستقبل، أنت يا إله الأولمب الذي تتحكم بمصيرهما، أبعد عشر سنين تفعل لهما شيئاً؟ ولكن أمك ستكون بعد عشر سنين قد فقدت بصرها من فرط انكبابها على حياكة المناديل، وربما من فرط ذرفها الدموع، وسيكون تكرر

الصيام عن الطعام والحرمان من الغذاء قد انتصر عليها فهدم جسمها!.. أما أختك.. فهيّا تخيل قليلا ما ستصير إليه بعد عشر سنين، هيا تخيل قليلا ما ستؤول إليه حالها بعد عشر سنين، هل تتخيل؟»

هكذا، بهذه الأسئلة، إنما كان راسكولنيكوف يعذب نفسه، فكان الاهتياج الذي يحسّه من ذلك يستحيل إلى نوع من تلذذ. على أن هذه الأسئلة ليس فيها شيء غير متوقع. إنها غير جديدة عليه، بل هي قديمة جداً، وهي تعذبه منذ زمن طويل. نعم، لقد كانت هذه الأسئلة تعذبه وترهقه وتمزق قلبه منذ زمن طويل. لقد كان هذا القلق يشب في نفسه وينمو ويتراكم منذ زمن طويل. ونضج هذا القلق في الآونة الأخيرة، وتركز وتكثّف، فإذا هو يتخذ صورة سؤال رهيب، سؤال وحشي عجيب، يضني قلبه وفكره، ويطلب جواباً لا سبيل إلى تحاشيه. وها هي ذى رسالة أمه تنقض عليه فجأة كما تنقض الصاعقة. أصبح واضحاً أن الواجب الذي يقع على عاتقه الآن ليس هو أن يقلق وأن يتألم قاعداً لا يعمل معتقداً أن المسألة لا حل لها، وإنما ينبغي له الآن أن يفعل شيئاً بأقصى سرعة ممكنة، بل وينبغى له الآن أن يفعل شيئاً على الفور. إن من واجبه أن يتخذ قراراً مهما كلف الأمر، أياً كان هذا القرار، أو أن...

ثم صاح يقول فجأة بصوت عال وقد خرج عن طوره :

«... أو أن أستغني عن الحياة، فأقبل مصيري صاغراً إلى الأبد، وأخنق فى نفسي كل شيء، وأتنازل عن حقي في أن أعمل، وأن أحيا، وأن أحب!»

وتذكر السؤال الذي ألقاه عليه بالأمس مارميلادوف: «وهل تدرك يا سيدي الكريم ما معنى أن لا يكون للإنسان مكان يذهب إليه؟ ذلك أنه لا بد لكل إنسان من أن يجد ولو مكاناً يذهب إليه...»

وارتعش راسكولنيكوف على حين فجأة. إن فكرة آتية من البارحة هي أيضاً قد ومضت في ذهنه مرة أخرى. ولكن لئن ارتعش، فإنه لم يرتعش لأن هذه الفكرة قد ومضت في ذهنه. لقد كان يعلم، كان يوجس أن هذه الفكرة لا بد أن تعاوده، فكان يتوقعها وينتظرها. غير أن هذه الفكرة ليست الآن ما كانت في البارحة، والفرق بينها وبين فكرة البارحة أنها لم تكن منذ شهر، ولا في البارحة، إلا حلماً، أما الآن... أما الآن فهي لا تعرض لفكره في صورة حلم، بل هي تعرض له في صورة جديدة، في صورة رهيبة مخيفة، لا عهد له بها من قبل... لقد أدرك ذلك على حين بغتة... فأخذ الدم يدق في صدغيه، واسودّ كل شيء أمام عينيه.

ألقى على ما حوله نظرة سريعة. كان يبحث عن شيء ما. كان يريد أن يجلس، فهو يبحث عن دكة يقعد عليها. إنه الآن في بولفار ك... وعلى مسافة مائة خطوة في الأمام توجد دكة. اتجه راسكولنيكوف نحو الدكة بأقصى سرعة يستطيعها، غير أن حادثاً صغيراً وقع له أثناء الطريق، فشدّ انتباهه كله خلال بضع دقائق.

لقد لمح، وهو يبحث بنظره عن الدكة، لمح امرأة كانت تسير أمامه، على بعد عشرين خطوة تقريباً. غير أنه في أول الأمر لم يولها أي انتباه، كما لم ينتبه إلى كل ما كان قد صادفه حتى الآن. لقد اتفق له، مراراً كثيرة، أن رجع إلى منزله دون أن يتذكر الطريق الذي سلكه. تلك عادة أصبحت راسخة فيه. ولكن المرأة التي تسير أمامه الآن فيها شيء يبلغ من الغرابة والشذوذ ومن القدرة على لفت النظر وخطف البصر، إن انتباهه قد تركز عليها شيئا بعد شيء، رغم إرادته وعلى ما يشبه المضض في أول الأمر، ثم بقوة ما تنفك تزداد بعد ذلك. واستبدت به رغبة مفاجئة في أن يعرف ما هو الشيء الذي يبلغ في هذه المرأة ذلك المبلغ كله من الغرابة. وسرعان ما أدرك أنها لا بد أن تكون فتاة في ريعان الشباب. كانت الفتاة، رغم الحر الشديد، تسير حاسرة الرأس بلا مظلة ولا قفازين، مرجحة يديها بحركات غريبة مضحكة. وكانت ترتدي ثوبا صغيراً من حرير خفيف، لُبس بشكل غريب أيضاً، غير مزرر تقريباً، وقد انشق من الخلف عند الخصر، وتمزق جزء كبير منه فتهدل. وكانت تضع حول عنقها العاري منديلاً صغيراً قد لُفّ مقلوباً. وكانت الفتاة، فوق ذلك، تمشي مشية مضطربة، فهي تتعثر وتترنح ذات اليمين وذات الشمال. إن هذا اللقاء أثار كل اهتمام راسكولنيكوف آخر الأمر. وقد أدركها لحظة كانت تقترب من الدكة، ولكن الفتاة ما إن وصلت إلى الدكة حتى تهالكات تجلس على أحد طرفيها، وتقلب رأسها إلى وراء فتسنده إلى ظهرها، وتغمض عينيها وقد ظهر عليها أنها محطمة من فرط التعب. فلما تأمّلها لم يلبث أن لاحظ أنها ثملة قد أخذ السكر منها كل مأخذ. وكان ظهورها على هذا النحو يبلغ من الغرابة والشذوذ أن راسكولنيكوف تساءل هل تصدقه عيناه، كان أمامه وجه بائس في ميعة الصبا، وجه لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً، وقد لا يزيد على خمسة عشر عاماً، دقيق نحيل يحف به شعر أشقر، جميل ولكنه محتقن حتى لكأنه منتفخ متورّم. وكان يبدو أن

الفتاة لا تعي شيئاً. لقد وضعت ساقاً فوق ساق، فانكشف من ساقيها ما لا يليق أن ينكشف، وأغلب الظن أنها كانت لا تكاد تدرك أنها في الشارع.

لم يجلس راسكولنيكوف، ولكنه لم يشأ أيضاً أن ينصرف، فبقي واقفاً أمامها وقد استولت عليه الحيرة واستبد به الاضطراب. كان البولفار دائماً خالياً، أما الآن بعد الساعة الواحدة بعد الظهر من ذلك اليوم، أثناء ذلك الحر الشديد، فلم يكد يمر فيه أحد. ومع ذلك فعلى بُعد خمس عشرة خطوة، كان قد وقف سيد عند حافة البوليفار يبدو واضحاً أنه يريد هو أيضاً أن يقترب من الفتاة لغاية واضحة. لا شك أنه كان هو أيضاً قد لمحها من بعيد فتبعها. ولكن راسكولنيكوف يضايقه الآن ويزعجه. ألقى السيد على راسكولنيكوف نظرات فيها كره وبغض، محاولاً مع ذلك أن لا يلمحها راسكولنيكوف، وأخذ ينتظر، بفارغ صبر، انصراف هذا المتشرد الذي جاء في غير أوانه ليحتل مكانه.

كان الأمر إذن واضحاً. والسيد رجل في نحو الثلاثين من عمره، بدين الجسم، سمين، نضر الوجه، يعلو شفتيه الحمراوين شاربان صغيران، ويرتدي ثياباً أنيقة كل الأناقة.

غضب راسكولنيكوف غضباً رهيباً، واستبدت به على حين فجأة رغبة جامحة في أن يهين هذا السيد السمين المتأنق بطريقة أو بأخرى، فترك الفتاة لحظة، واقترب من السيد، وصاح يقول وهو يشد قبضتي يديه ضاحكاً مُزبداً، ناقماً عليه:

– هيه! أنت! سفيدريجايلوف! ماذا تريد هنا؟

فسأله الرجل بلهجة قاسية متعالية متكبرة وقد قطب حاجبيه وظهرت الدهشة في وجهه:

– ما معنى هذا الذي تقول؟

– معناه أغرب عن وجهي! هذا معناه!..

– كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام أيها الوغد الحقير؟ قال الرجل ذلك وشهر سوطه يلوّح به. فما كان من راسكولنيكوف إلا أن هجم عليه قابضاً كفيه، حتى دون أن يقول لنفسه إن هذا السيد السمين يستطيع بسهولة أن يجهز على شخصين مثله. ولكن أحداً قد أمسكه من خلف في تلك اللحظة نفسها إمساكاً قوياً: إنه رجل من رجال الشرطة يتدخل في المشاجرة.

– هيه! ما بالكما أيها السيدان؟ هلا امتنعتما عن الاقتتال في الطريق العام؟

ثم قال يسأل راسكولنيكوف بلهجة قاسية بعد أن تفحص أسماله البالية:

– ماذا تريد؟ من أنت؟

تفرس فيه راسكولنيكوف بانتباه. إن للرجل وجه جندي شجاع طيب، مع شاربين وسالفين قد وخط شعرهما الشيب، وان له نظرة تفيض تعبيرا عن الحس السليم والعقل الراجح.

صرخ راسكولنيكوف يقول وهو يمسك ذراع الشرطي:

– أنت أنت من أحتاج اليه! اسمي راسكولنيكوف... إذا كنت تريد أن تعرف اسمي. أنا طالب سابق...

والتفت يخاطب السيد بقوله:

– هذا ما يمكن أن تعرفه أنت!..

ثم عاد يخاطب الشرطي فقال:

– تعال معي! سأريك شيئاً!

وقاد الشرطي من يده إلى الدكة، وأخذ يتدفق في الكلام قائلاً له:

– انظر! إنها سكرى تماماً... كانت مارّة في البولفار منذ قليل... لا يدري أحد من أين خرجت... ولكن لا يبدو عليها أنها محترفة.. أغلب الظن أنهم أسكروها في مكان ما، ثم عبثوا بها، لأول مرة في حياتها... هل تفهم؟ ثم رموها في الشارع... انظر إلى ثوبها كيف تمزق... انظر كيف لبس... أنها لم تلبس ثيابها بنفسها، بل ألبسها أحد ثيابها... ألبستها ثيابها أيدٍ غير خبيرة، ألبستها ثيابها أيدي رجال... ذلك واضح! ثم انظر الآن هناك: انظر إلى ذلك الرجل المتأنق الذي أردت أنا أن أضربه منذ لحظة... إنني لا أعرفه... ما رأيته في حياتي قبل اليوم! لكنه لاحظها هو أيضاً في الطريق، فأدرك أنها سكرى، وأنها فاقدة شعورها كله. وهو الآن تحرقه رغبة رهيبة في أن يقترب منها وأن يقودها إلى مكان ما وهي على هذه الحالة... ذلك هو ما يريده حتماً... صدّق أنني غير مخطئ... لقد رأيت بنفسي كيف رصدها وتبعها... ولكن وصولي أفسد عليه خطته، فكان ينتظر أن أنصرف، وما يزال ينتظر أن أنصرف... انظر اليه... لقد ابتعد قليلاً... وها هو ذا يقف متظاهراً بانه يلف سيجارة... كيف نفعل حتى لا ندع له أن يستولي عليها؟ ليتنا نستطيع أن نقودها إلى منزلها... ما رأيك؟

سرعان ما أدرك الشرطى الموقف. إن حالة السيد السمين واضحة لا سبيل إلى الشك فيها. بقي أن تُعرف حالة الفتاة. مال الشرطي عليها ليراها من قرب، فارتسمت على قسمات وجهه عاطفة شفقة صادقة. قال وهو يهز رأسه:

– آه! يا للمسكينة! ما تزال طفلة حقاً! لا شك أنهم عبثوا بها!

ثم أضاف يناديها:

– اسمعي يا آنسة! اين تسكنين؟

فتحت الفتاة عينيها المكدودتين الناعستين، وألقت نظرة مشدوهة على الرجلين المزعجين، وأجرت يدها بحركة كأنها تريد أن تطردهما.

قال راسكولنيكوف وهو ينبش جيبه فيخرج منه عشرين كوبيكاً كانت ما تزال فيه:

– أسمع! خذ هذه النقود، وناد حوذياً، ومُره أن يقودها إلى بيتها. ليتنا نستطيع أن نعرف عنوانها!..

عاد الشرطي يقول وهو يتناول النقود:

– يا آنسة؛ هيه! يا آنسة! سأنادي عربة على الفور فأعود بك إلى منزلك بنفسي! إلى أين يجب أن أقودك؟ قولي! أين تسكنين؟

فجمجمت الفتاة تقول وهي تُجري يدها بتلك الحركة نفسها:

– دعوني وشأني! لا تتشبثوا بي!

– آه! ليس هذا بالمستحسن يا آنسة! هذا عيب. هذا عيب حقاً.

وهز رأسه من جديد، معبّراً عن العتاب والشفقة والاستنكار في آن واحد، ثم تابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف وهو ينظر إليه مرة أخرى من أخمص القدمين إلى قمة الرأس. أغلب الظن أنه بدا له غريباً أيضاً؛ يهب المرء نقوداً ثم هو يرتدي مثل هذه الأسمال الرثة البالية:

– نعم... العنوان... تلك هي المسألة!

وأضاف يسأله:

– هل التقيت بها في مكان بعيد عن هنا؟

– سبق أن قلت لك: كانت تسير أمامي مترنحة، هناك، في البوليفار فما إن وصلت إلى الدكة حتى تهاوت عليها!

– آه! ما أكثر العار الذي سقط على العالم يا رب! أطفلةٌ وسكرى؟ لا شك أنهم قد عبثوا بها! ذلك واضح... انظر إلى ثوبها كيف تمزق كل التمزق... هه... إن الدعارة تحقق تقدماً كبيراً في هذا الزمان!.. ومن يدري؟ لعلها من أسرة طيبة جار عليها الدهر فأصابها بالدمار... أمثال هذه الحالات كثيرة في هذه الأيام... إن المرء حين يراها لطيفة هذا اللطف كله مرهفة هذه الرهافة كلها، يمكن أن يحسبها آنسة من أسرة راقية نبيلة.

قال الشرطي ذلك ومال عليها من جديد. لعل له هو أيضاً بنات «تبلغ من اللطف والرهافة أن المرء يمكن أن يحسبهن آنسات من أسرة نبيلة»، يصطنعن آداب الفتيات الراقيات ويقلدنهن فيما يخص الموضة.

قال راسكولنيكوف:

– الأمر الأساسي هو ألا نتركها لهذا الوغد الدنئ! إن من الممكن أن يلحق بها إيذاءات جديدة. نياته واضحة وضوح النهار! يا للوغد القذر! إنه لا ينصرف.

كان راسكولنيكوف يتكلم بقوة وهو يومئ إلى السيد بإصرار عنيد. سمعه الرجل فأوشك أن يغضب من جديد، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك واكتفى بأن ألقى عليه نظرة احتقار، ثم ابتعد ببطء مسافة عشر خطوات، وتوقف مرة أخرى.

أجاب الشرطي واجماً مفكراً يقول:

– أن لا ندعها له فذلك أمر سهل إذا نحن عرفنا المكان الذي ينبغي أن نقودها إليه، ولكن...

قال الشرطي ذلك ومال على الفتاة مرة أخرى وأخذ يناديها:

– يا آنسة! هيه يا آنسة!

فتحت الفتاة عندئذ عينيها محملقةً، ونظرت بانتباه كأنما هي فهمت شيئاً ما، ثم نهضت عن الدكة واستأنفت سيرها في الاتجاه الذي كانت آتية منه. وجمجمت تقول وهي تُجري يدها بتلك الحركة نفسها كأنما لتتخلص من الرجلين:

– آه! إنهم لا يتحرجون ولا ينفكون يتشبثون.

كانت تمشي بسرعة، ولكنها تترنح في مشيتها كترنحها منذ قليل. تبعها السيد الأنيق دون أن يحوّل بصره عنها، سائراً في الممر الآخر.

وأسرع الشرطي ذو الشاربين الكبيرين يمشي وراءها قائلاً لراسكولنيكوف بلهجة جازمة:

– لا تخف، لن أتركها!

وكرر يقول متنهداً:

– رباه! ما هذا الفسق الذي نراه في هذا الزمان!

فى تلك اللحظة نفسها أحس راسكولنيكوف في داخله بما يشبه أن يكون وخزة، فإذا بكل شيء في نفسه ينقلب رأساً على عقب، وإذا هو ينادي الشرطي صائحًا:

– هيه! اسمع!

التفت الشرطي فقال له راسكولنيكوف:

– دعهما! ما شأنك أنت! دع الأمور تجري على أعنتها! دع الرجل يتسلى! (وقال ذلك وهو يشير بيده إلى السيد الأنيق). ما شأنك أنت وهذا كله؟

لم يفهم الشرطي شيئاً وحملق متعجباً. وأخذ راسكولنيكوف يضحك. قال الشرطي وهو يحرك يده:

– ايه! إيه!

وعاد يلاحق السيد الأنيق والفتاة الصغيرة. أغلب الظن أنه كان يعد راسكولنيكوف مجنوناً أو شراً من ذلك.

فلما أصبح راسكولنيكوف وحيداً، دمدم يقول في خبث: «أخذ مني أنا عشرين كوبيكاً، وسوف يأخذ من السيد الأنيق مبلغاً آخر فيترك له البنية. هكذا ستنتهي الأمور... لماذا أقحمت نفسي فيما لا يعنيني؟ لماذا تدخلت في سبيل أن أحميها؟ هل عليّ أنا أن أفرض نفسي حامياً؟ هل من حقي أن أحمي أحداً أياً كان؟ إلا فليلتهم بعضهم بعضاً أحياء... ما شأني أنا وهذا؟ وكيف تجرأت أن أهب تلك الكوبيكات العشرين؟ أهي ملكي؟»

ورغم هذه الأقوال الغريبة، كان راسكولنيكوف يحس بقلبه ثقيلاً ثقيلاً. جلس على الدكة المهجورة وشردت أفكاره.. كان يصعب عليه في تلك اللحظة أن يفكر في أي شيء.

ودّ لو يغيب عنه وعيه... ودّ لو ينسى كل شيء فما يشعر بشيء... ثم يستيقظ بعد ذلك فيبتأنف حياة جديدة...

قال وهو ينظر إلى طرف الدكة الذي أصبح الآن خالياً:

– يا للصغيرة المسكينة! سوف تصحو فتبكي، وسوف تعلم أمها بكل شيء... فتضربها أولاً، ثم تجلدها جلداً أليماً فيه أبلغ الإذلال وأعمق الإهانة... وقد تطردها من البيت... وهبها لم تطردها، فلا بد أن تعلم بالأمر امرأة من أمثال داريا فارنتسوفنا... وستأخذ الفتاة تجري هنا وهناك، ستأخذ تتدحرج من هنا إلى هناك... ثم سرعان ما تُنقل إلى المستشفى (تلك دائماً حال البنات اللواتي يعشن مع أمهات شريفات جداً ويتعاطين الفحش خفية)... ثم تُنقل إلى المستشفى من جديد... شراب وحانات ثم المستشفى دائماً... وما أن تنقضي سنتان أو ثلاث حتى تصبح حطاماً... ما أن تبلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة حتى تنتهي!.. ألم أر فتيات كثيرات في مثل حالتها؟ كيف كن يصلن إلى ذلك المصير؟ بهذه الطريقة نفسها! آه... لا ضير! يقال إن الأمور يجب أن تجري هذا المجرى... يقال إن هناك نسبة مئوية لا بد أن يُضحُى بها كل عام[٣٤]... للشيطان في أغلب الظن.. وذلك في سبيل ضمانة راحة الأخريات... نسبة مئوية! إن لهم تعبيرات فيها كثير من الجمال حقا... وهي فوق ذلك تعبيرات مطمئنة جدا، علمية جدا! ما داموا يتحدثون عن نسبة مئوية، فلا داعي إلى أن يصدّع المرء رأسه... آ... لو قد استعملوا كلمة أخرى، فمن الجائز... عندئذ... أن يكون الأمر أدعى إلى القلق... هكذا!.. وماذا لو كان على دونيا أن تدخل في النسبة المئوية، بطريقة أو بأخرى... فإن لم تدخل في هذه النسبة دخلت في تلك على الأقل؟

وتساءل راسكولنيكوف فجأة: «ولكن إلى أين أنا ذاهب؟ ألا إنه لأمر غريب! لقد كان لي هدف حين خرجت إلى الشارع... فما أن فرغت من قراءة الرسالة حتى خرجت إلى الشارع... نزلت أريد الذهاب إلى عند رازوميخين، في جزيرة فاسيلفسكي... نعم، ذلك هو المكان الذى كنت ذاهباً اليه... الآن

[٣٤] يقال إن هناك نسبة مئوية لا بد أن يُضحّى بها كل عام... الحديث عن «النسبة المئوية» الدائمة من الضحايا الذين تدفع بهم المقادير حتما إلى طريق الجريمة والدعارة، ظهر في الصحافة الروسية في عامي ١٨٦٥ – ١٨٦٦ بمناسبة إصدار الترجمات الروسية لكتب العالم الرياضي والاقتصادي البلجيكي أ. كتلي وكذلك كتب الاقتصادي الألماني أ. فاجنر الذي روّج لأفكار كتلي.

تذكرت. ولكن لماذا أذهب إلى رازوميخين؟ لماذا خطر ببالي أن أذهب إلى رازوميخين لا إلى غيره، في تلك اللحظة لا في غيرها؟ شيء عجيب!»

ذهش هو نفسه من قراراته. إن رازوميخين هو أحد رفاقه القدامى في الجامعة. الغريب أن راسكولنيكوف، في أيام الدراسة بالجامعة، لم يكن له أصدقاء تقريباً، وكان لا يعاشر أحداً من زملائه، لا يزور أحداً منهم ولا يستقبل أحداً. ثم إن جميع رفاقه كانوا قد تحولوا عنه بسرعة. كان لا يشارك لا في الاجتماعات، ولا في المناقشات، ولا في المتع والمباهج، ولا في أي شيء آخر. وكان يعمل بجد واجتهاد، دون أن يراعي نفسه، وبذلك استطاع أن يحصل على احترام جميع رفاقه. ومع ذلك لم يكن يحبه أحد منهم. وكان راسكولنيكوف فقيراً كل الفقر وأبيّاً، ولكن في إبائه شيء من التغطرس، وكان مبتعداً قليل الكلام، حتى لكأنه كان يريد أن يخفي شيئاً في نفسه. وقد رأى بعض رفاقه أنه ينظر إليهم من علو، كما ينظر المرء إلى الأطفال تقريباً، وكما لو كان يفوقهم ذكاء ونضجاً وفكراً وثقافة ورأياً أو أنه يعتقد أن اقتناعاتهم واهتماماتهم دون مستواه كثيرا.

ومع ذلك ربطته صداقة برفيقه رازوميخين، مهما يكن سبب هذه الصداقة. على الأقل، كان مع رازوميخين أقل امتناعاً عن الكلام، وأكثر صراحةً مما كان كذلك مع أي رفيق آخر. وكان من المستحيل على كل حال أن يتصرف المرء مع رازوميخين غير هذا التصرف. كان رازوميخين فتى شديد المرح حلو المعاشرة، وكان عدا ذلك طيب القلب إلى حد السذاجة، ولكنها سذاجة تخفي وراءها عمقاً صادقاً وكرامة لا سبيل إلى جحودها، وكان خير رفاقه يعترفون له بذلك ويحبونه. ولم يكن رازوميخين بالغبي، رغم أنه كان يبدو في بعض الأحيان بسيطاً بعض البساطة. وكان مظهره يخطف الانتباه: كان طويلاً، نحيلاً، أسود الشعر، قليل العناية بحلاقته دائماً. وكان يتفق له أن يحدث شغباً، وكان يُعد أشبه بهرقل، بعض الشئ. ففي ذات ليلة، أثناء جولة مع رفاقه، جندل بضربة واحدة رجلاً من رجال الشرطة طوله متران تقريباً.

وكان يستطيع أن يشرب من دون اعتدال، ولكنه كان يستطيع كذلك أن لا يشرب البتة. وكان في بعض الأحيان يدبر لغيره المكائد التي تتجاوز كل الحدود، ولكنه كان يعرف كيف يحمي نفسه. وكان رازوميخين يتصف أيضاً بهذه الصفة البارزة: ما من خيبة يمكن أن تثبط عزيمته وتفلّ شجاعته قط، وما من ظرف سيئ من الظروف يمكن أن يحمله على الانهيار. وكان يستطيع أن يسكن في أي مكان، ولو تحت السقوف، وأن يتحمل آلام الجوع وأهوال البرد. كان فقيراً جداً، فكان ينفق على نفسه بنفسه، حاصلاً على المال من تعاطي شتى أنواع الأعمال الصغيرة. كان يعرف كيف يدبر أمره ويفي بحاجاته، على شرط أن يعمل طبعاً... وقد أتفق له أن قضى شتاء بكامله دون أن يدفئ غرفته، حتى لقد أكدّ أن لعدم التدفئة فوائد ومزايا، لأن المرء ينام في الجو البارد نوماً أفضل. وقد اضطر رازوميخين، في ذلك الأوان، أن يترك الجامعة هو أيضاً... ولكن إلى حين، فيما كان يعتقد. فكان يحاول، بكل ما يملك من قوة، أن يصلح الحال بغية أن يستطيع مواصلة دراسته. إن راسكولنيكوف لم يذهب إليه منذ أربعة أشهر. وكان رازوميخين يجهل حتى عنوان راسكولنيكوف. مرة واحدة، منذ شهرين، التقيا في الشارع مصادفة، ولكن راسكولنيكوف أشاح بوجهه، حتى لقد انتقل إلى الرصيف المقابل من أجل أن لا يُرى. أما رازوميخين فإنه مضى في طريقه رغم أنه لمح راسكولنيكوف، وذلك لأنه لا يريد أن يزعج صديقه.

الفصل الخامس

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «فعلاً، لقد كنت منذ مدة وجيزة أريد أن أطلب من رازوميخين أن يجد لي عملاً، أن أعطي دروسًا، أو أي شيء آخر... ولكن فيم يمكن أن يفيدني الآن؟ هبه وجد لي دروساً، بل هبه قاسمني آخر كوبيك معه، إذا كان ما يزال يملك كوبيكًا، بحيث أستطيع أن أشتري حذاء، وأن أصلح ملابسي، فأتمكن من إعطاء دروس... هِمْ... عظيم... ولكن ماذا بعد ذلك؟ ما عساني صانعاً بقروش قليلة؟ أهذا ما أنا في حاجة إليه الآن؟ حقاً إنها لفكرة سخيفة مضحكة أن أذهب إلى رازوميخين...»

لماذا يذهب الآن إلى رازوميخين؟ ذلك سؤال أصبح يقلقه كثيراً. كان يتساءل بكثير من الهم والغم ومن الخوف والقلق ما هو المعنى الغيبي الشرير الذي يكمن وراء هذه الخطوة التي أراد القيام بها، والتي تبدو مع ذلك بسيطة عادية تافهة!..

«هل يمكن حقاً أن لا أكون قد أردت إلا أن أدبر جميع الأمور وأرتب جميع الأشياء بفضل رازوميخين وحده، وأن لا أكون قد اهتديت إلى حل إلا الاستعانة برازوميخين؟» كذلك كان يتساءل مدهوشاً.

وكان يفكر ويفكر، ويحكّ جبينه، فإذا بفكرة غريبة تومض في ذهنه فجأة، بما يشبه المصادفة. أمر عجيب! قال بغتة بلهجة هادئة كل الهدوء، كأنما هو قد اتخذ في تلك اللحظة قراراً حاسماً: «هِمْ... إلى برازوميخين! نعم، سأذهب إلى برازوميخين حتمًا... ولكنني لن أذهب إليه الآن... وإنما أذهب في يوم آخر، بعد أن أكون قد أتممت القيام بذلك الأمر، بعد أن يكون ذلك الأمر، قد انتهى، بعد أن يبدأ كل شئ على أسس جديدة...»

ثم ثاب إلى رشده على حين فجأة، فقال صائحاً: «بعد أن يكون ذلك الأمر قد انتهى؟ ولكن هل سيتحقق ذلك الأمر؟ هل من الممكن أن يتحقق ذلك الأمر؟»

وانصرف مسرعاً كأنه يركض ركضاً. ودّ لو يعود أدراجه، ويرجع إلى مسكنه، ولكنه حين تصور نفسه راجعا إلى البيت، شعر بنفور شديد: فهناك، في ذلك المكان نفسه، في ركنه ذاك، في تلك الحجرة الكريهة الرهيبة، إنما نضجت فكرة ذلك الأمر، منذ أكثر من شهر. ومضى راسكولنيكوف يمشي قدماً على غير هدى.

لقد تحول اضطرابه العصبي إلى ارتعاشات حمى، حتى لقد أحس أنه يرتجف من البرد. أنه يشعر ببردٍ أثناء ذلك القيظ الشديد. وأخذ يتفحص جميع الأشياء التي يلقاها في طريقه، باذلاً في ذلك جهداً كبيراً، ولكن على غير شعور منه تقريباً، مدفوعاً إلى هذا بضرورة داخلية. لكأنه يحاول بأية وسيلة من الوسائل أن يسلو، ولكن سعيه هذا إلى السلوى لم ينجح كثيراً، فهو ما يلبث في كل لحظة أن يعود إلى الاسترسال في أحلامه، فإذا هزته رعشة جديدة فرفع رأسه ونظر فيما حوله، نسي على الفور ما كان يفكر فيه، بل ونسي الطريق الذي كان قد سلكه. على هذا النحو إنما قطع جزيرة فاسيليفسكي كلها، ووصل إلى نهر «نيفا الصغير»، فعبر الجسر واستدار إلى جهة الجُزر[٣٥]. إن الخضرة وطراوة الهواء قد أراحتا في أول الأمر عينيه المكدودتين اللتين ألفتا غبار المدينة، والكلس، والمباني الضخمة المرهقة. هنا لا اختناق، ولا عفونة، ولا خمارات. ولكن هذه الإحساسات الجديدة الممتعة سرعان ما صارت هي أيضاً مرضية تثير الأعصاب. كان في بعض الأحيان يقف أمام دار صيفية غارقة في الخضرة فينظر من خلال السياج، فيرى من بعيد، على الشرفات، نساء ترتدي أجمل الحلل، ويرى أولاداً تركض. وكانت الأزهار تجذبه خاصة، فكان يتلبث أمامها ويأخذ يتأملها. وكان يلتقي بين الفينة والفينة بعربات أنيقة ويبصر رجالًا يمتطون صهوات الخيول ونساء على ظهور الأفراس، فكان يتبعهم بنظراته، ولكنه ما يلبث أن ينساهم حتى قبل أن يغيبوا. وفي

[٣٥] ... فعبر الجسر واستدار إلى جهة الجزر... المقصود الجزر الواقعة في نهر النيفا في ضواحي بطرسبرج، حيث أقيمت الحدائق العامة وشيد الكثير من الفيلات الصيفية الفخمة (جزر أبتيكارسكي، يلاجين، كاميني وغيرها). وهناك كانت توجد أيضاً شتى دور اللهو.

ذات مرة توقف ليعدّ نقوده، فعرف أنه لم يكن قد بقي معه إلا نحو ثلاثين كوبيكاً. قال لنفسه: «أعطيت الشرطي عشرين كوبيكاً، وأعطيت ناستاسيا ثلاثة كوبيكات مكافأة لها على أنها جاءتني برسالة أمي، معنى ذلك إذن أنني أعطيت بالأمس أسرة مارميلادوف سبعة وأربعين أو خمسين». لا شك أن هناك سبباً يدفعه إلى أن يحصي ما معه من نقود على هذا النحو، ولكنه سرعان ما نسي هذا الأمر، حتى لقد نسي لماذا ولأي سبب أخرج النقود وعدّها. ثم تذكر النقود حين مرّ أمام مطعم رخيص. لقد أحسّ عندئذ أنه جائع. دخل المطعم، فشرب قدحاً من الفودكا، وأخذ فطيرة محشوة، فبدأ أكلها في المطعم ثم أنهاه في الشارع. إنه لم يشرب فودكا منذ زمن بعيد جداً. لذلك أثرت فيه الفودكا فوراً رغم أنه لم يشرب إلا كأساً صغيرة. تراخت ساقاه وثقلتا على حين فجأة، واحس برغبة قوية في النوم. فعاد يتجه نحو بيته، ولكنه ما إن وصل إلى جزيرة بتروفسكي حتى توقف خائر القوى تماماً، فترك الطريق، ودخل في الأدغال وتهاوى على العشب، وسرعان ما نام.

في حالات المرض، تتميز الأحلام في أحيان كثيرة ببروز قوي وشدة خارقة، وتتميز كذلك بتشابه كبير مع الواقع. قد يكون مجموع اللوحة عجيبا شاذا، ولكن الجو ومجمل تسلسل التصور يكونان في الوقت نفسه على درجة عالية من المعقولية، ويشتملان على تفاصيل مرهفة جداً، تفاصيل غير متوقعة، تبلغ من حسن المساهمة في كمال المجموع أن الحالم لا يستطيع أن يبتكرها في حالة اليقظة ولو كان فناناً كبيراً مثل بوشكين أو تورجنيف. وهذه الأحلام، أعني الأحلام المرضية، تخلف دائماً باقية، وتحدث أثراً قوياً في الجسم المضعضع المهتز المختل.

كان حلماً مرعباً، ذلك الحلم الذي رآه راسكولنيكوف. لقد حلم بطفولته، هناك، في مدينتهم الصغيرة. ان عمره سبع سنين. وها هو ذا، في يوم عيد، يتنزه في المساء مع أبيه في ظاهر المدينة. الجو داكن، والهواء خانق، والمكان هو المكان الذي انطبعت ذكراه في خياله تماماً، ولكنه يبدو في الحلم أشد وضوحاً وأكثر

تميزاً مما هو في الذاكرة. المدينة الصغيرة تمتد مكشوفة كأنها مبسوطة على راحة الكف، فليست ترى حواليها حتى صفصافة بيضاء واحدة، وفي مكان ما، مكان بعيد جداً، عند آخر الأفق، تلوح بقعة سوداء هي غابة صغيرة. وعلى مسافة بضع خطوات من آخر بستان من بساتين الخضار التي تحيط بالمدينة، توجد حانة كبيرة كانت دائماً تحدث في نفسه أثراً أليماً، حتى لتخيفه حين يمر بها متنزهاً مع أبيه. كان في هذه الحانة دائماً جمهور كبير، وصيحات وضحك مجلجل، والناس يتشاتمون هنالك، ويغنون بأصوات جشّاء أغاني قبيحة بذيئة، وهم خاصة يتشاجرون ويقتتلون في كثير من الأحيان، وحول الحانة يتجول دائماً أفراد مخمورون لهم وجوه مرعبة، ما إن يصادفهم الطفل في طريقه حتى يلتصق بأبيه ويشدّ جسمه إليه وقد أخذت أعضاؤه كلها ترتعش... وفي مكان غير بعيد عن الحانة. توجد طريق ترابية كثيرة الغبار الأسود، تستمر متعرجة متلوية، وتنعطف يمنة بعد ثلاثمائة متر فتحيط بمقبرة المدينة. وفي وسط المقبرة تنتصب كنيسة مبنية بالحجر، لها قبة خضراء، كان الطفل يذهب إليها للصلاة مع أبيه وأمه مرة أو مرتين في السنة، وذلك حين إقامة قداس على روح جدته التي ماتت منذ مدة بعيدة ولم يعرفها في يوم من الأيام. وكانوا في تلك المناسبة يحملون الحلوى التقليدية على طبق أبيض ملفوف بمنشفة: إنها حلوى من الرز والزبيب المجفف المغروس في الرز على شكل صليب. كان الصبي يحب تلك الكنيسة، ويحب أيقوناتها التي يخلو أكثرها من الأطر، ويحب أيضاً ذلك الكاهن الشيخ الذي كان يرتعش رأسه. وإلى جانب قبر جدته الذي تغطيه بلاطة كبيرة، كان يوجد قبر أخيه الأصغر الذي مات في الشهر السادس من عمره والذي لم يعرفه أيضاً فلا يستطيع إذن أن يتذكره، غير أن أهله قد ذكروا له أنه كان له أخ صغير، فكان كلما زار المقبرة يرسم على نفسه إشارة الصليب في كثير من التقى والخشوع، وينحني أمام القبر ويقبله. وإليكم الآن الحلم الذي رآه: رأى نفسه يسير مع أبيه في الطريق المؤدية إلى المقبرة، فيمران أمام الحانة. إنه ممسك أباه من يده، ينظر إلى الحانة مذعوراً. إن هنالك أمراً خاصاً يجذب انتباهه! لكأن ثمة عيداً شعبياً كبيراً يحتفل به الناس: إنهم

عدد كبير من أهل المدينة بملابس العيد، وفلاحات مع أزواجهن، وخليط كبير من البشر. هم جميعاً سكارى وهم جميعاً يغنون، وأمام باب الحانة تُرابط عربة، ولكنها عربة عجيبة غريبة هي عربة من تلك العربات الكبيرة التي تجرها في العادة خيول ضخمة قوية، والتي تنقل أنواعاً كثيرة من البضائع وبراميل الخمرة. كان الصبي دائماً ينظر بكثير من اللذة والمسرة إلى تلك الخيول الضخمة ذات الأعراف الطويلة والسيقان القوية، التي تسير بخطى هادئة موزونة جازة وراءها حملاً كأنه الجبل ضخامة، دون أن يبدو عليها أنها تشعر بوجود هذا الحمل، حتى لكأن الحمل يجعل سيرها أسهل وأيسر. أما الآن فإن الشئ الغريب هو أن هذه العربة الكبيرة قد قُرنت بها فرس ضعيفة واهنة هزيلة شبيهة بتلك الأفراس التي كثيراً ما رآها تضنى بجر حمل كبير من الخشب أو العلف على طرق متحفرة موحلة تغوص فيها عجلاتها إلى المحاور، ويضربها الفلاحون بسياطهم على وجهها ضرباً قوياً مبرحاً. لقد كان قلبه ينقبض انقباضاً شديداً حين يرى تلك الأفراس على تلك الحال من الشقاء، حتى ليكاد يبكي حزناً وألماً. وكانت أمه تضطر عندئذ إلى إقصائه عن النافذة. وها هي ذى جلبة كبيرة تعلو: إن عدداً من الفلاحين الأقوياء السكارى يخرجون من الحانة صارخين، مغنين، عازفين على البالالايكا، مرتدين قمصاناً حمراء وزرقاء، واضعين أرديتهم على أكتافهم. وهذا واحد منهم، وهو رجل ما يزال في شرخ الشباب سميك الرقبة، سمين الوجه، أحمر اللون كجزرة، يصرخ قائلاً لهم: «اركبوا، أركبوا جميعاً! سأنقل الجميع، هيا اصعدوا!» فسرعان ما تجيبه قهقهات وصيحات تقول:

– أبفرس ضعيفة كهذه الفرس تقودنا جميعاً؟

– هه! ماذا دهاك يا ميكولكا؟[٣٦] أتقرن دابة صغيرة هذا الصغر بعربة ضخمة هذه الضخامة؟

[٣٦] «ميكولكا» تصغير ميكولاي (نيقولاي).

– يميناً إن الدابة تبلغ من العمر عشرين عاماً يا أخي!

– اجلسوا! سأنقل جميع الناس!

كذلك صرخ يقول ميكولكا من جديد، وهو يثب إلى العربة أول الواثبين، فيمسك بزمام الفرس، وينتصب في الأمام بقامته كلها، ثم يردف قاءلًا في العربة:

– لقد سافر الكميت منذ هنيهة مع ماتفي. وهذه الفرس يا إخوتي تغيظني كثيراً، وتحطم قلبي تحطيماً. إنني مستعد لأن أقتلها. إنها لا تستحق ما تأكله من العلف. أقول لكم: اركبوا! اجلسوا! سأجعلها تعدو ولسوف تعدو!

وأمسك بسوطه وهو يتلذذ سلفاً بالمتعة التي سيذوقها حين يأخذ يضربها.

قال بعضهم ضاحكًا:

– طيب! اصعدوا ألم تسمعوا؟ سوف تعدو الفرس.

– أنها لم تعرف العدو منذ عشر سنين!

– لسوف تعدو!

– لا تأخذنكم شفقة أيها الأخوة! فليتناول كل منكم سوطاً وليتهيأ!

– هيا بنا! هلموا! اضربوا!

ركب الجميع عربة ميكولكا مقهقهين مازحين. ركب ستة رجال وما يزال في المكان متسع. أَرْكَبُوا معهم امرأة سمينة حمراء الوجه. إنها ترتدي فستاناً من قماش أحمر، وتنتعل حذاءين ساقاهما طويلتان، وتضع على رأسها قلنسوة مزدانة بخرزات زجاجية، والجمهور من حولها يضحك كذلك. وكيف لا يضحكون؟

كيف تستطيع فرس ضعيفة ضامرة هزيلة أن تجرّ مثل هذا الحمل عَدواً؟ وسرعان ما تناول صبيان في العربة سوطين لمساعدة ميكولكا. ودوّت في الجو صيحات تهيب بالفرس أن تسير. أخذت الفرس تبذل كل ما تستطيع من جهد لتسير. ولكن أنّى لها أن تعدو. إنها لا تكاد تقوى على التحرك من مكانها. فهي تراوح وتئن وتنوء تحت ضربات سياط ثلاثة تهوي عليها. تضاعفت الضحكات في العربة وفي الجمهور. ولكن ميكولكا غضب. وها هو ذا من شدة حنقه وغيظه يجلد الفرس بمزيد من القوة كأنما هو يعتقد حقاً بأن في وسع دابته أن تجري عدواً.

صاح شاب من بين الجمهور وقد فتنه هذا المشهد:

– هل تسمحون لي بأن أجيء معكم؟

فصرخ ميكولكا يجيبه بقوله:

– أركب! أركبوا جميعاً! سوف تحملنا جميعاً. سوف أجعل الفرس تعدو!

وأخذ يضرب ويضرب وقد استبد به حنق بلغ من الشدة أنه لم يلبث أن أصبح لا يعرف بماذا يضرب. صاح الطفل يسأل أباه:

– أبت! أبت! ماذا يفعلون؟ أبت! لماذا يضربون الفرس المسكينة؟

قال الأب:

– تعال، تعال، إنهم سكارى يرتكبون حماقات. تعال! لا تنظر إليهم.

وأراد الأب أن يقتاد الابن، ولكن الطفل أفلت من يديه، ثم لم يطق صبراً فركض نحو الفرس الشقية. كانت الفرس المسكينة قد ساءت حالها وخارت قواها. إنها تلهث وتتوقف لحظة ثم تستأنف بذل ما تستطيع بذله من جهد لتجرّ العربة، فتترنح وتكاد تسقط.

صرخ ميكولكا يقول:

– اجلدوها إلى أن تفطس ما دام الأمر هكذا. سأضربها حتى الموت.

هتف شيخ من بين الجمهور يسأله:

– ما هذا؟ أأنت مسيحي؟ يا لك من متوحش!

وأضاف آخر يقول:

– هل رأى أحد في حياته دابة هزيلة كهذه الدابة تجز حملاً ثقيلاً كهذا الحمل؟

وصاح ثالث يقول:

– سوف تقتل الدابة أخيراً!

قال ميكولكا:

– ما دخلك أنت؟ الدابة دابتي! ما أريده أفعله! أركبوا جميعاً! أريد حتماً أن تجري الفرس عدواً.

وفجأة، انفجر ضحك عريض غطى كل شيء. لم تستطع الفرس أن تحتمل الضربات المتكررة، فإذا هي تأخذ ترفس وتلبط. حتى الشيخ نفسه لم يستطع أن يمتنع عن التبسم. حقاً إن هنالك ما يبعث على الضحك: كيف ترفس وتلبط فرس ضعيفة هزيلة، لا تكاد تقوى على الوقوف، كهذه الفرس!

خرج من الجمهور شابان فتناولا سوطين، وركضا نحو الفرس ليجلداها من الجهتين.

صاح ميكولكا:

– على الخطم، على العينين، على العينين!

وهتف أحد ركاب العربة:

– أغنيةً أيها الأخوة!

فأخذ الجميع في العربة يغنون بصوت واحد. هي أغنية مسعورة تصدح بها الحناجر، وتصاحبها قرعات طبل، ويتخللها صفير عند تكرر اللازمة. والمرأة السمينة تقضم البندق وتنفجر ضاحكة.

... ركض الطفل إلى جانب الحصان، وأسرع إلى أمام. رأى كيف كانت الدابة تُجلد على عينيها، على عينيها تماماً!.. فأخذ يبكي. انقبض قلبه وسالت دموعه. لامس واحد من الضاربين وجهه بسوط. ولكنه لم يشعر بشيء. لوى يديه ألماً. صرخ. اندفع نحو الشيخ ذي اللحية الشيباء الذي كان يهز رأسه مستنكراً هذا كله. امسكت يده فلاحة، وأرادت أن تبعده. لكنه تملص منها، وركض نحو الفرس من جديد. لقد أنهارت قوى الفرس، ومع ذلك حاولت أن ترفس وأن تلبط مرة أخرى.

صاح ميكولكا يقول وقد استولى عليه حنق شديد:

– شيطان يأخذك!

ورمى سوطه، وانحنى إلى تحت، فتناول من قاع العربة خشبة طويلة ثقيلة، فقبض على طرفها بيديه، وأشهرها فوق ظهر الفرس بجهد. صاح بعضهم:

– سوف يقتل الفرس!

– سوف يهشمها!

صرخ ميكولكا:

– هي ملكي، ولا شأن لأحد بها!

وهوى بالخشبة على الفرس بكل ما أوتي من قوة، فدوّى في الجو صوت أصم.

صرخ بعضهم:

– اجلدوا الفرس! الجلد وها! مالكم توقفتم عن جلدها؟ فاشتعلت حماسة ميكولكا مزيدا من الاشتعال، وهوى على ظهر الفرس المسكينة بضربة قوية جديدة. تهاوت الفرس عند مؤخرتها، ولكنها ما لبثت أن انتصبت، وحاولت أن تجر بكل ما تملك من قوة. أخذت تجر في كل اتجاه من الاتجاهات عسى أن تتحرك العربة. غير أن ستة سياط هاجمتها من جميع الجهات، وارتفعت الخشبة من جديد فهوت عليها بضربة ثالثة ثم بضربة رابعة، وتتالت الضربات قوية مطّردة. لقد اشتد حنق ميكولكا لأنه لم يقتل الفرس بضربة واحدة.

صرخ بعضهم:

– عمرها طويل!

فصاح واحد في الجمهور:

– لم يعد عمرها طويلاً أيها الأخوة! نهايتها قريبة!

وصرخ ثالث:

– فلتُضرب بفأس! فلننته منها دفعة واحدة!

صرخ ميكولكا مهتاجاً:

– فلتذهبوا إلى الشيطان! أبعدوا!

ورمى الخشبة، ثم انحنى مرة أخرى إلى تحت، فتناول من قاع العربة قضيبا من حديد، وصرخ يقول مخاطبا الناس:

– احترسوا!

ثم هوى بقضيب الحديد على الفرس المسكينة بكل ما أوتى من قوة، فترنحت الدابة من شدة الضربة، وتهالكت، وحاولت أن تجر العربة مرة أخرى، ولكن قضيب الحديد هوى على ظهرها من جديد، فسقطت على الأرض كأن قوائمها الأربع قد قُطعت قطعاً!

صاح ميكولكا يقول:

– اجهزوا عليها!

ووثب من العربة إلى الأرض كمن فقد السيطرة على نفسه. وها هم هؤلاء فتيان حمر سكارى يمسكون بكل ما يقع تحت أيديهم من سياط أو عصى أو أخشاب، ويهرعون نحو الفرس المحتضرة. وقف ميكولكا إلى جانب الدابة، وأخذ يضربها بقضيب الحديد على ظهرها. فمدّت الفرس خطمها، وزفرت زفرة عميقة، وماتت.

صاح الجمهور يقول:

– لقد أجهز عليها!

– لماذا لم تشأ أن تعدو؟

قال ميكولكا صارخاً محتقن العينين بالدم، ممسكاً قضيب الحديد بيديه:

– هي ملكي!

وكان واقفاً منتصب القامة كأنه يأسف على أنه أصبح لا يعرف من يضرب!

هتفت عدة أصوات في الجمهور تقول:

– يبدو أنك لست مسيحياً!

ولكن الطفل المسكين أصبح لا يسيطر على نفسه، وها هو ذا يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور وهو يصرخ صراخاً شديداً، حتى إذا وصل إلى الدابة أحاط بذراعيه خطمها الدامي، وأخذ يقبلها على عينيها وعلى شفتيها... ثم اجتاحه حنق قوي، فنهض واثباً وهجم على ميكولكا شادًا على قبضته الصغيرتين. ولكن أباه الذي كان يلاحقه منذ مدة، أدركه في تلك اللحظة، فأمسك به، وحمله بين ذراعيه إلى خارج دائرة الجمهور قائلا له:

– هيا! فلنعد إلى البيت.

دمدم الطفل يقول بين شهقتين سائلاً أباه:

– أبتِ... لماذا... الحصان المسكين... فعلوا به؟..

ولكن أنفاسه تقطعت، وكانت الكلمات تتدفق من صدره المختنق مع صرخات!

قال الأب:

– هم سكارى يرتكبون حماقات. ليس هذا شأننا. لنذهب!

أحاط الطفل أباه بذراعيه، ولكن كان صدره ما يزال مختنقاً... ما يزال مختنقاً اختناقاً شديداً... وحاول الطفل أن يسترد أنفاسه، ويطلق صرخة قوية... واستيقظ راسكولنيكوف من النوم...

استيقظ من النوم مبتلاً بالعرق مخضّل الشعر لاهثاً. ونهض مذعوراً. قال وهو يجلس تحت الشجرة ويتنفس ملء رئتيه:

– الحمد لله على أن هذا لم يكن إلا حلماً! ولكن ماذا حدث؟ أيكون هذا بداية حمى؟ يا للحلم الرهيب! كان جسمه كالمحطّم، وفي نفسه ظلمات واضطراب وابهام. وضع كوعيه على ركبتيه وتناول رأسه بيديه، وهتف يقول مخاطبا نفسه:

– رباه! هل من الممكن، هل من الممكن حقا أن أتناول فأسا فأضرب بها رأسها وأحطم جمجمتها؟.. أغرق في الدم اللزج الدافئ... اكسر القفل... أسرق... أرتعش... اختبى ملطخاً بالدم... حاملاً فأساً بيدي!.. رباه، أهذا ممكن؟

وكان راسكولنيكوف يرتعش كورقة في مهب الريح حين كان يخاطب نفسه بهذا الكلام. لكنه تابع يقول محدثاً نفسه كأنما قد استبد به خور عميق وهو مطرق الرأس:

ولكن ماذا دهاني؟ لقد كنت أعلم حق العلم أنني لن أطيق ذلك، فلماذا عذبت نفسي هذا التعذيب كله حتى الآن؟ بالأمس، بالأمس... حين مضيت إليها، لأتمرّن على فعلتي، أدركت حق الأدراك أنني لن أطيق ذلك... فلماذا أعود إلى الأمر الآن؟ بالأمس، حين كنت أهبط السلم، قلت لنفسي إنها فعلة حقيرة، دنيئة، خسيسة، خسيسة جداً... كان يكفي أن تساورني تلك الفكرة حتى ينقبض صدري وحتى أشعر بذعر شديد...

لا، لن أطيق هذا الفعل، لن أطيقه، ولو كانت حساباتي كلها صحيحة، ولو كان ما عزمت عليه في هذا الشهر واضحاً وضوح النهار دقيقاً دقة الرياضيات... رباه! فإنني لن أقدم عليه مع ذلك، لن أطيقه، لن أطيقه... فما بالي حتى الآن...

نهض راسكولنيكوف، ونظر حواليه ذاهلاً. كان يبدو عليه أنه مندهش من وجوده في هذا المكان. واتجه نحو جسر «ت...». كان شاحب الوجه، وكانت عيناه تحترقان، وكان يشعر بالتعب في جميع أعضائه، ولكنه لم يلبث أن أخذ يتنفس تنفساً حراً طليقاً على حين فجأة. شعر أنه أزاح الحمل الرهيب الذي كان يسحقه منذ مدة طويلة، فتخففت نفسه واطمأنت روحه، وعادت إليه السكينة بغتة. قال يدعو الله مبتهلاً: «أرني طريقي يا رب فأعدل عن تلك... الفكرة اللعينة!»

وفيما كان يعبر الجسر، نظر هادئاً إلى نهر نيفا، والى حمرة الشمس الغاربة. فإذا هو، رغم ضعفه، قد أصبح لا يحس بالتعب. فكأن الدمل الذي نضج في قلبه خلال شهر بأكمله قد انفقأ الآن على حين فجأة. الحرية! الحرية! لقد تخلص الآن من السحر، تحرر من الرقية، انعتق من الفتنة.

في المستقبل، حين سيتذكر راسكولنيكوف هذه الفترة، وحين سيستعرض كل ما وقع له في تلك الأيام دقيقة دقيقة ونقطة نقطة، فإن ظرفاً معيناً سيظل يجتذب انتباهه، ويأسر اهتمامه، ويكتسب في نظره معنى خرافياً. أن ذلك الظرف رغم أنه لا يشتمل في ذاته على أي شيء خارق، سيصبح في نظر راسكولنيكوف في المستقبل نوعاً من نبوءة تصوّر مصيره وتحدّد قدره. إليكم الأمر: لم يستطع راسكولنيكوف أن يعلل لنفسه قط لماذا عاد أدراجه إلى بيته في ذلك اليوم عبر «سوق العلف» دون أي سبب يحضه على الذهاب إلى هناك، ورغم أنه، هو المتعب المكدود المرهق المشعث، كان في حاجة إلى أن يسلك للعودة إلى بيته أقصر طريق بلا تعرج ولا التواء. صحيح أن الدورة التي دارها لم تكن طويلة، ولكن من الواضح أنه لا داعي إليها ولا فائدة منها البتة. وصحيح أنه اتفق له عشرات المرات أن رجع إلى مسكنه دون أن يتذكر الشوارع

التي سلكها. ولكن راسكولنيكوف ظل يتساءل دائما: لماذا وقع له ذلك اللقاء في ميدان «سوق العلف» (الذي لم يكن هناك أي داع يحضه على الذهاب إليه) لماذا وقع له ذلك اللقاء الذي يبلغ ذلك المبلغ كله من خطورة الشأن والذي كان له ذلك التأثير الحاسم كله في حياته، وكان في الوقت نفسه عرضا طارئا، لماذا وقع له ذلك اللقاء في تلك اللحظة نفسها، في تلك الدقيقة ذاتها من حياته، في تلك الدقيقة ذاتها التي كان لا يمكن، بسبب حالته النفسية وبسبب الظروف، إلا أن تؤثر في مصيره ذلك التأثير الحاسم الذي لا مناص منه ولا راد له؟ سوف يبدو له أن ذلك اللقاء الذي وقع له إنما كان كميناً يتربص به شراً.

كانت الساعة تقارب التاسعة حين اجتاز راسكولنيكوف «سوق العلف». كان جميع التجار والباعة المتجولين وأصحاب الدكاكين يغلقون محالّهم، ويجمعون بضائعهم، ليعودوا إلى منازلهم، وكذلك كان يفعل زبائنهم. بالقرب من المطاعم الحقيرة الواقعة في الأقبية، وفي الأفنية القذرة المنتنة من منازل «سوق العلف» ولا سيما بالقرب من الخمارات كانت تتكاثر أنواع شتى من فقراء الناس وصغار المتكسّبين. كان راسكولنيكوف يحب ارتياد هذه الأماكن كثيراً كما يحب ارتياد جميع الأزقة المجاورة حين كان يخرج من بيته لغير هدف محدد. فهنالك كانت أسماله البالية لا تلفت الانتباه ولا تثير الاستهجان. إن المرء يستطيع أن يسير في هذه الأماكن مرتدياً ملابس على ما يشاء له هواه، دون أن يتعرض لاستهزاء أحد به. فلما وصل راسكولنيكوف إلى ناصية شارع ك...، رأى بائعاً وامرأته يبيعان، كل على بسطة خاصة به، خيوطاً وأشرطة ومناديل من قطن وما إلى ذلك. كان الزوجان يستعدان هما أيضاً للعودة إلى منزلهما، ولكنهما ما يزالان يثرثران مع امرأة يعرفانها كانت قد اقتربت منهما. إن هذه المرأة هي اليزافيتا ايفانوفنا أو قل باختصار هي «اليزافيتا» كما كان يسميها جميع الناس. إنها الأخت الصغرى لتلك العجوز نفسها آليونا ايفانوفنا، أرملة الموظف المرابية، التي ذهب إليها راسكولنيكوف أمس ليبرهن عندها ساعته ويتمرن على فعلته... كان راسكولنيكوف يعرف منذ مدة طويلة أموراً كثيرة عن اليزافيتا هذه التي كانت تعرفه هي

أيضاً بعض المعرفة. إنها بنت في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها، طويلة القامة خرقاء السلوك، خجولة الطبع، ومتواضعة وديعة، يعدها الناس شبه بلهاء، قد استعبدتها اختها استعبادا كاملا، فهي تعمل لها ليلا نهارا، وترتجف أمامها خوفاً، حتى لتحتمل منها أن تضربها أحياناً. كانت اليزافيتا في تلك اللحظة قد وقفت مفكرة أمام البائع وامرأته، وفي يدها صرّة، وكانت تصغي إليهما بانتباه شديد. إن الرجل وامرأته يقصان عليها أمراً من الأمور بكثير من الحرارة والحماسة. فلما لمحها راسكولنيكوف على حين فجأة اجتاحه إحساس غريب هو نوع من الانشداه الشديد رغم أن اللقاء لا يشتمل في ذاته على أي شيء يدعو إلى الذهول.

قال لها البائع بصوت عال:

– ستعزمين أمرك بنفسك يا اليزافيتا ايفانوفنا. تعالي غداً، في نحو الساعة السابعة، سيحضرون هم أيضاً.

– غداً؟

كذلك قالت اليزافيتا بصوت بطيء، وكانت واجمةً مفكرة، كأنها لا تستطيع أن تعزم أمرها.

قالت لها زوجة البائع وهي امرأة فطنة بلهجة طلقة صريحة:

– إنها لتخيفك كثيراً. آليونا ايفانوفنا هذه! حين يراك المرء ويسمعك، يحسبك طفلة صغيرة. هذا مع أنها ليست أختاً شقيقة وإنما من أم أخرى ولكنها مسيطرة عليك مستبدة بك..

قاطع الرجل زوجته قائلاً لاليزافيتا:

– عليك أن لا تذكري لآليونا ايفانوفنا هذه المرة شيئاً. ذلك ما أنصحك به! تعالي إلينا دون أن تستأذنيها! الصفقة رابحة. وستدرك أختك ذلك فيما بعد.

– حقاً... قد آتي؟

– نعم... غداً... في نحو الساعة السابعة. وسيحضر أحد من عندهم أيضاً. وستقرّرين أمرك بنفسك.

وأضافت زوجة الرجل تقول:

– وسنشعل السماور.

قالت اليزافيتا وهي ما تزال مترددة:

– طيب، سآتي...

وانصرفت بخطى بطيئة.

إن راسكولنيكوف الذي مرّ في تلك اللحظة لم يسمع أكثر من ذلك. لقد مرّ صامتاً ساكناً دون أن يلفت إليه الانتباه، ولكنه حاول ألا يفوته من الحديث كلمة واحدة. وشيئاً فشيئاً، حل الذعر في نفسه محل الانشداه، وأحس بقشعريرة باردة تسري في ظهره. لقد علم فجأة، على نحو لم يكن في الحسبان، أن اليزافيتا، أخت العجوز ورفيقتها الوحيدة في دارها، ستغيب عن البيت غداً في الساعة السابعة تماماً، وأن العجوز ستكون إذن في الساعة السابعة تماما وحيدة في مسكنها.

لم يكن قد بقي عليه إلا أن يسير بضع خطوات حتى يبلغ منزله. عاد كإنسان حُكم عليه بالموت. لقد أصبح لا يفكر، بل أصبح عاجزاً عن التفكير، ولكنه كان يحس، بكل كيانه، أنه أصبح محروماً من حرية الرأي مجرداً من الإرادة، وأن كل شيء قد تقرر فجأة على نحو حاسم لا رجعة عنه.

يقيناً، لو كان عليه في سبيل إنفاذ مشروعه أن ينتظر سنين طويلة، لما كان في وسعه أن يعوّل على ظرف يناسب نجاح مشروعه أكثر من هذا الظرف الذي يعرض له الآن، وما كان ليسهل عليه في كل حال أن

يعلم علم اليقين، بمثل تلك الدقة، وبدون مخاطر يشتمل عليها اضطرارُه إلى السؤال والتقصى، إن العجوز التي كان قد قرّر أن يقتلها ستكون، في الغداة، وحيدة بمسكنها، وحيدة تماماً...

الفصل السادس

لقد اتيح لراسكولنيكوف فيما بعد أن يعرف السبب الذي حمل البائع وزوجته على أن يدعوا اليزافيتا ايفانوفنا إلى منزلهما. إن الأمر عادي بسيط تافه لا يشتمل على أي شيء خاص: هناك أسرة وفدت من الأقاليم منذ مدة قصيرة، فأصبحت في حالة عوز شديد، فأخذت تبيع بعض ما تملك من ملابس النساء. ولما كان عرض هذه الملابس للبيع في السوق يؤدي إلى خسارة كبيرة، فقد سأل هؤلاء الناس عن امرأة تكون وسيطة بينهم وبين الراغبين في الشراء. وكانت اليزافيتا تقوم بمثل هذه الأعمال، وكان لها زبائن كثيرون لأنها امرأة مستقيمة، فهي تحدد السعر العادل دائما، ولا تدع مجالا للمساومة فيه مهما يكن، فما على المشتري إلا أن يأخذ أو أن يدع. وهي قليلة الكلام عامة، وكانت تبدو، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وجلة وديعة...

ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح في الآونة الأخيرة يؤمن بالخرافات ويتأثر بالأوهام، وقد خلف هذا الوهم في نفسه آثاراً لم تمح خلال مدة طويلة. ثم إنه ظل يميل دائماً إلى أن يرى في هذا الأمر كله شيئا غريبا سريا، وسلسلة من المؤثرات والمصادفات العجيبة الخاصة. كان طالب من معارفه اسمه بوكوريف، قد أعطاه في الشتاء الماضي أثناء حديث عارض جرى بينهما قبيل سفره في خاركوف، عنوان العجوز آليونا ايفانوفنا، ليلجأ إليها إذا هو احتاج إلى اقتراض مبلغ من المال على رهن. وخلال مدة طويلة لم يذهب راسكولنيكوف إلى العجوز، لأنه كان في ذلك الوقت يعطي دروساً، وكان يدبر أموره بطريقة أو بأخرى. ثم تذكر العنوان بعد شهر ونصف شهر. كان يملك شيئين يمكن رهنهما لاقتراض مبلغ من المال: الساعة الفضية القديمة التي ورثها عن ابيه، وخاتماً ذهبياً صغيراً يزدان بثلاثة أحجار حمراء كانت أخته قد أعطته اياه تذكاراً حين افترقا. قرر راسكولنيكوف أن يرهن الخاتم، فما إن رأى العجوز حتى شعر نحوها من أول نظرة، ودون أن يعرف أي شيء خاص عنها، بكره لا سبيل إلى التغلب عليه. وتلقى منها «ورقتين

صغيرتين». وبينما كان راجعا الى بيته دخل في الطريق حانة صغيرة حقيرة، فطلب شاياً، وجلس، واسترسل في أحلام عميقة. إن فكرة غريبة كانت تحاول أن تنقف في رأسه كما ينقف الفرخ في البيضة، وكانت تشغل باله كثيرا جدا...

على مقربة منه، إلى جانبه تقريباً، كان يجلس حول مائدة أخرى، ضابط شاب وطالب لم يكن يعرفه ولا يتذكر أنه رآه في حياته. كان الشابان قد لعبا البلياردو قليلاً، فهما الآن يحتسيان الشاي. وها هو ذا راسكولنيكوف يسمع الطالب محدثاً الضابط عن مرابية اسمها آليونا ايفانوفنا هي أرملة موظف، ثم يذكر له عنوانها آخر الأمر. إن هذه الحادثة وحدها قد بدت لراسكولنيكوف غريبة بعض الغرابة: لقد كان عند العجوز منذ هنيهة، وها هو ذا يسمع شخصين يتحدثان عنها هي نفسها. لا شك أن الأمر مصادفة، ولكن فيما كان راسكولنيكوف لا يستطيع أن يتخلص من شعور خارق غير عادي، إذا بشخص يأخذ يعزز في نفسه هذا الشعور كأنما على عمد: لقد أخذ الطالب يذكر لرفيقه، فجأة، بعض التفاصيل عن آليونا ايفانوفنا. قال:

– هي عظيمة... يستطيع المرء في كل لحظة أن يحصل منها على مال... غنية كيهودي! قادرة على أن تقرضك خمسة آلاف روبل دفعة واحدة، ولكنها لا تحتقر رهناً قيمته روبل واحد. كثيرون منا مروا بها. ولكنها سافلة.

وطفق الطالب يتكلم عن العجوز. وصفها بأنها شريرة خبيثة، وقال إنها صاحبة نزوات: يكفي أن يتأخر المدين عن سداد الدين في الموعد المضروب يوماً واحداً حتى يفقد الرهن. لا تقرض من المال إلا مبلغاً يساوي ربع قيمة الرهن. تتقاضى فائدة شهرية مقدارها خمسة في المائة بل وسبعة، الخ الخ... كان الطالب يتدفق في الكلام على هذا الموضوع ويفيض فيه إفاضة لا ينضب معينها. وقد أضاف أن للعجوز أختاً اسمها اليزافيتا، تضربها العجوز في كل مناسبة، رغم أن العجوز ضئيلة هزيلة هي نفسها، والعجوز

تستعبد اليزافيتا استعبادا تاما، كطفلة صغيرة، رغم أن اليزافيتا لا يقل طولها عن متر وثمانين سنتيمتراً بل يزيد..

وصاح الطالب يقول مقهقهاً:

– وهذه أيضاً امرأة عجيبة!

جرى الحديث عندئذ على اليزافيتا. كان الطالب يشعر من الكلام عنها بلذة خاصة فهو لا يكف عن الضحك. أما الضابط فكان يصغى إلى رفيقه بكثير من الاهتمام، حتى لقد طلب منه أن يرسل إليه اليزافيتا، لترقّع له ملابسه. لم يفوّت راسكولنيكوف كلمة واحدة من هذه المحادثة. عرف كل شيء دفعة واحدة: عرف أن اليزافيتا هي الأخت الصغرى لآليونا ايفانوفنا، ولكنها ليست شقيقتها وإنما هي أختها من أم أخرى، وعرف أنها قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها. عرف أنها تعمل في سبيل أختها نهاراً وليلاً، تنهض من منزلها بأعباء الطبخ والغسيل، وتقوم في الوقت نفسه بأعمال الخياطة للزبائن، حتى لقد تتولى مسح الأرض في منازل مأجورة. وعرف أن كل ما تجنيه من مال إنما يذهب إلى أختها، وأنها لا تجرؤ على قبول أي تكليف أو القيام بأي عمل، دون استئذان العجوز. وكانت العجوز تنص نصا صريحا على أنها لن ترث شيئاً، اللهم إلا عددا من قطع الأثاث والكراسي وما إلى ذلك. أما المال كله فموقوف على دير بمقاطعة ن...، للصلوات الدائمة على روح آليونا ايفانوفنا. إن اليزافيتا تنتمي إلى طبقة التجار لا إلى طبقة الموظفين وهي غير متزوجة، بشعة القوام جداً، يزيد طولها عليّ متوسط الطول كثيرا، لها قدمان كبيرتان تبدوان معقوفتين وتنتعلان دائما حذاءين باليي الكعبين. ولكنها تعنى بنظافتها أكبر العناية. والأمر الذي كان يدهش الطالب ويفجر ضحكه خاصة هو أن اليزافيتا حبلى دائماً...

قال الضابط:

– ولكن ألم تقل إنها قبيحة؟

أجابه الطالب:

– نعم... إن لها بشرة مسوّدة دائماً، حتى لكأنها جندي متنكّر، ولكنها ليست قبيحة البتة!... إن وجهها لطيف جداً، وإن عينيها خاصة طيبتان حلوتان! الدليل على ذلك أنها تعجب كثيراً من الناس، وهى هادئة مسالمة وديعة مستعدة لأن تَقنع بأي شيء. وإن لها ابتسامة يمكن أن توصف حتى بأنها فاتنة!

سأل الضابط ضاحكاً:

– أهي إذن تعجبك أيضاً؟

قال الطالب:

– نعم، لأن فيها غرابة! واسمع الآن ما سأقوله لك: يميناً إنني مستعد لأن أقتل أختها، تلك العجوز اللعينة، وأن أسرق مالها طائعاً مختاراً، مرتاح البال هادئ الضمير!..

ذلك ما أضافه الطالب متكلماً بحماسة وعنف.

انفجر الضابط يضحك ضحكاً ارتعش له راسكولنيكوف. ما أغرب هذا!

قال الطالب وقد ازدادت حرارته:

– إذا أذنت فسألقي عليك سؤالًا جاداً: أنا إنما قلت ذلك كله من باب المزاح طبعاً ولكن فكر قليلاً: هناك من جهة أولى امرأة عجوز غبية سخيفة شريرة خبيثة مريضة لا قيمة لها ولا فائدة منها لأحد بل هي ضارة لجميع الناس، لا تعرف حتى لماذا تعيش، وستموت في القريب ميتتها الطبيعية. هل تفهم؟ هل تفهم؟

أجاب الضابط وهو يحذق بانتباه شديد إلى رفيقه الذي كانت حماسته ما تنفك تتأجج:

– طبعاً أفهم!

واصل الطالب كلامه فقال:

– اسمع التتمة إذن: هناك تلك المرأة من جهة، وهناك من جهة ثانية قوىً فتية شابة نضرة، تضيع لأنها محرومة من المساعدة، وتُعدّ بالألوف، في كل مكان. إن ثمة مائة أو ألف عمل خير أو مبادرة رائعة يمكن التحريض عليها أو اصلاح حالها بمال العجوز، بهذا المال الموقوف على دير!! إن ثمة مئات وربما ألوفاً من الأفراد الذين يمكن وضعهم بهذا المال على الطريق القويم. إن ثمة عشرات من الأسر يمكن إنقاذها بهذا المال من الفقر المدقع، والتحلل الأخلاقي، والدمار والفساد، ومستشفيات الأمراض التناسلية! فماذا لو قُتِلت هذه العجوز، وأُخذ مالها ثم وُقِفَ على الخدمة الإنسانية بأسرها، على خدمة قضية جميع البشر؟ ماذا؟ ألا تعتقد أن جريمة طفيفة كهذه الجريمة ستمحوها ألوف الأعمال الخيرة؟ إننا بقتل فرد واحد نستطيع أن ننقذ حياة ألوف غيره من العفن والفساد والتحلل! يموت واحد ليعيش مئات. مسألة حسابية! وأي وزن في ميزان الحياة العام يمكن أن يكون لتلك العجوز الشقية المصدورة الغبية الشريرة؟ ألا إنها ليس لها من الوزن أكثر مما لقملة أو خنفساء. لا بل إن وزنها دون ذلك، لأن هذه العجوز ضارة. إنها تمتص حياة الآخرين. إنها شريرة. منذ مدة قصيرة عضّت أختها اليزافيتا في إصبعها، وكادوا أن يقطعوا الإصبع!

قال الضابط:

– ما هي جديرة بالحياة طبعاً، ولكن هذا نظام الطبيعة...

قال الطالب:

– نظام الطبيعة، يا أخي، يمكن تقويمه وتوجيهه، وإلا غرقنا في الأوهام والأباطيل. ثم إنه بدون ذلك لا يكون ثمة إنسان عظيم واحد. يقولون: «الواجب، الضمير» – وأنا لا اعترض بشيء على الواجب والضمير، ولكن يجب أولاً أن نتفق على معاني الألفاظ. اسمع: سألقي سؤالاً آخر، هل تصغي إلي؟

قال الضابط:

– بل أنا الذي سألقي عليك سؤالاً، أصغ إليّ!

– هيه!..

– أنت الآن تتكلم وتتحدث، ولكن قل لي: أنت مستعد لأن تقتل العجوز بنفسك؟

– لا، طبعاً!.. فإنما أنا أتكلم من وجهة نظر العدالة، ولست أتحدث عن نفسي...

– في رأيي أنه ليس هناك ظل من عدالة، ما دمت غير مستعد لأن تقرر تنفيذ هذا الفعل بنفسك. والآن هلمّ بنا نلعب البلياردوا..

كان راسكولنيكوف مضطرباً أشد الاضطراب. إن الأحاديث التي سمعها لم تكن إلا أحاديث عادية كثيراً ما سمع شباباً يتبادلونها في صور مختلفة بعض الاختلاف بصدد موضوعات شتى. ولكن لماذا وقع له أن يسمع هذه المناقشة وأن يسمع هذه الأراء في عين اللحظة التي كانت هذه الأراء نفسها تنبت في ذهنه هو؟ لماذا وقع له أن سمع، في نفس اللحظة التي تلبّث فيها فكره على العجوز، حديثا عن تلك العجوز نفسها؟ لقد ظلت هذه المصادفة تبدو له غريبة. وكان لهذه الثرثرة العابرة التافهة التي جرت في الحانة، تأثير عميق فيه أثناء تتمة الأحداث، فكأن ذلك كان نبوءة ونذيراً بقدر محتوم....

عاد راسكولنيكوف من «سوق العلف» إلى بيته، فارتمى على أريكته، ولبث ساعة بأكملها لا يتحرك. هبط الظلام أثناء ذلك. ولم يكن عنده شمعة ولا خطر بباله أن يشعل شمعة على كل حال. لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف هل فكر في شيء من الأشياء أثناء ذلك الوقت. وأخيراً أحس بقشعريرة الحمى نفسها التي أحسها في النهار، وسرّه أن يعرف أن في امكانه أن يرقد على الأريكة. وسرعان ما استبد به نعاس ثقيل كالرصاص، فنام.

نام راسكولنيكوف أكثر مما اعتاد أن ينام، نام بغير أحلام. وحين دخلت عليه ناستاسيا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، بذلت كثيرا من الجهد ولقيت كثيرا من العناء في سبيل ايقاظه. كانت تحمل إليه شاياً وخبزاً. وكان الشاي في هذه المرة أيضاً بقية شاي، وفي هذه المرة أيضاً كان الابريق أبريقها هي.

هتفت ناستاسيا تقول مغتاظة:

– ما أكثر ما يستطيع أن ينام! نعم إنه لاينقطع عن النوم!..

نهض راسكولنيكوف بجهد كبير. كان يشعر بصداع في رأسه. وقف منتصباً وسار بضع خطوات، ثم لم يلبث أن تهالك على الأريكة من جديد.

هتفت ناستاسيا:

– ماذا؟ أتريد أن تنام أيضاً؟ أتراك مريضاً؟

لم يجب راسكولنيكوف.

– هل تريد شاياً؟

قال بجهد وهو يغمض عينيه من جديد ويستدير نحو الحائط:

– فيما بعد.

لبثت ناستاسيا مائلة عليه لحظة ثم قالت:

– ربما كان مريضاً!

واستدارت وخرجت.

وعادت إليه في الساعة الثانية تحمل حساء. كان ما يزال راقداً، حتى إنه لم يكن قد مسّ الشاي. اغتاظت ناستاسيا، فهزته غاضبة قائلة له وهي تنظر إليه باشمئزاز:

– ما بالك تبقى غافياً على هذه الحال؟

فنهض وجلس، ولكنه لم يجب بشيء، وكان يحدّق إلى الأرض.

سألته ناستاسيا:

– أأنت مريض؟

ولكنها في هذه المرة أيضاً لم تحصل على جواب. استأنفت تقول بعد صمت.

– حقاً إن عليك أن تخرج قليلاً إلى الشارع! سينفعك الهواء الطلق! هل تأكل شيئاً من الطعام؟

قال لها بصوت ضعيف واهن:

– فيما بعد... اذهبي الآن...

قال لها ذلك وصرفها بحركة من يده.

بقيت لحظة قصيرة أخرى تتأمله في شفقة ثم خرجت.

وبعد دقائق، رفع عينيه، ونظر إلى الشاي والحساء ملياً، ثم تناول الخبز والملعقة وأخذ يأكل.

بلع ثلاث ملاعق أو أربعاً دون شهوة، بطريقة آلية تقريباً. قل صداع رأسه. حتى إذا فرغ من الطعام استلقى على الأريكة من جديد، لكنه لم يستطع أن ينام مرة أخرى. لبث جامداً، مضطجعاً على بطنه، دافناً وجهه في الوسادة. وبدأت تغزوه الأحلام. كانت جميع أحلامه غريبة جداً، ها هو ذا يرى نفسه في مكان ما بأفريقيا، في مكان ما بمصر، في واحة من الوحات. القافلة تستريح. الجمال راقدة بهدوء وسكون. ومن حوله حلقة من أشجار النخيل. جميع الناس يأكلون. أما هو فلا يزيد على أن يشرب ماء من جدول يجري هناك على مقربة منه مصطخباً. ما أعظم الانتعاش الذي يشعر به المرء حين يشرب هذا الماء الأزرق البارد العجيب الذي يسيل بين الحصى المتعدد الألوان فوق الرمل الملتمع بلمعان الذهب!.. ولكن ها هو ذا يسمع على حين فجأة دقات ساعة حائط، واضحةً متميزة. ارتعش راسكولنيكوف وثاب إلى نفسه، فلما رفع رأسه، ونظر من النافذة، عرف الساعة التي لعله فيها، فإذا هو يثب عن أريكته كما لو رفعته قوة مجهولة، صاحي الذهن كل الصحو، ثم يتجه نحو الباب، سائراً على رؤوس أصابعه، فيفتح الباب قليلاً برفق، ويصيخ بسمعه إلى الضجات الآتية من السلم. كان قلبه يخفق خفقانا شديداً. ولكن كل شئ بدا له عجيباً وشاذاً في الوقت نفسه. أن يكون قد استطاع أن ينام على هذا النحو منذ البارحة، وأن يكون قد لبث على هذه الحال من الخدر، بينما هناك أشياء يجب عليه أن يعملها، أن يهيئها. لعل الساعة التي سمع رنينها منذ هنيهة قد دقت السادسة.. وهذا تعجلٌ خارق محموم مضطرب يستولي عليه بعد النوم والخدر والتواني. على أن الاستعدادات ليست كثيرة. جهد راسكولنيكوف أن يتنبأ بكل شيء وأن لا ينسى شيئاً. إلا أن قلبه قد بلغ من شدة الخفقان أنه كان يتنفس في كثير من العناء. كان عليه قبل كل شيء أن يصنع علّاقة وأن يخيط العلاقة إلى المعطف: ذلك عمل يستغرق دقيقة. نبش صرة الملابس التي توجد تحت وسادته، فسلّ منها قميصاً عتيقاً، قذراً، مهترئاً كل الاهتراء، غير صالح للاستعمال، فانتزع من خرقة

عصابة عرضها خمس سنتمترات وطولها أربعون سنتمتراً. حتى إذا ثنى العصابة ثنيتين، خلع معطفه الصيفي الواسع المصنوع من نسيج قطني سميك متين (وهو الرداء الوحيد الذي كان يرتديه فوق ثيابه) وأخذ يخيط إليه طرفي العصابة من الداخل تحت الإبط الأيسر. كانت يداه ترتجفان وهو يخيط العصابة إلى المعطف. ولكنه قد أحسن القيام بهذه المهمة على خير وجه، فلما عاد يرتدي معطفه كانت العلاقة لا تظهر من الخارج. إن راسكولنيكوف قد أعدّ الإبرة والخيط منذ مدة طويلة: لفّهما بورق وأودعهما درج منضدته الصغيرة. أما العلاقة فكانت اختراعاً بارعاً جداً ابتكره خياله هو: كان على العلّاقة أن تحمل الفأس. إن من المستحيل على راسكولنيكوف أن يتجول في الشارع وهو يحمل بيده فأساً. ولو قد أخفى الفأس تحت المعطف لكان مضطراً مع ذلك إلى أن يسندها، وهذا أمر لا بد أن يلفت إليه انتباه الناس. أما الآن فليس عليه إلا أن يدخل نصل الفأس في العلاقة، فتبقى الفأس طوال الطريق معلقة في داخل المعطف تحت الإبط بهدوء، عدا أن في وسع راسكولنيكوف، حين يغمد يده في جيب المعطف من خارج، أن يسند طرف المقبض ليمنع الفأس من التأرجح. ولما كان المعطف واسعاً جداً حتى لكأنه كيس، فلن يستطيع الناظر أن يلاحظ من الخارج أن راسكولنيكوف يسند شيئا من خلال جيبه. إن فكرة صنع هذه العلاقة قد وافت ذهن راسكولنيكوف منذ أسبوعين.

فلما انتهى راسكولنيكوف من عمله هذا دس أصابعه في الفراغ الضيق الذي يفصل الأريكة «التركية» عن أرض الحجرة، وأخذ يتلمّس الزاوية اليسرى من هذا المكان، فأخرج الرهن الذي كان قد هيأه وخبأه هناك منذ مدة طويلة. الحق أن هذا الرهن لم يكن رهناً، وإنما هو شريحة ملساء من خشب، بحجم علبة فضية للسجائر. كان راسكولنيكوف قد عثر على هذه الشريحة الخشبية عَرَضاً أثناء إحدى جولاته، وذلك في فناء منزل كانت تشغل أحد أجنحته ورشة ما. وقد ضم إلى الشريحة فيما بعد صفيحة من حديد، رقيقة ملساء، — أغلب الظن أن هذه الصفيحة كانت كسرة من شيء ما — التقطها من الشارع آنذاك أيضاً. حتى

إذا شدّ هذين الشيئين المتفاوتين حجماً – وكانت صفيحة الحديد أصغر من الشريحة الخشبية –، أحدهما إلى الآخر، عُني بربطهما بخيط متصالب، ثم لفّهما لفاً أنيقاً بورقة بيضاء نظيفة، ثم عقد الخيط على اللفة عقداً محكماً يجعل فكّها أمراً صعباً، وذلك بغية أن يحوّل انتباه العجوز برهة من الزمن – لأن العجوز ستنهمك في حل العقد – فيختار هو اللحظة المؤاتية. ولقد كان هدفه من إضافة الصفيحة الحديدية هو أن يزيد وزن اللفة فيمنع العجوز من أن تكتشف، في الوهلة الأولى على الأقل، أن «الشيء» ليس إلا قطعة من خشب. وكان الرهن مخبأ تحت الأريكة منذ مدة. فما أن أخرج راسكولنيكوف الرهن حتى سمع صياحاً في الفناء يقول:

– دقت الساعة السادسة منذ مدة طويلة!

فقال راسكولنيكوف يخاطب نفسه:

– منذ مدة طويلة! رباه!.

واندفع نحو الباب، وأصاخ بسمعه، ثم تناول قبعته، وأخذ يهبط درجات السلم الثلاث عشرة، كقطة، محاذرًا، ولم يند صوت عن وقع قدميه. ما يزال عليه أن يفعل أهم شيء: أن يسرق الفأس من المطبخ. فأما أن عليه أن يستعمل فأساً فذلك أمر كان قد قرره منذ مدة طويلة. وكان راسكولنيكوف يملك كذلك مقصاً مطوية تُستعمل في الحدائق ولكنه كان غير واثق بالمقص، وكان غير واثق بقواه خاصةً. لذلك وقع اختياره نهائياً على الفأس. ولنذكر في هذه المناسبة صفة غريبة تميزت بها جميع القرارات القاطعة التي اتخذها راسكولنيكوف لإنفاذ خطته: لقد كانت هذه القرارات تبدو له سخيفة مستحيلة بمقدار ما كانت تصبح حاسمة قاطعة. إن راسكولنيكوف، رغم الصراع المضني الذي كان يجري في نفسه، لم يستطع قط أن يصدّق أن مشاريعه يمكن أن توضع موضع التنفيذ في يوم من الأيام.

ولو قد اتفق له أن توصل يوماً إلى أن يحسم جميع تلك المسائل، فيبدّد جميع الشكوك ويمهد جميع العقبات لكان من المحتمل أن يعدل فوراً عن مشروعه ذاك، عدولَه عن شيء مستحيل عجيب سخيف! ولكن الواقع أنه كان ما يزال هنالك عدد كبير من المسائل التي يجب حلها ومن الشكوك التي يجب تبديدها. أما طريقة الحصول على فأس، فذلك أمر تفصيلي تافه لا يشغل باله كثيراً، إذ لا شيء أسهل منه. ذلك أن ناستاسيا كانت تتغيب كثيراً عن البيت، ولا سيما في المساء: فهي تذهب إلى الجيران تارة وتمضي إلى الدكاكين تارة أخرى، وتترك الباب مفتوحاً أثناء ذلك، وهذا بعينه هو السبب فيما كان يقع بينها وبين مولاتها من تشاجر. كان يكفي إذن أن يدخل راسكولنيكوف المطبخ بهدوء ورفق، وأن يأخذ الفأس متى أزف الوقت، ثم إن يرجع بعد ساعة (متى أنهى كل شئ)، فيعيد الفأس إلى مكانها. غير أن شكوكاً كثيرة كانت تنبجس في ذهن راسكولنيكوف: ماذا لو رجع بعد ساعة ليردّ الفأس إلى مكانها فكانت ناستاسيا قد عادت إلى البيت مصادفة أثناء غيابه؟ سيكون عليه طبعاً أن يستمر في طريقه، وأن ينتظر خروجها من جديد. فماذا لو احتاجت أثناء ذلك إلى الفأس فأخذت تبحث عنها، وأخذت تصيح وتصرخ؟ أن ذلك سيولد شبهة أو هو سيولد فرصة لشبهة في أقل تقدير.

على أن هذه الأمور كلها تفاصيل لم يكن راسكولنيكوف قد فكر فيها فعلاً بعد. لقد كان راسكولنيكوف يفكر في الشيء الأساسي، ويرجئ التفكير في التفاصيل إلى اللحظة التي يكتمل فيها اقتناعه. ولكن كان يلوح له أن هذه اللحظة لن تجيء قط، أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في قرارة نفسه. كان لايتخيل مثلاً أنه في لحظة معينة سوف يكف عن التفكير. وسوف ينهض، وسوف يذهب إلى هناك، بكل بساطة!.. فحتى زيارته الأخيرة للعجوز (وهي الزيارة التي استهدف منها دراسة المكان وقام بها على سبيل التمرين)، حتى هذه الزيارة لم تكن في الواقع إلا محاولة، ولم يكن فيها جد. كل ما هنالك أنه قال لنفسه: «والله... سأذهب، وسأحاول، سأحقق ما أحلم به على الأقل»، ثم لم يسعه بعد ذلك فوراً إلا أن

يبصق ويولي هارباً وقد امتلأ اشمئزازاً أمام نفسه. ولكن كان يبدو أنه قد أوغل في التحليل إلى النهاية، وأنه حل المشكلة الأخلاقية التي تطرحها هذه القضية. لقد كان منطقه حاداً قاطعاً كسكين مسنونة، ولم يبق لفكره أي اعتراض واع يمكن أن يقدمه. غير أنه لم يكن واثقاً بنفسه فكان يلتمس اعتراضات من الخارج، على نحو غامض وعنيد، كأن شخصاً يدفعه إلى ذلك ويجبره عليه. وهذا يوم الأمس الذي جاء على غير توقع وكان يوماً حاسماً، قد أثر فيه تأثيراً يشبه أن يكون آلياً: لكأن شخصاً قد أمسكه من يده وأخذ يجره، معصوب العينين، بقوة خارقة، جراً لا فكاك له منه، ولا سبيل له إلى الاعتراض عليه! أو كأن آلة قد التقطت طرف ثوبه فدارت به عجلاتها، وأخذت تجذبه إليها جذبا لا حيلة له في دفعه!

في أول الأمر (منذ مدة طويلة) كان هنالك سؤال يشغل باله كثيراً، وهو: لماذا تنكشف جميع الجرائم بسهولة ويسر؟ لماذا يُعثر على آثار جميع المجرمين تقريباً في غير عناء؟ وقد توصل راسكولنيكوف شيئاً فشيئاً إلى نتائج متنوعة شائقة. قال لنفسه إن السبب الأساسي في ذلك لا يرجع إلى استحالة اخفاء الجريمة استحالة مادية بقدر ما يرجع إلى المجرم نفسه. فجميع المجرمين إنما يشعرون، لحظة تنفيذهم جريمتهم، بنوع من انهيار الارادة وفقدان الرأي السديد، فإذا بالارادة والرأي يحل محلهما طيش صبياني تماماً، في الوقت الذي يكون فيه المرء أحوج ما يكون إلى العقل والحكمة والحذر. كان راسكولنيكوف مقتنعاً بأن غياب الرأي السديد وانهيار الإرادة الصلبة يستوليان على الإنسان كما يستولي عليه مرضٌ من الأمراض وينموان مزيداً من النمو شيئاً بعد شيء ثم يبلغان ذروتهما قبيل تنفيذ الجريمة. وكان مقتنعاً بأنهما يلبثان على هذه المرحلة عند ارتكاب الجريمة، ويلبثان عليها بعد ارتكاب الجريمة بزمن يختلف طوله باختلاف الأفراد، ثم يزولان كما تزول جميع الأمراض. أما هذا التساؤل: «هل المرض هو الذي يولد الجريمة، أم أن الجريمة يصاحبها دائماً، بحكم طبيعتها، شيء من مرض؟» فتلك مسالة لم يشعر راسكولنيكوف أنه قادر على حلها.

فلما انتهى إلى هذه النتائج ارتأى أن أمثال هذه الاضطرابات المرضية لا يمكن أن تعتريه هو، واعتقد بأنه سيظل محافظاً على سلامة الرأي وقوة الارادة طوال فترة تنفيذ خطته، وذلك لسبب وحيد هو أن ما ينوي القيام به «ليس جريمة»... لندع جانباً طريقة وصوله إلى هذه النتيجة، فلقد استبقنا منذ الآن أشياء كثيرة... وحسبنا أن نضيف إلى ما ذكرناه أن المصاعب الواقعية والعقبات المادية لم يكن لها في ذهنه إلا دور ثانوي. كان يقول لنفسه: «سوف يكفيني أن أظل مسيطراً على إرادتي وعلى فكري حتى تذلّل جميع هذه الصعاب متى أزف الوقت وأصبح عليّ أن أدقق في أيسر تفاصيل القضية...» ولكن القضية لم تبدأ، فكان اقتناع راسكولنيكوف بأن قراراته حاسمة يضعف شيئاً بعد شيء. حتى إذا أزفت الساعة، جرت جميع الأمور على غير ما تنبأ به، بل تكاد تكون مفاجئة، حتى لكأنه لم يتنبأ بشيء يوماً من الأيام.

هناك ظرف من أبسط الظروف أذهله حتى قبل أن يهبط السلم: حين وصل إلى فسحة المطبخ الذي كان بابه مفتوحا كما يكون كذلك دائما، ألقى على داخل المطبخ نظرة محاذرة مواربة ليتأكد من أن صاحبة البيت ليست في المطبخ أثناء غياب ناستاسيا، وليتأكد من أن باب غرفتها مغلق تماماً بحيث لا تستطيع أن تلمحه حين يدخل إلى المطبخ لأخذ الفأس. فما كان أشد ذهوله حين رأى أن ناستاسيا لم تكن حاضرة فحسب بل كانت مشغولة كذلك، فهي تخرج الغسيل من سلة وتنشره على حبال! فلما رأته قطعت عملها والتفتت نحوه ثم لم تحوّل بصرها عنه إلى أن غاب. وقد أشاح راسكولنيكوف عينيه وابتعد كأنه لم يلاحظ شيئاً، ولكن مهمته كانت قد أخفقت: ما من فأس! وأسودّت الدنيا في عينيه.

قال يحدث نفسه وهو يجتاز باب المنزل: «من أين جئت بهذه الفكرة وهي أن ناستاسيا لا بد أن تكون في هذه اللحظة غائبة حتماً؟ لماذا اتخذت هذا القرار موقناً هذا اليقين كله؟» وشعر بأنه مسحوق مُذل. كان من شدة غضبه يشتهي أن يسخر من نفسه... إن حنقاً غبياً حيوانياً أخذ يغلي في أعماقه.

توقف تحت باب المنزل حائراً متردداً. إنه يكره أن يمضي إلى الشارع هكذا، تقيدًا بالشكل، ولكنه يكره أكثر من ذلك أيضاً أن يعود إلى غرفته. جمجم يقول: «يا لها من فرصة أضعتها، أضعتها إلى الأبد!» قال ذلك وهو تحت قبة المدخل، ولكن ها هو ذا الآن أمام حجرة البواب الصغيرة التي كان بابها مفتوحاً أيضاً. ارتعش راسكولنيكوف فجأة. لقد لمح في هذه الحجرة على بعد خطوتين منه، تحت دكة، في اليمين، شيئاً يسطع... نظر حواليه: لم ير أحداً. اقترب من الحجرة سائراً على رؤوس أصابع قدميه، وهبط درجتين، ونادى البواب بصوت ضعيف. لم يجبه أحد. قال يحدث نفسه: «نعم! البواب غائب. على كل حال، أغلب الظن أنه في مكان ما بالفناء ما دام الباب مفتوحاً». واندفع نحو الفأس بوثبة واحدة (إن الشيء الذي يسطع كان فأساً). سحب الفأس من تحت الدكة حيث كانت موضوعة بين حطبتين، وقبل أن يغادر الحجرة أسرع يضع الفأس في العلاقة داخل المعطف، ودس يديه في جيبيه وخرج. لم يره أحد! قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة غريبة: «لأنك محروم من العقل عاونك الشيطان!!» وشجعته هذه المصادفة كثيراً.

سار في الشارع بهدوء ووقار ورصانة دون أن يتعجل، وذلك حتى لا يوقظ حوله شبهات. كان لا يكاد ينظر إلى المارة، حتى لقد كان يجهد أن لا يرفع عينيه، بغية أن لا يلفت أنتباه أحد. وتذكر عندئذ قبعته فقال يحدث نفسه: «ما أغباني! كان معي مال أولَ أمس، ثم لم أشتر قبعة!» وأفلتت منه شتيمة...

وألقى نظرة على داخل أحد الدكاكين عرضاً فلمح ساعة معلقة في الجدار تشير إلى السابعة وعشر دقائق. كان عليه أن يغذ الخطى، ولكن كان عليه كذلك أن لا يمضي إلى منزل العجوز رأساً، وانما ينبغي له أن يدور دورة. إن من الأفضل أن يدخل المنزل من الباب الآخر في الجهة الثانية.

في الماضي، حين كان يتفق له أن يتصور هذا كله، كان يقدّر أحياناً أنه سيشعر بخوف شديد. ولكنه الان لا يشعر بهذا الخوف الشديد بل لا يشعر بخوف البتة. الآن تشغله أفكار ليس لها أي شأن بالموضوع، وما

أكثر تبدلها وتغيرها! فحين اجتاز حديقة يوسوبوف مثلا انبثقت في ذهنه فكرة توقف عندها ملياً، هي أن من الواجب وضع نوافير مياه من شأنها أن ترطب الهواء ترطيباً لذيذاً في الميادين العامة. وشيئاً فشيئاً انتهى كل الاعتقاد بأنه إذا وُسّعت «حديقة الصيف» بحيث تشمل كل «ساحة مارس»، وإذا ضُمّت هذه الحديقة إلى حديقة «قصر ميخائيل»، فسيكون ذلك تجديداً في المدينة ممتعاً ومفيداً في آن. وهذا سؤال آخر يشده إليه بقوة. تساءل راسكولنيكوف: لماذا يحب الإنسان في المدن الكبرى، لا بحكم الضرورة بل بدافع الميل، أن يمكث خاصةً في الأحياء التي ليس فيها حدائق ولا نوافير مياه، ولا يسودها إلا الحمأ والعفن والقاذورات؟ وتذكر عندئذ جولاته في «سوق العلف»، فارتدّ لحظة إلى الشعور بالوضع الذي هو فيه، فقال يحدّث نفسه: «يا للسخف! من الأفضل أن لا أفكر البتة!»..

ومضت في ذهنه هذه الفكرة: «لا شك أن الذين يقادون إلى المقصلة يتشبث فكرهم هذا التشبث بجميع الأشياء التي يصادفونها في طريقهم». ولكن هذه الفكرة التي ومضت في ذهنه بسرعة كسرعة البرق، لم تلبث أن اختفت بسرعة كسرعة البرق أيضاً. لقد استطاع هو نفسه أن يحملها على الاختفاء... ولكن ها هو ذا قد اقترب... هذا هو المنزل... هذا مدخل العمارة! وفي مكان ما، رنت ساعة حائط على حين فجأة. قال راسكولنيكوف لنفسه متسائلاً: «ماذا؟ أنكون هي السابعة ونصف؟ أهذا ممكن؟ مستحيل... لا شك أن هذه الساعة متقدمة!..»

وابتسم له الحظ مرة أخرى حين اجتاز المدخل. إن عربة ضخمة محملة بالعلف كانت تدخل، في تلك اللحظة نفسها كما لو عمداً، أمامه تماماً، فتخفيه إخفاء كاملاً طوال مدة مروره. فما أن نفذت العربة إلى الفناء حتى كان هو قد استطاع أن يتسلل يمنة. وسمع عدة أصوات آتية من الجهة الأخرى وراء العربة. كان هنالك أناس يصرخون ويتشاجرون. ولكن أحدا لم يلاحظه، ولم يلتق بأحد البتة. وكانت نوافذ كثيرة مطلة على الفناء المربع الواسع مفتوحة في تلك اللحظة. ولكن راسكولنيكوف لم يرفع رأسه. لقد كان لا

يملك من القوة ما يمكنه من رفع رأسه. والسّلّم الذي يفضي إلى بيت العجوز يقع على اليمين قرب المدخل، فسرعان ما كان راسكولنيكوف على ذلك السلم...

حبس راسكولنيكوف أنفاسه، وضغط بأحد يديه خفقات قلبه، بينما كانت الأخرى تتلمس الفأس وتعدّل وضعها. وأخذ يصعد محاذراً هادئاً مصيخاً بسمعه في كل لحظة. ولكن السّلم كان خالياً كل الخلو هو أيضاً. إن جميع الأبواب مغلقة. لم يلتق راسكولنيكوف بأحد. صحيح أن باب شقة غير مسكونة، في الطابق الثاني، كان مفتوحاً. وأن عددا من الدهانين يعملون في تلك الشقة، ولكنهم لم يلاحظوه. توقف راسكولنيكوف لحظة، وفكر، ثم تابع الطريق وهو يحدّث نفسه قائلاً: «طبعاً، من الأفضل أن لا يوجدوا هنا... ولكن... ما يزال ثمة طابقان».

هذا هو الطابق الرابع أخيراً... هذا هو الباب... هذه هي الشقّة المقابلة... إنها ما تزال خالية... وأغلب الظن أن الشقة التي تقع تحت مسكن العجوز في الطابق الثالث خالية أيضاً. إن البطاقة المسمّرة على الباب قد زالت... معنى ذلك أن سكانها قد رحلوا... كان راسكولنيكوف يشعر باختناق. ومضت في ذهنه فكرة سريعة سرعة البرق: «ماذا لو انصرفت؟» ولكنه لم يجب عن هذا السؤال، وأنصت كصمت القبور. واستدار مرة أخرى نحو السلم، وتسمّع مدة طويلة بانتباه شديد... وبعد ذلك، ألقى على ما حوله نظرة أخيرة، وتهيأ، وعدل مقبض الفأس في العلاقة مرة أخرى. تساءل بينه وبين نفسه: «ألست مسرفًا في الشحوب، مسرفًا في توتر الأعصاب؟ أنها شكّاكة ريابة... أفلا ينبغي لي والحالة هذه أن أنتظر... إلى أن يهدأ قلبي ويسكن روعي؟»

ولكن قلبه لم يهدأ. بالعكس: أخذ قلبه، كأنما على عمد، يدق دقاً أقوى فأقوى... لم يطق صبراً، فمد يده ببطء إلى حبل الجرس، وشدّه، وبعد نصف دقيقة قرع الجرس مرة أخرى بقوة أكبر.

ما من جواب. فيمَ قرع الجرس بغير طائل؟ ثم إن هذا ليس بالمستحسن. لا شك أن العجوز في منزلها، ولكنها الآن وحيدة ولا بدّ أن تكون أكثر حذراً أو شكاً. لقد كان راسكولنيكوف يعرف بعض عاداتها... وها هو ذا يضع إذنه على الباب مرة أخرى. أكانت حواسه مشحوذة شحذاً قوياً إلى هذا الحد – وذلك ما يصعب أن يسلم به الناس عامة – أم أن الضجة كانت مسموعة حقاً؟ المهم أنه قد ميّز، على حين فجأة، خشخشة يد محاذرة على مقبض الباب وحفيف ثوب يلامسه. لا شك أن أحداً يختبئ وراء هذا الباب، ويصيخ بسمعه من الداخل، مثلما يصيخ هو بسمعه من الخارج، حابساً أنفاسه مثله، واضعاً إذنه على الباب مثله أيضاً...

تعمّد راسكولنيكوف أن يتحرك، ودمدم بصوت عالي بغية أن لا تحس العجوز أنه يختبئ، ثم قرع الجرس مرة ثالثة، ولكنه قرعه في هذه المرة برفق وهدوء ورصانة ورزانة، بغير تعجل يدل على نفاد الصبر. إن ذكرى هذه اللحظة ستعاوده في المستقبل واضحة مضيئة، لأنها قد انطبعت في ذهنه إلى الأبد. إن راسكولنيكوف لم يستطع أن يفهم في يوم من الأيام بعد ذلك، من أين جاءه ذلك المكر كله، لا سيما أن فكره كان يظلم بين الفينة والفينة، وأنه أصبح لا يكاد يشعر بجسمه... وبعد لحظة سمع صوت المزلاج يُسحبُ لفتح الباب.

الفصل السابع

شُق الباب قليلا كما حدث في المرة الماضية، وحدقت إلى راسكولنيكوف من قرارة الظلام عينان حادتان ربّابتان. هنا فقد راسكولنيكوف هدوء أعصابه فارتكب خطيئة كبيرة أوشكت أن تفسد عليه كل شيء.

لقد خشى راسكولنيكوف أن تخاف العجوز من وجودها وحيدة معه، وكان لا يأمل أن يرد إليها مظهرُه طمأنينتها، فأمسك الباب وشدّه إليه، حتى لا يخطر ببالها أن تغلقه من جديد، فلما رأت العجوز ذلك لم تشدّ الباب إلى جهتها، ولكنها لم تترك قبضته أيضاً، فأوشكت أن تُجرّ إلى فسحة السلم. وحين رآها راسكولنيكوف ما تزال واقفة في العتبة لتسد الطريق، مشى إليها قدماً، فإذا بذعر شديد يستولى عليها، وإذا هي تتقهقر إلى الوراء بوثبة واحدة، وتحاول أن تقول شيئاً فلا تستطيع، وتشخص إليه بكل عينيها.

قال لها وهو يصطنع هيئة طلقة بقدر ما يستطيع:

– نهارك سعيد يا اليونا ايفانوفنا.

ولكن صوته لم يطعه، فقد كان متقطعاً مرتجفاً. وتابع كلامه يقول لها:

– جئتك بالرهن... ولكن فلنمض إلى هناك حيث الضوء أكثر...

ولم ينتظر أن تدعوه إلى الدخول بل دخل إلى الغرفة بخطى حازمة. جرت العجوز وراءه. وانحلت عقدة لسانها فقالت:

– رباه! ما هذا؟ من أنت؟ ماذا تريد؟

– عجيب يا آليونا ايفانوفنا... أنا راسكولنيكوف... إنك تعرفينني منذ مدة طويلة.. خذي... لقد جئتك بالرهن الذي وعدتك به آخر مرة..

قال لها ومدّ إليها الرهن.

أخذت العجوز تتفحص الرهن، ولكن سرعان ما عادت عيناها تحدقان إلى عيني الزائر الغريب. كانت تتفرس فيه بانتباه وخبث وخشية. انقضت دقيقة، حتى لقد خيل إلى راسكولنيكوف أنه يرى في عينيها نوعاً من السخرية، كأنما هي قد أدركت كل شيء. شعر راسكولنيكوف بأنه يفقد سيطرته على نفسه، وأن خوفاً يغزوه، خوفاً يبلغ من الشدة أنه سوف يولي هارباً إذا هي ظلت تحدق إليه هذا التحديق نصف دقيقة أخرى دون أن تقول كلمة واحدة.

قال فجأة، بخبث أيضاً:

– ما بالك تنظرين إليّ هكذا كأنك لم تعرفيني؟ خذي الرهن إذا شئت... وإلا لجأت إلى غيرك! ليس في وقتي متسع...

إن راسكولنيكوف لم يشأ أن ينطق بهذه الأقوال، ولكنها أفلتت منه من تلقاء نفسها فجأة.

استردت العجوز هدوءها. اللهجة الجازمة في كلام الزائر قد أعادت إليها الثقة.

سألته وهي تنظر إلى الرهن:

– ولكن، سيدي، لماذا تفاجئني هكذا؟.. وما هو هذا الشيء الذي تريد أن ترهنه؟

قال راسكولنيكوف:

– هو علبة سجائر مصنوعة من الفضة. حدثتك عنها في المرة الماضية.

مدت يدها وقالت:

– ولكن ما أشد شحوبك! ويداك ما بالهما ترتجفان!! هل أنت مريض، هه؟

أجابها بصوت متقطع:

– بي حمى!..

ثم أضاف يقول بمشقة كبيرة:

– وحين لا يملك المرء ما يأكله فلا بد أن يشحب لونه!..

لقد بارحته قواه من جديد. ولكن جوابه كان معقولاً. تناولت العجوز الرهن.

سألت العجوز راسكولنيكوف، وهي تتفرس فيه مرة أخرى، وتروز الرهن بيدها:

حد ما هذا؟

– علبة سجائر... فضة... انظري.

– لا يبدو أنها من فضة!.. لكنك لففتها لفاً أكثر من اللزوم.

قالت ذلك وأخذت تحاول حل عقدة الخيط مقتربة من النافذة حيث كان الضوء أكثر (كانت جميع النوافذ في بيتها مغلقة رغم الحرارة الخانقة). تركت راسكولنيكوف إذاً بضع لحظات، وأدارت له ظهرها. فك راسكولنيكوف أزرار معطفه وسل الفأس من العلاقة، ولكنه لم يخرجها إخراجاً تاماً، فهو ما يزال يمسكها بيده اليمنى تحت المعطف. لقد اعترى ذراعيه ضعف شديد، وهو يحس أنهما تزدادان تخدراً وثقلاً لحظة بعد لحظة، وتصبحان أشبه بقطعتين من خشب. خشي أن يرخي الفأس وأن يتركها تسقط... وأخذ رأسه يدور فجأة... هتفت العجوز تقول بزعل وهي تنوي ان تتقدم نحوه:

– من ذا يخطر بباله حقاً أن يربط صرةً هذا الربط؟

لم يبق في وقت راسكولنيكوف متسع للحظة يضيعها. وها هو ذا يخرج الفأس، ويشهرها بكلتا يديه، ويسقطها على رأس العجوز وهو لا يكاد يعي ماذا يعمل، ولا يكاد يبذل جهداً، حتى لتوشك أن تكون الحركة التي قام بها حركة آلية. لقد تمت هذه الحركة كما لو من تلقاء نفسها ودون أن تتدخل فيها قواه، ولكنه ما أن أسقط الفأس حتى عادت إليه قواه.

كانت العجوز عارية الرأس على عادتها، وكان شعرها الشائب، الخفيف، المُدهّن، المزيّت كثيراً، المضفور على صورة ذيل فأرة، المشدود ببقية مشط، كان يبرز ناتئاً على قفا رقبتها. ولأن قامتها قصيرة فإن ضربة الفأس قد سقطت على قمة جمجمتها. أطلقت العجوز صرخة، ولكنها صرخة ضعيفة جداً. ومال جسمها إلى الأرض ولكنها استطاعت أن ترفع يديها إلى رأسها. وكانت ما تزال تمسك «الرهن» بإحدى يديها. هوى راسكولنيكوف على رأسها بضربة جديدة، ثم بضربة أخرى، باذلاً كل ما يملك من قوة، وذلك بظهر الفأس أيضاً، وعلى قمة الجمجمة كذلك. انبجس الدم من الرأس كأنه ينسكب من كأس مقلوبة، وتهاوى الجسم إلى وراء. تقهقر راسكولنيكوف ليخلي لها مكاناً، ثم أسرع يميل على وجهها: كانت العجوز قد ماتت. لكأن عينيها المحملقتين تريدان أن تخرجا من محجريهما. والوجه كله، ولا سيما الجبين، تبدو عليه علامات الانقباض والتشنج التي تصاحب الاحتضار.

وضع راسكولنيكوف الفأس على أرض الحجرة قرب الميتة، وأسرع يدس يده في جيبها متحاشياً أن تتسخ يداه بملامسة الدم. دس يده في ذلك الجيب الأيمن الذي أخرجت منه العجوز مفاتيحها في المرة الماضية. كان راسكولنيكوف محتفظاً بصحو ذهنه، كان لا يشعر بظلام فكره أو بدوار في رأسه. إن يديه وحدهما ما تزالان ترتجفان. سوف يتذكر راسكولنيكوف في المستقبل أنه كان في تلك اللحظة شديد الانتباه كثير الحذر، وأنه قد عرف كيف يتحاشى أن يلطخ يديه بالدم... سرعان ما أخرج راسكولنيكوف المفاتيح. كانت المفاتيح، كما في المرة الماضية، مجتمعة في حزمة واحدة تضمها بعضها إلى بعض حلقة من فولاذ. حمل

راسكولنيكوف المفاتيح بيديه وهرول مسرعاً إلى غرفة النوم لا يضيع لحظة واحدة. إنها غرفة صغيرة جداً تنتصب فيها أيقونات في داخل خزانة كبيرة ذات زجاج. وعند الحائط المقابل يوجد سرير كبير، نظيف جدا، له غطاء من حرير، مبطن بالقطن ومصنوع من عدة أقمشة مجتمعة. وعند الجدار الثالث توجد الخزانة ذات الأدراج. شيء غريب: ما إن أخذ راسكولنيكوف يدخل أحد المفاتيح في قفل الخزانة، وما إن سمع صريف المفاتيح، حتى سرى في كيانه كله نوع من قشعريرة أو رعدة. وتمنى فجأة من جديد أن يدع كل شيء وأن ينصرف. ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة. لقد فات أوان الانصراف. وسخر راسكولنيكوف من نفسه حين وافته فكرة أخرى تنبهه إلى الخطر. لقد خيل إليه بغتة أن العجوز ربما كانت ما تزال حية وربما تصحو من غيبوبتها. فإذا هو يترك المفاتيح والخزانة، ويعود إلى الجثمان راكضاً، ويتناول الفأس ويشهرها فوق العجوز مرة أخرى، ولكنه لا يسقطها عليها. لقد كانت العجوز ميتة. لم يبق مجال للشك في هذا. وحين مال راسكولنيكوف عليها ليدقق النظر فيها من قرب، رأى رؤية واضحة أن الجمجمة كانت قد انكسرت وأن قمتها كانت قد انحرفت قليلاً. اشتهى أن يضع هنالك إصبعه، ولكنه منع نفسه من ذلك: يكفيه أن يرى. وكان الدم قد شكل على أرض الغرفة أثناء ذلك بركة كبيرة. ولمح راسكولنيكوف، على حين فجأة، حبلاً صغيراً في عنق العجوز، فشده، ولكن الحبل كان متيناً فلم ينقطع، وكان إلى ذلك مشرباً بالدم. حاول راسكولنيكوف أن ينزع الحبل. ولكن شيئاً ما كان يثبته. ثارت ثائرة راسكولنيكوف، فشهر الفأس من جديد، عازماً على أن يقطع الحبل فوق جسم العجوز، لكنه لم يجرؤ أن يفعل، واستطاع، بعد دقيقتين من الجهد، أن يقطع الحبل دون أن يحزّ الجثمان، ملطخاً بالدم يديه والفأس معاً. ثم سحب الحبل. لم يخطئ ظنه: هي صُرّة مال. لقد عُلّق بالحبل صليبان، أحدهما من خشب السرو، والثاني من نحاس، وعُلقت به أيقونة صغيرة مطلية بالمينا، وحافظة نقود من جلد شامواه، صغيرة متسخة كل الاتساخ، ولها إطار وحلقة من فولاذ. كانت حافظة النقود تبدو محشوة حشواً. وضعها

راسكولنيكوف في جيبه دون أن يدقق فيها. ثم ألقى الصليبين على صدر العجوز. وركض إلى غرفة النوم من جديد، حاملاً الفأس في هذه المرة.

وبسرعة محمومة، أمسك المفاتيح، وعاد ينهمك في معالجتها، ولكن دون أن يفلح أيضاً، فما من مفتاح من هذه المفاتيح كان يبدو أنه ملائم للقفل. ليس يرجع ذلك إلى أن يديه كانتا ترتجفان، وإنما يرجع إلى أنه كان يخطئ في كل مرة. كان يدرك مثلاً أن هذا المفتاح من المفاتيح ليس هو المفتاح المطلوب، وأنه لا يدخل في القفل، ومع ذلك كان يستمر على محاولة ادخاله. وفجأة تذكر وفهم أن المفتاح الكبير المسنّن الذي يتأرجح الآن بين سائر المفاتيح الصغيرة، لا يناسب الخزانة ذات الأدراج حتماً (وذلك ما سبق أن قاله لنفسه في المرة الماضية)، بل يناسب صندوقاً ما، وأن كل شئ ربما كان مودعاً مخبأ في ذلك الصندوق. ترك راسكولنيكوف الخزانة ذات الأدراج، وأسرع يندس تحت السرير، لعلمه بأن من عادة النساء العجائز أن يخفين صندوقهن في هذا المكان. ولم يخطى في ظنه إذ كان يوجد تحت السرير فعلاً صندوق كبير، يزيد طوله على أرشين، وله غطاء محدودب منجد بجلد رقيق أحمر تزينه مسامير صغيرة من فولاذ. انطبق المفتاح المسنّن على القفل انطباقاً تاماً، وفتح الصندوق. هذا معطف من فرو الأرنب مبطن بحرير أحمر، يعلو سائر الأشياء التي يضمها الصندوق، ويحميه شرشف أبيض يوجد تحته فستان من الحرير ثم شال. وفي قرارة الصندوق لا يبدو أنه يوجد إلا خرق. أخذ راسكولنيكوف يمسح بالبطانة الحمراء يديه الملطختين بالدم، قائلا لنفسه: «هي حمراء، والدم لا يُرى على قماش أحمر كما يُرى على غيره»، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك، وتساءل مذعوراً: «رباه! أأنا بسبيل أن أصبح مجنوناً؟»

غير أنه ما كاد يحرك الخرق الموجودة في قرارة الصندوق حتى انزلقت من تحت المعطف، على حين فجأة، ساعة ذهبية. فقلب راسكولنيكوف عندئذ كل ما يضمه الصندوق.

كان بين الخرق، فعلاً، أنواع شتى من أشياء ذهبية (لعلها أشياء رهنها أصحابها عند آليونا ايفانوفنا ثم لم يستردوها): فهناك أساور وسلاسل وأقراط ودبابيس لرباط العنق وغير ذلك. إن بعض هذه الأشياء موضوع في علب، وبعضها ملفوف بورق جرائد لا أكثر، ولكن ورقة الجريدة مزدوجة ومربوطة بخيط في عناية وحرص. أسرع راسكولنيكوف يحشو بهذه الأشياء جيوب سرواله ومعطفه، مهملاً حتى إن يفض الصّرر ويفتح العلب. ولكن وقته لم يتسع لأخذ مقدار كبير من هذه الأشياء..

ذلك أنه سمع على حين فجأة أصوات وقع أقدام في الغرفة التي يرقد فيها جثمان العجوز. تجمّد وانشلّ حتى لكأنه ميت. ولكن السكون لم يلبث أن عاد يخيم. فظن أنه كان ألعوبة وهم من أوهام الخيال. وما هي إلا برهة وجيزة حتى سمع صرخة ضعيفة تنطلق على حين بغتة، كانت تلك الصرخة أشبه بأنّة خافتة متقطعة، ثم عاد الصمت يخيم من جديد. إن صمتًا كصمت الموت قد ساد الجوّ خلال دقيقة أو دقيقتين. قرفص راسكولنيكوف قرب الصندوق ينتظر، وهو لا يتنفس إلا بكثير من العناء. ثم نهض بوثبة واحدة، فأمسك الفأس، واندفع يخرج من غرفة النوم.

في وسط الغرفة كانت اليزافيتا واقفة وفي يدها سلة كبيرة. إنها تنظر إلى أختها الميتة مذعورة مصعوقة. كان وجهها شاحباً شحوباً شديداً، وكانت كأنها لا تملك من القوة ما يمكنها من أن تصرخ. فلما رأت راسكولنيكوف أخذت ترتعش كورقة في مهب الريح. وسرت في جسمها كله رعدة قصيرة متقطعة. وتقبض وجهها بتشنجات. رفعت ذراعها، وفتحت فمها، دون أن تصرخ مع ذلك، وأخذت تتقهقر إلى الوراء بخطى بطيئة أمام راسكولنيكوف، محاولة أن تلطو في ركن من الأركان. وكانت أثناء ذلك تحدق إليه وتتفرس فيه، ولكنها ما تزال خرساء لا تنطق، كأنما انقطعت أنفاسها. هجم راسكولنيكوف عليها مسلحاً بفأسه. تقلصت شفتا اليزافيتا من الألم، وكأنها طفل من أولئك الأطفال الصغار جداً الذين إذا رأوا الشيء الذي يخيفهم، همّوا أن يصرخوا دون أن يحوّلوا نظراتهم عن الشيء الذي يثير خوفهم. مسكينة

اليزافيتا! كانت تبلغ من السذاجة والبساطة ومن فرط ما عانته من اضطهاد ورعب في حياتها أنها لم ترفع حتى ذراعها لتحمي وجهها، مع أن هذه الحركة هي الحركة الطبيعية في مثل تلك اللحظة، لأن الفأس إنما كانت مصوّبة إلى رأسها. اكتفت اليزافيتا بأن رفعت قليلا يدها اليسرى التي لا تحمل شيئاً، فمدتها ببطء نحو راسكولنيكوف كأنما لتدفعه عنها. هوى راسكولنيكوف عليها بحدّ الفأس، فأصابت الضربة جمجمتها، وشقت أعلى جبينها حتى النافوخ تقريباً. سقطت اليزافيتا على الأرض كتلة واحدة، فتناول راسكولنيكوف سلتها، وقد طار صوابه كله، فرماها وأسرع راكضاً إلى حجرة المدخل.

كان الذعر يستولي عليه بمزيد من القوة شيئاً بعد شئ، ولا سيما بعد جريمة القتل الثانية هذه التي لم تكن في الحسبان قط. إنه الآن يتعجل مغادرة المكان بأقصى سرعة. ولو كان عندئذ في حالة تمكنه من أن يرى رؤية أوضح وأن يفكر تفكيراً أسلم، لو استطاع أن يدرك صعوبة وضعه الذي يتصف بأنه يائس فظيع مستحيل، لو استطاع أن يتصور، عدا ذلك، العقبات الكثيرة التي ما يزال عليه أن يجتازها، وربما الجرائم الكثيرة التي سيرتكبها لانتزاع نفسه من هذا البيت والعودة إلى مسكنه، إذن لكان من الجائز جداً أن يترك كل شيء، وأن يبادر فوراً إلى تسليم نفسه، لا عن خوف، بل عن شعور بالهول والاشمئزاز مما فعل. لقد كان الاشمئزاز، خاصة، يزداد دقيقة بعد دقيقة. ما كان له الان، بحال من الأحوال، أن يقترب من الصندوق، أو حتى من الغرفة.

ولكن نوعاً من الذهول، بل ومن الحلم، قد استولى عليه شيئاً بعد شيء، حتى لكأنه في بعض اللحظات قد نسي نفسه، أو قل نسي الأمر الأساسي وتشبث بالتفاصيل وحدها. وحين ألقى نظرة على المطبخ لمح دلواً موضوعاً على دكة، وممتلئاً نصفه بالماء. فارتأى أن يغسل فيه يديه والفأس. كانت يداه الملطختين بالدم لزجتين. أغطس حدّ الفأس في الماء، وتناول من على حافة النافذة قطعة صغيرة من صابون كانت موضوعة في صحن، وأخذ يغسل يديه داخل الدلو. فلما انتهى من غسلهما، سحب الفأس، فنظف نصلها،

ثم لبث ثلاث دقائق كاملة يدلك مقبضها في المواضع الملطخة بالدم، حتى لقد استعمل في تنظيفه الصابون. وبعد ذلك مسح الفأس كلها بخرقة كانت تجف على مقربة منه فوق حبل مشدود بانتباه شديد. لم يبق على الفأس أي أثر، ولكن مقبضها ما يزال رطباً. دسّ راسكولنيكوف الفأس في العلاقة التي خاطها في داخل معطفه، ثم أخذ يفحص المعطف والسروال والحذاءين، بالقدر الذي أتاحه له النور الضعيف. لا شيء، من النظرة الأولى، يبدو على مظهره من خارج. على الحذاءين وحدهما كان يمكن أن يرى الناظر بضع بقع. بلّل راسكولنيكوف خرقة ومسح الحذاءين. على أنه كان يعرف أنه لا يفحص نفسه جيداً، وأنه ربما كان هنالك شيء يخطف الأبصار ولكنه لا يلاحظه. وقف في وسط الغرفة حائراً. وهذه فكرة مظلمة قاتمة تغزوه، وهي أنه يتصرف تصرف مجنون، وأنه لا يملك في هذه اللحظة لا القدرة على التفكير ولا القدرة على الدفاع عن نفسه، وأن ما يجب عليه أن يفعله قد يكون غير ما يفعله الآن. دمدم يقول: «رباه! إن عليّ أن أهرب، أن أهرب!!» واندفع نحو حجرة المدخل. ولكن هناك إنما كان ينتظره رعب لم يشعر بمثله في حياته!

لبث راسكولنيكوف جامداً لا يتحرك، وأخذ ينظر فلا يصدّق عينيه: إن الباب الذي يفضي إلى فسحة السلم، هذا الباب الذي قرع جرسه ودخل منه منذ قليل، هو الان مفتوح، لا مفتاح ولا مزلاج إذن، طوال الوقت الذي انقضى! إن العجوز لم تغلق الباب إذن بعد دخوله، ربما من باب الاحتياط والحذر! ولكن ما هذه الخواطر؟ ألم يرَ اليزافينا بعد ذلك؟ فكيف لا يخطر بباله أنها لا بد أن تكون قد دخلت من مكان ما؟ إنها لم تخترق الجدران على كل حال!

وأسرع راسكولنيكوف إلى الباب فأوصد المزلاج.

ثم سرعان ما قال يحدث نفسه:

– لا، لا، ليس هذا ما يجب على أن أفعله. ينبغى أن أنصرف، أن أنصرف...

وسحب المزلاج، وفتح الباب، وأخذ ينصت إلى ضجات السلم متجسسًا.

لبث يتجسس هذا التجسس مدة طويلة. هناك، في بعيد، ربما عند باب العمارة، أصوات رجلين صارخين معولين، يتشاجران ويتشاتمان. تساءل راسكولنيكوف: «ما بالهما؟» وانتظر صابراً. وصمت كل شئ في آخر الأمر دفعة واحدة: افترق الرجلان. استعد راسكولنيكوف للخروج، فإذا بباب في الطابق الأسفل يُفتح على حين فجأة صاخباً، فيخرج منه أحد ويأخذ يهبط درجات السلم وهو يدندن لحناً من الألحان. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «ولكن ما بالهم يحدثون مثل هذه الضجة جميعا؟» وعاد يغلق الباب عليه من جديد، وانتظر. وأخيراً انقطعت كل ضجة، فما من حركة وما من نأمة. خرج راسكولنيكوف. ولكنه ما أن وضع قدمه على أول درجة من درجات السلم حتى سمع مرة أخرى أصوات وقع أقدام.

إن أصوات وقع الأقدام هذه آتية من بعيد، من أسفل السلم، ولكن راسكولنيكوف تذكر فيما بعد، تذكر تذكراً واضحاً جداً، أنه منذ سمع صدى أول خطوة، أوجس فوراً من أن ذلك آت إلى هنا حتماً، إلى مسكن العجوز. لماذا؟ ماذا كان في تلك الضجة من شيء خاص ذي دلالة إلى هذا الحد؟ كانت الخطوات ثقيلة، موزونة، أميل إلى البطء، ها هو «القادم» يجتاز الطابق الأرضي، يستمر في الصعود، إن صوت وقع خطاه يزداد قوة، وما ينفك يزداد قوة! إن راسكولنيكوف يسمع الان لهاثه. ها هو ذا يبلغ الطابق الثاني... هو قادم إلى هنا! أحس راسكولنيكوف فجأة بتجمد في جسمه. إن الأمور تجري كما تجري في الأحلام تماماً، حين يرى النائم نفسه ملاحقا مطارداً، فيحدّق به خصمه، ويصبح مهددًا بالموت، فيظل مسمّرًا في مكانه إن صح التعبير، عاجزا عن تحريك ذراعيه.

ولم يثب راسكولنيكوف إلى رشده إلا حين أخذ القادم يعبر إلى الطابق الثالث. فاستطاع عندئذ أن يرجع إلى البيت مسرعاً محاذراً، وأغلق على نفسه الباب، ثم أمسك المزلاج فدفعه دفعاً رفيقاً بلا ضجة، تقوده في ذلك غريزته، ثم التصق بالباب حابساً أنفاسه. وكان القادم المجهول قريباً من الباب هو أيضاً. إن كلاً من الرجلين يقف الآن أمام الآخر على نحو ما كان يقف راسكولنيكوف والعجوز منذ قليل، حين لم يكن يفصل بينهما إلا سُمك الباب، وحين كان راسكولنيكوف مصيخًا بسمعه يتنصت.

تنفس الزائر عدة مرات بمشقة كبيرة. قال راسكولنيكوف يحدّث نفسه وقد تقلصت يده على الفأس: «لا بد أنه طويل وضخم». حقاً إن ذلك كله يشبه الأحلام شبهاً كبيراً. أمسك الزائر حبل الجرس، وشدّه شدا قويا.

فما أن دوّى رنين الجرس حتى أحس راسكولنيكوف بأنه يسمع ضجة خفيفة في الغرفة كأن أحداً قد تحرك، حتى لقد أنصت جاداً بضع ثوان، وقرع الزائر المجهول الجرس مرة أخرى وانتظر ثم إذا هو يثور على حين فجأة ويأخذ يهز قبضة الباب بكل ما أوتي من قوة. فكان راسكولنيكوف ينظر مذعوراً إلى المزلاج الذي أخذ يتهزز في الرزة. إن راسكولنيكوف يتوقع، وقد شله الرعب، أن يرى المزلاج ينخلع من لحظة إلى أخرى. والحق أن انخلاع المزلاج لم يكن مستحيلا. فلقد كان الرجل يهز الباب هزاً قوياً يمكن أن يخلع المزلاج. خطر ببال راسكولنيكوف في لحظة من اللحظات أن يسند المزلاج بيده. ولكنه أمسك عن ذلك، لأن الرجل كان سيلاحظ هذه الحركة. أخذ راسكولنيكوف يشعر بدوار، وقال يحدث نفسه: «ها أنا ذا أوشك أن أقع». ولكن الزائر المجهول أخذ يتكلم، فسرعان ما ثاب راسكولنيكوف إلى رشده.

زأر الرجل المجهول يقول بصوت أجش:

– هيه! ماذا؟ هل هما نائمتان هناك أم أن أحداً ذبحهما؟ اللعنة عليكما! هيه! أنت يا آليونا ايفانوفنا! يا عجوز النحس! وأنت يا اليزافيتا ايفانوفنا، يا جمالاً لا يضارع! افتحا الباب! آه... يا للعنة! أهما نائمتان حقا؟

وجُنّ من الغضب مرة أخرى فشدّ حبل الجرس بكل قواه عشر مرات متتالية. لا شك أنه رجل خطير الشأن، وأنه فوق ذلك من روّاد هذا المنزل الذين ألفوا التردد إليه.

وفي تلك اللحظة نفسها سُمع صوت وقع خطوات صغيرة متعجلة على درجات السلم. كان شخص آخر يقترب. ولم يسمع راسكولنيكوف ضجة مجيئه في أول الأمر.

صاح القادم الجديد يقول بصوت رنان مرح مخاطباً الزائر الأول الذي كان لا يزال يشد الحبل:

– هل يمكن أن لا يكون في البيت أحد؟ نهارك سعيد يا كوخ!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «صوته يدل على أنه شاب في ريعان الشباب».

أجاب كوخ:

– لا يعلم إلا الشيطان ماذا جرى! لقد أوشكت أن أكسر القفل. ولكن كيف تعرفني أنت؟

– ما هذا الكلام؟ ألم أغلبك أمس الأول ثلاث مرات متتالية في البلياردو بمقهى «جامبرينوس»؟

– آ..

– أليستا إذاً في البيت؟ هذا شيء غريب! وهو فوق ذلك شيء مزعج! أين عساها ذهبت، هذه العجوز؟ لقد كنت آتيا إليها لأعمال...

– أنا أيضاً آتٍ إليها لأعمال، يا صديقي!..

– ماذا نفعل الآن؟ يا لسوء الحظ! كنت أحسب أنني سأحصل على بعض المال.

– طبعاً لم يبق لنا إلا أن ننصرف، ولكن لماذا حددت لي موعداً؟ يا للعجوز الشمطاء! هي التي حددت إلى هذا الموعد! وقد اضطررت من أجل الوصول أن أدور دورة طويلة. أين عساها ذهبت؟ إنني لا أفهم! إنها تقبع في بيتها طوال العام، هذه العجوز الشمطاء.. وتتعفن في مكانها لا تبارحه... لأنها تشكو من أوجاع ساقيها فما بالها تمضي تتجول الآن على حين فجأة؟..

– ما رأيك الآن في أن نسأل البواب؟

– نسأله عماذا؟

– نسأله عن المكان الذي ذهبت إليه، وعن الوقت الذي ستعود فيه

– هِم... نسأل؟ ولكن كيف نسأل عن المكان الذي ذهبت إليه وهي لا تذهب إلى أي مكان في يوم من الأيام؟

قال الرجل ذلك وشدّ قبضة الباب مرة أخرى، ثم أضاف:

– لا فائدة! لم يبق إلا أن ننصرف!

صرخ الشاب على حين فجأة قائلا:

– انتظر! انتظر... إن الباب يتحرك حين يُهزّ.

– وماذا في هذا؟

– هذا يعني أن الباب ليس مقفلاً بالمفتاح، وانما هو موصد بالمزلاج وحده. إلا تسمع صرير المزلاج؟

– وعلى أي شيء يدل هذا؟

– كيف لا تفهم؟ هذا يدل على أن إحداهما، في أقل تقدير، موجودةُ في البيت، فلو أنهما خرجتا كلتاهما لأغلقتا الباب بالمفتاح من خارج، لا بالمزلاج من داخل. إنك تسمع صرير المزلاج... ألا تسمعه؟ ومن أجل إغلاق الباب بالمزلاج من الداخل لا بد أن يكون في البيت أحد. هل فهمت؟ هما إذن في بيتهما، ولكنهما لا تريدان أن تفتحا.

صاح كوخ يقول مدهوشاً:

– حقاً... حقاً! ترى ماذا تصنعان؟

وراح يهز الباب غاضباً من جديد.

هتف الشاب يقول مرة أخرى:

– انتظر! كفاك هزاً للباب! إن في الأمر سراً! لقد قرعتَ الجرس وهززت الباب فلم تفتحا!.. معنى هذا، إما أنهما مغشيّ عليهما، وإما أنهما...

– وإما أنهما ماذا؟

– هلم نستدعي البواب. الأفضل أن يتولى هو إيقاظهما!

– موافق!

وأخذ الرجلان يهبطان على السلم. ولكن الشاب ما لبث أن قال:

– انتظر! ابق أنت هنا، وأنا استدعى البواب.

– أبقى هنا؟ لماذا؟

– لا يدري أحد ماذا يمكن أن يحدث.

– لك ما تشاء..

قال الشاب بلهجة متحمسة:

– أرأيت؟ إنني أهيئ نفسي لوظيفة قاضي تحقيق! الأمر واضح، وا... ضح! لا شك أن هناك سراً.

واندفع الشاب راكضاً على السلم.

فلما أصبح كوخ وحيداً شدّ حبل الجرس برفق، فرن الجرس رنة واحدة، ثم هز قبضة الباب مرة أخرى ببطء، كمن يفكر أن يحاذر، فهو يشدها إليه ويرخيها ليتأكد من أن الباب ليس موصداً إلا بالمزلاج. ثم زفر زفرة قوية ومال إلى تحت، ونظر من ثقب القفل، ولكن المفتاح كان مدسوساً في القفل من الداخل، فلا يمكن أن يُرى شيء.

لبث راسكولنيكوف ساكناً جامداً، قابضاً على فأسه. كان في حالة قريبة من الهذيان. حتى لقد كان يتهيأ لأن يقاتلهما متى دخلا. ولقد خطر بباله مراراً حين كانا يقرعان ويتشاوران أن يحسم الأمر دفعة واحدة فيناديهما من خلال الباب. واستبدت به في بعض اللحظات رغبة مجنونة رعناء في أن يسخر منهما، وأن يستهزئ بهما، وأن يمطرهما بوابل من الشتائم قبل أن يفتحا الباب. لقد ومضت في ذهنه بمثل سرعة البرق هذه الفكرة: «الأفضل أن يتم الأمر بأقصى سرعة».

وكان الوقت ينقضي. مضت دقيقة، ومضت دقيقة أخرى... دون أن يرجع أحد. أخذ كوخ يضطرب. وها هو ذا يهتف فجأة:

– اللعنة! ما شأني أنا؟

ونفد صبره، فترك مكانه، وهبط بسرعة هو أيضاً. إن أصوات وقع حذاءيه تدوّي على السلم. ثم انقطعت هذه الأصوات.

– ما العمل يا رب؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم سحب المزلاج وشق الباب. لم يسمع أية نأمة. وبدون أن يفكر مزيداً من التفكير، خرج على حين فجأة وأغلق الباب وراءه بقدر ما يستطيع من احكام، واندفع يهبط السلم.

حتى إذا اجتاز طابقين تقريباً سمع صخباً شديداً يدوّي تحت. أين يختبئ؟ لم يعرف أين يستطيع أن يختبئ. حتى لقد تهيأ لأن يقفل راجعاً وأن يعود إلى بيت العجوز ركضاً.

– هيه، لعنة الله عليه! يا للشيطان! أوقفوه!

إن الشخص الذي أطلق هذه الصرخات قد وثب من شقة في أسفل، وأخذ يهبط السلم تدحرجاً إن صح التعبير، صائحاً بأعلى صوته:

– ميتكا! ميتكا! ميتكا! ميتكا![٣٧] شيطان يقشر جلدك! يا للجنون!

وانتهى الصراخ بعويل حاد، فكانت أصداؤه تترجع في فناء المنزل ثم صمت كل شيء. ولكن في تلك اللحظة نفسها أخذ عدة رجال يصعدون السلم محدثين ضجة كبيرة وهم يتكلمون كثيراً بصوب عالي. لعل عددهم ثلاثة أو أربعة. وميّز راسكولنيكوف ذلك الصوت الرنان، صوت الشاب الذي كان يرابط على الباب مع كوخ منذ قليل. قال لنفسه: «إنهم هم!».

---

[٣٧] (ميتكا): تصغير دمترى، ديمترى.

شعر راسكولنيكوف بيأس مطلق فمضى إلى لقاءهم قدماً قائلاً لنفسه: «ليكن ما يكون!». لقد ضاع كل شيء: إذا استوقفوه فقد ضاع كل شيء، وإذا تركوه يمر فقد ضاع كل شيء أيضاً لأنهم سيتذكرونه... أوشكوا أن يلتقوا. ليس يفصلهم الآن إلا طابق واحد! وإذ بالنجاة تؤاتيه فجأة! فبعد بضع درجات، على اليمين، كانت هناك شقة خالية مفتوحٌ بابها، هي تلك الشقة نفسها التي تقع في الطابق الأول التي كان يعمل فيها الدهانون. لقد غادر الدهانون منذ قليل، بمصادفة تشبه أن تكون عمداً. لا شك أنهم هم الذين خرجوا منذ قليل محدثين صخباً شديداً. إن خشب الأرض في هذه الشقة ما يزال طلاؤه غضاً. وفي وسط الغرفة الأولى طشت ووعاء مملوء دهاناً وفرشاةٌ كبيرة. تسلل راسكولنيكوف إلى الشقة من الباب المفتوح في مثل لمح البصر سرعةً، والتصق بالحائط. وحسن ما فعل لأن الرجال كانوا قد وصلوا إلى فسحة السلم، فداروا وصعدوا إلى الطابق الثالث، وهم ما يزالون يتكلمون بصوت عال. انتظر راسكولنيكوف بضع لحظات ثم خرج سائراً على رؤوس الأصابع وأخذ يهبط السلم راكضاً.

ما من أحد كان على السلم! وما من أحد كان تحت قبة مدخل العمارة! اجتاز العتبة مسرعًا، حتى إذا سار في الشارع، التفت يسرة.

كان يعلم حق العلم، كان يعلم علم اليقين أنهم في هذه اللحظة نفسها موجودون في بيت العجوز، وأنهم قد دهشوا أشد الدهشة حين رأوا الباب مفتوحا بعد أن كان مغلقاً منذ قليل، وأنهم ينظرون إلى الجثتين، وأنهم لن يحتاجوا إلى أكثر من دقيقة واحدة من أجل أن يدركوا حق الإدراك أن القاتل قد بارح المكان منذ برهة وجيزة، وأنه أفلح في الاختباء بمكان ما، وأنه قد تسلل من بين أصابعهم إن صح التعبير. ولعلهم قدروا أيضاً أن هذا القاتل قد اعتصم بالشقة الخالية بينما كانوا يصعدون السلم. ومع ذلك لم يجرؤ راسكولنيكوف أن يعجل سيره، رغم أنه ما يزال هناك مائة خطوة عليه أن يقطعها حتى يصل إلى المنعطف التالي. تساءل: «ماذا لو تسللت فاختبأت تحت أحد الأبواب؟ ماذا لو انتظرتُ فترة ما في سلّم منزل

مجهول؟» ثم أجاب عن سؤاله بقوله: «لا، هذا رأي فاسد!» وتساءل أيضاً: «ماذا لو رميت الفأس في مكان ما؟ ماذا لو ركبت عربة؟» ثم أجاب عن سؤاله بقوله: «لا، هذا رأي فاسد، رأي فاسد!».

وها هو ذا يصل أخيراً إلى زقاق، فيدخل فيه وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. ولكنه فهم أنه الآن تملص من الورطة أو يكاد إذ أنه في هذا الزقاق لا يثير حوله الشبهات كما يمكن أن يثيرها هناك. ثم إن الناس يذهبون ويجيئون هنا كثيراً فضاع راسكولنيكوف في الجمهور كحبة رمل. ولكن تلك المحن كلها كانت قد هدّت قواه، فهو لا يكاد يستطيع أن يسير. كان العرق يسيل منه، وكانت عنقه مبتلة مخضلة، حتى إن أحد المارة صرخ يقول حين وصل راسكولنيكوف إلى القناة: «يا للسكران!»

أصبح راسكولنيكوف لا يعي نفسه كثيراً، وكانت حاله تزداد سوءاً عند كل خطوة جديدة. إن اللحظة الوحيدة التي بقيت في ذاكرته هي اللحظة التي وصل فيها إلى رصيف القناة، فأرعبه أن يرى الناس هناك قليل، فمن الممكن أن يُلاحظ. فأوشك عندئذ أن يعود أدراجه إلى الزقاق. ومع ذلك، ورغم أنه قد بلغ من الضعف حدًّا لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه، فقد دار دورة طويلة، ورجع إلى بيته من جهة أخرى تماماً.

وحين اجتاز مدخل العمارة التي فيها بيته، لم يكن قد استرد صحو ذهنه بعد. ومهما يكن من أمر فإنه لم يتذكر الفأس إلا حين صار على السلم، مع أن هذه المسألة هي من أخطر المسائل التي كان عليه أن يحلها. لقد كان عليه أن يعيد الفأس إلى مكانها مهما كلف الأمر، وذلك على أخفى نحو ممكن. يجب أن نذكر أنه كان بطبيعة الحال عاجزاً عن أن يتصور أن من الأفضل له، بدلاً من إعادة الفأس إلى مكانها، أن يرميها، ولو بعد مدة، في أي مكان، في فناء عمارة من العمارات.

جرى كل شيء على خير وجه. كان باب غرفة البواب مغلقًا، ولكنه ليس مقفلاً بالمفتاح. معنى ذلك أن البواب لا بد أن يكون في غرفته. ولكن راسكولنيكوف كان قد بلغ من العجز عن التفكير في أي شيء، فأقبل على غرفة البواب بخطى حازمة، وفتح الباب. ولو قد سأله البواب عندئذ: «ماذا تريد؟» لكان من الممكن أن لا يزيد على أن يمد إليه الفأس. ولكن البواب كان غائباً في هذه المرة أيضاً، واتسع وقت راسكولنيكوف لأن يعيد الفأس إلى مكانها تحت الدكة، حتى إنه لم يفته أن يضع فوقها الحطبة التي كانت موضوعة عليها حين أخذها. واستطاع بعد ذلك أن يبلغ غرفته دون أن يصادف في طريقه أي مخلوق. وكان باب صاحبة البيت مغلقاً. حين دخل راسكولنيكوف حجرته ارتمى على الأريكة دون أن يخلع ملابسه. ولم ينم. كان في حالة تشبه التخدّر، فلو دخل عليه أحد في ذلك الوقت، لأسرع يثب عن سريره واقفاً، ولأخذ يصرخ. إن شذرات من أفكاره تتصادم في رأسه، ولكنه، رغم الجهود التي بذلها، لم يستطع أن يقبض على أية فكرة من تلك الأفكار، ولم يستطع أن يستقرّ على واحدة منها..

الجزء الثاني

الفصل الأول

لبث راسكولنيكوف راقداً زمناً طويلاً. وكان يتفق له أن يستيقظ نصف استيقاظ، فكان يلاحظ أثناء تلك الدقائق القليلة أن الليل قد حل منذ وقت بعيد، ولكن لم يخطر بباله قط أن ينهض. ورأى أخيراً أن النور قد انتشر فكأنه النهار. كان مستلقياً على ظهره، وهو ما يزال على تلك الحال من التخدير. ومن الشارع، كانت تصل إليه أصوات عويل رهيبة، وهي أصوات كان يسمعها كل ليلة تحت نافذته بعد الساعة الثانية من الصباح، وكانت هي التي توقظه من نومه. قال راسكولنيكوف لنفسه: «آ... ها هم السكارى يخرجون من خماراتهم. لا شك أن الساعة تجاوزت الثانية!» وبوثبة واحدة، نهض على حين فجأة عن الأريكة وقال يخاطب نفسه: «ماذا؟ أتكون الساعة تجاوزت الثانية؟» ثم عاد يجلس على الأريكة، وسرعان ما عاد إلى ذهنه كل شيء، فإذا هو يتذكر كل ما حدث، دفعة واحدة في لحظة قصيرة.

اعتقد في أول الأمر أنه فقد عقله، وها هي ذى رعدة باردة تسري في جسمه. ولكن هذه الرعدة ناشئة أيضاً عن الحمى التي انتابته منذ مدة بينما كان نائماً، وهي تهزه الآن هزاً يبلغ من القوة أن أسنانه تصطك. فتح الباب وأصاخ بسمعه: كان كل شيء في المنزل ينام نوماً عميقاً. دُهش، وألقى نظرة على نفسه وعلى ما حوله. لم يستطع أن يفهم كيف أمكنه، في الليلة البارحة، حين دخل غرفته، أن لا يوصدها بالكلّابة، وأن يرتمي على أريكته دون أن يخلع ملابسه، بل ودون أن يخلع قبعته. كانت القبعة قد تدحرجت على الأرض فهي ترقد الآن قرب الوسادة. تساءل راسكولنيكوف: «لو دخل عليّ أحد، فماذا كان يمكن أن يظن؟ أكان يمكن أن يظن أنني سكران، ولكن...» وهرع نحو النافذة. كان الضوء منتشراً. وأسرع يتفحص نفسه من القدمين إلى الرأس ليرى إلا يزال على ثيابه آثار. ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه إن هذه الطريقة ليست هي الطريقة التي يجب عليه أن يتبعها، ثم نضا عنه ثيابه وأخذ يفتشها وهو يرتجف من الحمى ارتجافا شديدا. قلب ثيابه ثم قلبها، منقبا في كل درزة. ثم لم يثق بحسن ملاحظته، فأعاد فحصها

مرة ثالثة. ولكن لم يكن ثمة شيء. كان يبدو فعلاً أنه لم يبق أي أثر، إلا بضع قطرات من دم متخثر في أسفل سرواله المهترى المنسّل. تناول سكيناً مطوية كبيرة فقص بها حاشيتي السروال. كان يبدو حقاً بأنه ليس ثمة آثار غير هذه الآثار. وتذكر فجأة أن حافظة النقود والأشياء التي أخرجها من صندوق العجوز ما تزال حتى الآن في جيبه. لم يكن قد خطر بباله أن يخرجها من الجيب وأن يخبئها، لا ولا فكر فيها منذ قليل، حين كان يفتش ثيابه. ما معنى هذا؟ وها هو ذا قد أخذ يسلها من الجيوب بمثل لمح البصر سرعة، ثم يرميها على المنضدة. حتى إذا فرغ من إخراج كل شيء، ثم قلب الجيوب ليتأكد مزيداً من التأكد أنه لم يبق في الجيوب شيء، مضى يضعها جميعاً في أحد الأركان. ففي أسفل ذلك الركن يوجد ثقب تحت الورق الذي يغطي الجدار والذي كان منزوعاً ممزقاً. فما هي إلا لحظات حتى دس جميع الأشياء في الثقب تحت الورق، وقال يحدث نفسه: «حسن! دخل كل شيء! لا أحد رأى ولا أحد عرف! حتى حافظة النقود اختفت!» قال ذلك فرحاً وهو ينهض عن الأرض وينظر ببلادة إلى الركن وقد أصبح ورق الحائط منتفخاً على نحو واضح. ارتعش من الرعب، ودمدم يقول يائسا: رباه! ماذا فعلت؟ أهكذا يخبأ شيء من الأشياء؟»

الحق أن راسكولنيكوف لم يكن يقدّر أنه سيأخذ من عند العجوز أشياء، وإنما كان يتصور أن لا يجد إلا مالاً، لذلك لم يهيئ مخبأ يخفي فيه ما يأخذ من أشياء. قال يسأل نفسه: «ولكن هل هناك الآن ما يدعو إلى الابتهاج؟ أهكذا يخبأ شيء من الأشياء؟ حقاً لقد ذهب عقلي!» وتهالك على الأريكة مهدود القوى خائر العزم، وسرعان ما عادت إليه تلك الرعدة التي لا تطاق. وها هو ذا يشد إليه، على نحو آلي، معطفه القديم الذي كان يرتديه طالباً، والذي يوجد الآن على كرسي، وهو معطف شتوي دافئ، لكنه قد أصبح منذ الآن أشبه بخرقة بالية. شدّ راسكولنيكوف المعطف، وغطى به جسمه. فاستولى عليه النوم والهذيان من جديد، وغاب عنه شعوره.

فما أن انقضت خمس دقائق حتى وثب عن أريكته مرة أخرى، وعاد يسرع إلى ثيابه سائلاً نفسه: «كيف أمكنني أن أنام بينما لم أفعل شيئاً بعد؟ نعم، إنني لم أفعل شيئاً بعد! حتى العلاقة لم أنزعها من تحت الإبط حتى الآن! كيف أمكنني أن أنسى أمراً هاماً كهذا الأمر، كيف أمكنني أن أنسى قرينة خطيرة كهذه القرينة؟» وانتزع العلاقة، ثم أسرع يقطعها قطعا صغيرة يرميها واحدة بعد واحدة تحت الوسادة بين الغسيل: إن قطعاً ممزقة من قماش لا يمكن أن تثير الشبهات بحال من الأحوال، أو هذا ما يخيل إليّ...» ذلك ما كان يردده راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة. ثم أخذ يجيل بصره حواليه، على أرض الغرفة، في جميع الجهات، ليرى هل أغفل شيئاً من الأشياء. فعل ذلك وهو يشعر بتوتر مؤلم. لقد كان على يقين من أن كل شيء يبارحه، حتى ذاكرته، وحتى أية قدرة على التفكير، فكان ذلك يعذبه عذاباً لا طاقة له به. قال يسأل نفسه: «ماذا؟ أيكون الأمر قد بدأ منذ الآن؟ أيكون هذا هو العقاب؟ نعم، نعم، هذا هو العقاب!» وعثر فعلاً على بقايا من قصاصات السروال كانت ملقاة على الأرض يستطيع أن يراها أول قادم. فصرخ يقول وقد تاه عقله من جديد: «ماذا فعلت؟»

هنا راودته فكرة غريبة: ربما كانت ثيابه نفسها مغطاة بالدم، ربما كان ثمة بقع كثيرة ولكنه لا يراها ولا يلاحظها لأن رأيه قد فسد ولأن فكره قد أظلم!.. وتذكر فجأة أن حافظة النقود أيضاً قد تلطخت بالدم فقال لنفسه: «معنى هذا أنه لا بد أن يكون في الجيب دم، لأنني دسست حافظة النقود في الجيب رطبةً مخضلةً». وقلب جيبه في مثل لمح البصر سرعة، فتحقق من صدق ظنه: كان في بطانة الجيب بقع دم فعلا! قال لنفسه: «إذًا لم يذهب عقلي ذهابا تاما، وما زلت احتفظ بفكري وذاكرتي... ولولا ذلك لما انتبهت، ولما كنت قادرا على استنتاج تلك النتيجة!» قال ذلك وهو يشعر بالانتصار، حتى لقد أفلتت من صدره تنهيدة فرح. وأردف يخاطب نفسه: «لم يكن ذلك إذاً إلا غيبوبة عابرة، لم يكن إلا وهنا ناشئًا عن الحمى!» وانتزع من سرواله كل بطانة الجيب الأيسر. وفي تلك اللحظة نفسها سقط شعاع شمس على حذائه الأيسر

فأناره، فرأى راسكولنيكوف آثار دم على الجورب الذي كان خارجا من الحذاء. «نعم، هي آثار دم. إن كل طرف الجورب مرتو بالدم!» أغلب الظن أنه لم يحاذر فمشى على بركة الدم، وكان حذاءاه مثقوبين... تساءل راسكولنيكوف: «ولكن ما العمل بهذا، الآن؟ أين أضع هذا الجورب، وقصاصات حافة السروال وبطانة الجيب؟»

لمّ كل شيء، وأمسكه بيده، ولبث واقفاً جامداً في وسط الغرفة. قال يحدث نفسه: «أرميه في المدفأة؟ لا... فإنهم سيفتشون المدفأة قبل أن يفتشوا أي مكان آخر! أحرقه؟ ولكن بماذا أحرقه؟ ليس عندي عيدان كبريت. خير من ذلك أن أخرج فأمضي أرمي هذا كله في مكان ما! نعم، الأفضل أن أرمي هذا كله!» ذلك ما ردّده راسكولنيكوف وهو يجلس على الأريكة من جديد. وأضاف: «ويجب أن أرميه فوراً، يجب أن لا أضيع وقتاً، يجب أن أرميه في هذه الدقيقة نفسها!..» ولكن رأسه هوى على الوسادة من جديد، ومن جديد عاودته الرعدة الباردة التي لا تطاق، ومن جديد شدّ إليه معطفه يغطي به جسمه. وقد ظلت هذه الفكرة الواخزة توافيه مدة طويلة، خلال ساعات عدة، «عليه فوراً، بلا إبطاء، أن يخرج فيرمي هذا كله في مكان ما، حتى لا يراه أحد، وأن عليه أن يفعل ذلك بسرعة، بسرعة كبيرة، بأقصى سرعة ممكنة!» وحاول عدة مرات أن ينهض عن الديوان. ولكنه أصبح الآن لا يقوى على النهوض. وهذه ضربة شديدة على الباب تردّ إليه شعوره.

– هلاّ فتحت الباب أخيراً! أأنت حيّ أم لا؟ إنه لا يفعل شيئاً غير أن ينام. نعم، إنه ينام أياماً بكاملها، مثل كلب. يا له من كلب! افتح! هلّا فتحت! لقد دقت الساعة العاشرة!

كذلك كانت تصيح ناستاسيا وهي تقرع الباب بقبضة يدها.

قال صوت رجل:

– قد لا يكون في غرفته!

قال راسكولنيكوف لنفسه: «هذا صوت البواب... ماذا يريد مني؟» انتفض واثباً، جلس على الأريكة. كان قلبه يدق دقاً إلى حد الألم. قالت ناستاسيا ترد على الرجل:

لولا أنه في غرفته فمن عسى يوصد الباب بالكُلّابة؟ عجيب! هو الآن يحبس نفسه! أهو يخاف أن يُخطف؟ افتح يا نوّام! استيقظ يا كسلان!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «ماذا يريدان مني؟ لماذا يجيء البواب؟ لقد اكتُشف إذن كل شيء! أقاوم أم أفتح؟ سأضيع..»

وأنهض جسمه، ومال إلى أمام، وسحب الكلّابة. كانت غرفته صغيرة بحيث يمكن أن يسحب الكلابة دون أن يغادر سريره.

صدق ظنه: كان البواب وناستاسيا واقفين على عتبة الباب.

ألقت عليه ناستاسيا نظرة غريبة، وشخص هو بصره إلى البواب وقد بدا عليه التحدي واليأس. مدّ إليه البواب ورقة سمراء مطوية مختومة بالشمع، وقال له وهو يناوله الورقة:

– استدعاء من المكتب!

– أي مكتب؟

– الشرطة تستدعيك إلى المكتب... ما من أحد يجهل ما هو المكتب!..

– الشرطة؟.. لماذا..

– أأنا أعلم؟ هم يستدعونك، فاذهب اليهم!

قال البواب ذلك، وتفرس في وجه راسكولنيكوف، وألقى نظرة حواليه، ثم استدار لينصرف.

وكانت ناستاسيا تنظر إلى راسكولنيكوف، ولا تحوّل بصرها عنه. وها هي ذى تسأله الآن:

– أحسب أنك مريض جداً، أليس كذلك؟

التفت البواب. وأضافت ناستاسيا قولها:

– إن بك حمى منذ أمس!.

لم يجبها راسكولنيكوف. وما يزال يمسك الورقة التي لم يفضّها بعد.

واصلت ناستاسيا كلامها مشفقةً عليه حين رأته يهم أن ينزل عن السرير:

– لا... لا تنهض! أنت مريض! لا تذهب إلى الشرطة اليوم!.. ما من أمر خطير يدعو إلى الإسراع. ما هذا في يدك؟

نظر راسكولنيكوف إلى يده. كان لا يزال ممسكاً قصاصات حافة السروال، والجورب، وبطانة الجيب المنزوعة. لقد نام وهو ممسك بهذا كله. سوف يتذكر في المستقبل، حين سيفكر في هذا الأمر، أنه استيقظ نصف استيقاظ أثناء نوبة الحمى، فضغط على هذه الأشياء بيده ضغطاً قوياً، وعاد ينام وهو على هذه الحال.

– عجيب أمره! لمّ هذه الخرق من الأرض، ثم هو ينام معها كأنها كنز ثمين...

قالت ناستاسيا ذلك وانفجرت تضحك ضحكتها العصبية المجلجلة. أسرع راسكولنيكوف يدسّ الأشياء كلها تحت معطفه، وحدّق إلى الخادمة بنظرة نافذة، فشعر، رغم أنه لم يكن في تلك اللحظة قادراً

على أن يحكم على الأمور حكمًا صحيحًا دقيقًا، شعر أن من سيُقبض عليه ويعتقل لا يُعامل هذه المعاملة. ومع ذلك تساءل: «ولكن لماذا تستدعيني الشرطة؟»

قالت له ناستاسيا:

– أتشرب شاياً؟ هل تريد؟ في وسعي أن أجيئك بشاي. ما يزال عندنا بقية!

دمدم راسكولنيكوف مجيباً وهو يقف:

– لا بل سأذهب إلى الشرطة... سأذهب إلى الشرطة فوراً.

قالت ناستاسيا:

– لن تقوى حتى على هبوط السلم!

– سأذهب!

– افعل ما تشاء!

قالت ناستاسيا ذلك وانصرفت في أثر البواب. فلم يلبث راسكولنيكوف أن أسرع يفحص الجورب وحافة السروال في الضوء، ثم قال لنفسه: «هناك بقع، لكنها لا تكاد ترى، فكل شيء متسخ متآكل ممحو. فمن لا يعرف شيئاً لن يرى شيئاً. الحمد لله أن ناستاسيا لم تستطع أن تلاحظ شيئاً البتة» قال راسكولنيكوف لنفسه ذلك ثم فض الورقة وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً وأخذ يقرأ. لبث يقرأ مدة طويلة، مدة طويلة، ثم فهم أخيراً أنه استدعاء عادي من قسم الشرطة بالحي، يُطلب منه فيه أن يحضر إلى مكتب مفوض الشرطة في الساعة التاسعة والنصف من هذا اليوم نفسه.

تساءل راسكولنيكوف وهو يعاني حيرة أليمة: «أمعقول هذا؟ أنا لا شأن لي بالشرطة شخصياً! ولماذا في هذا اليوم ذاته؟ رباه! ألا فلينته هذا كله بأقصى سرعة!» قال ذلك وهمّ أن يركع ليصلي، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه وقهقه ساخراً، لا ساخراً من الصلاة بل من نفسه. وأخذ يرتدي ثيابه مسرعاً قائلاً لنفسه: «ان كنت قد هلكت فلأهلك! يستوي عندي كل شيء! ولكن يجب أن ألبس الجورب (هذا ما خطر بباله فجأة). سوف يتسخ بالتراب مزيداً من الاتساخ، فيختفي ما بقي عليه من آثار الدم». ولكنه ما أن لبس الجورب حتى انتزعه على الفور مشمئزاً مذعوراً. ثم تذكر أنه لا يملك جوارب أخرى، فعاد يلبسه. ومرة أخرى أنفجر يضحك مقهقهاً. «ماهذا كله إلا مواضعات اجتماعية شكلية! كل شيء نسبي!»، قال لنفسه ذلك وهو يفكر بجزء من عقله، ولكنه يرتعش بكل جسمه، وأردف يقول لنفسه: «لقد لبست الجورب مع ذلك! لبسته أخيراً مع ذلك!» وحين قال هذا الكلام، كان ضحكه يتحول إلى يأس. وأضاف يقول: «لا، إن هذا فوق طاقتي...» كانت ساقاه تصطكان. فدمدم في نفسه قائلاً: «هو الخوف!» وألمّ به دوار وأخذ يشعر بصداع من شدة الحر. تابع كلامه يقول وهو يتجه نحو السلم: «هذه حيلة! إنهم يريدون استدراجي إلى هناك بالحيلة، ليواجهوني بعد ذلك بالوقائع كلها. والمصيبة أنني في حالة تشبه الهذيان... فقد تفلت مني حماقة ما...»

وفيما كان يهبط السلم تذكر أنه ترك جميع الأشياء في الثقب وراء ورق الجدار فتساءل: «ماذا لو فتشوا الغرفة أثناء غيابي؟»". وتوقف عن السير. ولكن اليأس والاستهتار – إن صح التعبير – اللذين كانا يستوليان عليه حين يتصور أنه هالك قد بلغا من القوة أنه لم يزد عندئذ على أن حرك يده بإشارة تدل على قلة الاكتراث وتابع سيره قائلاً لنفسه: «فلينته هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة!»

كان الحر في الخارج شديداً لا يطاق. ما من قطرة مطر هطلت منذ أيام. هو جوّ الغبار والآجر والكلس مرة أخرى، هو جو المطاعم العفنة والخمارات الكريهة من جديد. وها هم أولاء السكارى يطالعونه عند

كل خطوة يخطوها والسعاة والحوذيون المكدودون. وانبهرت عيناه من أشعة الشمس حتى أوجعتاه. وأخذ يحس بدوار في رأسه، كما يحدث عادة للمرء حين يخرج أثناء الحمى فجأة في يوم شديد القيظ.

فلما بلغ منعطف شارع الليلة البارحة، نظر إلى تلك العمارة بقلق وألم، ثم لم يلبث أن حوّل عنها عينيه فوراً. وحين اقترب من قسم الشرطة قال لنفسه: «إذا استُجوبت فقد أعترف!»

إن قسم الشرطة يقع على بعد مائتين وخمسين متراً من بيته تقريباً. لقد نُقل قسم الشرطة هذا منذ مدة وجيزة إلى مقر جديد يقع في الطابق الرابع من عمارة بُنيت حديثاً. كان راسكولنيكوف قد ذهب مرة إلى المقر القديم، ولكن هذا حدث منذ مدة طويلة جداً. حين اجتاز مدخل العمارة لمح على اليمين سلماً كان يهبطه رجل يحمل بيده سجلاً فقال لنفسه: «لا بد أنه بواب، ولا بد إذن أن يكون قسم الشرطة في هذه الجهة». وصعد السلم على غير هدى. كان لا يريد أن يسأل أحداً عن شيء.

وقال لنفسه وهو يصعد: «سأدخل فأجثو على ركبتي وأروي كل شيء».

السلم ضيق، شديد الانحدار، مليء بالقاذورات، مطابخ جميع الشقق في كل الطوابق تطل على هذا السلم، وأبوابها تظل مفتوحة طول النهار تقريباً. لذلك يكون الجو خانقاً جداً. بوابون يحملون سجلات تحت الإبط، وسعاة شرطة، وزوار كثيرون من الجنسين يصعدون وينزلون بغير انقطاع. باب المكتب مفتوح على مصراعيه هو أيضاً. دخل راسكولنيكوف، ووقف في حجرة المدخل. الحجرة مزدحمة بأناس من سواد الشعب ينتظرون دورهم. الحر خانق هنا أيضاً. تضاف إلى ذلك رائحة الدهان (لقد أعيد دهن الغرف وما يزال الدهان طرياً) التي تبعث في النفس شعوراً بالغثيان. أنتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قرر أن يمضي إلى المكتب التالي. إن جميع الغرف صغيرة، سقفها واطئ جدا. كان راسكولنيكوف نافد الصبر إلى درجة رهيبة وكان نفاذ صبره هذا يدفعه إلى أن يوغل مزيداً من الايغال. لم يلاحظ أحد. في المكتب التالي

كان يكتب كتابٌ لا يكادون يرتدون ثياباً خيراً من ثيابه، ولا يوصف مظهرهم إلا بأنه مظهر غريب عجيب في أقل تقدير. اتجه راسكولنيكوف إلى أحدهم. سأله هذا:

– ماذا تريد؟

فأراه راسكولنيكوف الاستدعاء الذي تلقاه من مكتب الشرطة.

قال الموظف بعد أن ألقى نظرة على الورقة:

– هل أنت طالب؟

فأجابه راسكولنيكوف:

– نعم، طالب سابقاً.

تفرس فيه الموظف، ولكن بدون أي فضول. هو رجل مشعث الشعر توحي نظرته بأن هناك فكرة ثابتة تحاصر ذهنه.

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «من هذا الرجل لن أعرف شيئاً، إن جميع الأمور عنده سواء».

قال الموظف وهو يشير بإصبعه إلى الباب التالي:

– اسأل السكرتير!

دخل راسكولنيكوف الغرفة التي دله عليها الرجل (وهي الرابعة في صف الغرف). إنها صغيرة جداً كذلك، تزدحم بأناس ثيابهم خير قليلاً من الجالسين في المكاتب السابقة. وبينهم سيدتان. فأما الأولى وهي ترتدي ملابس حداد فقيرة، فقد كانت جالسة أمام منضدة قبالة سكرتير يُملي عليها فتكتب. وأما الثانية فهي امرأة ضخمة الجسم حمراء الوجه، صارخة الزينة، مترفة التبرج، تضع على صدرها حلية كبيرة

كأنها صحن. وكانت هذه المرأة الثانية واقفة، متنحية بعض التنحي، يبدو عليها أنها تنتظر شيئاً. مدّ راسكولنيكوف ورقته إلى السكرتير، فألقى عليها السكرتير نظرة سريعة وقال له: «انتظر» وواصل اهتمامه بالسيدة التي ترتدي ثياب الحداد.

تنهد راسكولنيكوف متخففاً من قلقه وقال يحدث نفسه: «لم يستدعوني إذن من أجل ذلك الأمر». وأخذ يسترد شجاعته، ويحاول أن يستعيد هدوءه وطمأنينته.

قال لنفسه: «إن أيسر حماقة أرتكبها وأبسط زلة أقع فيها يمكن أن تفضحني فضحاً تاماً». ثم أضاف: «هِم!.. لا هواء هنا... الجو خانق.. إن رأسي أخذ يدور... وفكري أيضاً...»

شعر راسكولنيكوف باضطراب رهيب يغزو كيانه كله. خشي أن لا يستطيع السيطرة على نفسه. حاول أن يتشبث بأي شيء لا علاقة له بهمومه، ولكنه لم يفلح. كان السكرتير يشغل باله كثيرا: إن راسكولنيكوف ما ينفك يحاول أن يقرأ في وجهه شيئاً، أن يوجس في وجهه شيئاً. هو شاب في نحو الثانية والعشرين من عمره، له وجه مسمر كثير الحركة، يوهم مظهره بأنه أكبر من سنه، شديد العناية بهندامه، يحترم «الموضة» احتراما واضحا، مدهّن الشعر، له فرق يهبط حتى النقرة، في أصابعه البيضاء المونقة تسطع خواتم كثيرة، وصدرته تزدان بسلاسل من ذهب. حتى لقد خاطب أجنبياً كان هناك، بضع عبارات بالفرنسية، فكان كلامه بالفرنسية حسنًا.

قال الشاب للمرأة السمينة ذات الوجه الأحمر والهندام الصارخ التي كانت ما تزال واقفة كأنها لا تجرؤ أن تجلس من تلقاء ذاتها رغم أن كرسيا كان يوجد إلى جانبها، قال لها:

– اجلسي يا لويزا ايفانوفنا!

فأجابته السيدة قائلة:

– (Ich danke) (أشكرك) بالألمانية.

وجلست، فخشخش حرير. إن ثوبها الأزرق كزرقة السماء، المزدان بتخاريم بيضاء، المنتفخ كمنطاد، قد انتشر حول الكرسي، فشغل نصف الغرفة تقريباً، وانتشرت منه روائح عطر، ولكن السيدة أظهرت وجلها من احتلال كل هذا المكان، ومن نشر كل هذا العطر، فكان في ابتسامتها التي ظاهرها الوقاحة كثير من القلق.

انتهت المرأة التي ترتدي ثياب الحداد، فنهضت أخيراً. فإذا بضابط يدخل بضجة على حين فجأة، ضابط يوحي مظهره بالحماسة والنشاط ويحرّك كتفيه كلما خطا خطوة. ألقى الضابط على المنضدة قبعته المزدانة بشارة رسمية، وجلس على مقعد. ووثبت السيدة ذات الثوب المخشخش عن كرسيها منذ لمحته، وانحنت تحييه تحية عميقة بنوع من الإعجاب، ولكن الضابط لم يولها أي انتباه. ومع ذلك لم تجرؤ أن تعود إلى الجلوس بحضوره. ولم يكن هذا الضابط إلا مساعد مفوّض الشرطة. إن له شاربين أحمرين مدببين يستويان أفقياً على جانبي وجهه، وهو وجه لا تعبر قسماته الدقيقة عن شيء، إلا عن الغطرسة. ألقى الضابط على راسكولنيكوف نظرة شزراء فيها استياء: ذلك أن ملابس راسكولنيكوف كانت زرية حقاً، وكانت هيئته، رغم حالة الانهيار التي هو فيها، لا تتفق وهذه الملابس، حتى لقد تجرأ فرشق الضابط بنظرة طويلة بعض الطول، مدقّقة بعض التدقيق، فشعر الضابط بانزعاج شديد، وصاح يسأل راسكولنيكوف:

– وأنت، ماذا تريد؟

لا شك أنه قد أدهشه أن لا يخطر ببال شخص يرتدي مثل هذه الأسمال الرثة أن يغض طرفه ويرتبك أمام نظرته الكاسرة.

أجابه راسكولنيكوف مضطرباً:

– استدعيت إلى هنا، هو استدعاء..

فأسرع السكرتير يتدخل تاركاً أوراقه:

– بشأن المطالبة بدفع مال. هذا هو الطالب!

قال السكرتير ذلك ودفع إلى راسكولنيكوف دفتراً وهو يشير له إلى موضع منه، وأضاف يقول:

– اقرأ!

تساءل راسكولنيكوف: «بشأن المطالبة بدفع مال؟ أي مال؟ إذن ليس الأمر ذلك الأمر!». وارتعش من الفرح. شعر فجأة بتخفف كبير لا يوصف. إن حملا ثقيلا قد سقط عن كتفيه.

صرخ الضابط يسأله:

– قيل لك أن تحضر في أية ساعة أيها السيد؟ لقد ورد في ورقة استدعائك أن تحضر في الساعة التاسعة، والساعة الآن هي الحادية عشرة، أليس كذلك؟

لا يدري إلا الله لماذا كان هذا الضابط يشعر بمزيد من الاستياء شيئاً بعد شيء.

أجابه راسكولنيكوف بصوت عالٍ، ومن فوق كتفه:

– لم أستلم ورقة الاستدعاء إلا منذ ربع ساعة. أحسب أنني يكفيني أن أجيء رغم الحمّى...

إن راسكولنيكوف أيضاً قد اعتراه غضب مفاجئ لم يكن في الحسبان، ولكنه يجد في هذا الغضب لذة ومتعة.

– لا تصرخ، أرجوك!

– لست أصرخ. بالعكس: أنا أتكلم بكثير من الرصانة والرزانة، وأنت تصرخ. ولما كنتُ طالباً، فإنني لا أسمح بالتكلّم معي بهذه اللهجة.

بلغ غضب مساعد مفوض الشرطة من الشدة أنه لبث دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة، فلم يزد على أن يرغي ويزيد. ثم إذا به ينهض بوثبة واحدة كمن وُخز، ويصيح قائلا لراسكولنيكوف:

– أسكت. أنت هنا في مكتب رسمي. لا تكن فظاً أيها السيد!

فصرخ راسكولنيكوف:

– وأنت أيضاً في مكتب رسمي، ومع ذلك تصرخ، بل وتدخن سيجارة، وهذا دليل على أنك لا تولينا جميعاً أي اعتبار!

وشعر راسكولنيكوف، حين قال هذه الكلمات، بلذة لا توصف.

وكان السكرتير ينظر إليهما مبتسماً. واضح أن الضابط الذي كان يغلي ويفور قد أُفحم.

وأخيراً صرخ الضابط يقول بصوت بلغ من العلو أنه كان لا يبدو طبيعيا:

– ليس هذا شأنك. تفضل بالإدلاء بالإفادة المطلوبة منك. أره الشكوى يا ألكسندر جريجوريفتش. أنت مطالب بمال تتهرب من دفعه. يا للشاطر!..

ولكن راسكولنيكوف كان قد انقطع عن الإصغاء إليه: أمسك الورقة بشراهة، محاولاً أن يكشف اللغز بأقصى سرعة. قرأ الورقة مرة أولى، ثم قرأها مرة ثانية، ولكنه ظل لا يفهم شيئاً. فقال للسكرتير يسأله:

– ما هو الموضوع؟

– أنت مدين بمال عليك أن تدفعه. هناك سند تتعهد فيه بسداد الدين عند المطالبة به. وعليك الآن إما أن تدفع كل شيء، بما في ذلك النفقات والغرامات، الخ، وإما أن تحدّد، كتابةً، الموعد الذي ستكون فيه قادرًا على دفع المال، وأن تتعهد بأن لا تغادر العاصمة، وبأن لا تبيع أمتعتك وأن لا تخفيها قبل سداد الدين. أما الدائن ففي وسعه أن يبيع أمتعتك، وأن يلاحقك وفقًا للقانون.

– ولكن... ولكنني لست مديناً لأحد بشيء!

– ذلك أمر ليس من شأننا. لقد تلقينا سنداً بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلاً مستحق الدفع وفقاً للقانون، كنت أنت قد وقعته منذ تسعة أشهر باسم السيدة زارنتسينا، أرملة موظف من الدرجة الثامنة، ثم انتهى هذا السند إلى يدي المستشار تشيباروف، ومن أجل هذا إنما استدعيناك، وعليك الآن أن تدلي بإفادتك.

– ولكن هذه السيدة هي صاحبة البيت الذي أقيم فيه..

– هل يغيّر هذا من الأمر شيئاً؟

كان السكرتير ينظر إليه وهو يبتسم ابتسامة تسامح توشك أن تشتمل على عطف وشفقة، ولكنها تشتمل كذلك على شعور بالانتصار مردّه إلى أن أمامه شابًا غراً قد وقع في الورطة لأول مرة وكأنه يقول له: «هيه! كيف حالك الآن؟» ولكن راسكولنيكوف لم يهتم أي اهتمام بالسند أو تحصيله! حقاً إن هذا لا يستحق، الآن، أقل قلق، ولا يستحق أيسر انتباه! لبث راسكولنيكوف واقفاً يقرأ أو يصغي أو يجيب أو حتى يسأل، ولكنه يفعل ذلك كله على نحو آلي. إن فرحه الناشئ عن شعوره بأنه في أمان، وبأنه قد نجا من الخطر الرهيب الذي كان يتربص به، هو ما كان يملأ كل كيانه في هذه اللحظة. لم يبق في نفسه مكان للتبصر، والتحليل، والاحتياطات الواجب اتخاذها في المستقبل، والافتراضات، والشكوك، والاستجوابات. هذه دقيقة فرح، فرح مباشر، فرح غريزي صرف. ولكن في تلك الدقيقة نفسها دوّى في المكتب ما يشبه أن

يكون رعد وصاعقة. إن الضابط الذي كان ما يزال يغلي ويفور من الإهانة التي ألحقت به منذ قليل، قد انفجر انفجار الرعد والصاعقة في محاولة لإثبات عظمته المنهارة على السيدة ذات الثوب المخشخش التي كانت تتأمله منذ دخل، وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء.

صرخ يقول لها فجأة بصوت عال (وكانت السيدة التي تلبس ثياب الحداد قد خرجت):

– آ... هاأنت يا... ماذا جرى عندك في الليلة الماضية، هه؟ لقد عدلت تثيرين الفضائح، وتعرضين دعاراتك في عرض الشارع! عدت تخلقين المشاجرات وتشجعين السكر! أتراك تحلمين بأن تقضي أيامك في سجن من السجون؟ لقد سبق أن قلت لك، سبق أن نبهتك عشر مرات إلى أنني سأكون في المرة الحادية عشرة بغير رحمة ولا رأفة ولا شفقة، وهانت ذي تستأنفين... تستأنفين... يا... يا..

كادت الورقة التي يحملها راسكولنيكوف أن تسقط من يديه. نظر مبهوراً إلى السيدة المخشخشة التي تعامل بمثل هذه الفظاظة. ولكنه سرعان ما فهم الموضوع، وسرعان ما أخذت القصة تسلّيه، فكان يصغى متلذذاً، حتى لقد أحس برغبة في أن يضحك، في أن يضحك مقهقهاً، فإلى هذا الحد كانت أعصابه مهتزة!

بدأ السكرتير يتكلم فقال بلهجة تفيض توسلاً:

– ايليا بتروفتش...

ولكنه انقطع عن الكلام، لأنه رأى أن من الأفضل أن ينتظر لحظة مناسبة أكثر من هذه اللحظة، لأنه كان يعرف بالتجربة أن من المستحيل كبح جماح الضابط العنيف، اللهم إلا باللجوء إلى القوة.

أما السيدة المخشخشة فإنها أخذت ترتجف منذ انطلق الرعد ودوّت الصاعقة. ولكن الشيء الغريب هو أن تعبير وجهها كان يزداد ترققاً وتلطفاً، وابتسامتها للضابط الرهيب كانت تزداد حسناً وظرفاً على قدر

ما كانت الشتائم الموجهة إليها تزداد كثرة وشدة. كانت تراوح في مكانها، ولا تني تنحني احتراماً للضابط، منتظرة مع ذلك، بصبر نافد، أن يتيح لها أن تقول كلمة. وكوفئ صبرها فعلاً، فما أن سكت الضابط حتى أسرعت تقول بنبرة ألمانية ظاهرة، رغم أنها تكلمت الروسية بطلاقة:

– لم يحدث في بيتي عربدة ولا مشاجرة، يا سيدي الكابتن، ولا حدثت فضيحة أو جرصة، لم تحدث أية فضيحة! كل ما في الأمر أنه جاء سكران... سأقص عليك كل هذا يا سيدي الكابتن... حقاً أنا لست مذنبة... إن بيتي بيت لائق يا سيدي الكابتن، والسلوك فيه سلوك لائق يا سيدي الكابتن... وأنا نفسي، أنا نفسي، لم أسمح بأية فضيحة، في أي يوم من الأيام. ولكنه جاء سكران ثم طلب ثلاث زجاجات، ثم رفع قدمه في الهواء وأخذ يعزف بها على البيانو... ذلك أمر لا يستحسن أبداً في بيت لائق. ثم خرّب لي البيانو. قلت له: ما هذه آداب مستحبة، ما هذه آداب مستحبة... فتناول عندئذ زجاجة وأخذ يضرب بها جميع الناس على قفاهم... عندئذ ناديت البواب... فجاء كارل... وحين جاء كارل، ورّم الرجل عين كارل، وورم أيضاً عين هنرييت، وصفعني أنا نفسي، خمس صفعات!.. ليس من الظرف في شيء أن يفعل أحد ذلك في بيت لائق يا سيدي الكابتن. عندئذ صرخت.. ولكنه مضى عندئذ إلى النافذة المطلة على القناة ففتحها، وأخذ ينخر نخير خنزير صغير، وذلك عيب حقاً... كيف يرضى أن يقف إلى النافذة فيأخذ ينخر نخير خنزير صغير؟ هذا عيب، عيب، عيب!.. شدّه كارل من رداء «الفراك» الذي كان يرتديه، شدّه ليبعده عن النافذة... وعندئذ يا سيدي الكابتن – أعترف لك بذلك، نعم أعترف لك بذلك – مزق له كارل رداءه... ولكنه أخذ عندئذ يصيح قائلاً إنه يطالب بخمسة عشر روبلاً، لأن رداءه تمزق. فدفعت له، يا سيدي الكابتن، دفعت له بنفسي، دفعت له خمسة روبلات تعويضاً له عن ردائه. ما هو بالزائر اللائق يا سيدي الكابتن إن الزائر اللائق لا يتسبب بهذه الفضيحة! وقد قال لي: سوف ترين... لأنشرنّ هجاء مقذعاً لكم. إن لي صلات بجميع الجرائد. وأستطيع أن أقول فيها عنكم ما أشاء! أهذا كلام يقال لي؟

– آ... هو إذاً كاتب؟

– نعم يا سيدي الكابتن، وهو أيضاً زائر غير لائق، لأنه لم يتورع، في منزل لائق، أن...

– كفى، كفى، سبق أن قلت لك وكررت أن...

عاد السكرتير يتكلم فقال بلهجة ذات مغزى:

– ايليا بتروفتش!

رشقه الضابط بنظرة سريعة فكفّ السكرتير عن الكلام وهز رأسه بحركة خفيفة. وتابع الضابط كلامه فقال:

– اسمعي أيتها المحترمة لويزا ايفانوفنا! إليك كلمتي الأخيرة! أقول لك آخر مرة: إذا حدثت في بيتك اللائق، بعد الآن، فضيحة واحدة، فسأتولى بنفسي وضعك في قفة سلطة، كما يقال بالأسلوب الرفيع. مفهوم؟... إذن هكذا... أديب... كاتب... أخذ في «منزلك اللائق» خمسة روبلات تعويضاً عن تمزيق ردائه. آ... هؤلاء هم المؤلفون! (قال الضابط ذلك وهو يرمي راسكولنيكوف بنظرة احتقار). وأمس الأول، في حانة من الحانات، حدثت قصة أخرى: تغدّى واحد من هؤلاء المؤلفين، ورفض أن يدفع ثمن الوجبة، وقال لصاحب الحانة: «سأكتب مقالة أهجوك فيها هجاء لاذعاً» وفي الأسبوع الماضي، على ظهر سفينة من السفن، قام كاتب آخر بقذف أسرة مستشار من مستشاري الدولة بأشنع الشتائم، وتناول بالشتم امرأته وابنته خاصةً. ومؤلف ثالث، لم يمكن طردُه من أحد محال بيع الحلوى إلا ركلاً بالأرجل في ظهره. هؤلاء هم الأدباء، هؤلاء هم الكتاب، والطلاب والدعاة! أف!.. أما أنت فانصرفي الآن، ولكن اعلمي أنني سأراقبك، فإياك ثم إياك... مفهوم؟

إن لويزا ايفانوفنا، وقد ازدادت تلطفا وتودداً عن ذي قبل، أخذت تنحني انحناء الاحترام في جميع الاتجاهات، ومازالت تتقهقر إلى الوراء أثناء هذا الانحناء حتى بلغت الباب. ولكنها حين بلغت الباب صدمت بمؤخرتها ضابطاً مهيباً يزدان وجهه النضر المتفتح بسالفين أشقرين رائعين كثيفي الشعر. أنه نيكوديم فومتش، مفوّض الشرطة بذاته. أسرعت لويزا ايفانوفنا تنحني، احتراماً له، حتى كادت تلامس الأرض من شدة الانحناء، ثم ولت هاربة من المكتب بخطوات صغيرة متواثبة.

قال نيكوديم فومتش يخاطب ايليا بتروفتش، بلهجة محببة ودود:

– ماذا؟ أعاد هزيم الرعد، أعاد قصف الصاعقة، والعاصفة، والإعصار؟ هل أغضبوك مرة أخرى فاستسلمت للغضب؟ لقد سمعت كل شيء وأنا أصعد السلم!

قال ايليا بتروفتش بإهمال نبيل وهو ينتقل من منضدة إلى أخرى، مثقل الذراعين بأوراق، مرنّحًا عطفيه ترنيحا جميلا، عند كل خطوة، على عادته:

– وكيف لا! انظر أرجوك إلى هذا السيد مثلاً: هو كاتب، هو طالب أو طالب سابق، يرفض أن يدفع ما عليه من ديون، يوقع سندات، يرفض إخلاء المسكن، الشكاوى الكثيرة أودعت ضده، ثم هو ينزعج لأنني أدخن سيجارة بحضوره. انظروا قليلاً إلى حَمَلَة الأقلام هؤلاء. هذا نموذج لهم. عيّنة تمثِّلهم بحسنها وروعتها أجمل تمثيل!

قال نيكوديم فومتش:

– ليس الفقر عاراً يا صديقي. ونحن نعلم أنك لا تطيق احتمال أي انزعاج...

ثم اتجه إلى راسكولنيكوف فقال له بكثير من اللطف والمودة:

– أغلب الظن أنك توهمت أنه أراد الإساءة إلى شعورك، فلم تستطع أن تسيطر على نفسك. ولكنك أخطأت: ثق أن هذا الرجل من أنبل الرجال. ولكنني أعترف لك بأنه عنيف، عنيف كالبارود، كالبارود.. يشتعل، يفرقع، ينفجر، ولكن كل شيء ينتهي بعد ذلك! ولا يبقى إلا قلبه الذي هو من ذهب!.. حتى لقد أُطلق عليه لقب «الضابط بارود» منذ كان يخدم في الكتيبة.

صاح ايليا بتروفتش، يقول وقد أرضت هذه الكلمات غروره، ولكنه ما يزال مهتاجا:

– ويا لها من كتيبة!

شعر راسكولنيكوف برغبة مفاجئة في أن يخاطبهم جميعاً بكلام لطيف ودود إلى أبعد حدود اللطف والود. فبدأ يقول بلهجة طلقة، متجهاً بكلامه إلى نيكوديم فومتش:

– انظر يا كابتن، ضع نفسك في مكاني... أنا مستعد لأن أعتذر إلى السيد، إذا كنت قد أخطأت في حقه أي خطأ. أنا طالب فقير، مريض، مرهق (هذا ما قاله: مرهق) بالبؤس. أو قل إنني كنت طالباً في الماضي، ثم أصبحت عاجزاً عن سدّ حاجاتي فتركت الدراسة. ولكنني سأتلقى مالاً بعد قليل. أن أمي وأختي تعيشان في إقليم س...، سوف ترسلان إليّ مالاً فأدفع ما عليّ. أن لصاحبة البيت الذي أقيم فيه قلباً طيباً كريماً، ولكنها غضبت كثيراً، لأنني فقدت موردي من إعطاء دروس خاصة، فأصبحت لا أدفع لها أجر مسكني منذ أربعة أشهر تقريباً، حتى لقد بلغ الغضب بها أنها أصبحت لا تبعث إليّ بوجبات الطعام... لذلك تراني لا أفهم من أمر هذا السند شيئاً. هي تطالبني بمال مستعينة بهذا السند الذي وقعته لها ولكن من أين أجيء بمالي أدفعه؟ احكموا في الأمر بأنفسكم!

عاد السكرتير يقول من جديد:

– هذا ليس من شأننا! فاستأنف راسكولنيكوف كلامه مخاطباً نيكوديم فومتش، لا السكرتير، ومحاولا أن يخاطب في الوقت نفسه ايليا بتروفتش، رغم أن هذا كان منهمكاً بأوراقه، وكان يقابله بقلة الاكتراث وبالاحتقار، قال:

– اسمح لي، اسمح لي، أنا أوافقك كل الموافقة، ولكن اسمح لي أيضاً أن أشرح ظروفي، اسمح لي أن أذكر لك من جهتي أنني أسكن عندها منذ ما يقرب من ثلاث سنين، منذ وصلت من الأقاليم، وأنني قبل كل شيء، قبل كل شيء... نعم، لماذا لا أعترف أنا أيضاً بأنني منذ البداية قد وعدتها بأن أتزوج ابنتها؟ نعم لقد وعدتها بذلك كلاماً... كلاماً فقط... وكانت ابنتها فتاة... أعجبتني على كل حال، وان لم أكن قد تولهت بحبها! هو الشباب، باختصار! فكانت صاحبة البيت تمهلني في الدفع كثيراً... وكنت أعيش حياة تتصف بكثير من الطيش...

قاطعه ايليا بتروفتش بفظاظة، شاعراً بالانتصار:

– ما من أحد يسألك أن تذكر تفاصيل من هذا النوع عن حياتك الخاصة أيها السيد، ثم إن وقتنا ليس فيه متسع للإصغاء إليك...

ولكن راسكولنيكوف سارع يقاطعه بعنف، رغم أنه أصبح يشق عليه إلى أبعد حدود المشقة أن يقول أي شيء. قال يرد:

– لا، اسمح لي، اسمح لي أن أروي لكم من جهتي كيف جرت الأمور... وأن أرويها مرتبة، رغم أنني أوافقك على أنه ليس من المفيد أن أقص عليكم هذا كله... إليكم ما حدث: منذ سنة، ماتت تلك الفتاة بمرض التيفوس، وبقيت أنا مستأجراً للمسكن الذي أقيم فيه، فلما جاءت صاحب البيت تقيم حيث تقيم الآن قالت لي (قالت لي ذلك بصداقة ومودة): إنها تثق بي ثقة مطلقة، ولكنها سألتني ألا أستطيع أن

أوقع لها سنداً بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلاً، هو المبلغ الذي تعتقد أنني مدين لها به؟ أسمح لي... لقد قالت لي بالحرف الواحد أنها ستظل تمهلني بعد تسليمها هذا السند، ستظل تمهلني في الدفع ما شئت، وإنها لن تستخدم بحال من الأحوال، – هذه أقوالها هي – لن تستخدم هذا السند إذا لم أدفع من تلقاء نفسي. وها هي ذي الآن، بعد أن فقدت موردي من الدروس، وبعد أن أصبحت لا أملك ما أقتات به، تقدم السند للسلطات من أجل تحصيله. فما رأيكم في هذا؟

قال له ايليا بتروفتش بوقاحة:

– إن هذه التفاصيل المؤثرة لا تعنينا في شيء أيها السيد! عليك أن توقع الإفادة والتعهد... أما أنك كنت مولهاً بحب الفتاة أو أنك لم تكن مولهاً بحبها، وأما الظروف المحزنة التي أعقبت ذلك... فهذا كله لا شأن لنا به البتة.

دمدم نيكوديم فومتش يقول لصاحبه الضابط وهو يجلس إلى مكتبه ويمضي يوقع بعض الأوراق:

– أحسب أنك تقسو كثيراً!

لقد شعر نيكوديم فومتش بشيء من الحرج.

قال السكرتير لراسكولنيكوف:

– اكتب!

فسأله راسكولنيكوف بلهجة فظة:

– ماذا أكتب؟

– سأملي عليك...

خيل إلى راسكولنيكوف أن السكرتير أصبح يعامله بمزيد من الازدراء والاحتقار بعد تلك الاعترافات التي أوردها. ولكن الشيء الغريب هو أن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة لا يبالي بالرأي الذي قد يراه غيره فيه. وقد حدث له هذا الانقلاب بمثل لمح البصر سرعة، حدث له في ثانية واحدة، فلو شاء أن يفكر لحظة واحدة لأدهشه في أغلب الظن أن يكون قد حدّث هؤلاء الموظفين على هذا النحو، وأن يكون قد أجبرهم على سماع مُسارّاته. من أين جاءته هذه الحالة النفسية الجديدة؟ لو امتلأت الغرفة الآن لا برجال شرطة بل بأصدقاء حميمين لكان عاجزاً عن أن يوجه إليهم كلمة فيها شيء من مودة وصدق، وذلك من فرط الفراغ الذي أصيب به قلبه. إن إحساساً غامضاً بالوحدة، إحساساً مبهماً بعزلة أليمة لا نهاية لها، قد اجتاح شعوره على حين فجأة. لا، ليس إهانة اعترافاته العاطفية أمام ايليا بتروفتش لا ولا المهانة من انتصار الضابط عليه هو الذي هز قلبه هزاً يبلغ هذا المبلغ من العمق. آه... أنه ليس يعنيه الآن أن يكون فيه صغار، وأن يكون في الآخرين صغار، وليست تعنيه المطامح، ولا الضباط، ولا النساء الألمانيات، ولا تحصيل السندات، ولا المكاتب، ولا غير ذلك!.. أنه لو حكم عليه بالحرق حياً في هذه اللحظة، لما قام بحركة واحدة، ولما زاد على أن يصغي إلى الحكم الذي صدر عليه، إذا هو أصغى. إن شيئاً جديداً كل الجدة قد تحقق الآن في كيانه، شيئاً لم يعرفه حتى ذلك الحين، شيئاً هو حادث لا يتنبأ به ولا سابقة له. أن راسكولنيكوف لم يدرك ذلك الشيء. ولكنه كان يحس إحساساً واضحاً بأنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب هؤلاء الناس، هؤلاء الموظفين في قسم الشرطة بالحي، لا يستطيع أن يخاطبهم بأي كلام فضلا عن الافضاء إليهم بعواطفه الشخصية ومشاعره الحميمة كما فعل منذ قليل. بل لقد أحسّ راسكولنيكوف أنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب أقرب أقربائه بحال من الأحوال، ولو كانوا أخوة وأخوات. إن راسكولنيكوف لم يكن قد شعر حتى تلك الدقيقة، في يوم من الأيام، بإحساس يبلغ هذا المبلغ من الهول والغرابة. والأمر الذي كان يؤلمه مزيداً من الألم هو أن ما يشعر به كان إحساسا ولم يكن

فكرة. نعم كان إحساسا مباشرا، كان إحساسا أشد إيلاماً من جميع الإحساسات التي شعر بها طوال حياته.

أملى عليه السكرتير صيغة الإقرار المستعملة في هذه الحالة: لا أستطيع أن أدفع. أتعهد بالدفع بتاريخ كذا. لن أغادر المدينة. لن أبيع أشيائي، ولن أتنازل عنها لأحد، الخ.

قال له السكرتير وهو ينظر إليه متعجّباً:

– أرى أنك لا تستطيع الكتابة، وأن القلم يسقط من يدك. هل أنت مريض؟

– نعم... اشعر بدوار في رأسي... ولكن أكمل مع ذلك!

– انتهى! لم يبق عليك إلا أن توقع.

وقع راسكولنيكوف الإقرار، فتناول السكرتير الورقة وانصرف عنه للاهتمام بأشخاص آخرين.

رد راسكولنيكوف الريشة إلى مكانها، ولكنه بدلاً من أن ينهض ويذهب، وضع كوعيه على المنضدة، وضغط رأسه بين يديه. كان يشعر كأن مسماراً قد دُق في قمة جمجمته. ووافته فكرة غريبة على حين فجأة: أن ينهض فوراً فيقترب من نيكوديم فومتش ويقص عليه كل ما حدث في الليلة البارحة، كل ما حدث، حتى أيسر التفاصيل، وأن يقوده بعد ذلك إلى غرفته، فيريه الأشياء هناك، عند الركن، في الثقب. وبلغت رغبته في ذلك من القوة أنه نهض ليضع مشروعه موضع التنفيذ. لكنه لم يلبث أن قال لنفسه: «ربما كان عليّ أولاً أن أفكر لحظةً». ثم سرعان ما أضاف يقول: «لا بل الأفضل أن لا أفكر البتة وأن أتخلص من كل شيء دفعة واحدة». وها هو ذا يتوقف فجأة كمن تسمّر في مكانه: كان نيكوديم فومتش يتحدث بحرارة إلى ايليا بتروفتش، فاستطاع راسكولنيكوف أن يلتقط من حديثهما هذه الجمل:

– لا، مستحيل، سوف يخلى سبيلهما كليهما! أولاً، هناك تناقض. احكم في الأمر بنفسك: لو كانا هما القاتلين فلماذا يستدعيان البواب؟ أليفضحا أمرهما وليشيا بنفسيهما؟ أم تراهما استدعياه من باب المكر؟ ألا إن هذا ليكون إسرافاً في المكر! ثم إن الطالب بسترياكوف قد رآه البوابان ورأته امرأة قرب باب العمارة لحظة دخوله. وكان في صحبة ثلاثة أصدقاء ودّعهم عند المدخل. وبحضور أصدقائه هؤلاء إنما سأل البوّاب أين يوجد مسكن العجوز. فكّر قليلاً: أكان يلقي هذا السؤال لو أنه جاء لهدف كهذا الهدف؟ أما كوخ فقد قضى نصف ساعة تحت، عند بائع الجواهر، قبل أن يصعد إلى بيت العجوز، وهكذا يكون قد ترك بائع الجواهر وصعد إلى بيت العجوز في الساعة الثامنة إلا ربعاً على وجه التحديد... ففكر الآن...

– اسمح لي! فكيف نفسر هذا التناقض الشديد في أقوالهما؟ هما يؤكدان أنهما قرعا الباب، وأن الباب كان مغلقاً، ثم يؤكدان أن الباب كان مفتوحا بعد ثلاث دقائق حين عادا يصعدان في صحبة البواب. فما تفسير هذا التناقض؟

– هنا إنما يكمن سر القضية: لقد كان القاتل في داخل البيت حتماً، وكان قد أوصد الباب بالمزلاج، ولا بد أننا كنا سنكتشفه لولا أن كوخ قد ارتكب تلك الحماقة فمضى يبحث عن البواب هو أيضاً. ففي تلك الفترة بعينها، أعني الفترة التي انقضت بين نزول كوخ وصعود الثلاثة إنما تمكن القاتل من هبوط السلم، واستطاع أن يتسلل من بين أيديهم بطريقة أو بأخرى. إن كوخ الآن يرسم على نفسه إشارة صليب بكلتا يديه قائلاً: «لو قد لبثت فوق، إذن لوثب عليّ وقتلني بفأسه!» إن كوخ ينوي أن تقام له في الكنيسة صلاة شكر لله على ما خصه به من نعمة النجاة! هئ هئ!..

– والقاتل، ألم يره أحد؟

– كيف يمكن أن يراه أحد؟ إن المنزل أشبه بسفينة نوح.

بهذا عقّب السكرتير الذي كان يصغي إلى الحديث من مكانه. وكرر نيكوديم فومتش يقول بحرارة شديدة:

– أقول لكم إن القضية واضحة، واضحة جداً!

فقال ايليا بتروفتش معارضاً:

– لا، ليست واضحة البتة!

رفع راسكولنيكوف قبعته، واتجه نحو الباب ولكنه لم يبلغه..

فلما أفاق من غيبوبته رأى نفسه جالساً على كرسي، ورأى رجلاً يسنده من يمين، وآخر يقف من شمال وهو يحمل بيده كأسا مملوءة بماء أصفر، ورأى نيكوديم فومتش واقفاً أمامه يحذق إليه ويتفرس فيه. نهض راسكولنيكوف عن كرسيه.

فسأله نيكوديم فومتش بلهجة خشنة:

– ماذا بك؟ أأنت مريض؟

فقال السكرتير وهو يرجع إلى منضدته ويرتد إلى أوراقه:

– إنه، منذ كان يكتب الإقرار، كان لا يكاد يستطيع تحريك قلمه!

وصاح ايليا بتروفتش من مكانه وقد عاد يرتب أوراقه هو أيضاً، صاح يسأله:

– أأنت مريض منذ مدة طويلة؟

كان ايليا بتروفتش قد لاحظ المريض طبعاً أثناء إغمائه، ولكنه ابتعد فورا منذ رآه يفيق.

ودمدم يقول مجيباً عن سؤال ايليا بتروفتش:

– منذ أمس...

– وهل خرجت أمس؟

– نعم خرجت.

– مريضًا؟

– مريضًا.

– في أي ساعة؟

– بعد الساعة السابعة من المساء.

– إلى أين ذهبت؟ اسمح لي أن ألقي عليك هذا السؤال.

– إلى الشارع!

– جواب مختصر مفيد!

كان راسكولنيكوف شاحباً شحوباً شديداً. وقد أجاب عن تلك الأسئلة بصوت خشن متقطع دون أن يغض عينيه السوداوين المشتعلتين أمام نظرات ايليا بتروفتش. قال نيكوديم فومتش:

– هو لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه، وأنت...

فأجابه ايليا بتروفتش بنبرة غريبة بعض الغرابة:

– لا... بأ... س!.

أراد نيكوديم فومتش أن يضيف شيئاً آخر، ولكنه أمسك عن الكلام حين ألقى نظرة على السكرتير الذي كان يحدق إليه من مكانه. وصمت الجميع فجأة. شيء غريب.

ثم قال ايليا بتروفتش يختم الحديث:

– طيب! في وسعك أن تنصرف.

خرج راسكولنيكوف. ولكنه استطاع أثناء خروجه أن يسمع استئناف الحديث حاراً محتدماً. وبين جميع الأصوات كان صوت نيكوديم فومتش، المتسائل المستفسر، أكثرها وضوحاً وتميزاً... حتى إذا صار راسكولنيكوف في الشارع ثاب إليه كل وعيه وعاد إليه كل شعوره.

– تفتيش! تفتيش! سيقومون بالتفتيش فوراً! يا للصوص! أنهم يشتبهون فيّ!..

كذلك كان يردد راسكولنيكوف بينه وبين نفسه مسرّعاً خطاه للرجوع إلى بيته. لقد عاد الخوف يستبد به من أخمص قدميه إلى قمة رأسه.

الفصل الثاني

قال راسكولنيكوف في نفسه متسائلاً: «وماذا لو كان التفتيش قد تم؟ ماذا لو وجدتهم في بيتي؟»

ولكن راسكولنيكوف عاد إلى بيته فلم يجد فيه أحداً، ولا كان أحد قد جاء يفتشه. حتى ناستاسيا لم تلمس شيئاً، ولكن رباه! كيف أمكنه أن يدع هذه الأشياء في الثقب؟

أسرع راسكولنيكوف نحو الركن، ودس يده وراء الورق، وأخذ يخرج منه الأشياء فيدسّها في جيوبه واحدًا تلو آخر. عرف أن مجموع الأشياء ثمانية: علبتان صغيرتان تضمان أقراطاً للآذان أو ما يشبه ذلك (لم يدقق كثيراً)، ثم أربع علب صغيرة من الجلد، فيها جواهر، ثم سلسلة كانت ملفوفة بورقة من ورق الجرائد، ثم شيء آخر ملفوف بورقة من ورق الجرائد أيضاً، وأغلب الظن أنه وسام...

وزع هذه الأشياء على مختلف جيوب معطفه، ووضع بعضها في الجيب الأيمن من سرواله، وهو الجيب الوحيد الذي بقي للسروال، وجهد أن يدسّها في هذه الجيوب بحيث لا تمكن رؤية شيء من خارج. وتناول حافظة النقود أيضاً. ثم خرج من الغرفة مسرعاً حتى لقد ترك بابها مفتوحًا تمامًا.

كان يمشي بخطى سريعة ثابتة. ورغم أنه كان محطماً فقد كان واعياً ما هو عليه. كان يخشى أن يلاحق ويطارد، كان يخشى أن يتم وضعه تحت المراقبة بعد نصف ساعة، أو بعد ربع ساعة. فلا بد له إذن، مهما كلف الأمر، أن يغيب هذه الأشياء التي تثبت ارتكابه جريمة القتل، لا بد له أن يتخلص منها ما ملك بعض قوة، وبعض تفكير... ولكن إلى أين يذهب؟

كان قد عزم على هذا الأمر وبتّ فيه: «أن يرمي جميع الأشياء في القناة، فتسقط الاثباتات في الماء، وتسقط معها القضية!» ذلك ما كان قد عزم عليه في الليلة السابقة، أثناء هذيانه، في تلك اللحظات التي كان يحاول

فيها (وقد تذكر هذه المحاولات) أن ينهض وأن يخرج قائلا لنفسه: «أسرع، أسرع تخلص من هذا كله!». ولكن التخلص من هذه الأشياء لم يكن سهلا.

ظل راسكولنيكوف يتجول مدة نصف ساعة وربما أكثر على طول قناة كاترينا، ونظر مراراً إلى السلالم التي تهبط إلى الماء، فكان لا يجوز أن يخطر بباله أن يضع مشروعه موضع التنفيذ، فإما أن أطوافاً توجد عند أسفل الدرجات وعليها نساء يغسلان غسيلهن، وإما أن مراكب قد ربطت هنالك بالأقلاس وجميع الأمكنة تعج بالناس. هذا عدا أن في الإمكان أن يُرى وأن يراقب من على أرصفة الشاطئ. أليس أمراً يبعث على الشبهة والريبة أن ينزل رجل إلى تحت، عمداً، ثم يتوقف ليرمي شيئاً من الأشياء في الماء؟ وماذا لو طافت العلب على سطح الماء بدلاً من أن تغوص إلى القاع؟ لا شك أنها ستطفو، ولا شك أن جميع الناس سيرونها! بل إن جميع من لقيهم في طريقه حتى الآن كانوا يتفرسون فيه كأنهم لا همّ لهم سواه! قال لنفسه: «لماذا يتفرسون فيّ هذا التفرس؟ اللهم إلا أن يكون هذا وهماً مني لا أكثر!»

وخطر بباله أخيراً أنه ربما كان الأفضل أن يذهب إلى مكان ما على شاطئ نهر نيفا. إن شاطئ نهر نيفا لا يعج بالناس كما يعج بهم شاطئ القناة. فهنالك لن يُلاحظ كما يلاحظ هنا، وهنالك يكون رمي الأشياء في الماء أسهل منه هنا على كل حال، وهو هنالك أبعد عن المكان الذي وقعت فيه الحادثة منه هنا، نعم، هذا خاصةً! وسرعان ما دُهش على حين فجأة: كيف أمكنه أن يظل يطوف مدة نصف ساعة، قلقاً خائفاً، في أمكنة خطرة هذا الخطر كله، دون أن يدرك هذا الأمر قبل هذه اللحظة؟ كيف يظل يطوف طول هذه المدة لا لشيء إلا أن ينفذ مشروعاً تصوره في نومه أثناء هذيان؟ إذن لقد أصبح ذاهلاً وقليل التقدير، ولقد أصبح شديد النسيان! أنه يعرف هذه الحقيقة الآن! لا شك أن عليه أن يسرع. نعم، إن عليه أن يسرع حتماً!

اتجه نحو نهر نيفا عن طريق شارع «ف...» غير أن فكرة أخرى وافته أثناء سيره: «لماذا نهر نيفا؟ لماذا الماء؟ أليس الأفضل أن أذهب إلى مكان بعيد جداً، ولو إلى الجزر مرة أخرى، فأختار مكاناً في الغابة خالياً من الناس، فأدفن كل شيء تحت إحدى الأشجار، بعد أن أضع على المكان علامة تهديني إليه في المستقبل؟» ورغم شعوره بأنه عاجز عن التمعن في هذا كله تمعناً واضحاً، فإن الفكرة قد بدت له سليمة لا اعتراض عليها.

ولكن لم يُكتب له أن يبلغ الجزر أيضاً، وإنما جرت الأمور مجرى آخر. فما إن خرج من شارع «ف...» إلى أحد الميادين، حتى رأى على يساره، فجأة، مدخل فناءٍ محاط بجدران كبيرة من جميع الجهات، ورأى على اليمين، بعد المدخل مباشرة، سوراً طويلا بغير ملاط، هو سور عمارة مجاورة ذات أربعة طوابق، ورأى على اليسار، حاجزاً من خشب يوازي ذلك السور، ويقع بعد المدخل مباشرة، ويبلغ طوله نحو عشرين خطوة ثم ينعطف يساراً. هذه أرض خلاء تتكدس فيها أنواع شتى من مواد متروكة مهجورة. فإذا نظر الناظر إلى آخر الفناء بعد الحاجز، رأى ركن سقيفة من حجر، واطئة، مسودة من الدخان، لعلها كانت جزءاً من ورشة. فلا بد أن مصنعاً للعربات أو للأقفال أو شيئاً من هذا القبيل كان يقوم هنا، لأن الأرض سوداء من غبار الفحم في كل مكان تقريباً منذ باب المدخل. قال راسكولنيكوف لنفسه فجأة: «وجدت ضالتي! أرمي كل شيء هنا ثم أنصرف!». وإذ لم ير أحدا في الفناء، أسرع يجتاز الباب، فإذا هو يلمح، بالقرب من الباب، مزراباً مثبتاً بالحاجز الخشبي، بمثابة مبولة (كما يوضع مثله كثيراً في المحلات التي من هذا النوع، حيث يكثر العمال وأصحاب الحرف والحوذيون وأشباههم)، وفوق المزراب كتب على السياج، بالطباشير، الجملة التي تكتب عادة من باب المزاح، بخط رديء وأخطاء إملائية: «ممنوع الوقوف هنا». قال راسكولنيكوف يغبط نفسه: (لهذا المكان هذه الميزة على الأقل، وهي أن أحداً لن يشتبه في أنني دخلته ووقفت فيه». وأضاف: «أرمي هنا كل شيء، كل شيء، دفعة واحدة، كدسة واحدة، ثم أمضي!»

وألقى على ما حوله نظرة أخرى، وفيما كان يدخل يده في جيبه إذا هو يرى، حذاء الجدار، في المسافة التي تفصل الباب عن المبولة ولا يزيد طولها عن خطوتين، صخرة كبيرة غير منحوتة يمكن أن يكون وزنها نحو عشرين كيلوجراماً. إن الرصيف يقع خلف الجدار الحجري في الشارع. وإن وقع أقدام المارة، وهم كثر دائماً في هذا المكان، يُسمع في الداخل. ولكن أحداً لا يستطيع أن يراه في هذه الجهة من الباب إلا إذا دخل، وذلك أمر يمكن أن يحدث، فلا بد لراسكولنيكوف إذن أن يسرع.

مال راسكولنيكوف على الصخرة فأمسك أعلاها بيديه كلتيهما إمساكاً قوياً، واستجمع قواه كلها، فزحزح الصخرة من مكانها. أن حفرة صغيرة كانت قد تشكلت تحت الصخرة. فسرعان ما أخذ راسكولنيكوف يرمي في هذه الحفرة كل ما كان في جيوبه، وكانت حافظة النقود آخر شيء رماه، فكان مكانها فوق سائر الأشياء الأخرى وبقي في الحفرة متسع. ثم أمسك بالصخرة من جديد، وردها إلى وضعها الأصلي مرةً واحدة، فلا يكاد يبدو أنها ارتفعت عن وضعها الأصلي إلا قليلاً. ولكن راسكولنيكوف نبش الأرض، وكوم قليلاً من التراب حول الصخرة وعجنه بقدمه. وأصبح من المستحيل أن يُلاحظ أي تغير.

وبعد ذلك خرج واتجه نحو الميدان، فإذا هو مرة أخرى، كما حدث له في مكتب الشرطة منذ قليل، يشعر بفرح قوي جارف يستبد به لحظة. قال يحدث نفسه: «ها هي ذى الإثباتات قد دفنت في باطن الأرض! من ذا الذي يخطر على باله أن يبحث عنها تحت هذه الصخرة؟ لعل هذه الصخرة موجودة في هذا المكان منذ وجد المنزل، وستظل باقية ما بقي! وهَبهم اكتشفوا الأشياء، فمن ذا الذي يمكن أن يشتبه فيّ؟ انتهى الأمر! لا براهين بعد الآن!» وأخذ يضحك. سوف يتذكر في المستقبل أنه ضحك ضحكاً عصبياً صغيراً أخرس متصلاً، وأنه كان ما يزال يضحك حين اجتاز الميدان. ولكنه ما إن دخل بوليفار ك... الذي التقى فيه ليلة أمس الأول بالفتاة، حتى انقطع ضحكه فجأة. إن خواطر توافي ذهنه الآن. بدا له على حين فجأة

أنه سيشعر باشمئزاز لا سبيل إلى التغلب عليه حين يمر قرب الدكة التي جلس عليها غارقاً في أفكاره بعد انصراف الفتاة، وأنه سيؤلمه أشد الإيلام أن يصادف، من جديد، الشرطي ذا الشاربين الذي أعطاه حينذاك عشرين كوبيكاً. ودمدم يقول: «شيطان يأخذه!»

كان يسير وهو يرمق ما حوله بنظرة ذاهلة خبيثة. إن جميع أفكاره تدور الآن حول نقطة واحدة يحس هو نفسه أنها النقطة الرئيسية، وأنه الآن، على وجه التحديد، يقف وجهاً لوجه أمام هذه النقطة الرئيسية، وذلك لأول مرة منذ شهرين.

ثم إذا هو يقول لنفسه فجأة وقد اعتراه حنق رهيب: «ليأخذ الشيطان هذه القصة. دعنا من ذلك! ما دامت القصة قد بدأت، فلتذهب إلى الشيطان... هي و«الحياة الجديدة»! ما أغباني! ما أكثر ما صنعت اليوم من أكاذيب! ما أكثر ما ارتكبت اليوم من حقارات! ما أبشع ما أظهرته من تزلف وصغار، منذ قليل، أمام ذلك التافه ايليا بتروفتش!.. على كل حال... لا ضير... أنني لا أكترث بهم، لا أكترث بهم ولا بأنني أظهرت لهم تزلفاً وصغاراً! ليس هذا هو الأمر... ليس هذا هو الأمر البتة!»

وتوقف فجأة. إن سؤالا جديدا لم يكن في حسبانه قط، سؤالًا بسيطاً غاية البساطة، يحيره الآن ويصعقه صعقاً. قال يسأل نفسه:

«لو كنت قد نفّذت هذا الأمر عن وعي حقاً، لا على نحو يبلغ هذا المبلغ من البلاهة، لو كانت لك غاية محددة تماما مرسومة تماماً، فكيف تفسر أنك إلى هذه اللحظة لم تلق نظرة واحدة على ما تحويه حافظة النقود، وأنك لا تعرف ما الذي أردت أن تجنيه ولا تدرك الهدف الذي ارتضيت في سبيله أن تحتمل كل هذا العذاب وارتضيت في سبيله عامداً أن ترتكب عملاً يبلغ هذا المبلغ من الحقارة والخسة و الدناءة؟ ألم

تكن تريد منذ لحظة أن ترمي في الماء حافظة النقود هذه وجميع تلك الأشياء التي لم تكلف نفسك حتى عناء النظر اليها؟ كيف تفسر هذا كله؟»

نعم هذه هي الحقيقة! هذه هي الحقيقة تماماً! وكان هو يعلم هذه الحقيقة منذ مدة. إن هذا السؤال ليس جديداً عليه. فهو حين قرر في الليل أن يرمى كل شيء في الماء، أنما قرر هذا القرار بدون أي تردد، وبدون أية مماحكة، كما لو كان ينبغي له أن يفعل هذا لنفسه لا أي شيء سواه... نعم أنه يعلم كل هذا، وانه يتذكر كل هذا، حتى ليكاد يكون قد اتخذ قراره ذاك منذ البارحة، لحظةَ كان ينبش صندوق العجوز ويخرج منه العلب... نعم هذه هي الحقيقة!

«والسبب هو أنني مريض جداً (إلى هذه النتيجة وصل راسكولنيكوف جازماً في نهاية المطاف). لقد عذبت نفسي ومزقت نفسي وصرت أنا نفسي لا أعرف ماذا أفعل... وأمس، وأمس الأول، وفي جميع تلك الأيام الأخيرة، كنت أمزق نفسي بغير انقطاع. حين سأشفى من مرضي، فلن... لن أمزّق نفسي بعد ذلك... ولكن ماذا... ماذا إذا لم يُكتب لي الشفاء؟ يا رب! إن هذا فوق طاقتي!» كان راسكولنيكوف يسير بلا تردّد. كان يرغب رغبة رهيبة في أن يسلو وينسى بأي طريقة، ولكنه لا يعرف ماذا يعمل من أجل أن يسلو. وهذا إحساس جديد لا يستطيع التغلب عليه يجتاح نفسه شيئاً بعد شيء ويشتد في كل دقيقة. هو نوع من اشمئزاز لا حد له، اشمئزاز يشبه أن يكون جسيماً، اشمئزاز من كل ما يحيط به ومن كل ما يراه في طريقه، اشمئزاز عنيد، كاسر، حاقد، مبغض. إن جميع المارة الذين يلقاهم كريهون، كريهةٌ وجوههم، كريهة حركاتهم، وحتى مشيتهم كريهة. لو توجه أحد إليه بكلام في هذه اللحظة، لما زاد على أن يبصق في وجهه، ولربما عضّه...

وتوقف عن السير فجأة، لحظة صار على رصيف «نيفا الصغير» في جزيرة فاسيليفسكي قرب الجسر. قال لنفسه: «أنه يسكن هنا في هذا البيت! ما معنى هذا؟ لقد جئت إذن إلى رازوميخين رغم إرادتي! ها قد

تكرر اليوم عين ما حدث في ذلك اليوم... ولكن هذا أمر عجيب جداً: أأنا جئت إلى هنا واعياً عامداً أم أنني مشيت على غير هدى فإذا بي أصل إلى هذا المكان مصادفة؟.. لا بأس! كنت أقول... أمس الأول... إنني سأذهب إليه غداة قيامي بذلك العمل... طيب... أي ضير في هذا؟ سأذهب اليه! ماذا جرى؟ لكأنني الآن لا أجرؤ أن أذهب إليه...».

وصعد إلى الطابق الخامس حيث يسكن رازوميخين.

كان رازوميخين في بيته، في غرفته الصغيرة، يعمل، يكتب. فتح الباب بنفسه. إنهما لم يلتقيا منذ أربعة أشهر. كان رازوميخين يرتدي روباً منزلياً مهترئاً يكاد يكون خرقة بالية، وكان عاري القدمين إلا من بابوج، ولم يكن قد حلق ذقنه ولا غسل وجهه، ولا مشط شعره. ارتسم على وجهه تعبير الدهشة والاستغراب حين رأى رفيقه داخلًا عليه، فهتف يقول وهو يتفرس فيه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين:

– ماذا؟ أأنت؟

ثم صمت وصفَر، ثم أردف يقول وهو ينظر إلى أسمال راسكولنيكوف الرثة:

– هل من الممكن أن تكون أحوالك سيئة إلى هذا الحد؟ لقد تفوقتَ عليّ في هذا المجال كثيراً. اجلس، اجلس! لا بد أنك متعب!

وحين تهالك راسكولنيكوف على الأريكة التركية المنجدة بقماش مشمع، وهي أسوأ حالًا من أريكته، أدرك رازوميخين فجأة أن رفيقه مريض فقال له:

– هيئتك تدل على أنك مريض جداً. هل تعلم هذا؟ وجسّ نبضه، فسحب راسكولنيكوف يده بحركة حادة، وقال له:

– لا داعي إلى ذلك. لقد جئت... إليك السببَ الذي دفعني إلى المجيء: فقدت جميع الدروس التي كنت أعطيها... أود أن أحصل... ولو على... لكن لا داعي إلى ذلك... أصبحت في غير حاجة إلى دروس...

قال رازوميخين وهو يتفرس فيه بانتباه:

– أنت تهذي! أتدري؟

– لا... لست أهذي!

قال راسكولنيكوف ذلك ونهض عن الأريكة. إنه حين صعد إلى رازوميخين لم يخطر بباله أنه سيكون عليه أن يراه وجهاً لوجه. وها هو ذا يدرك الآن على حين فجأة أنه لا شيء يضايقه أكثر مما يضايقه أن يرى الأن أي إنسان من الناس وجهاً لوجه. إن كل ما في نفسه من بغض قد ثار الآن ولقد أوشك أن يختنق غضبًا من نفسه منذ أن اجتاز عتبة بيت رازوميخين.

قال فجأة:

– وداعاً!

واتجه نحو الباب.

– ولكن انتظر! انتظر، يا لك من غريب!

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يسحب يده من جديد:

– لا داعي!

سأله رازوميخين:

– فلماذا جئت إذاً؟ أتراك جننت؟ إن في سلوكك هذا ما يشبه أن يكون إهانة لي. لن أدعك تنصرف وأنت على هذه الحال.

– إذن فاسمع! لقد جئت إليك لأنني لا أعرف أحداً غيرك يمكن أن يساعدني أن أبدأ... نعم جئت إليك لأنك أفضل منهم جميعاً، لأنك أذكى منهم جميعاً، ولأنك حصيف الرأي سديد الحكم. ولكنني أرى الآن أنني لست في حاجة إلى شيء. هل تسمع؟ لست في حاجة إلى شيء إطلاقاً... لا إلى خدمات أحد ولا إلى عطف أحد... سأدبر أموري... بنفسي، وحدي. نعم... يكفي هذا. دعوني وشأني أنتم جميعا!

– ولكن انتظر لحظة يا سخيف! أنت مجنون، مجنون تماماً! اعمل ما تشاء! ولكن اسمع قليلاً: أما الدروس فأنا نفسي لا أعطي الآن دروساً، لا ولا أكترث بالدروس! غير أن عندي في السوق صاحب مكتبة اسمه خيروفيموف، هو في رأيي خير درس، ولو ساومني تجار على أن أعدل عنه في مقابل خمسة دروس لما فعلت! إنه ينشر كتبا عن العلوم الطبيعية! لا تستطيع أن تتخيل مدى رواج هذا النوع من الكتب. إن الناس يتخاطفونها تخاطفاً! العناوين وحدها تساوي وزنها ذهباً! أنت تدعي دائماً أنني غبي، فاعلم يا عزيزي أن هنالك أناساً أغبى مني، أقسم لك على ذلك! لقد أخذ هو أيضاً يجاري التيار، ويتبع الاتجاهات الجديدة[٣٨]. إنه شخصياً لا يفهم شيئاً البتة، ولكنني أشجعه طبعاً على السير في هذه الطريق. انظر عندي ما يزيد عن الملزمتين المطبوعتين باللغة الألمانية. في رأيي أن الكلام الذي تضمانه ليس إلا دجلاً وشعوذة. إن الكاتب يطرح هذا السؤال: هل المرأة إنسان أم أنها ليست إنساناً. وقد انتهى إلى أن يبرهن بفخامة وجلال على أن المرأة إنسان... إن خيروفيموف يهيئ هذه الأشياء لعلاقتها بقضية المرأة التي تُناقش كثيراً هذه الأيام، وأنا أتولى الترجمة... وسوف نطيل النص الألماني الذي يتألف من ملزمتين ونصف ملزمة فنجعله

[٣٨] ... لقد أخذ هو أيضاً يجاري التيار ويتبع الاتجاهات الجديدة... كان وصف «الكتاب ذوو الاتجاهات» يطلق في ستينات القرن الماضي على الكتاب الذين يطرحون في مؤلفاتهم أفكاراً اجتماعية – سياسية تتسم بالتقدمية في غالب الأحوال.

ست ملازم، ونجعل له عنواناً فخماً يملأ نصف صفحة، ثم نحدد ثمن سعر النسخة الواحدة من الكتاب بخمسين كوبيكاً. طيب! وأنا أتقاضى عن ترجمة الملزمة الواحدة ستة روبلات، أي خمسة عشر روبلاً عن هذا الكتاب ولكنني أخذت منه ستة روبلات سلفة. ومتى انتهينا من هذا الكتاب، فسنترجم كتاباً عن الحيتان. وقد اخترنا من كتاب «الاعترافات» عدداً من النمائم التي سنترجمها أيضًا. لقد قال أحدهم لخيروفيموف إن روسو يشبه رادتشيف[٣٩] وأنا أتحاشى طبعاً أن أعارضه... شيطان يأخذه!. ها نحن إذن نصل إلى الأمر الأساسي: هل تريد أن تترجم الملزمة الثانية من كتاب «هل المرأة إنسان؟» إذا كنت تريد أن تفعل ذلك، فخذ النص على الفور، وخذ مع النص أقلاماً وورقاً – كل كذلك على نفقة الناشر – واقبل هذه الروبلات الثلاثة، فإنني قد تقاضيت سلفة عن ترجمة الملزمة الأولى والملزمة الثانية، فتكون هذه الروبلات الثلاثة من حقك. حتى إذا فرغت من ترجمة ملزمتك، قبضت ثلاثة روبلات أخرى. وإنني لأرجوك خاصة أن لا تتصور أن ما أفعله الآن هو خدمة أقدمها إليك. بالعكس: فإنني ما إن رأيتك داخلاً عليّ حتى قلت لنفسي: سوف يفيدني كثيراً. فأنا أولاً ضعيف في الإملاء، وأنا ثانياً أقرب إلى الضعف في اللغة الألمانية، لذلك تراني في أكثر الأحيان ألفق وأخترع، وأعزي نفسي قائلاً إن النتيجة تكون بذلك أفضل. ولكن من يدري؟ قد لا تجيء النتيجة أفضل بل أسوأ!.. هيه، أتقبل أم لا؟

تناول راسكولنيكوف النص الألماني صامتاً، وأخذ الروبلات الثلاثة أيضاً، ثم خرج وهو ما يزال ساكتاً لا ينطق بكلمة واحدة. وتابعه رازوميخين بنظراته مشدوهاً. ولكن ما إن وصل راسكولنيكوف إلى ناصية الشارع الأول حتى قفل راجعاً على حين فجأة، وصعد ثانية إلى بيت رازوميخين، فبعد أن وضع الملزمة والروبلات الثلاثة على المنضدة، خرج مرة أخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة أيضاً.

---

[٣٩] رادتشيف: كاتب من القرن الثامن عشر، نشر سنة ١٨٧٠ كتابه الشهير «رحلة من سان بطرسبرج إلى موسكو» وهو كتاب عاطفي ثوري، تأثر بالأب رانيال أكثر مما تأثر بجان جاك روسو. وقد صادرت الرقابة الكتاب، ونفي المؤلف إلى سيبيريا.

زأر رازوميخين وقد ثارت ثائرته أخيراً:

– لا شك في أنك مصاب بحمى حارة! ما هذه المهزلة التي تمثّلها؟ أنك تفقدني صوابي. لماذا جئت إليّ إذن أيها الأحمق؟

دمدم راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم:

– لست في حاجة إلى... ترجمة!..

فصرخ رازوميخين يسأله من أعلى:

– أنت في حاجة إلى ماذا إذن؟

تابع راسكولنيكوف هبوطه في صمت.

– اسمع؟ أين تسكن الآن؟

لم يجب راسكولنيكوف.

– شيطان يأخذك!

ولكن راسكولنيكوف كان قد صار في الشارع. وعلى جسر نيقولاي[٤٠]، اضطر أن يثوب إلى رشده مرة أخرى، بسبب حادث مزعج وقع له: لقد هوى حوذي على ظهره بضربة سوط أليمة، لأن راسكولنيكوف لم ينتبه إلى تحذيراته التي كررها ثلاث مرات أو أربعاً فكادت تدوسه خيول العربة. وقد أخرجته هذه الضربة عن طوره، فغضب غضباً بلغ من الشدة أنه صرّ بأسنانه، ووثب إلى الافريز (لقد كان يمشي في وسط الجسر لا حيث يمشي المشاة، لا يدري المرء لماذا!). فانطلقت من حوله الضحكات والتعليقات:

---

[٤٠] «جسر نيقولا»: الجسر الذي يوصل من جزيرة فاسيليفسكي إلى المدينة، قرب قصر الشتاء.

– حصل على جزائه!

– لا بد أنه مجنون، أو محتال!

– حيلة معروفة: يتظاهرون بالسكر ويرتمون عامدين تحت العجلات ليبتزوا تعويضاً!

– من هذا يعيشون يا أصدقائي، هذا مصدر رزقهم...

ولكن في تلك اللحظة التي رأى فيها راسكولنيكوف نفسه قرب الافريز آخذاً بحكّ ظهره، متابعاً بنظرته المشدوهة الحانقة، ابتعاد العربة، أحسّ فجأة بأن أحداً يدس مالاً في يده. نظر فرأى أمامه امرأة متقدمة في السن – لا شك أنها زوجة تاجر – على رأسها قلنسوة من نسيج، وقدماها في حذاءين من الجلد الرقيق، ومعها فتاة تلبس قبعة وتحمل بيدها شمسية خضراء، ولعلها بنتها. قالت له السيدة وهي تدس المال في يده: «خذ هذا يا صاحبي لأجل الله». أخذ راسكولنيكوف الصدقة، وتابعت المرأتان طريقهما. وكانت الصدقة قطعة نقد فضية قيمتها عشرون كوبيكاً. لا شك أنهما ظنتا من زيه الغريب ومظهره الزري أنه شحاذ محترف. أما العشرون كوبيكاً – وهي مبلغ ضخم بالقياس إلى صدقة – فأغلب الظن أنهما أنعمتا بها عليه بسبب ضربة السوط التي أثارت شفقتهما.

قبض راسكولنيكوف على قطعة النقد بيده، وسار عشر خطوات، ثم التفت يواجه نهر نيفا في اتجاه «القصر». كانت السماء صافية لا يعكرها سحاب، وكان الماء أزرق اللون تقريباً. وذلك ما لا يتفق إلا في القليل النادر. وكانت قبة الكاتدرائية[1]، التي لا تبرز هذا البروز إلا حين يُنظر إليها من هذا المكان من الجسر على بعد عشرين خطوة تقريبا من برج صلاة صغير، كانت متألقة ساطعة، وكان الناظر إليها يستطيع، بفضل شفافية الهواء، أن يميز أدق زخارفها. هدأ ألم راسكولنيكوف، ونسي ضربة السوط التي

[1] هي كاتدرائية القديس إسحاق الكبرى، الواقعة في وسط المدينة.

هوى بها الحوذي عل ظهره. إن فكرة مقلقة مضطربة تشغل الآن ذهنه كله. حدّق ملياً إلى هذه الأماكن التي كانت مألوفة له. لقد حدث له في الماضي، حين كان ما يزال يتردد إلى الجامعة[٤٢]، حدث له مراراً كثيرة قد تُعدّ بالمئات، ولا سيما أثناء عودته إلى بيته، أن وقف في هذا المكان نفسه، فأخذ يتأمل المشهد الرائع، فكان يدهش دائماً من الأثر المبهم الذي يحدثه هذا المشهد في نفسه. لقد كان هذا المشهد الفخم يبدو له دائما خاليا من الروح، يبدو له أخرس عقيماً بارداً بروداً غريباً... وكان راسكولنيكوف يدهش في كل مرة من الإحساس القاتم الملغز الذي يشعر به، وكان لشكّه في نفسه يرجئ دائماً شرح أسباب ذلك لنفسه. وقد تذكر الآن فجأة، بدقة حادة، جميع المسائل التي هاجمته وحاصرته، فبدا له أنه لا يتذكر هذا كله مصادفة. إن مجرد توقفه في هذا المكان نفسه الذي كان يتوقف فيه سابقاً قد بدا له غريباً شاذاً. أكان يظن حقاً أنه ما يزال يستطيع أن يفكر في نفس الأمور وأن يهتم بنفس المشاهد وأن يُعنى بنفس الموضوعات التي كانت تستهويه في الماضي... وفي الآونة الأخيرة أيضاً. أوشك راسكولنيكوف أن ينفجر ضاحكاً. ولكن قلبه قد انقبض في الوقت نفسه انقباضاً يبلغ درجة العذاب. بدا له أن ماضيه كله، وأفكاره كلها، وجميع المسائل والعواطف التي كان يعالجها في الماضي، وهذا المشهد نفسه، وهو ذاته، وكل شيء... كل شيء يرقد الآن في أسفل، تحت قدميه، في قرارة هوةٍ سحيقة لا نهاية لها... كان يبدو له أنه يطير إلى مكان ما في الأعالي وأن كل شيء يختفي ويزول ويغيب... نعم، كل شيء وعلى إثر حركة غير إرادية من يده أحسّ بقطعة النقد الفضية مشدودة بقبضته، فبسط يده وتأمل قطعة النقد ملياً، ثم رماها في الماء بحركة يسيرة، واستدار على عقبيه وعاد يسير في طريق بيته. كان يحس في تلك اللحظة كما لو أنه قطع بالمقص كل صلة بينه وبين العالم.

---

[٤٢] تقع الجامعة في أول جزيرة فاسيليفسكي.

ولم يرجع إلى بيته إلا عند هبوط الليل، أي أنه ظل يسير ست ساعات كاملة. ولو سألته عن الطرق التي سلكها لما استطاع أن يجيبك بشيء. خلع ثيابه وهو يرتجف ارتجاف حصان عاجز، ثم استلقى على الأريكة، وغطى نفسه بمعطفه، فلم يلبث أن غاب عن شعوره..

وأفاق في وسط ظلام كامل، حين أيقظته صرخة كريهة. ما هذه الصرخة يا رب! لم يسبق له في يوم من الأيام أن سمع جلبة رهيبة بشعة إلى هذا الحد: عويل، ونشيج، وصريف أسنان، وصرخات، وشتائم لا يتصورها العقل! ما كان له أن يتخيل همجية كهذه الهمجية، ووحشية كهذه الوحشية! انتصب على أريكته مروّعاً مهدود القلب. ولكن التشاجر والصخب والشتائم ما تنفك تقوى وتشتد. وها هو ذا يتعرف صوت صاحبة البيت فجأة، فيصاب بدهشة كبيرة وذهول شديد. كانت تعول وتئن وتصيت وتتضرع، وتشوه الألفاظ من فرط سرعتها حتى ليستحيل على المرء أن يدرك جملة واحدة من كلامها. لعلها كانت تبتهل إلى من يضربها أن يكف عن ضربها، ذلك أن أحداً كان يضربها على السلم، نعم... إن أحداً يضربها هنالك ضرباً مبرّحاً بلا شفقة ولا رحمة. وهذا صوت الرجل الذي يضربها قد بلغ من شدة الغضب والحنق والهول أنه أصبح نوعاً من صراخ أبحّ. كان هذا الرجل يقول كلاماً، ولكن كلامه هو أيضاً كان لا يُفهم من فرط سرعته واختناقه!.. وأخذ راسكولنيكوف يرتجف على حين بغتة: تعرّف صوت الرجل. أنه صوت ايليا بتروفتش. ماذا؟ ايليا بتروفتش هنا، يضرب صاحبة البيت؟ نعم، إنه يضربها بقدمه، ويطرق برأسها درجة السلم: هذا واضح، تدل عليه الضجات والصرخات والضربات، ولا تخطئ في الدلالة عليه. ماذا جرى إذن؟ هل انقلب العالم عاليه سافله؟ وهذا راسكولنيكوف يسمع في جميع الطوابق، من أعلى السلم إلى أدناه، أصوات جمهور من الناس يحتشد صارخاً صائحاً. أناس يصعدون، وأناس ينزلون، والجلبة تزداد، والأبواب تقرقع... وأناس آخرون يهرعون مسرعين. «لماذا؟ لماذا؟ أهذا ممكن؟». كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف وهو يعتقد صادقاً بأنه قد أصبح مجنونا، ولكن لا، إنه ما

يزال يسمع ذلك كله واضحاً كل الوضوح... لا بد إذاً أنهم آتون إليه أيضاً، «لأن... نعم... لأن كل شيء يرجع... إلى أنني... بالأمس... قد.. رباه!». أراد أن يغلق الباب بالكلابة، ولكن يده رفضت أن تطيعه، ولو قد أغلق الباب بالكلابة لما أجداه ذلك شيئاً من جهة أخرى. لقد كان الخوف يطوّق نفسه كدرع من جليد، ويعذبه ويشله... ولكن ها هي ذي الجلبة كلها تهدأ رويداً رويداً بعد أن دامت عشر دقائق طويلة... إن صاحبة البيت تئن الآن وتتأوه. أما إيليا بتروفتش فاستمر يهدّد ويتوعد ويشتم... وبدا أخيراً أنه هدأ هو أيضاً، ثم أصبح صوته لا يسمع البتة. «أتراه انصرف؟ يا رب!». نعم، لقد انصرف. وهذه صاحبة البيت تنصرف أيضاً وهي ما تزال تئن وتبكي. هذا بابها يُغلق مقرقعاً... هؤلاء هم الناس يتفرقون جميعا فيعود كل منهم إلى مسكنه... إنهم يتأوهون ويتناقشون ويستوضحون تارةً بأصوات قوية جداً (توشك أن تكون صراخاً) وتارة بأصوات خافتة جداً (توشك أن تكون همسا)... لا شك أن عددهم كبير جداً يكاد يضم جميع سكان المنزل. تساءل راسكولنيكوف: «رباه! أهذا كله ممكن؟ ولماذا، لماذا جاء إلى هنا؟»

تهالك راسكولنيكوف مهدود القوى على أريكته من جديد، ولكن جفنه لم يعرف إلى الغمض سبيلا بعد ذلك. ولبث راقدا هذا الرقاد مدة نصف ساعة وهو يعاني عذاباً ورعباً أكبر من كل ما عرف في حياته من عذاب ورعب. وهذا ضياء شديد ينير غرفته فجأة. لقد دخلت عليه ناستاسيا مع شمعة وطبق حساء. فلما نظرت إليه ملياً وعرفت أنه ليس نائماً، وضعت الشمعة على المنضدة، وأخذت ترتب على المائدة ما كانت تحمله إليه: خبزاً، وملحاً، وصحناً، وملعقة.

قالت:

– لم تأكل شيئاً منذ أمس! ظللت تتسكع هنا وهناك طوال النهار، وهذه حمى شديدة تنتابك الآن!

قال راسكولنيكوف لناستاسيا:

– ناستاسيا، لماذا ضربوا صاحبة البيت؟

فأجابته وهي تنظر إليه ملياً:

– من ضرب صاحبة البيت؟

– منذ قليل، منذ نصف ساعة... ضربها ايليا بتروفتش مساعد مفوض الشرطة، هنا، في السلم... لماذا ضربها هذا الضرب؟.. ولماذا جاء؟..

تفرست فيه ناستاسيا صامتة مقطبة مدة طويلة. لقد آلمه هذا، ثم شعر بخوف.

سألها راسكولنيكوف وجلاً، بصوت واهن:

– ناستاسيا، لماذا تصمتين؟

فقالت تجيبه بعد لحظة بصوت خافت كأنها تكلم نفسها:

– هو الدم.

– الدم؟ أي دم؟

كذلك تمتم وقد اصفر وجهه وأخذ يقهقر فيلتصق بالحائط. ما تزال ناستاسيا تنظر إليه صامتة. ثم قالت بعد لحظة بلهجة قاسية واثقة:

– لم يضرب أحد صاحبة البيت.

فنظر إليها وهو لا يكاد يتنفس، وقال لها بمزيد من الوجل:

– سمعت الجلبة بنفسي... لم أكن نائماً... جلست هنا... وسمعت... جاء مساعد مفوض الشرطة... وخرج الجميع من شققهم... وهرعوا إلى السلم...

– لم يجئ أحد. الدم هو الذي يصرخ فيك. حين لا يجد الدم مخرجاً فيأخذ يتخثر ويسدّ الكبد، تتراءى للمرء عندئذ رؤى... أتريد أن تأكل أم لا؟

لم يجب راسكولنيكوف. وظلت ناستاسيا واقفة إلى جانبه، لا تتكلم، وما تزال تتفرس فيه.

– اسقيني يا ناستاسينكا...

نزلت ناستاسيا، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل جرة صغيرة من الفخار الأبيض فيها ماء. لا يتذكر راسكولنيكوف ما جرى بعد ذلك. كل ما يتذكره هو أنه شرب جرعة من ماء بارد، وأنه قلب ماء الجرة على صدره. ثم أغمي عليه.

الفصل الثالث

ولكنه لم يفقد وعيه كله طوال مدة مرضه. كان يعاني حالة حمى مصحوبة بهذيان، ولكن هذه الحالة قد تركت له نصف وعيي وقد تذكر بعد ذلك أشياء كثيرة. كان يتراءى له تارة أن أناساً كثيرين قد احتشدوا حوله، وأنهم يريدون أن يأخذوه، أن ينقلوه إلى مكان ما، وأنهم يتناقشون ويختلفون في أمره. وكان تارة أخرى يجد نفسه وحيدا في غرفته على حين فجأة: فقد ذهب الناس جميعاً لأنهم خافوا منه، فهم يشقون الباب من حين إلى حين لينظروا اليه، وليهددوه، وهم يتآمرون عليه، ويضحكون منه، ويزدرونه، ويستفزونه. وقد تذكر راسكولنيكوف أنه رأى ناستاسيا ساهرة عليه قرب سريره مراراً. واستطاع كذلك أن يميز رجلاً لا بد أنه كان يعرفه جيداً، ولكنه لا يملك أن يقول من هو هذا الرجل على وجه التحديد. وكان ذلك يحزنه ويؤلمه، حتى لقد كان يبكي. وكان يتراءى له في بعض الأحيان أنه راقد في سريره منذ شهر، وكان يتراءى له في أحيان أخرى أن هذه المدة كلها يوم واحد يتصل ويستمر. ولكن ما باله نسي ذلك الأمر، ما باله نسي ذلك الأمر نسياناً تاماً! على أنه كان يتذكر في كل لحظة أنه قد نسي شيئاً لا يجوز له أن ينساه. وكان عندئذ يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يتذكر، ويتعذب ويئن، ثم إذا هو يستولي عليه حنق مسعور أو يستبد به ذعر شديد، فينهض عن أريكته، ويحاول أن يهرب، غير أن أحد الناس يمنعه من ذلك بالقوة، فيهوي إلى ضعفه من جديد، ويغيب عنه شعوره مرة أخرى. ثم عاد إليه وعيه تماماً.

حدث ذلك في الساعة العاشرة من أحد الأصباح. كانت الشمس في مثل تلك الساعة من أيام الصحو يسقط منها شعاع طويل على الجدار الأيمن من غرفته، ويضيء الركن القريب من الباب. هذه ناستاسيا واقفة قرب سريره، وهذا شخص آخر يتفرس فيه بكثير من الاستطلاع، رجل لا يتذكر راسكولنيكوف أنه رآه قبل اليوم قط. هو فتى يرتدي قفطاناً، وله لحية صغيرة، وتدل هيئته على أنه مستخدم في محل تجاري. ومن خلال الباب المشقوق، تنظر صاحبة البيت.

رفع راسكولنيكوف جسمه قليلاً، وسأل وهو يومئ إلى الشاب:

– من هذا يا ناستاسيا؟

قالت ناستاسيا:

– صحا من غيبوبته!

فأمّن المستخدم على كلامها قائلاً:

– نعم، صحا!

وفهمت صاحبة البيت التي كانت تنظر من خلال شق الباب، أن راسكولنيكوف صحا من غيبوبته، فأغلقت الباب مسرعة وغابت. إن هذه المرأة كانت دائماً خجولة، لا تطيق النقاش والعتاب. هي في نحو الأربعين من عمرها، لها حاجبان سوداوان، وعينان سوداوان، وهي بدينة سمينة، وطيبة بسبب هذه السمنة، وبسبب كسلها أيضاً، وإنها لتمتاز بكثير من البشاشة على كل حال، ولكنها مفرطة في العفة.

عاد راسكولنيكوف يسأل من جديد، وهو يتجه بسؤاله إلى المستخدم رأساً:

– من... أنت؟

ولكن الباب فُتح في تلك اللحظة واسعاً، ودخل رازوميخين منحنياً بسبب طول قامته. وهتف يقول وهو يدخل:

– مسكنك هذا يشبه أن يكون حجرة في سفينة. أهذا مسكن؟ لا يدخله المرء مرة إلا ويصطدم جبينه! إذاً لقد أفقت من غيبوبتك يا صاحبي، هه؟ لقد أعلمتني باشنكا[٤٣] منذ هنيهة أنك أفقت..

---

[٤٣] «باشنكا» و«باشا»: تصغير اسم باراسكيفا، براسكوفيا، تحببًا؛ وبراسكوفيا هذه هي صاحبة البيت الذي يسكن فيه راسكولنيكوف.

قالت ناستاسيا:

– نعم، أفاق الآن.

وردّد المستخدم قائلاً وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

– نعم، أفاق الآن...

سأل رازوميخين وهو يتجه إلى المستخدم فجأة:

– ولكن... من أنت؟ أنا، مثلاً، اسمي فرازوميخين، لا رازوميخين كما اعتاد الناس أن يسموني، بل فرازوميخين... وأنا ابن رجل من السادة النبلاء وهذا هو صاحبي... ولكن، أنت، من أنت؟

– أنا مستخدم في محل التاجر شيلوبايف، وقد جئت هنا لأعمال.

– هلّا تفضلت فجلست على هذا الكرسي!

قال رازوميخين ذلك وجلس على كرسي آخر في الجهة الأخرى من المائدة. وتابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف:

– أحسنت صنعاً يا عزيزي بالصحو من غيبوبتك. فإنك منذ أربعة أيام لم تطعم شيئاً، غير قليل من الشاي جُرّعته بالملعقة. وقد جئتك بزوسيموف مرتين. هل تتذكر زوسيموف؟ فحصك بكثير من الاهتمام والانتباه، ثم قال إنك سليم معافى، إلا من ضربة أصابت رأسك. وأضاف أن الأمر لا يعدو أن يكون انزعاجاً عصبياً بسيطاً مردّه إلى سوء التغذية. فقد كنت في حاجة إلى بيرة وفجل، فلما حُرمت منهما مرضت. ولكنه يؤكد أن ذلك كله سينقضي بسرعة، ستبرأ في القريب على أحسن ما يكون. يا له من رجل لامع، زوسيموف هذا. لقد نجح نجاحاً فائقاً في الطب منذ الآن.

ثم أضاف رازوميخين يخاطب المستخدم من جديد:

– لا نريد أن نؤخرك. هلّا تفضلت فذكرت لنا غرضك من هذه الزيارة!

وتابع يكلم راسكولنيكوف:

– لاحظ يا روديا أن هذه هي المرة الثانية التي يوفد فيها مكتبهم مندوباً. ولكن مندوبهم في المرة الماضية لم يكن هذا الشاب، بل كان رجلا آخر، ومع ذلك الرجل الآخر إنما تباحثنا.

وعاد يسأل المستخدم قائلاً:

– من ذلك الذي جاء في المرة الماضية؟

فأجابه المستخدم:

– لا شك أنك تقصد الذي جاء منذ ثلاثة أيام. أنه الكسي سيميونوفتش. هو يعمل في المحل أيضاً.

– أرى أنه أبرع منك. ما رأيك؟

– نعم، إنه أكثر وقاراً.

– أهنئك! طيب، أكمل!

بدأ المستخدم كلامه مخاطباً راسكولنيكوف مباشرة:

– إليك الموضوع: بواسطة افاناسي إيفانوفيتش فاخروشين الذي أرجو أن تكون قد سمعت عنه، وبطلب من السيدة والدتك، وصلت إلى مكتبنا حوالة مالية لك، فإذا كنت في حالة تمكنك من الفهم، فسوف

أدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلا تلقاها سيميون سيميونوفتش من افاناسي إيفانوفيتش بناءً على طلب من السيدة والدتك. هل أُبلغت هذا الأمر؟

قال راسكولنيكوف حالماً مفكراً:

– نعم، أذكر... فاخروشين...

هتف رازوميخين يقول:

– هل سمعت؟ إنه يعرف التاجر فاخروشين، فكيف لا يكون في حالة تمكنه من الفهم؟ ثم إنني ألاحظ أنك رجل عاقل، فهيّا أكمل حديثك. إنه ليحلو للمرء دائماً أن يسمع أقوال رجل عاقل.

فتابع المستخدم كلامه فقال:

– نعم، إن فاخروشين هذا نفسه. افاناسي إيفانوفيتش فاخروشين، لم يتردد، حين طلبت السيدة والدتك ذلك – وهي التي أوصلت إليك بواسطته، في مرة سابقة، مبلغاً من المال – لم يتردد في هذه المرة أيضاً أن يكتب إلى سيميون سيميونوفتش طالباً منه أن يدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلاً، بانتظار أن يدفع لك أكثر من ذلك في المستقبل.

– يميناً إن قولك «بانتظار أن يدفع لك أكثر من ذلك في المستقبل» هي خير ما خرج من فمك. ولا بأس كذلك في قولك «السيدة والدتك». ما رأيك الآن؟ أهو يملك شعوره كاملاً أم لا؟

– أتمنى ذلك... كل ما أريده هو أن يعطيني إيصالًا صغيراً يشهد باستلامه المبلغ.

– سيكتب لك الإيصال فوراً. ما هذا الذي معك؟ أهو سجل؟

– نعم، سجل.

– هاته. هيا يا روديا! انهض قليلاً. سأسندك. وقّع له اسمك دفعة واحدة. خذ القلم يا صاحبي، لأن حاجتنا إلى المال ماسة، ماسة..

قال راسكولنيكوف وهو يدفع القلم:

– لستُ في حاجة..

– لست في حاجة إلى ماذا؟

– لن أوقّع.

– ولكن كيف يمكن أن... بغير توقيع... يا للعنة!

– لستُ في حاجة إلى مال.

– لست في حاجة إلى مال؟ ألا إنك لتكذب يا عزيزي. أنا شاهد على أنك تكذب.

قال رازوميخين ذلك، والتفت يخاطب الشاب:

– لا تقلق، أرجوك... هو يقول هذا، ولكنه يهذي من جديد. ثم إنه يتفق له أن يهذي في الحالة الطبيعية. أنا أعرفه. وأنت رجل عاقل. ليس علينا إذن إلا أن نرشده، أو قل أن نرشد يده، فيوقع. هيّا، ساعدني!

– يمكنني أن أرجع مرة أخرى.

– لا، لا، لماذا تزعج نفسك مرة أخرى؟ أنت رجل عاقل... هلم يا روديا، لا تؤخر ضيفنا... أنت ترى أنه ينتظر منذ مدة.

قال رازوميخين ذلك وتهيأ، جاداً كل الجد، لأن يقود يد راسكولنيكوف. فقال له راسكولنيكوف:

– دع عنك. سأوقع بنفسي.

وتناول القلم، ووقع.

فدفع له المستخدم المال، وخرج.

– مرحى! والآن يا عزيزي، ستأكل! هه؟

نعم سآكل!..

قال رازوميخين يسأل ناستاسيا التي لبثت هناك طوال تلك المدة:

– هل عندكم حساء؟

– نعم، عندنا حساء من أمس.

– أهو حساء بالرز والبطاطس؟

– بالرز والبطاطس.

– قدّرت ذلك. هاتي الحساء، وأتينا بشاي!

– حالًا!

نظر راسكولنيكوف حواليه مدهوشاً مخبولاً شاعراً بذعر أخرس. لقد قرر أن يصمت وأن ينتظر تتمة الأحداث. قال يحدث نفسه: «يخيل إليّ أنني لا أهذي الآن. يخيل إليّ أن هذا كله واقع وليس أضغاث أحلام!»

وبعد دقيقتين عادت ناستاسيا بالحساء، وأعلنت أن الشاي سيكون مهياً بعد قليل. من أجل الحساء ظهرت ملعقتان وصحنان وجميع أدوات المائدة: وعاء الملح، ووعاء الفلفل، ووعاء الخردل لتطييب المرق، الخ. إن مثل هذا الترتيب الدقيق لم يُراع منذ مدة طويلة. وكان غطاء المائدة نظيفا.

قال رازوميخين:

– لا بأس، يا ناستاسيوشكا، في أن ترسل إلينا براسكوفيا بافلوفنا زجاجتين صغيرتين من البيرة. سوف يسرنا أن نشربهما.

فدمدمت ناستاسيا وهي تمضي لتنفيذ الأوامر:

– إنك لتحبّ المسراتّ!

وكان راسكولنيكوف ما يزال ينظر حواليه زائغ الهيئة مشدود الانتباه. وفي أثناء ذلك الوقت كان رازوميخين الذي جلس إلى جانبه على الأريكة، ينهض رأسه بيده اليسرى، بخراقة كخراقة الدب، ويحمل إلى فمه باليد اليمنى ملعقة من الحساء بعد أن ينفخ عليها عدة مرات حتى لا يحترق بها فم صاحبه. وكان الحساء في الواقع فاترًا غير ساخن. التهم راسكولنيكوف ملعقة أولى، فملعقة ثانية، فملعقة ثالثة، بشراهة ونهم. فلم يلبث رازوميخين أن توقف عن إطعامه قائلاً إن من الواجب أن يُستشار في ذلك زوسيموف أولاً.

ودخلت ناستاسيا تحمل زجاجتي بيرة.

– هل تريد شيئاً من الشاي؟

– نعم.

– هاتي لنا شاياً يا ناستاسيا، فإننا فيما يتعلق بهذا الشراب، أعني الشاي، نستطيع أن نستغني عن وصفات كلية الطب! آ... هذه هي البيرة!

قال رازوميخين ذلك، وعاد إلى كرسيه، وجذب إليه الحساء، واللحم المسلوق، وأخذ يلتهم كل هذا كأنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام. دمدم يقول بمقدار ما يتيح له فمه المملوء لحماً أن يتكلم:

– نعم يا روديا، نعم يا صديقي القديم، على هذا النحو إنما أصبحت آكل الآن كل يوم في منزلكم. إن صاحبة البيت باشنكا هي التي تكرمنا هذا التكريم. إنها تحيطني بكل أنواع العناية والرعاية. طبعاً أنا لا أطلب شيئاً، ولكنني لا أرفض شيئاً كذلك... هذه ناستاسيا وشايُها! هي الريح نفسها في صورة امرأة! هل تريدين شيئاً من البيرة يا ناستاسيا؟

– مهرّج!

– وهل تريدين شيئاً من الشاي؟

– الشاي... لا أرفض الشاي!..

– إذاً صبي لنفسك شيئاً. لا بل انتظري! سأخدمك أنا، بنفسي. اجلسي إلى المائدة.

قال رازوميخين ذلك وأسرع ينهمك في صب الشاي، فملأ فنجاناً ثانياً، ثم ترك غداءه، وعاد يجلس على الديوان. وكما فعل منذ قليل، دسّ يده اليسرى تحت رأس المريض، فأنهضه قليلاً، وأشربه شايه بالملعقة، نافخاً على كل ملعقة بكثير من العناية والاهتمام، كأن سلامة المريض مرهونة بهذا النفخ. وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يقاومه أية مقاومة، رغم شعوره بأنه يملك من القوة ما يكفيه لأن ينهض جسمه، ولأن يبقى جالساً بغير مساعدة من أحد، بل ولأن يستعمل يديه أيضاً ليأخذ ملعقة أو فنجاناً، حتى لقد مضى إلى حد الاعتقاد أن في وسعه أن يمشي إذا شاء. ولكنه بنوع من مكر غريب، مكر يكاد

يكون غريزياً، خطر بباله فجأة أن يخفي قواه، بل وأن يتظاهر بغيبوبة تامة إذا لزم الأمر، من أجل أن يتجسس خلال ذلك على ما يجري حوله. غير أنه لم يستطع أن يتغلب على اشمئزازه: فبعد أن ابتلع نحو عشر ملاعق من الشاي، سلّ رأسه، ودفع الملعقة بنزوة طارئة، وتهالك على الوسادة، إن رأسه يستريح الآن على وسادات حقيقية من ريش، تجللها أغطية نظيفة، وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك وأدركه.

أعلن رازوميخين وهو يعود إلى مكانه ويهجم على حسائه وبيرته من جديد:

– يجب على باشنكا أن ترسل إلينا في هذا اليوم نفسه شيئاً من مربّب التوت نصنع منه لمريضنا شراباً.

قالت ناستاسيا التي كانت تبسط صحن فنجانها على أصابعها الخمس المتباعدة، وترشف شايها فيرشح «من خلال السكر» في فمها:

– ولكن من أين عساها تأتي الآن بالتوت؟

– التوت يا عزيزتي ستجده عند البقال. هل تعلم يا روديا؟ لقد جرت هنا قصة لا تعرف عنها شيئًا! حين هربت من عندي هروب وغد من الأوغاد، دون أن تذكر لي عنوانك، غضبتُ غضباً بلغ من الشدة أنني قررت فوراً أن أعثر عليك... وأن أعاقبك! وأخذت في ذلك اليوم نفسه أبحث عنك... يمكن أن يقال نني ركضت وأزعجت الناس جميعاً لأهتدي إليك... كنت قد نسيت عنوانك الحالي، أو قل إنني ما نسيته لأنني ما كنت أعرفه أصلاً. أما مسكنك القديم، فإن كل ما كنت أذكره عنه هو أنه يقع في مكان ما من «الأركان الخمسة» بعمارة تسمى «عمارة خارلاموف»... والحق أن ذلك السيد، صاحب العمارة، لم يكن اسمه خارلاموف، بل بوخ. فانظر كيف يخطئ المرء بسبب التجانس اللفظي! الخلاصة أنني غضبت غضباً شديداً، غضباً بلغ من الشدة أنني ذهبت من الغد رأساً إلى مكتب تسجيل العناوين: فإذا أنا أعرف منهم عنوانك في غضون دقيقتين. نعم، نعم، إنك مسجل عندهم!

– مسجّل!

– نعم، نعم، مسجل. ومع ذلك لم يستطيعوا أن يعثروا على عنوان الجنرال كوبليف. لست أخترع شيئاً: لقد جرى هذا أمامي. هوه! ما لنا نتوه في التفاصيل!.. على كل حال، ما إن جئت إلى هنا، حتى كنت أعرف جميع شؤونك، نعم، جميع شؤونك! يا صديقي أنا أعرف كل شيء. وناستاسيا شاهدة على ذلك. لقد أروني ايليا بتروفتش، وتعارفت مع نيكوديم فومتش، والبواب، والسيد زاميوتوف، الكسندر جريجوريفتش زاميوتوف، سكرتير قسم شرطة الحي، وعرفت أخيراً باشنكا... باشنكا... إنها زهرة من عرفتهم. ناستاسيا تعرف ذلك.

تمتمت ناستاسيا تقول وهي تضحك ضحكة فيها شيء من مكر:

– عرف كيف يتملقها.

– عليك أن تضعي السكر في فنجانك يا ناستاسيا نيكيفوروفنا!

صاحت ناستاسيا تقول وهي تنفجر ضاحكةً:

– يا للحيوان!

ثم أضافت بعد أن انتهت نوبة الضحك:

– ليس اسمي نيكيفوروفنا بل بتروفنا.

قال لها رازوميخين:

– أُحِطْنا علماً بذلك.

ثم استأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف:

– هكذا يا صاحبي، الخلاصة أنني أردت أن أستعمل سائلاً كهربائياً من أجل أن استأصل، دفعة واحدة، جميع الأوهام المعششة في هذه النواحي. ولكن باشنكا غلبتني. يا صديقي، ما كنت لأتصور في يوم من الأيام أنها جذابة... إلى هذا الحد... هه؟ ما رأيك؟

لم يجب راسكولنيكوف، رغم أنه لم يحول بصره القلق عن رازوميخين في لحظة من اللحظات، ورغم أنه ما يزال يحدّق اليه.

تابع رازوميخين كلامه فقال دون أن يظهر عليه أي استياء من صمت راسكولنيكوف وكأنه يوافق على كلام صاحبه:

– نعم، إنها إنسانة ممتازة من جميع الجهات.

هتفت ناستاسيا تقول من جديد، وقد بدا عليها أن هذه المحادثة تسرها سروراً عظيماً:

– يا له من حيوان!

– المصيبة يا صديقي أنك لم تعرف كيف تتدبر أمرك منذ البداية. إن على المرء أن يتبع في معاملتها طريقة غير طريقتك. إن لها طبعاً... غريبا! سنتكلم عن طبعها فيما بعد. ولكن كيف استطعت أن تفسد أمورك معها إلى الحد الذي انقطعت معه عن ارسال طعامك إليك؟ وما قصة السند تلك؟ أأنت جننت؟ كيف ترضى أن توقّع سندات؟ ومشروع الزواج ذاك، حين كانت ابنتها نتاليا ياجوروفنا ما تزال على قيد الحياة؟ إنني أعلم كل شيء! أنا أدرك أنني هنا أمسّ الوتر الحساس، وأنني حمار. معذرة، معذرة. ولكن قل لي بمناسبة الحماقات ما رأيك: أليست بارسكوفيا بافلوفنا حمقاء إلى الحد الذي قد يفترضه المرء من أول نظرة، أليس كذلك؟

قال راسكولنيكوف بأطراف شفتيه، مشيحاً بوجهه، مدركاً مع ذلك أن استمرار الحديث أفضل:

– نعم...

فهتف رازوميخين وقد أسعده إسعاداً واضحاً أنه حصل على جواب:

– أليس كذلك؟ ولكنها ليست ذكية أيضاً، هه؟ إن لها طبعاً لا يُتوقع أبداً. أنا، بصراحة، يحيرني هذا الطبع يا صاحبي. لا بد أنها في الأربعين من عمرها... هي تقول إنها لم تتجاوز السادسة والثلاثين. هذا حق من حقوقها. على أنني (أحلف لك!) لا أحكم عليها إلا من وجهة النظر الفكرية، من وجهة النظر... الميتافيزيقية وحدها. إن ما يقع بيننا يدخل في نطاق الرمز. هو نوع من علم الجبر يا صاحبي.. لست أفهم من ذلك شيئاً. سخافات كل هذا! ولكنها إذ رأت أنك لم تعد طالباً، وأنك فقدت ما كنت تعطيه من دروس، وأنك أصبحت لا تملك ما تدثر به ظهرك، وأنك غدوت منذ موت آنستها لا تستطيع أن تعدّك عضواً في الأسرة، قد انتابها ذعر. وإذ أنك من جهتك انطويت على نفسك بدلاً من أن تعيش كما كنت تعيش في الماضي، فقد قام في ذهنها أن تطردك. وكانت تفكر في هذا المشروع منذ مدة، ولكن السند كان يقلقها كثيراً، ولما كنت قد أكدت لها أن أمك ستدفع...

– قلت لها ذلك حقارةً مني... إن أمي توشك أن تستجدي أكف الناس... لقد كذبت عليها لأجبرها على أن تحتفظ بي وأن تطعمني...

قال راسكولنيكوف ذلك بصوت عال واضح.

أجابه رازوميخين:

– نعم، ولقد تصرفت عندئذ تصرفاً فيه تعقل وحكمة. ولكن المشكلة هي أنه من تلك اللحظة ظهر السيد تشيباروف، وهو مستشار ورجل من رجال الأعمال، فلولا هذا الرجل لما خطر ببال باشنكا، وهي المرأة الخجول، أن تتخذ أي إجراء. ولكن رجل الأعمال لا يملك هذا الخجل، فكان أول سؤال ألقاه طبعاً

هو هذا السؤال: هل هناك أمل في قبض قيمة السند؟ وكان الجواب بنعم. لأن هناك أماً لها معاش مقداره مائة وخمسة وعشرون روبلاً، فلن تضن على ابنها رودنكا بإخراجه من المأزق ولو اضطرها ذلك إلى حرمان نفسها من الطعام، ولأن هناك أختاً حنوناً سوف ترضى بأن تبيع نفسها عبدة في سبيل إنقاذ أخيها الحبيب. على هذا اعتمد الرجل. ما بالك تضطرب هذا الاضطراب؟ هاأنت ذا ترى يا صاحبي أنني أعرف الآن قصتك، أعرفها من ألفها إلى يائها. لم يذهب سدى ما أفضيت به إلى باشنكا من مسارّات حين كنت ما تزال تعد نفسك من أقربائها بصفة زوج ابنتها المقبل... ولئن كنت أقول لك هذا الكلام، فلأنني صديقك. اسمع إذن ما حدث: حين يسترسل الإنسان الشريف الحسّاس في مسارّات حميمة، فإن رجل الأعمال يجلس إلى منضدته وينهمك في الحساب ليخرج بمنفعة. وهكذا تنازلت باشنكا عن السند لتشيباروف، فلم يتورع تشيباروف هذا عن المطالبة بقيمة السند. وحين علمت أنا بهذا كله، أردت أن أتدخل في الأمر فأرسل سائلي الكهربائي إليه هو أيضاً. ولكن الانسجام قام بيني وبين باشنكا أثناء ذلك، فأوقفت القضية كلها، وقضيت عليها في مهدها، إذ كفلت أن تدفع المبلغ. لقد أصبحت كفيلك يا صاحبي، هل تسمع؟ واستدعينا تشيباروف، فدسسنا في فمه عشرة روبلات، فرد السند الذي يشرفني، يا سيدي، أن أقدمه إليك. لن تطالب بعد الآن بسند، بل ستُصدّق على عهد الشرف وحده. خذ السند. لقد مزقته قليلاً، كما يجب أن أفعل...

وضع رازوميخين السند على المائدة. فألقي راسكولنيكوف عليه نظرة سريعة، ثم التفت إلى جهة الحائط دون أن يقول شيئاً، فاستاء رازوميخين من ذلك، وقال بعد دقيقة:

– أرى يا صاحبي أنني كنت غبياً مرة أخرى. لقد ظننت أنني بثرثراتي سأسرّي عنك وأسليك، وهأنذا ألاحظ الآن أنني لم أزد على أن حركت غضبك!

– أأنت الشخص الذي كنت أثناء هذياني لا أتعرف إليه؟

كذلك سأله راسكولنيكوف بعد أن صمت خلال دقيقة هو أيضاً، ودون أن يلتفت إليه. فأجاب رازوميخين:

– نعم أنا، حتى إن حضوري قد سبب لك بعض نوبات الهياج، ولا سيما حين جئت إليك بزاميوتوف.

فالتفت راسكولنيكوف فجأة بعنف. وحدّق إلى رازوميخين سائلاً:

– زاميوتوف؟ سكرتير مفوض الشرطة؟ لماذا جاء؟

– ولكن ماذا دهاك؟ لماذا تضطرب هذا الاضطراب؟ لقد أراد أن يتعرف إليك... وإنما أراد ذلك لأننا تحدثنا عنك كثيراً. وكيف كان يمكنني، لولاه، أن أعرف هذه الأشياء كلها عنك؟ إنه رجل شهم، رائع... في نوعه طبعاً. ونحن الآن صديقان، نلتقي كل يوم تقريباً. ذلك أنني سكنت في مكان قريب. ألم تعرف ذلك بعد؟ نعم، انتقلت منذ برهة وجيزة. وقد ذهبنا إلى لويزا مرة أو مرتين. أتتذكر لويزا ايفانوفنا؟

– هل كنت أهذي؟

– أظن ذلك! كنت غيرَ نفسك؟

– وماذا كنتُ أقول؟

– ماذا كنت تقول؟ هه... معروف ماذا يمكن أن يقول رجل يهذي. والآن، يا صاحبي، لم يبق لنا وقت نضيعه. إلى العمل!

نهض من الكرسي وتناول قبعته.

– ماذا كنتُ أقول؟

– ما باله يصر؟ أتراه يخشى أن يكون قد فضح سراً من الأسرار؟ لا تقلق إذن. لم يفلت منك كلام في حق السيدة الكونتيسة. ولكنك تكلمت كثيراً عن كلب حراسة من نوع «البولدوج»، وتكلمت عن أقراط إذن، وعن سلاسل ذهبية، وعن جزيرة كريستوفسكي، وعن بواب ما، وتكلمت أيضاً عن نيكوديم فومتش وايليا بتروفتش مساعد مفوّض الشرطة. ثم إنك يا سيدي قد اهتممت اهتماما عظيما بجوربك، فكنت تتوسل أن نسرع ونعطيك جوربك فبادر زاميوتوف بنفسه يبحث لك عنه في كل ركن من الأركان، حتى إذا وجده، حتى إذا وجد تلك القاذورة حملها إليك بيديه، بيديه البيضاوين المعطرتين المجللتين بالخواتم. عندئذ هدأ روعك، ثم ظللت قابضاً بيديك على تلك القاذورة يوماً كاملاً، لا يستطيع أحد أن ينتزعها منك. لا بد أنها ما تزال في مكان ما تحت غطائك! وكنت تطالب أيضاً بقصاصات سروالك، حتى لقد كنت تبكي وأنت تطالب بتلك القصاصات. تساءلنا أية قصاصات تعني، ولكن كان كلامك مشوشاً فلم نفهم منه شيئاً. والآن كفى كلاماً، ولنبادر إلى العمل. هذه خمسة وثلاثون روبلاً. أنني آخذ منها عشرة، وسأعود إليك بالحساب بعد ساعتين. وفى أثناء هذا الوقت أكون قد أبلغت زوسيموف، الذي كان ينبغي أن يكون هنا منذ مدة طويلة، لأن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. وأنت يا ناستاسيا، أرجوك أن تعنى به أثناء غيابي! أعطه ما يشربه، أو أعطه شيئاً آخر إذا هو رغب في ذلك. أما باشنكا فسوف أقول لها فوراً ما يجب قوله. إلى اللقاء!

قالت ناستاسيا عندما خرج:

– إنه يدعوها باشنكا! آه! يا للماكر!

ثم فتحت الباب وأصاخت بسمعها، ثم لم تطلق صبراً فهرولت تهبط. أنها تتحرّق شوقاً إلى معرفة ما قد يقوله رازوميخين لمولاتها. وفي وسعنا أن نقول بوجه عام أنها كانت مفتتنة برازوميخين افتتاناً واضحا.

فما أن أغلقت وراءها الباب حتى رمى المريض غطاءه، ووثب عن السرير كالمجنون. كان قد انتظر خروجهما نافدَ الصبر إلى حد الاحتراق والتشنج، ليباشر العمل بأقصى سرعة. ولكن ما هو هذا العمل الذي يريد أن يقوم به؟ ها هو ذا قد أصبح، كأنما عن عمد، لا يعرف ماذا كان يريد أن يعمل! «رباه! قل لي شيئاً واحداً يا رب: أهم يعرفون أم هم لا يعرفون بعد؟ أهم يعرفون منذ الآن كل شيء ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئاً؟ أكانوا يعبثون بي بينما أنا راقد هنا؟ أتراهم سيدخلون عليّ فجأة ليقولوا إنهم يعرفون كل شيء منذ مدة طويلة، ولكنهم تظاهروا بالجهل عامدين؟.. ما العمل الآن؟ هاأنذا نسيت ما يجب أن أعمله، كأنما قصدت ذلك! هأنذا نسيته مع أنني كنت أتذكره منذ قليل...»

ظل راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة ينظر فيما حوله حائراً حيرة أليمة. ثم اقترب من الباب، ففتحه وأخذ يتنصت، ولكن ليس هذا ما كان يريد أن يعمله. وكأنه تذكر فجأة، فإذا هو يهرع نحو الركن، حيث يوجد ثقب تحت ورق الجدار. أخذ يفتش هنالك بانتباه، وأدخل يده في الثقب يتلمسه، ولكن هذا ليس ما كان يريد أن يعمله أيضاً... فاتجه عندئذ نحو المدفأة، ففتحها، ونبش رمادها، فعثر على قصاصات السروال ومزق الجيب المنتزع كما كانت حين رماها في هذا المكان. إذن لم ينظر أحد في المدفأة. وعندئذ تذكر الجورب الذي جاء رازوميخين على ذكره منذ قليل. إن ما قاله رازوميخين صحيح. إن الجورب موجود تحت الغطاء فعلا، ولكنه بلغ من الاتساخ ومن الاهتراء بالحك أن زاميوتوف لا يمكن أن يكون قد لاحظ فيه شيئاً البتة.

«نعم! زاميوتوف!.. قسم الشرطة! ولكن لماذا استدعي إلى قسم الشرطة؟ أين كتاب الاستدعاء؟ هوه! إنني أخلط! لقد استُدعيت إلى قسم الشرطة في يوم ماض! وكنت حينذاك أدقق النظر في الجورب. والآن... والآن... لقد كنت مريضاً... لماذا جاء زاميوتوف إلى هنا؟ لماذا أتى به رازوميخين إلى بيتي؟»

بهذا تمتم راسكولنيكوف مهدود القوى، وهو يعود إلى الجلوس على سريره. وتابع حديثه لنفسه:

«ماذا يجري؟ أنا ما أزال أهذي أم أن هذا كله الآن واقع لا شأن له بأخيلة الهذيان؟ يبدو لي أن هذا كله الآن واقع... آ... تذكرت: أهرب، يجب أن أهرب بأقصى سرعة، يجب أن أهرب حتماً. نعم، ولكن إلى أين؟ وأين ثيابي؟ أين حذائي. لقد أخذوها... لقد أخفوها عني! فهمت آ... هذا معطفي... لقد نسوه! وهذا هو المال على المائدة! الحمد لله! وهذا هو السند... سآخذ المال وأهرب. سأستأجر بيتاً آخر، ولن يعثروا علي! نعم، ولكن مكتب العناوين... آه... سيكتشفونني! سيكتشفني رازوميخين! الأفضل مع ذلك أن أهرب.. أن أهرب إلى مكان بعيد، إلى أمريكا، ثم أبصق عليهم... ويجب أن آخذ السند أيضاً... فقد ينفعني هناك... ماذا آخذ أيضاً؟ هم يعتقدون أنني مريض! لا يخطر ببالهم أن في إمكاني أن أمشي... هأ هأ هأ! قرأت في أعينهم أنهم يعرفون كل شيء! المهم أن أستطيع الهبوط على السلم! ولكن ماذا لو كانوا قد وضعوا حراساً يحرسون العمارة! ماذا لو كان يوجد شرطة تحت؟ ما هذا؟ شاي؟ آ... ما تزال بقية من بيرة، نصف زجاجة، باردة تماماً!»

أمسك الزجاجة التي كان قد بقي فيها ما يملأ كأساً كبيرة، فأفرغها في جوفه دفعة واحدة، متلذذاً، كأنما ليطفئ النار التي تحرق صدره. ولكن قبل أن تنقضي دقيقة واحدة، كانت البيرة قد صعدت إلى رأسه، فإذا برعدة خفيفة تسري في ظهره، رعدة توشك أن تكون لذيذة، فاستلقى على سريره وسحب الغطاء يدثر به جسمه. أخذت أفكاره المحمومة المضطربة تغلي مزيداً من الغليان، وسرعان ما استولى عليه نعاس لطيف. فاهتدى إلى مكان رأسه على الوسادة متلذذاً، وتدثر مزيداً من التدثر بالغطاء الرخو المحشو بالقطن الذي يقوم الآن مقام معطفه الممزق، وزفر زفرة خفيفة، ثم نام نوماً عميقاً مريحاً.

واستيقظ حين سمع أحدهم يدخل عليه، ففتح عينيه، ليرى رازوميخين. كان رازوميخين قد فتح الباب واسعاً، ووقف على العتبة متسائلاً أيدخل أم لا يدخل. أسرع راسكولنيكوف ينهض عن سريره جالساً، ونظر إلى صاحبه نظرة من يحاول أن يتذكر شيئاً ما.

قال رازوميخين:

– هه... أنت غير نائم؟

ثم صرخ ينادي ناستاسيا في السلم قائلاً:

– ناستاسيا، هاتي الصرة!

وعاد يقول لراسكولنيكوف:

– سأقدم إليك الحساب فوراً.

سأل راسكولنيكوف وهو يلقي على ما حوله نظرة قلقة:

– كم الساعة الآن؟

– يمكننا أن نقول، أيها الأخ العزيز، إنك غير محروم من النوم. لقد حان المساء. لا بد أن الساعة غير بعيدة عن السادسة. معنى ذلك أنك نمت ست ساعات أو أكثر...

– رباه! كيف أمكن أن...

– ماذا؟ إنك قد أحسنت صنعاً. ما أحسب أنك مستعجل! ما أحسب أنك مرتبط بموعد! أليس كذلك؟ نحن نملك إذن وقتنا. إنني منذ ثلاث ساعات أنتظر أن تفيق من نومك. جئت إليك مرتين، ولكنك كنت ما تزال نائماً. وقد ذهبت مرتين أيضاً إلى زوسيموف. ولكنني لم أجده. لا ضير! سوف يجيء... ثم إنني قد تغيبت لأمور شخصية صغيرة. أنت تعلم أنني قد انتقلت اليوم من مسكني، انتقلت منه مع عمي... إن لي عما الآن. ولكن دعنا من هذا كله... سحقا لهذا كله! هاتي الصرة يا ناستاسيا. سوف... فوراً... وكيف صحتك الآن يا صاحبي؟

قال راسكولنيكوف:

– صحتي حسنة. أبللت من المرض. أأنت هنا منذ مدة طويلة؟

– قلت لك إنني أنتظرك منذ ثلاث ساعات.

– نعم، ولكن... قبل ذلك؟

– قبل ماذا؟

– منذ متى تأتي إلى هنا؟

– ألم أقصص عليك ذلك؟ ألا تذكر؟

شرد فكر راسكولنيكوف. إن ما جرى في هذه الفترة يبدو له حلماً. كان عاجزاً عن أن يتذكر أي شيء بنفسه، وألقى على رازوميخين نظرة مستفسرة.

قال رازوميخين:

– آ... إذن نسيت! لقد بدا لي في الصباح أن عقلك... أما الآن فقد ساعدك النوم وشفاك. حقاً إن هيئتك الآن أفضل كثيراً مما كانت. مرحى! إلى العمل إذن! وسوف تتذكر فوراً! انظر إلى هنا، أيها السيد العزيز!

وأخذ رازوميخين يفضل صرته التي كان يبدو أنه يوليها أكبر اهتمام.

– نعم يا عزيزي، هذا أمر يهمني كثيراً، ذلك أن عليّ أن أجعلك رجلاً. هيا بنا! لنبدأ من فوق.

ثم قال وهو يسحب من الصرة قبعة جميلة وإن تكن من طراز عادي بخس الثمن:

– هل ترى هذه القبعة؟ سأجربها عليك، أتسمح بذلك؟

قال راسكولنيكوف وهو يدفعه عنه باستياء:

– ليس الآن... بل وفي وقت آخر..

– لا سبيل إلى التملص يا صاحبي. لا تصرّ! في وقت آخر يكون الوقت قد فات. لن أنام الليل إذا لم أجرّبها عليك، ذلك أنني اشتريتها كيفما اتفق، دون أن أعرف قياس رأسك.

وألبسه القبعة ثم قال بلهجة المنتصر:

– إنها تناسبك... تناسبك كثيراً، لكأنها فصّلت لك. لباس الرأس يا عزيزي أهم جزء من أجزاء اللباس، فهو الذي يحدد مكانتك في المجتمع. إن تولستياكوف، وهو صديق قديم لي، يضطر إلى خلع قبعته الرديئة كلما ظهر في مكان عام يحتفظ فيه الآخرون بقبعاتهم على رؤوسهم، والناس يردون ذلك إلى مشاعر الاحترام مع أن الأمر لا يعدو أنه أحسّ بالخجل من قبعته الرديئة التي تشبه أن تكون عش عصفور. نعم، تلك هي أسباب حياء هذا الرجل! انظري يا ناستاسيا، أنظري إلى هاتين القبعتين: انظري إلى قبعة بالمرستون هذه (قال ذلك ومضى يأتي من أحد الأركان بقبعة راسكولنيكوف المدوّرة المشوّهة، التي لا يدري أحد لماذا سماها قبعة بالمرستون[44]، ثم انظري إلى هذه الآية من آيات فن صنع القبّعات، واحزر كم دفعت ثمنها؟ ما رأيك؟ وما رأيك أنت يا ناستاسيا، (لقد التفت رازوميخين إلى الخادمة يسألها، حين رأى راسكولنيكوف صامتاً لا يجيب).

قالت ناستاسيا تجيب عن سؤاله:

– عشرين كوبيكاً على الأقل!

---

[44] كان اللورد بالمرستون قد مات منذ مدة قصيرة، سنة ١٨٦٥، وقد سُمّي باسمه معطف ذو شكل خاص، كما يوجد معطف سُمّي باسم لورد رجلان.

فهتف يقول مستاء:

– عشرين كوبيكاً يا غبية، يا حمقاء؟ بعشرين كوبيكاً لا يمكن شراؤك أنت في هذه الأيام! لقد دفعت ثمانين كوبيكاً، ولم يكن ثمنها قليلاً هذه القلة إلا لأنها مستعملة. ثم إنني اشتريتها على شرط: أن في وسعك أن تذهبي إلى البائع في السنة القادمة، متى اهترأت هذه القبعة، فإذا هو يبدلها لك بقبعة جديدة مجاناً، أحلف لك!.. والآن هلموا إلى الولايات المتحدة الأمريكية[٥٥]، كما كنا نسميها في المدرسة. ولكنني أنبّهك قبل كل شيء إلى أنني معتز جداً بهذا السروال (قال ذلك وبسط أمام راسكولنيكوف سروالًا رمادياً من نسيج صيفي خفيف): لا ثقب فيه، ولا بقعة، هو إذن، رغم أنه لُبس من قبل، سروال جيد، ناهيك عن الصدرية التي تناسبه على نحو ما توجب الموضة. أما أنه لبس من قبل، فتلك مزية، فلقد أصبح بذلك أكثر ليونة وأشد مرونة. اسمع يا روديا: لكي ينجح المرء في الحياة، يكفيه في رأيي أن يراعي الفصول: إذا لم تطالب بهليون في شهر كانون الثاني، فسيبقى لك دائما بضعة روبلات في حافظة نقودك. ونفس الشيء يمكن القول عن هذا السروال. نحن الآن في منتصف فصل الصيف، لذلك اشتريت سروالًا صيفياً. صحيح أنك ستحتاج في فصل الخريف إلى قماش يضمن لك مزيداً من الدفء، وسيكون عليك أن ترمي هذه الملابس، لا سيما وأنها ستكون قد بليت، بسبب إهمالك طبعاً... ولكن فلنعد إلى سؤالنا: أحزر كما دفعت ثمن هذا السروال! روبلين وخمسة وعشرين كوبيكاً! لاحظ أنني اشتريته على ذلك الشرط نفسه الذي اشترطته في شراء القبعة: إن من حقك أن تستبدل به سروالاً بالمجان متى اهترأ. فعلى هذا النحو إنما تتم الصفقات في دكان فديايف: يدفع المشتري مرة واحدة إلى الأبد، لأنه لن يضع قدميه مرة أخرى في هذا الدكان قط. ولننتقل الآن إلى الحذاءين. كيف تجدهما؟ واضح أنهما مستعملان، ولكنهما ما يزالان

[٥٥] الولايات المتحدة الأمريكية، تعني هنا السراويل (البنطلون)، وهذا قائم على لعب بالتجانس اللفظي بين كلمة «شتاتي» الروسية ومعناها الدولة أو الولاية، وبين كلمة «شتاني» ومعناها السروال.

يصلحان خلال شهرين، فهذه بضاعة أجنبية: إن سكرتير سفارة إنجلترا قد باعهما في الأسبوع الماضي. لم يكن قد أنتعلهما إلا ستة أيام، ولكنه كان في حاجة ماسة إلى المال. الثمن: روبل وخمسون كوبيكاً. صفقة رابحة، أليس كذلك؟

قالت ناستاسيا:

– ولكنهما قد لا يكونان على قياس قدميه!

– قد لا يكونان على قياس قدميه؟ وهذا الذي أخذته معي!

قال رازوميخين ذلك واستل من جيبه حذاء قديماً مهترئاً مثقباً متسخاً بوحل جاف هو أحد أحذية راسكولنيكوف. ثم أردف:

– لقد اتخذت الاحتياطات اللازمة! ماذا تظنين؟ عرفنا قياس قدميه من قياس هذا الحذاء العجيب! نعم لقد جرت الأمور كلها بدقة تامة وعناية محكمة. أما الملابس الداخلية فقد تفاهمت بشأنها مع صاحبة البيت. إليك ثلاثة قمصان من نسيج سميك، ولكن صدرها على آخر موضة. لنحسب الآن التكاليف كلها. قبعة: ثمانون كوبيكاً، ملابس أخرى: روبلان وخمسة وعشرون كوبيكاً، المجموع: ثلاثة روبلات وخمسة كوبيكات، الحذاءان: روبل وخمسون كوبيكاً، لأنهما في حالة جيدة، جداً. المجموع: أربع روبلات وخمسة وخمسون كوبيكاً، الملابس الداخلية، جملة واحدة، خمسة روبلات. المجموع: تسعة روبلات وخمسة وخمسون كوبيكاً. الباقي: خمسة وأربعون كوبيكاً، نقوداً نحاسية من فئة الخمسة كوبيكات. إليك هي. خذها. هكذا يا روديا تكون قد «تهندمت» الآن، لأن معطفك برأيي ما يزال قابلاً للاستعمال، حتى إنه لا يخلو من وجاهة. أرأيت قيمة اختيار المرء ملابسه من محلات شارمر![٤٦] أما الجوارب وما إلى ذلك، فإنني

[٤٦] «شارمر» خياط على الموضة بطرسبرج في الستينات من القرن الماضي.

أترك لك أمر الاهتمام بها. وأما المال فما زلنا نملك منه خمسة وعشرين روبلا. وليس عليك بعد الآن أن يقلقك أجر المسكن. أن باشنكا ستمهلك امهالًا غير محدود، كما قلت لك. والآن يا عزيزي، اسمح لي أن أبدل لك قميصك لأنني لا أستغرب أن يكون مرضك كله قد تسلل إليك من هنا...

قال راسكولنيكوف بعد أن استمع مشمئزا إلى الكلام المرح الذي تدفق من فم رازوميخين:

– دعني! لا أريد!

قال رازوميخين مصراً:

– لا مناص يا عزيزي! لن يقول أحد أنني أبليت حذاءي في غير طائل!

ثم التفت يقول لناستاسيا:

– هلمي يا ناستاسينكا! لا تستحي ساعديني! نعم.. هكذا...

استطاع رازوميخين وناستاسيا أن يبدّلا قميص راسكولنيكوف، رغم المقاومة التي أبداها. وعاد راسكولنيكوف يتهالك على وسادته، ولزم الصمت خلال دقيقتين قائلاً لنفسه: «سيلبثان مدة طويلة لا يتركاني وشأني» ثم سأل وهو ينظر إلى الجدار:

– بأي مال اشتريت هذه الأشياء كلها؟

فأجابه رازوميخين متعجباً:

– بأي مال؟ عجيب! بمالك أنت. لقد جاء إلى هنا مستخدمٌ من عند فاخروشين يحمل إليك مالاً أرسلته أمك. إلا تتذكر؟

قال راسكولنيكوف بعد تفكير طويل شاق:

– نعم، الآن تذكرت!

فتأمله رازوميخين مقطباً قلقاً.

وفُتح الباب، ودخل رجل طويل القامة قوي البنية. أحسّ راسكولنيكوف أنه سبق أن رأى هذا الرجل.

هتف رازوميخين يقول فرحاً كل الفرح:

– زوسيموف! أخيرا وصل!

الفصل الرابع

زوسيموف رجل طويل القامة، سمين الجسم، ممتلئ الوجه، شاحب اللون، حليق اللحية، يوشك شعره المسبل أن يكون من فرط شقرته أبيض. على عينيه نظارتان، وفي إحدى أصابعه السمينة المنتفخة خاتم كبير من ذهب. أنه في السابعة والعشرين من عمره. يرتدي معطفا أنيقاً واسعا مصنوعاً من نسيج صوفي خفيف، وسروالا صيفيا فاتح اللون، وبوجه عام كان لباسه واسعاً أنيقاً جديداً. أن قميصه الناصع البياض يتألق تألقاً باهراً، وان ساعته تزدان بسلسلة سميكة. أما حركاته فبطيئة بعض البطء، ثقيلة بعض الثقل، رغم أنها ليست خالية من انطلاق مصطنع. هذا إلى أن الادعاء يظهر فيه واضحا كل الوضوح، رغم جميع الجهود التي يبذلها لاخفائه. أن كل الذين عرفوه قد لاحظوا أنه رجل صعب المراس شديد الطبع، ولكنهم يجمعون على أنه يعرف مهنته معرفة طيبة.

هتف رازوميخين يقول له:

– لقد ذهبت إليك مرتين يا صاحبي! ها هو ذا قد أفاق من غيبوبته كما ترى.

قال زوسيموف:

– نعم! نعم!

ثم أردف يسأل وهو يتفرس فيه ويجلس عند قدميه على طرف السرير بغير تحرّج:

– هيه! كيف حالنا الآن؟

قال رازوميخين:

– ما يزال مكتئب المزاج، ولقد كاد يبكي منذ قليل حين بدّلنا له قميصه!

– هذا طبيعي!.. كان يمكنكم أن ترجئوا ذلك إلى حين آخر ما دام يضايقه... النبض جيد. أما زلتَ تشعر بشيء من صداع في رأسك؟

قال راسكولنيكوف حانقاً مصراً:

ــ لا! صحتي حسنة! أنا معافى!

وكان راسكولنيكوف قد نهض على سريره ملتمع العينين متقد النظرات. ولكنه لم يلبث أن تهاوى على الوسادة والتفت نحو الحائط. وكان زوسيموف يراقبه بانتباه فقال بلهجة متثاقلة:

– كل شيء على ما يرام. هل أكل شيئاً؟

ذُكر له ماذا أكل المريض ثم سُئل عما يمكن أن يأكله.

قال الطبيب:

– يمكن إطعامه كل شيء! حساء، شاي... ولكن لا فطر، ولا قثاء طبعاً. وقد لا يناسبه لحم البقر أيضاً. ولكن علام هذا الكلام كله؟ (وتبادل نظرةً مع رازوميخين). ولا حاجة إلى الدواء بعد الآن، لا حاجة إلى شيء بعد الآن. غداً أرى... على أننا نستطيع اليوم في الواقع أن... ولكن...

قال رازوميخين:

– سأصطحبه مساء غد في نزهة. نذهب أولاً إلى حديقة يوسوبوف، ثم نذهب بعد ذلك إلى «قصر الكريستال»[٤٧].

---

[٤٧] «قصر الكريستال»: حانة تقع غير بعيد عن مركز بطرسبرج وقد أطلق عليها دوستويفسكي اسم قصر الكريستال من باب التهكم، تشبيها لها «بقصر الكريستال» الذي راه في لندن وتحدث عنه في «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف».

– لو كنت في مكانك لتركته غدا حَيث هو. قد أخرج معه مدة قصيرة... على كل حال سوف نرى.

– خسارة... ذلك أنني أحتفل اليوم بانتقالي إلى المسكن الجديد الذي يقع على بعد خطوتين من هنا. ليته يستطيع أن يشاركنا، ولو راقداً على أريكته! أما أنت فسوف تجيء أليس كذلك؟ (قال رازوميخين هذا متجهاً بالكلام فجأة إلى زوسيموف). لن تنسى، هه؟ قد وعدتني بهذا.

أجاب زوسيموف:

– قد أجيء، ولكنني إذا جئت فسأجيء متأخراً. ماذا أعددت للحفلة؟

– لم أهيئ أشياء كثيرة! شاي، فودكا، سمك مجفف، فطائر أيضاً. ليس بيننا غرباء.

– من سيحضر؟

– رفاق من شباب هذا الحي، أكثرهم لا أعرفه من قبل.

وسيحضر الاحتفال عم لي جاء بالأمس إلى بطرسبرج لأعمال، ولا أراه إلا مرة واحدة كل خمس سنين.

– ما هو عملك هذا؟

– سلخ حياته كلها في مقاطعة نائية مديراً لمركز بريد... وقد أحيل على التقاعد فهو يتقاضى معاشا صغيرا. عمره خمس وستون سنة... لا داعي إلى الكلام عنه... على أنني أحبه في الواقع. سيجيء بورفيري بتروفتش أيضاً، قاضي التحقيق في الحي. أنه متخصص في القانون. ولكنك تعرفه..

– هل يمت إليك بقرابة أيضاً؟

– قرابة بعيدة جداً! ولكن لماذا أراك معتكر المزاج؟ آمل أن لا تحملك المشاجرة التي وقعت بينك وبينه ذات يوم على أن تظن أنك معفى من حضور الحفلة...

– هوه! أنا لا أكترث به.

– أحسن، أحسن. وهكذا ستضم الحفلة طلاباً، وأستاذا، وموظفاً، وموسيقياً، وضابطاً وزاميوتوف..

– قال لي: ما الذي يمكن أن يجمع بينك أو قل بينه (هنا أومأ زوسيموف بإشارة من رأسه إلى راسكولنيكوف) وبين رجل مثل زاميوتوف؟

– يا لهؤلاء المتعبين! المبادئ طبعاً! يميناً أنك جالس على المبادئ كجلوسك على خازوق فلست تجرؤ أن تقوم بحركة واحدة على ما يشاء لك هواك. أما أنا ففي رأيي أن الإنسان الطيب الخير هو في ذاته مبدأ من المبادئ. ولا يهمني أي شيء آخر. وزاميوتوف رجل رائع في نظري.

– هو على كل حال رجل يعرف معرفة رائعة كيف يلعب على حبلين وكيف يجني ربحاً من طرفين.

صاح رازوميخين وقد ازداد استياؤه ازديادا شديداً:

– ما شأني أنا وهذا؟ ولا أكترث بأنه يلعب على حبلين ويجني الربح من طرفين. إن كل ما قلته لك هو أنه في نوعه إنسان جيد. ولو نظرنا إلى جميع أنواع البشر وقدرناهم من جميع الجوانب لوجدنا أن الطيبين والأخيار ليسوا بكثيرين. أنني لعلى يقين من أنني أنا نفسي لا أستحق أن أُشترى ببصلة، ولو أُضفت أنت إلي.

– أنت تبالغ! أنا مستعد لأن أشتريك ببصلتين اثنتين!

– أما أنا فلا أشتريك إلا ببصلة واحدة. ها... يا لك من فكاهي! ثم إن زاميوتوف ما يزال صبياً صغيراً. ولسوف تأتي مناسبات أشدّ فيها أذنيه، ولكن يجب عليّ بانتظار ذلك أن أداريه لا أن أصده. لا سبيل إلى إصلاح إنسان بسوء المعاملة، ولا سيما إذا كان صبياً، فإنما يجب على المرء أن يمكر مزيداً من المكر حين

يُعامل صبياً صغيراً. ولكنكم، معشر التقدميين المتصلبين، لا تفهمون من هذا الأمر شيئاً، ولا تحترمون الطبيعة الإنسانية. وأنتم حين لا تحترمون الطبيعة الإنسانية إنما تسيئون إلى أنفسكم. وإذا كنت تحرص على أن تعرف كل شيء، فاعلم أن لنا، أنا وهو، قضية مشتركة.

– هل يمكننا أن نسألك عن هذه القضية المشتركة، ما هي؟

– قضية ذلك الدهّان. نعم، سوف ننقذه من تلك الورطة! على أنه أصبح غير معرّض لأي خطر. لقد أصبحت القضية واضحة، واضحة جداً. وكل ما علينا هو أن ندفعها إلى نهايتها بسرعة.

– من ذلك الدهان؟

– كيف؟ ألم أقصص عليك القصة. ها... فعلاً... أنا لم أقصص عليك إلا البداية... إن جريمة قتل العجوز المرابية، أرملة الموظف... أقصد... أن الدهان أصبح الآن مقحماً في هذه القضية.

– سمعت عن جريمة القتل هذه من قبل... حتى لقد اهتممت بها بعض الاهتمام... لي سبب... نعم، وقرأت أيضًا ما تقوله عنها الصحف و...

– وقد قُتلت اليزافيتا أيضاً!

بذلك نطقت ناستاسيا على حين فجأة، متجهة بالكلام إلى راسكولنيكوف. كانت قد بقيت في الغرفة طوال ذلك الوقت، مستندة إلى الباب، تتابع الحديث.

– اليزافيتا؟

قالت ناستاسيا:

– نعم اليزافيتا، السمسارة. ألا تعرفها؟ كانت تجيء إلى هنا، تحت، حتى لقد رقّعت لك قميصاً.

التفت راسكولنيكوف نحو الحائط، حيث تتناثر على الورق الأصفر الوسخ رسوم أزهار صغيرة بيضاء، فاختار من هذه الأزهار زهرة مخططة بلون بني ومرسومة رسماً رديئاً، فأخذ يتأملها محاولا أن يحصي عدد تويجاتها وعدد الأسنان في حافات أوراقها. وشعر بأعضائه تتخدّر، حتى بدا له أنها ليست أعضاءه، ولكنه لم يحاول أن يتحرك، وظل ينظر إلى الزهرة مصرا معاندا.

قال زوسيموف يسأل رازوميخين مقاطعاً ثرثرة ناستاسيا باستياء واضح:

– طيب، فماذا وقع لذلك الدهّان؟

وتابع رازوميخين حديثه قائلاً بحرارة:

– لقد أقحم هو أيضاً في جريمة القتل.

– هل هنالك قرائن؟ وما هي تلك القرائن؟

– قرائن؟ ليست هناك أية قرائن! غير أن القرينة التي يستشهدون بها ليست قرينة، وذلك ما يجب البرهان عليه!.. المسألة بسيطة: لقد أخذوا يكررون تلك الحماقات نفسها التي ارتكبوها حين اشتبهوا في الرجلين الآخرين فاعتقلوهما... أقصد: كوخ وبسترياكوف! نعم لقد كرروا تلك الحماقات نفسها نقطةً نقطة. ما أغبى تصرفهم يا رب! إن المرء ليشعر بالخزي والعار من هذا التصرف، ولو لم يكن له به شأن! قد يجيء إليّ بسترياكوف اليوم!.. بالمناسبة يا روديا: عليك أن تعرف هذه القصة لأنها وقعت قبيل مرضك، تماماً عشية اليوم الذي أغمي عليك فيه بقسم الشرطة... بينما كانوا يتحدثون في هذا الأمر هناك...

نظر زوسيموف إلى راسكولنيكوف مستطلعاً، فلم يحرك راسكولنيكوف ساكنًا.

قال زوسيموف:

– تريد أن تعرف رأيي يا رازوميخين؟ إنك تسرف في الحركة حول هذه القضية حقا!

فأجاب رازوميخين صارخاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده:

– لا ضير! سننقذه من تلك الورطة على أية حال! إن الأمر الذي يغيظني في هذا كله أكثر مما يغيظني أي شيء آخر ليس وقوعهم في الخطأ، فالوقوع في الخطأ يمكن التسامح فيه دائماً، حتى إن الخطأ شيء رائع فعلا لأنه يؤدي إلى الحقيقة. ليس الخطأ إذن هو الذي يغيظني منهم، وإنما يغيظني إصرارهم على إنكار الأخطاء التي يقعون فيها. أنني أعتبر بورفيري، ولكن... اسمع، هل تعرف مثلا ما هو الذي حيّرهم وأضلهم في أول الأمر؟ أن الباب كان مغلقاً، فلما عاد الرجلان مع البواب كان الباب مفتوحاً، فاستنتجوا من ذلك أن كوخ وبسترياكوف هما القاتلان! أرأيت إلى هذا المنطق ما أعجبه!

– لا تتحمس هذا التحمس كله: لقد أوقفوهما فحسب... لم يكن في وسعهم على كل حال أن... بالمناسبة... لقد أتيح لي أن أقابل كوخ. يظهر أنه كان يشتري من العجوز الأشياء المرهونة التي تخلف أصحابها عن تجديد رهنها في الموعد المحدّد. أليس هذا صحيحاً؟

– بلى، بلى، إنه وغد حقير! وهو يشتري سندات أيضاً. هو وغد حقير! هو محتال خطير... شيطان يأخذه! ولكن ليس هذا ما يثير غضبي وحنقي، وإنما يثير حنقي وغضبي أنهم يتبعون روتيناً عتيقاً بالياً تراكم الغبار عليه. إن هذا الروتين هو الذي يثير سخطي! وما أسهل أن يكتشف المرء، في معالجة هذه القضية، طرقا جديدة كل الجدة! إن في وسعنا، إذا نحن اعتمدنا على علم النفس وحده، أن نجد السبيل إلى معرفة الحقيقة. هم يقولون: «لدينا وقائع». ولكن الوقائع ليست كل شيء، ونصف القضية أنما يكمن في طريقة تأويل هذه الوقائع...

– وهل تستطيع تأويلها، أنت؟

– عجيب أمرك! أن المرء لا يمكنه أن يسكت حين يحس، حين يحس بغريزته أن في وسعه تقديم خدمة إذا هو... آه! هل تعرف القضية تفصيلا؟

– ما زلت أنتظر أن تقص عليّ حكاية الدهان.

– سأقص عليك حكايته. اسمع: في اليوم الثالث بعد وقوع الجريمة، في الصباح، حين كانوا يدققون في استجواب كوخ وبسترياكوف مع أن هذين الرجلين كانا قد ذكرا جميع حركاتهما وسكناتهما، ورغم أن كل شيء قد اتضح اتضاحاً صارخاً حدث على حين فجأة حادث لم يكن متوقعاً على الإطلاق: أن فلاحاً اسمه دوشكين، وهو صاحب خمارة تقع أمام العمارة التي وقعت فيها الجريمة، جاء إلى قسم الشرطة حاملا علبة مجوهرات فيها قرطان من ذهب، وأخذ يروي قصة عجيبة، قال: «أمس الأول، في المساء، بعد الساعة الثامنة بقليل، (لاحظ الوقت: اليوم والساعة) رأيت الدهان نيقولاي يهرع إلى خمارتي، وكان قد ارتادها مرارا قبل ذلك، حاملا إليّ علبة فيها قرطان ذهبيان يزدانان بأحجار صغيرة، راجياً أن أرهنهما لدي لقاء قرض قيمته روبلان. فلما استجوبته لأعرف من أين أتى بالقرطين، قال إنه عثر عليهما على رصيف، فلم أسأله غير ذلك (إن دوشكين هو الذي يتكلم)، ونقدته ورقة صغيرة أي روبلاً واحداً، لأنني قلت لنفسي: إذا لم يرهن هذين القرطين عندي فسيرهنهما عند غيري ليشرب بالقرض خمرة، فالأولى أن يبقيا بين يدي أنا: فبذلك أضمن على الأقل أن لا يطوفا العالم كله، فإذا راجت إشاعة تقول إنهما مسروقان، مضيت إلى قسم الشرطة لأبلغ عنهما». واضح أن هذه القصة التي رواها دوشكين سخيفة. وأنا أعرف دوشكين هذا: إنه كذاب كبير. إنه، هو نفسه، يقرض برهن ويخفي الأشياء المسروقة. فلئن أخذ من نيقولاي شيئاً تساوي قيمته ثلاثين روبلاً فإنه لم يفعل ذلك من أجل أن «يبلغ عنه». كل ما هنالك أنه خاف. ودعنا من دوشكين هذا على كل حال. واسمع التتمة. قال دوشكين: «أما ذلك الفلاح، نيقولاي ديمانتيف، فإنني أعرفه منذ زمن بعيد، منذ الطفولة، فنحن كلانا من إقليم واحد هو إقليم ريازان (مقاطعة زارايسك)، وهو يحب أن

يشرب قليلاً، وان لم يكن سكيراً مدمناً. وكنا نعلم أيضاً أنه كان يدهن الجدران، في ذلك المنزل، مع دمتري، ابن بلده. فلما نقدته ورقة الروبل، بذلها فوراً، وشرب كأسين، واحدة بعد أخرى، ثم تناول النقود الفائضة وانصرف. ولم أر دمتري معه في تلك اللحظة. وفي الغد، سمعنا أن آليونا ايفانوفنا وأختها اليزافيتا ايفانوفنا قد وُجدتا مقتولتين بضربة فأس، ولما كنا نعرفهما كلتيهما، فقد راودني شك في أمر القرطين الذهبيين، لأننا، كما سبق أن قلت، كنا نعرفهما ونعرف أن آليونا ايفانوفنا تقرض على رهون. عندئذ ذهبت إلى العمارة، وأخذت أتقصى الأمر قليلاً. سألت أولاً عن نيقولاي أهو موجود، فقال لي دمتري إنه غائب يقصف ويلهو، وإنه قد عاد ثملاً في أول الصباح فلم يمكث إلا عشر دقائق، ثم خرج من جديد، وعرفت أن ميتكا لم يره بعد ذلك، وأنه طفق يتم عمله وحيداً. والشقة التي كانا يدهنانها أنها تقع في الطابق الثاني، وتطل على نفس السلم الذي تطل عليه شقة المرأتين الشقيقتين. عرفنا هذا كله، ولكننا لم نقل عندئذ شيئاً لأحد. (إن دوشكين هو الذي ما يزال يتكلم). غير أننا أسرعنا نجمع كافة المعلومات التي يمكن جمعها عن جريمة القتل، ورجعنا إلى بيتنا وقد امتلأت نفوسنا ريبة واشتباهاً. وفي الصباح، في الساعة الثامنة من هذا الصباح (أي غداة غد وقوع الجريمة)، رأيت نيقولاي داخلا على الخمارة. لا أستطيع أن أقول إنه لم يكن قد شرب خمراً بعد، ولكني لا أستطيع أن أقول أيضاً إنه كان ثملا جداً، وإنما كان قادراً على متابعة حديث. وجلس على دكة دون أن ينطق بكلمة. ولم يكن يوجد في الخمارة عندئذ إلا هو وشخص آخر عابر، وشخص ثالث من رواد الخمارة كان نائماً على دكة، هذا عدا الصبيين اللذين يعملان في الخمارة طبعاً.

سألت نيقولاي:

– هل رأيت ميتكا؟

فأجابني:

– لا، لم أره.

– وهل كنت هنا؟

– لم أكن هنا منذ أمس الأول.

– وأين نمت في هذه الليلة؟

– في حي «الرمال»، عند أهل كولومنا[٤٨].

– ومن أين جئت بالقرطين في ذلك اليوم؟

– عثرت عليهما على الرصيف.

وكان يقول ذلك كله مشيحاً بوجهه عني. سألته:

– هل سمعت عن حدوث كذا وكذا، في ذلك المساء نفسه، في تلك الساعة نفسها وعلى نفس السلم؟

فأجابني:

– لا، لم أسمع عن شيء من هذا!

سمع ما أقوله ولكنه حملقا، وابيض لونه حتى صار كالطباشير. وفيما أنا أروي له ما حدث، رأيته يتناول طاقيته فجأة، وينهض. حاولت أن أحبسه عن الخروج، فقلت له:

– انتظر يا نيقولاي! ألا تريد أن تشرب كأساً؟

وأومأت إلى أحد الصبيين أن يسدّ عليه الطريق، وتركت البسطة. لكن صاحبنا نيقولاي ولّى هارباً، فهو ينعطف عند ناصية الشارع، حتى إنني لم أره بعد. لم يبق إذن شك: أنه هو الذي ارتكب تلك الجريمة!»

---

[٤٨] حي الرمال وحي كولومنا – حيان في بطرسبرج يقعان في طرفين مختلفين من المدينة. ومعنى هذا أن نيقولاي قد خلط الأمور في جوابه.

قال زوسيموف:

– واضح!

قال رازوميخين:

– انتظر! اسمع التتمة! مضت الشرطة كلها تبحث عن نيقولاي طبعاً: فتشوا خمارة دوشكين، ثم أوقفوا دوشكين، وأوقفوا دمتري أيضاً، وقلبوا كل شيء عاليه سافله عند أهل كولومنا، ثم لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على نيقولاي إلا بعد ثلاثة أيام، أي أمس الأول. قبضوا عليه في خان قرب حاجز «س...» يظهر أنه حين وصل إلى هناك استل صليبه الفضي، وطلب مقايضة هذا الصليب بزجاجة فودكا صغيرة، فأجيب طلبه. وبعد بضع دقائق دخلت امرأة إلى الإسطبل، فإليك ما رأته من شق الباب: رأت نيقولاي في الزريبة المجاورة، قد ربط حزامه بوتد وجعل فيه عقدة منزلقة، وصعد على قطعة غليظة من خشب يريد أن ينتحر شنقاً. خطرت ببال المرأة هذه الفكرة الموفقة، وهي أن تصرخ، فصرخت، فهرع الناس إلى المكان، وقالوا له:

– آ... أهكذا أنت إذن؟

فقال لهم:

– نعم... خذوني إلى قسم الشرطة في حيّ كذا، وسأعترف هنالك بكل شيء!

فاقتادوه إلى قسم الشرطة الذي حدّده، أي إلى قسم الشرطة في حيّنا، فسرعان ما بدأت الأسئلة تنهمر عليه انهمار المطر: كيف، وماذا، ولماذا، وأين، ومن أنت، وما سنّك – «عمري اثنتان وعشرون سنة» – وهلمّ جرا!..

سؤال:

– بينما كنت تعمل مع دمتري، ألم ترَ أحداً على السلم في ساعة كذا؟

– مرّ أناس كثيرون طبعاً، ولكن ليست مهمتي أن أراقبهم...

– أفلم تسمع شيئاً ما، أفلام تسمع ضجةً ما؟

– لا، لم أسمع شيئاً يلفت الانتباه!

– وأنت يا نيقولاي، هل كنت تعلم في ذلك اليوم أن الأرملة قد قُتلت وسُرقت هي وأختها، يوم كذا، ساعة كذا؟

– ما علمت شيئاً، ولا رأيت شيئاً. علمت بالأمر أول مرة من أتاناسي بافلوفتش منذ يومين، في الخمارة.

– ومن أين جئت بالقرطين؟

– عثرت عليهما على الرصيف.

– لماذا لم تأتِ إلى العمل مع دمتري غداة ذلك اليوم؟

– لأنني قصفت ولهوت في ذلك اليوم.

– أين قصفت ولهوت؟

– في مكان كذا.

– لماذا هربت من عند دوشكين؟

– لأنني خفت خوفاً شديداً.

– من أي شيء خفت؟

– خفت أن أحال إلى المحاكمة.

– ولكن كيف يمكن أن تخاف من أمر كهذا، ما دمت تعرف أنك لم تقترف جرما؟

وعقب رازوميخين على ذلك بقوله:

– نعم يا زوسيموف، بهذه الكلمات إنما ألقي عليه هذا السؤال، بهذه الكلمات نفسها، صدّقت أم لم تصدّق! نعم، بهذه الكلمات نفسها... أنا أعلم ذلك علم اليقين، لقد نقل إليّ السؤال بنصه، كلمة كلمة. ما رأيك؟ ما رأيك؟

– نعم، نعم، ولكن هناك قرائن على كل حال...

– لا أتكلم الآن عن القرائن، وإنما أتكلم عن السؤال الذي ألقوه عليه، أتكلم عن طريقة هؤلاء الناس في فهم مهنتهم. ولكن دعنا من هذا الآن، ولنكمل وصف ما جرى بينهم وبين نيقولاي. ضيقوا عليه الخناق، ثم ضيقوا عليه الخناق مزيدا من التضييق، فاعترف. قال:

– لم أعثر بالقرطين على الرصيف، وإنما عثرت عليهما في الشقة التي كنا ندهنها أنا ودمتري.

– كيف عثرت عليهما؟

– كيف؟ هكذا: كنا قد عملنا أنا ودمتري طول النهار حتى الساعة الثامنة، وكنا نستعد للانصراف، ولكن ها هو ذا دمتري يتناول فرشاة ويأخذ يلطخ لي وجهي. فلما لطخ لي وجهي، ولّى هارباً، فركضت وراءه أطارده. كنت أركض وأطلق صرخات وحشية ولكن حين خرجت من السلم ووصلت إلى فناء المنزل، رأيتني أسقط على البواب الذي كان معه عندئذ بعض السادة. أما عدد أولئك السادة فإنني لا أذكره الآن.

أخذ البواب يشتمني، ثم جاء البواب الثاني فأخذ يشتمني أيضاً، وخرجت امرأة البواب الأول من مسكنها فأخذت تشتمنا كلينا، وفي تلك اللحظة كان يمر تحت باب الدخول سيد تصحبه سيدة، فأخذ يشتمنا هو أيضاً، لأننا كنا، أنا ودمتري، قد انبطحنا فسددنا عليه الطريق. كنت قد أمسكت دمتري من شعره، ورميته على الأرض ورحت أهوى عليه بوابل من اللكمات، وكان دمتري تحتي، قد أمسك بشعري وأخذت لكماته تنهمر عليّ أيضاً – ولكن ذلك كله لم يكن دافعه الخبث والشر، وإنما كان دافعه المودة والمحبة، فهو نوع من التسلية. ثم تخلص دمتري، وولّى هارباً إلى الشارع، فركضت وراءه ولكني لم أستطع أن أدركه. عندئذ عدت إلى الشقة وحدي لأرتّب أشيائي. وفيما أنا أرتبها، منتظراً دمتري، إذا بي أدوس على علبة صغيرة، قرب الباب، في ركن الدهليز، فنظرت، فرأيتها ملفوفة بورق، فنزعت الورق فرأيت كلّابتين، كلابتين صغيرتين، صغيرتين جداً، فشددتهما فخرج القرطان...»

هتف راسكولنيكوف يسأل فجأة، وهو يحدّق إلى رازوميخين بنظرة مضطربة مروّعة، بينما هو يُنهض جسمه ببطء، ويسند يده إلى السرير:

– وراء الباب؟ كانت العلبة وراء الباب؟

– نعم، ولكن ماذا بك؟ ماذا دهاك؟

وكان رازوميخين قد نهض هو أيضاً عن مقعده.

أجاب راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يُسمع، وهو يتهالك على وسادته من جديد، ويعود يلتفت نحو الحائط:

– لا شيء.

ولبث الجميع صامتين برهة وجيزة.

قال رازوميخين أخيراً وهو يلقي على زوسيموف نظرة سائلة مستفهمة:

– لا شك أنه كان قد غفا، وأنه ما يزال يحلم، أليس كذلك؟

فحرك زوسيموف رأسه بإيماءة خفيفة تعني النفي. وقال:

– أكمل قصتك. ماذا حدث بعد ذلك؟

– بعد ذلك، بعد ذلك! نعم... ما إن رأى القرطين، حتى نسي عمله ونسي دمتري، وتناول قبعته وركض يسعى إلى خمارة دوشكين، فأخذ منه روبلاً، كما أسلفنا أيضاً. أما عن جريمة القتل، فإنه ما يزال يصر على أقواله:

– ما علمت شيئاً ولا رأيت شيئاً.

– فلماذا اختفيت إذاً حتى الآن؟

– خفت.

– ولماذا أردت أن تنتحر شنقاً؟

– قدّرت أنني سأحال إلى المحاكمة.

وعقب رازوميخين على ذلك سائلاً زوسيموف:

– هذه هي القصة كاملة. فما الذي تظن أنهم استنتجوه من ذلك كله؟

– ما عسى أظن؟ هناك قرائن. ومهما تكن هذه القرائن، فإنها تبقى قرائن. الواقعة قائمة. ليس في وسعهم أن يخلوا سبيل صاحبك الدهان، رغم كل شيء.

– ولكنهم حشروه مع القتلة وانتهى الأمر. لم يبق عندهم ظل من شك...

– أنت تخطئ... أنت تتحمس وتندفع... يجب أن تنظر في واقعة وجود القرطين مع نيقولاي. لا بد لك من التسليم بأن هذين القرطين إذا كانا انتقلا رأساً في ذلك اليوم نفسه، في تلك الساعة نفسها، من صندوق المرأة العجوز إلى يدي نيقولاي، فقد انتقلا بطريقة من الطرق. هذا أمر له خطورته في التحقيق...

هتف رازوميخين:

– أتقصد طريقة انتقالهما إلى يدي نيقولاي؟ ألا إن أمرك لعجيب! هل يمكنك حقاً، وأنت طبيب يفرض فيه أن يعرف الإنسان، وأتيح له عدا ذلك أن يسبر الطبيعة الإنسانية، هل يمكنك أن لا ترى من خلال جميع هذه المعلومات، طبيعة نيقولاي هذا؟ هل يمكن أن لا ترى منذ البداية أن كل ما صرّح به نيقولاي أثناء تلك الاستجوابات جميعاً إنما كان الحقيقة خالصة صافية؟ لقد وصل القرطان إلى يديه على النحو الذي ذكره تماماً. داس على العلبة فتناولها.

– الحقيقة خالصة!!.. ولكنه اعترف هو نفسه بأنه كذب في المرة الأولى. أليس كذلك؟

– اصغ إليّ بانتباه! إن البواب، وكوخ، وبسترياكوف، والبواب الثاني، وامرأة البواب الأول، والبائعة التي كانت في مسكنها حينذاك، والمستشار القضائي كريوكوف الذي نزل من مركبة في تلك اللحظة نفسها وكان يجتاز عتبة المدخل متأبطاً ذراع سيدة، إن هؤلاء جميعاً، أي ثمانية شهود أو عشرة، قد أجمعوا في أقوالهم على أن نيقولاي كان قد بطح دمتري أرضاً، وجشم عليه، وراح يمطره بوابل من اللكمات، وأن دمتري كان من جهة ممسكاً بشعره يكيل له اللكمات هو أيضاً، وأنهما تدحرجا كليهما بالعرض فسدّا الطريق، وأن الشتائم كانت تنهال عليهما من كل صوب، وإنما كانا (أشبه بالصبية الصغار)، على حد تعبير الشهود نصاً، يولولان ويتضاربان وينفجران ضاحكين ويتسابقان في القهقهة ويطارد كل منهما الآخر في الشارع

كالصبيان وقد ظهر في وجهيهما هزل الأطفال! هل سمعت هذا كله؟ فاسمع الأن البقية: كانت الجثتان، فوق، في ذلك الوقت نفسه، ما تزالان ساخنتين... ساخنتين... نعم، نعم، لقد كانتا ساخنتين حين اكتُشفتا. فلو كان نيقولاي ودمتري هما القاتلين، أو كان نيقولاي وحده القاتل، وكانا في الوقت نفسه قد سرقا العجوز أو لم يزيدا على أن شاركا في السرقة مشاركة فحسب، لكان من حقي أن ألقي عليك هذا السؤال: هل تلك الحالة النفسية (أعني الولولة، والضحك، والتشاجر الصبياني تحت باب الدخول) تتفق والفأس، والدم والمكر الوحشي والحذر والسلب والنهب؟ أيكونان قد قتلا منذ برهة قصيرة، منذ خمس دقائق أو عشر في أكثر تقدير وهذه نتيجة مستخلصة من سخونة الجثتين – ثم هما يمضيان فجأة، تاركين الجثتين والباب مفتوح، مع علمهما بأن أناساً سيصلون من لحظة إلى أخرى. أيقتلان منذ برهة وجيزة، ثم يتركان غنيمتهما، ويمضيان يتدحرجان في الشارع (كالصبية الصغار)، ويضحكان ضحكاً صاخبا، ويلفتان إليهما انتباه الناس جميعا، وهذا ما يؤكده عشرة شهود بصوت واحد؟

– هذا غريب فعلاً. ذلك مستحيل طبعاً، ولكن...

– يا أخي، إذا كان وجود القرطين بين يدي نيقولاي، في ذلك اليوم نفسه، في تلك الساعة نفسها، واقعة مادية هامة تشهد عليه – وهي مع ذلك واقعة تفسرها أقوال المتهم نفسه تفسيراً تاماً، فيمكن إذاً دحضها – أقول إذا كان الأمر كذلك فيجب أن ندخل في الحساب وقائع أخرى تشهد للمتهم لا عليه، وتؤكد براءته، لا سيما وأنها وقائع ثابتة لا سبيل إلى دحضها. ولكن ماذا تظن؟ هل تعتقد أن قضاءنا، وهو على ما هو عليه، يمكن أن يسلّم بأن واقعة قائمة على الاستحالة السيكولوجية وحدها، واقعة مبنية على الحالة النفسية فحسب، يمكن أن تُعدّ واقعة ثابتة لا سبيل إلى دحضها، واقعة قادرة بمفردها على أن تهدّم جميع وقائع الاتهام المادية أياً كانت؟ لا، إن قضاءنا لن يسلم بهذا، لن يسلّم به في حال من الأحوال، وذلك

بحجة أن العلبة قد وجدت، وأن الرجل أراد أن يشنق نفسه، وأنه «ما كان ليفعل ذلك لولا شعوره بجرمه!» تلك هي المسألة الرئيسية، ذلك هو السبب الذي يحضني على الاندفاع والحماسة، هل فهمت؟

– أرى أنك تندفع وتتحمس فعلاً. انتظر! نسيت أن ألقي عليك سؤالًا: ما هو الدليل الذي نملكه على أن العلبة التي تحوي القرطين مصدرها صندوق العجوز حقاً؟

أجاب رازوميخين على مضض، وقد عبس وجهه:

– ذلك ثابت. لقد عرف كوخ العلبة، وحدّد الشخص الذي رهنها عند العجوز، وبرهن ذلك الشخص برهاناً قاطعاً على أنها علبته.

– هذا مؤسف. والآن ألقى عليك سؤالاً آخر: ألم يلمح أحد نيقولاي لحظة كان كوخ وبسترياكوف يصعدان السلم؟ أفلا يمكن إثبات ذلك بطريقة من الطرق؟

أجاب رازوميخين متحسراً:

– لا، لم يلاحه أحد، وذلك هو الأمر المحزن. أن كوخ وبسترياكوف نفسيهما لم يلاحظا العمال أثناء صعودهما. صحيح أن شهادتهما الآن لا تتسم بأهمية كبيرة... هما يقولان: «رأينا باب الشقة مفتوحاً، وقدّرنا أنه ربما كانت تجري فيها إصلاحات، ولكننا لم ننتبه أثناء مرورنا، ولا نتذكر أكان فيها عمال أم لا».

– فالتفسير الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه إذن، للتدليل على براءتهما، هو أنهما كانا يتضاربان ويضحكان مقهقهين. طيب! هذا دليل قوي ولكن... اسمح لي: كيف تفسر أنت الواقعة؟ كيف تفسر العثور على القرطين إذا كان قد وجدهما على نحو ما صرّح؟

– كيف أفسرها؟ ليس هناك شيء يحتاج إلى تفسير: الأمر واضح وضوح النهار، أو قل في أقل تقدير إن الطريق الذي يجب أن يسير فيه التحقيق واضح مرسوم. والعلبة هي التي ترسم هذا الطريق. إن القرطين قد سقطا من القاتل الحقيقي. كان هو في أعلى، موصداً عليه الباب بالمزلاج، حين رابط كوخ وبسترياكوف على الباب. وقد ارتكب كوخ حماقة كبيرة، حين نزل في أثر صاحبه، فانتهز القاتل الفرصة، فهرب من الشقة، ونزل هو أيضاً، إذ لم يكن له مخرج آخر. وفيما كان على السلم، اختبأ عن أعين كوخ وبسترياكوف والبواب بدخوله إلى المسكن الخالي الذي تركه دمتري ونيقولاي منذ لحظة قصيرة، فظل مختبئاً وراء الباب بينما كان البواب والرجلان الآخران يصعدون. حتى إذا انقطعت ضجة وقع أقدامهم نزل بهدوء، وذلك في اللحظة التي كان فيها دمتري ونيقولاي يطارد كل منهما صاحبه في الشارع أي في اللحظة التي كان قد تفرق فيها الجميع فلم يبق أحد في مدخل العمارة. بل إن من الجائز أن يكون أحدهم قد رآه، لكنه لم يلاحظه: إن ناساً كثيرين يمرّون. أما العلبة فلا بد أنها قد سقطت من جيبه لحظة كان واقفاً وراء الباب، فلم ينتبه إلى ذلك. لأن ذهنه كان مشغولاً عندئذ بهموم أخرى كثيرة. نعم، إن العلبة تبرهن برهاناً قاطعاً على أن القاتل قد رابط هناك. تلك هي القصة كلها.

قال زوسيموف: – هذا تفسير بارع! نعم... حقاً هذا تفسير بارع جداً يا صاحبي... بارع جدا جدا...

– ولكن لماذا؟ لماذا تقول؟..

– لأن كل شيء فيه مرتب بحذق ومركّب بإحكام.. لكأننا في مسرح!.

همّ رازوميخين أن يتكلم فقال:

– هيه..

ولكن الباب فتح في تلك اللحظة نفسها، فانفرج عن قادم جديد لم يكن يعرفه أحد من الحضور.

الفصل الخامس

هو سيد ليس الآن في ريعان الشباب سيد تكلف متصنع، ذو أبهة وجلال، تعبر هيئته عن التحفظ والتعالي، وقف على العتبة يلقي على ما حوله نظرات استطلاع فيها دهشة لا تخفى وكأن عينيه تلقيان هذا السؤال: «أتراني ضللت الطريق؟» أنه يتفحص «حجرة» راسكولنيكوف الواطئة الضيقة وهو يشعر بشيء من الشك ويبدي نوعاً من الخوف بل ويظهر شيئاً من الأسف والمضض. وبمثل هذه الدهشة نفسها وجه بصره إلى راسكولنيكوف، ثم ثبته عليه، فرأى راسكولنيكوف الذي لم يكن مرتديا ثيابه ولا حلق ذقنه، والذي كان مشعث الشعر راقداً على أريكته الوسخة الحقيرة، رآه يتفحصه من جهته دون أن يتحرك. وبهذا البطء نفسه أخذ يلاحظ رازوميخين الذي لم يكن ممشّط الشعر ولا محلوق الذقن وكان هو أيضاً يتفرس فيه باستطلاع مستهتر وقح دون أن يتحرك. خيّم صمت متوتر خلال ما يقرب من دقيقة ثم لم يلبث المشهد أن تغير تغيراً طفيفاً كما ينبغي أن نتوقع. ذلك أن القادم الجديد قد أدرك من بعض العلامات، وهي علامات واضحة جداً على كل حال، أن هيئته المسرفة في الصرامة لن تنفعه كثيراً في هذه الحجرة، فلطف هيئته بعض التلطيف، واتجه إلى زوسيموف يسأله بأدب وكياسة، مع احتفاظه بشيء من الجمود والصلابة، قائلا بلهجة تبرز مقاطع الكلام إبرازا واضحا:

– روديون رومانوفتش راسكولنيكوف، طالب أو طالب سابق؟

تحرك زوسيموف ببطء، ولعله كان سيجيب لولا أن رازوميخين الذي لم يسأله أحد شيئاً أسرع يسبقه إلى الجواب فقال:

– هو ذا... راقد على السرير... ماذا تريد أنت؟

إن هذا السؤال الذي ليس فيه شيء من التحرج «ماذا تريد أنت؟» قد بلبل السيد المتصنع فأوشك أن يلتفت نحو رازوميخين، ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه، فاتجه مرة أخرى بسرعة شديدة إلى زوسيموف.

– نعم، هذا راسكولنيكوف!

كذلك قال زوسيموف بإهمال وتثاقل، وهو يشير إلى المريض بإيماءة من رأسه، ثم تثاءب ففتح فماً واسعاً سعة غير مألوفة أيضاً. ثم أغطس يده في جيب صُديرته ببطء فاستل منه ساعة ذهبية كبيرة محدبة الشكل، ففتحها ونظر فيها، ثم أعادها إلى جيبه بذلك البطء وبذلك التواني نفسه.

وفي أثناء هذا الوقت، ظل راسكولنيكوف راقداً على ظهره، وظل صامتاً لا يقول كلمة، وكان يلقى على الزائر نظرة ثابتة عنيدة، وان تكن هذه النظرة لا تعبّر عن أي فكرة. إنه وقد تحوّل وجهه عن تلك الزهرة الصغيرة العجيبة المرسومة على ورق الجدار، يبدو الآن شاحباً شحوباً شديداً، وتدل ملامحه على أنه يعاني ألماً هائلاً، حتى لكأنه خارج من عملية موجعة أو كأنه أطلق سراحه بعد التعذيب. ولكن القادم الجديد أخذ يثير فيه بعض الانتباه شيئاً بعد شيء ثم أخذ يثير فيه شكاً وارتياباً، حتى لقد أثار فيه آخر الأمر نوعاً من خوف وخشية. فلما قال زوسيموف وهو يومئ إليه: «نعم هذا راسكولنيكوف» انتفض فجأة كأنما وخزته إبرة، وجلس على السرير، وقال بلهجة تكاد تكون تحدياً وان يكن صوته واهناً ضعيفاً متقطعاً:

– نعم، أنا راسكولنيكوف! ماذا تريد؟

نظر إليه الزائر وقال يعرّف بنفسه بلهجة رصينة وقور:

– بيوتر بتروفتش لوجين. أحب أن أظن أن اسمي ليس مجهولًا عندك تمامًا.

ولكن راسكولنيكوف الذي توقع شيئاً غير هذا، نظر إليه دون أن يجيب، وكان زائغ البصر شارد الفكر كأنه يسمع اسم بيوتر بتروفتش أول مرة حقاً.

سأله بيوتر بتروفتش مرتبكاً بعض الارتباك:

– كيف؟ هل يمكن أن لا تكون قد تلقيت أي نبأ حتى الأن؟

فلم يزد جواب راسكولنيكوف على أن راح ينزلق على الوسادة ببطء، تعبير عن حزن، وأخذ زوسيموف ورازوميخين ينظران إليه بمزيد من لاستطلاع والفضول، حتى بدا عليه الاضطراب في آخر الأمر. ودمدم يقول:

– كنت أفترض وأقدّر أن الرسالة، وقد أودعت في البريد منذ أكثر من عشرة أيام إن لم يكن منذ خمسة عشر يوماً، لا بد أن...

فقاطعه رازوميخين فجأة بقوله:

– اسمع! لماذا تبقى واقفاً هذه الوقفة على الباب؟ هلم فاجلس إذا كان لديك شيء تريد أن تشرحه... إن العتبة لا تتسع لكما كليكما أنت وناستاسيا! يا ناستاسيوشكا، تنحي قليلاً، ودعيه يمرّ! تقدم! هذا كرسي ادخل!

قال رازوميخين ذلك، وأبعد كرسيه عن المائدة، جاعلاً بينها وبين ركبتيه فراغاً صغيراً، ولبث على هذا الوضع، المزعج بعض الإزعاج، برهة من الوقت، ينتظر أن يتسلل، الزائر من هذه الفرجة. لقد اختار رازوميخين اللحظة المناسبة اختياراً لا يدع للزائر سبيلاً إلى الرفض، لذلك أسرع الزائر ينسل في الفراغ الضيق متعثراً، حتى إذا وصل إلى الكرسي جلس وألقى على رازوميخين نظرة ريب وشك.

قال رازوميخين بغير اكتراث:

– لا تتحرج! لا تتحرّج! إن روديا مريض منذ خمسة أيام، وقد ظل يهذي ثلاثة أيام، لكنه ثاب الآن إلى رشده تماماً، حتى إنه أصبح يُقبل على الطعام نهمًا. والجالس هناك هو طبيبه. وقد فحصه منذ برهة قصيرة. أما أنا فإنني أحد رفاق روديا، كنت طالباً مثله وأصبحت الآن ممرضاً له. فلا تنتبه إلينا، ولا تحفل بنا، ولا تتحرج منا. أكمل كلامك وقل ما تريد أن تقوله!

قال بيوتر بتروفتش:

– شكراً.

ثم التفت يسأل زوسيموف:

– ولكن إلا يزعج المريض حضوري وحديثي؟

فأجابه زوسيموف مجمجماً:

– ل... لا! حتى لقد يسلّيه هذا قليلاً!

قال ذلك وتثاءب من جديد.

قال رازوميخين:

– نعم، نعم! لقد أفاق من غيبوبته منذ مدة طويلة، منذ هذا الصباح!

قال رازوميخين ذلك بلهجة فيها من الألفة ورفع الكلفة ما جعل بيوتر بتروفتش يغير موقفه فأخذ يشعر بشيء من الارتياح والانطلاق، ولعل ذلك يرجع بعض الرجوع أيضاً إلى هذا الفقير الوقح رغم كل شيء في أن يعرّف بنفسه على أنه طالب.

بدأ لوجين يتكلم فقال:

– إن والدتك...

فإذا برازوميخين يهتف بصوت عال:

– هِم!

فرشقه لوجين بنظرة مستوضحة مستفهمة. فقال له رازوميخين:

– ليس هذا شيئاً! لا تلق إلى هذا بالًا. هلم أكمل كلامك.

رفع لوجين كتفيه متعجباً، وواصل حديثه فقال:

– إن والدتك قد شرعت في كتابة رسالة إليك حين كنت عندها. فلما وصلتُ إلى هنا تعمدت أن لا أجيء لزيارتك قبل انقضاء بضعة أيام وذلك بغية أن أكون على يقين كامل من أنك أطلعت على كل شيء. ولكنني أراك، مدهوشاً كل الدهشة..

فقاطعه راسكولنيكوف فجأة، وظهرت في هيئته علامات نفاد الصبر والزعل، قاطعه قائلاً:

– أعرف! أعرف! أنت الخطيب، أليس كذلك؟ أعرف أعرف. ويكفيني هذا.

أحس بيوتر بتروفتش بأنه أهيم فعلًا. ولكنه صمت. كان يحاول جاهداً أن يفهم ما قد يعنيه كلام راسكولنيكوف ودام الصمت ما يقرب من دقيقة.

وفي أثناء ذلك كان راسكولنيكوف الذي التفت نحوه قليلاً ليجيبه، قد أخذ يتفرس فيه فجأة بعناد شديد واستطلاع قوي كأنه وقته لم يتسع منذ قليل لأن يفحصه فحصاً كاملاً، أو كأن شيئاً جديداً قد خطف بصره فيه، حتى لقد أنهض رأسه عن الوسادة لهذا الغرض عمداً. وكان ذلك الشيء في مظهر بيوتر

بتروفتش لا يخفي عن عين الناظر إليه فعلاً، إنه شيء خاص، شيء لا أدري ما هو، شيء يسوغ الصفة التي أطلقها عليه راسكولنيكوف بغير تحرج حين سماه «الخطيب». إن المرء يلاحظ قبل كل شيء يلاحظ بوضوح شديد أن بيوتر بتروفتش قد أسرع يستفيد من الأيام القليلة التي يعتزم قضاءها في العاصمة ليجعل نفسه جميلاً وأنيقاً بانتظار وصول خطيبته، وذلك، على كل حال، أمر مشروع تماماً، بريء كل البراءة. حتى ليمكن أن يغفر المرء لهذا الرجل، بسبب لقب «الخطيب» الذي أصبح يحمله، ما كان يراه في نفسه من رأي لعله مسرف في التعظيم، بعد التبدل الموفق السعيد الذي طرأ عليه. كان يمكن أن تُعد ثيابه كاملة كل الكمال رائعة كل الروعة، لولا عيب واحد هو أنها خارجة من عند الخياط رأساً لهدف محدد وغاية معينة. حتى قبعته المستديرة الأنيقة الجديدة كانت تدل على ذلك الهدف وتنبئ بتلك الغاية: أن بيوتر بتروفتش يداريها مداراة فيها شيء من الغلو ويمسكها بيديه امساكا مفرطا في الاحتياط والحذر. وحتى القفازان الزاهيان بلون البنفسج اللذان اشتراهما من محل جوفان كانا يشهدان بذلك الهدف ويشيران إلى تلك الغاية، على الأقل لأن لوجين كان يحاذر أن يلبسهما، فهو يحملهما بيده بغية أن يكون لهما أثر في أعين الناظرين. إن ثياب بيوتر بتروفتش تغلب عليها، في العادة، الألوان الزاهية التي يحبها المراهقون. ولقد كان يرتدي في ذلك اليوم سترة صيفية جميلة بلون الكستناء، وسروالا صيفيا زاهيا، وصديرة مناسبة من نفس القماش، وقميصاً من قماش رقيق جداً، قد اشتراه منذ قليل أيضاً، ورباطاً للعنق تحدّده خطوط بلون الورد، وأجمل ما في ذلك كله أن هذه الملابس جميعها كانت تتسق وشخص بيوتر بتروفتش كل الاتساق. إنك لو نظرت إلى وجهه النضر الذي لا يخلو من جمال لا يمكن أن تقدّر أنه في الخامسة والأربعين من عمره. وهذان سالفان بلون الكستناء، يحيطان بوجهه إطاراً لطيفاً. أنهما مقدودان على شكل ضلعين، فهما يتكاثفان حول الذقن تكاثفاً حلواً، وقد حُلقت الذقن حلقاً ناعماً فهي ملتمعة براقة. وشعره نفسه، الذي لم يكد يشيب، والذي تولى الحلاق تصفيفه وتجعيده، ليس له ذلك المظهر المضحك الغبي الذي نراه عادة

في الشعر المجعد لأنه يضفي على وجه المرء ذلك التعبير الأبله الذي يلاحظ في وجه ألماني يرتدي ثياب الزفاف. ولئن كان في هذا الوجه الرصين اللطيف شيء مزعج بل ومنفر مع ذلك، فإن مردّ هذا إلى أسباب أخرى. نظر راسكولنيكوف إلى السيد لوجين يتفحصه بغير كلفة، ثم ابتسم ابتسامة مسمومة، ثم استرخى على الوسادة مرة أخرى، وعاد ينظر إلى السقف من جديد.

ولكن السيد لوجين صمد، وبدا عليه أنه قرر مذعناً أن لا يلاحظ الآن هذه الحركات الغريبة.

وقال يقطع الصمت بجهد ومشقة:

– يؤسفني أشد الأسف أن أجدك على هذه الحال من المرض ولو قد علمت أنك مريض لجئت أزورك قبل الآن. ولكن الأعباء الكثيرة المتعبة قد حالت بيني وبين ذلك. هذا عدا أن هنالك دعوى هامة جداً توجب عليّ وظائفي، كمحام، أن أرفعها إلى مجلس الشيوخ. ناهيك عن المشاغل التي لا بد أنك تدركها... أنني أنتظر وصول والدتك وأختك.

تحرك راسكولنيكوف، وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئاً، وعبر وجهه عن شيء من الانفعال، فأمسك بيوتر بتروفتش عن الكلام، وانتظر برهة، ولكنه لم يلبث أن استأنف حديثه حين رأى أن راسكولنيكوف لا يتكلم، فقال:

– ... وقد وجدت لهما مسكنًا ينزلانه في الآونة الأولى...

سأله راسكولنيكوف بصوت واهن:

– أين يقع هذا المسكن؟

– غير بعيد عن هنا. في عمارة باكالايف.

قال رازوميخين مقاطعاً:

– في شارع «الصعود». تضم العمارة طابقين مفروشين يؤجرهما التاجر يوشين. لقد ذهبت إلى هناك.

– نعم، هي غرف مفروشة.

قال رازوميخين:

– منزل حقير، فظيع، قذر، عفن، وهو فوق ذلك مشبوه، جرت فيه قصص بشعة... لا يعلم إلا الشيطان من هم أولئك الذين يقيمون فيه.. لقد زرته بنفسي على أثر فضيحة شائنة. ولكنه يمتاز بأن أجره زهيد.

ردّ السيد لوجين يقول بلهجة جافة:

– لم أستطع طبعاً أن أجمع هذه المعلومات، لأنني لم أصل إلا منذ مدة قصيرة. على أن الغرفتين نظيفتان كل النظافة، ولما كانت الإقامة فيها قصيرة جداً...

ثم تابع كلامه ملتفتاً إلى راسكولنيكوف:

– وقد وجدت مسكناً لنا نحن منذ الآن، أعني البيت الذي سنسكنه في المستقبل، وقد بوشر في إعداده، وبانتظار الانتهاء من ذلك أقيم أنا نفسي على مسافة خطوتين من هنا، في غرفة مفروشة كيفما اتفق، عند سيدة اسمها ليبفكسيل، في شقة صديق لي هو أندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف، وهو الذي دلني على عمارة باكالايف...

– ليبزياتنيكوف؟

كذلك سأل راسكولنيكوف ببطء، كأن هذا الاسم يذكره بشيء ما.

– نعم، أندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف، موظف بإحدى الوزارات. أتراك تعرفه؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً:

– نعم... لا...

– معذرة. لقد خيل إليّ من سؤالك أنك... لقد كنتُ في الماضي ولي أمره... هو فتى لطيف جداً، مطلع على كل ما هو جديد... إنني أحب معاشرة الشباب. من يعرفهم يتعلم كثيراً من الأشياء الجديدة.

قال بيوتر بتروفتش ذلك وهو يلف السامعين بنظرة شاملة، آملاً أن يحظى كلامه بتأييدهم.

سأله رازوميخين:

– بأي معنى؟

فقال بيوتر بتروفتش وقد أسعده أن يُسأل:

– بالمعنى الجدي، بالمعنى الهام الأساسي. منذ عشر سنين كنت لا أزور بطرسبرج، صحيح أن جميع هذه الأشياء الجديدة، جميع هذه الإصلاحات وهذه الأفكار[٤٩]، قد وصلت إلى الأقاليم أيضاً. ولكن إذا أراد المرء أن يرى الأمور رؤية أوضح، رؤية أشمل، فلا بد له أن يكون ببطرسبرج. وعندي أن خير وسيلة للتعلم إنما هي ملاحظة أجيالنا الجديدة الفتية. وإني لأعترف بأنني قد ابتهجت كثيراً...

– ما الذي ابتهجت له على وجه التحديد؟

– سؤالك واسع قليلاً... قد أكون مخطئاً، ولكن يخيل إليّ أنني أجد الآن نظرة أوضح، وأجد قدراً من حس النقد أكبر، وأجد فكراً وضعياً أنمى وأوسع...

قال زوسيموف بغير اهتمام:

---

[٤٩] المقصود هنا هو الإصلاحات الكبرى التي تمت بين عامي ١٨٦١ و١٨٦٤، أي إلغاء القنانة، والإصلاح القضائي والجزائي، وإدخال نظام «الحكم الذاتي»، إلخ.

– هذا صحيح.

فردّ رازوميخين قائلاً:

– أكاذيب! ليس هناك أي فكر وضعي! إن الفكر الوضعي يتم اكتسابه بكثير من المشقة والعناء، وليس يهبط من السماء. ونحن أناس فقدنا عادة العلم والفعل منذ مائتي سنة أو نحو ذلك.

ثم أضاف يقول متجهاً بكلامه إلى بيوتر بتروفتش:

– صحيح أن الأفكار تختمر، وأن الرغبة في حسن العمل موجودة أيضاً مهما تكن صبيانية، حتى لقد نجد شيئاً من الاستقامة والشرف والأمانة، رغم أن عدد المحتالين والأوغاد لا يحصى ولا نهاية لهم. وأقرر أن الفكر الوضعي لا وجود له. أما الذين يملكون الفكر الوضعي فهم التجار وأغنياء الحرفيين.

قال بيوتر بتروفتش يردّ على رازوميخين وهو يشعر برضى واضح وارتياح لا يخفى:

– لا أشاطرك رأيك. صحيح أن هناك اندفاعات متطرفة، وأن هناك اختلافات شديدة، ولكن يجب أن نكون عادلين: إن هذه الاندفاعات المتطرفة تدل على أن أصحابها أناس مؤمنون صادقون، وتدل أيضاً على أن الظروف ليست هي الظروف التي يجب توافرها. ولئن لم يتحقق حتى الآن إلا القليل، فلأنه لم يتهيأ حتى الآن إلا وقت قصير، ناهيك عن قلة الوسائل. وفي رأيي شخصياً أنه قد تحقق منذ الآن شيء ما: انتشرت الأفكار الجديدة، الأفكار المفيدة، انتشرت مؤلفات جديدة مفيدة بدلا من المؤلفات الرومانسية الحالمة التي ذاعت في القديم. نضج الأدب، واستؤصلت أوهام كثيرة ضارة. بإيجاز: قطعنا الصلة بالماضي قطعاً حاسماً، وهذا وحده هو في رأي شيء هام...

دمدم راسكولنيكوف قائلاً:

– يردّد أقوالًا محفوظة حباً بالظهور!

لم يسمع بيوتر بتروفتش ما قاله راسكولنيكوف، فسأله مستوضحاً:

– نعم؟

ولكنه لم يحصل على جواب.

وأسرع زوسيموف يقول:

– هذا كله صحيح جداً.

قال بيوتر بتروفتش وهو ينظر إلى زوسيموف نظرة فيها لطف ووداعة:

– أليس كذلك؟

ثم اتجه إلى رازوميخين يقول له بلهجة تنم في هذه المرة عن الانتصار وتعبر عن الشعور بالتفوق، حتى ليكاد يخاطبه بقوله: «أيها الفتى»:

– عليك أن تسلّم بأن هناك سيراً إلى الأمام، أو أن هناك تقدماً على حدّ التعبير الرائج الآن، على الأقل باسم العلم والحقيقة الاقتصادية.

– كلام معاد مكرور!

– لا، ليس كلاماً معادا مكروراً.

كذلك قال بيوتر بتروفتش، ثم تابع يقول بتعجل لعل فيه إسرافاً:

– مثلاً، قالوا لنا حتى الآن: «أحب قريبك». فلنفرض أنني أحببته، فما الذي يترتب على ذلك؟ يترتب عليه أن أشطر معطفي شطرين فأعطيه أحدهما فنصبح كلانا عاريين نصف عري، وفقاً لما يقوله المثل الروسي: «من طارد أرنبين في آن واحد لن يدرك أياً منهما». أما العلم فإنه يقول: أحب نفسك قبل سائر الناس، لأن كل شيء في العالم قائم على المنفعة الشخصية[٥٠]. فإذا لم تحب إلا نفسك صرّفت شؤونك على نحو ما يجب أن تصرّفها ودبرت أمورك كما ينبغي أن تدبرها، فبقي معطفك كاملاً سليماً لم يمزق. وتضيف الحقيقة الاقتصادية إلى ذلك أنه كلما ازداد وجود الثروات الفردية في المجتمع، أي كلما كبر عدد المعاطف الكاملة، ازدادت الأسس التي يقوم عليها المجتمع متانة وصلابة، وازدادت ثروة المجتمع. معنى هذا أنني حين أجني خيراً لنفسي وحدي، فإنما أحصّل في الوقت نفسه خيرًا لجميع الناس، فينشأ عن ذلك أن قريبي ينال عندئذ أكثر من نصف معطف، ولا يتم ذلك عندئذ بفضل كرم فردي، بل يتم نتيجة لرخاء عام ورفاهية شاملة. الفكرة بسيطة، ولكنها لم تفرض نفسها – وا أسفاه! – إلا بعد وقت طويل، لأنها كانت محجوبة عن الأنظار بحماسة ساذجة وأحلام وهمية باطلة. ولم يكن المرء مع ذلك في حاجة إلى كثير من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء من أجل أن يدرك أن...

قاطعه رازوميخين يقول بخشونة:

– معذرة، أنا أيضاً لا أملك كثيراً من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء، فلنقف إذن عند هذا الحد، وحسبنا ما قلناه! أنا أنما تكلمت لأنني كنت أرمي إلى هدف معين، أما هذه الثرثرة كلها التي لا تفصح إلا عن أعجاب المرء بنفسه إعجاباً لذيذاً، وأما هذا الكلام المعاد المكرور الذي لا ينضب له معين، فذلك كله ما يزال يبعث في نفسي التقزز منذ ثلاث سنين حتى صرت احمرّ لا حين أقوله أنا فحسب، بل حين أسمع غيري يقوله أيضاً. لقد تسرعت كثيراً في إظهار ثقافتك وإبراز معارفك. وذلك أمر يمكن أن يُغفر لك،

---

[٥٠] إن لوجين يعرض هنا عرضاً عامياً نظرية «الأنانية العاقلة»، تلك النظرية المبسوطة في كتاب تشيرنيشفسكي: «ما العمل؟»

ولست ألومك عليه. ولكنني أردت أن أعرف من أنت، ذلك أن الذين تعلقوا بالقضايا العامة من الأوغاد الحقيرين قد بلغوا من فرط الكثرة والتنوع، وبلغوا من شدة الفساد كل ما لمسوه، في سبيل مصلحتهم، أنهم وسخوا كل شيء توسيخاً لا خلاص منه ولا يمكن محوه. وكفى هذا!..

قال السيد لوجين بوقار شديد:

– أتراك، أيها السيد الكريم، تريد أن تشير بهذه الصراحة الصارخة الخالية من أي تحرج إلى أنني أيضاً...

– رحماك، رحماك! كيف يمكنني أن... والآن، كفى!..

كذلك قطع رازوميخين كلامه، والتفت إلى زوسيموف التفاتاً جازماً، ليستأنف ما كان بينهما من حديث.

وملك بيوتر بتروفتش من الذكاء ما جعله يقبل هذا الجواب فوراً. وكان قد قرر، على كل حال، أن ينصرف بعد دقيقتين.

قال يخاطب راسكولنيكوف:

– أرجو للعلاقات التي بدأت بيننا الآن أن تتوطد مزيداً من التوطد حين تبل من مرضك، وبفضل الظروف التي تعرفها... أنني أتمنى لك تحسن الصحة قبل كل شيء...

لم يلتفت راسكولنيكوف اليه. وهم بيوتر بتروفتش أن ينهض.

قال زوسيموف يخاطب رازوميخين بلهجة قاطعة:

– لا شك أن أحد زبائنها هو الذي قتلها.

فأجاب رازوميخين موافقاً:

– لا شك! لا شك أن أحد زبائنها هو الذي قتلها.

إن بورفيري لا يطلع أحداً على خواطره، ولكنه يستجوب جميع الذين أودعوا عندها رهوناً...

سأل راسكولنيكوف بصوت عالي جداً:

– يستجوبهم؟

– نعم، لماذا تسأل هذا السؤال؟

– لا لشيء!

وسأل زوسيموف:

– أين يمكنه أن يجدهم؟

– سمّى له كوخ بعضهم. وهناك أسماء أخرى مسجلة على الأوراق التي لفت به الأشياء. وهناك آخرون جاءوا من تلقاء أنفسهم منذ علموا بالنبأ...

– يميناً أن الذي ضرب هذه الضربة لا بد أن يكون وغداً كبيراً، وغداً محنكاً، ذا خبرة! يا لها من جرأة! يا لها من عزيمة!

قال رازوميخين مقاطعاً:

– لا، بالعكس! وذلك بعينه هو ما يتوّهكم جميعاً. أنا أزعم أن القاتل أخرق ليس بذي تجربة ولا خبرة، وأن هذه الجريمة هي خطوته الأولى على هذا الطريق. لو افترضناه بارعاً حاذقاً لغدت جميع الأمور سلسلة من وقائع لا يمكن تفسيرها. أما إذا افترضناه غير ذي تجربة ولا خبرة، فإن المصادفة وحدها تكون هي التي أخرجته من الورطة وما أكثر ما تفعله المصادفات! لعله لم يتنبأ بالعقبات التي ستعترض سبيله، ولم

يتصور الحواجز التي سيصطدم بها! انظر كيف تصرف: لقد أخذ أشياء لا تزيد قيمة كل منها على عشرة روبلات أو على عشرين روبلاً، فملأ بها جيوبه، لقد نبش بين الخرق في صندوق العجوز، على حين أن الدرج الأعلى من الخزانة ذات الأدراج قد عُثر فيها على علبة تحوي ألفاً وخمسمائة روبل فضة عدا السندات والنقود الأخرى. حتى السرقة لم يحسنها. إنه لم يحسن إلا القتل!.. هذه خطوته الأولى على طريق الإجرام، أقول لك هذه خطوته الأولى! نعم، لقد طاش عقله وذهب صوابه... أؤكد لك أن ما أنقذه ليس هو الحساب بل المصادفة.

تدخل بيوتر بتروفتش في الحديث، فقال يسأل زوسيموف:

– أظن أنكم تتحدثون عن جريمة القتل التي وقعت مؤخراً وكان ضحيتها تلك المرأة العجوز، أرملة الموظف، أليس كذلك؟

وكان بيوتر بتروفتش يحمل بيده قبعته وقفازيه. غير أنه ما يزال يحب أن يرسل بعض الأقوال الملائمة الذكية قبل أن ينصرف. كان واضحاً أنه يهمه أن يخلف في نفوس سامعيه أثراً حسناً، فتغلب حب الظهور عنده على رجاحة العقل.

– هل سمعتَ عن هذه الحادثة؟

– طبعاً! إن جميع الجيران...

– هل تعرف التفاصيل؟

ـــ لا أستطيع أن أزعم أنني أعرف التفاصيل، غير أن ما يعنيني في هذه القضية إنما هو بعض ظروفها، أو بعض المشكلات التي تطرحها. لست أتكلم عن أن عدد الجرائم التي تُرتكب في الطبقات الدنيا قد ازداد ازدياداً كبيراً في السنوات الخمس الأخيرة، لا ولا أتكلم عن حوادث السطو وحوادث الحريق التي

تتعاقب في كل مكان بغير انقطاع. لا، لا أتكلم عن هذا، وإنما الشيء الذي يبدو لي غريباً هو أن عدد الجرائم يتزايد في الطبقات العليا أيضاً، على موازاة تزايده في تلك الطبقات الدنيا إن صح التعبير. هنا، طالبٌ سابق يهاجم عربة بريد[1] في الطريق الكبير، وهناك أناس ممن يحتلون مركزاً اجتماعياً حسناً، يصنعون أوراقاً مالية مزيفة، وهنالك أيضاً، في موسكو، تُعتقل جماعة بكاملها من الأفراد تزيف أوراق اليانصيب، ومن بين الجناة الرئيسين فيها أستاذ من أساتذة التاريخ العام[2]. وهنالك أخيراً، يُقتل موظف من موظفي سفاراتنا في سبيل الحصول منه على مال أو لأغراض أخفى من ذلك!.. فإذا كان قاتل تلك العجوز واحداً من أبناء الطبقات العليا – ولا بد أن يكون كذلك، لأن أبناء الشعب الفقير لا يرهنون، فيما أعلم، أشياء ذهبية – فكيف نفسّر إذن هذا التحلل الذي يعيث فساداً في الجزء المتمدن المتحضر من مجتمعنا؟

قال زوسيموف:

– إن للتبدلات الاقتصادية دخلاً كبيراً في حدوث هذه الظاهرة..

وقال رازوميخين مجيباً عن سؤال بيوتر بتروفتش:

– كيف نفسر هذا التحلل؟ الأمر بسيط: نفسره بفقدان الفكر الوضعي والروح العملية...

– أي؟

– قل لي: بماذا أجاب، في موسكو، أستاذ التاريخ العام ذاك حين سُئل لماذا يزيف أوراق اليانصيب؟ لقد أجاب بقوله: «ان جميع الناس يغتنون ويثرون بأية وسيلة من الوسائل، لذلك أردت أنا أيضاً أن أغتني وأن أثرى بأقصى سرعة». لا أتذكر الآن أقواله بنصها، ولكن معناها هو أنه أراد أن يجمع ثروة بأقصى

---

[1] «هنا، طالب سابق يهاجم عربة..»: يشير دوستويفسكي إلى هذه الواقعة في رسالة بعث بها إلى كاتكوف في شهر أيلول (سبتمبر) ١٨٦٥.

[2] «... أستاذ من أساتذة التاريخ العام»: نظر القضاء في هذه القضية وفصل فيها في شهر أيار (مايو) ١٨٦٥.

سرعة وبأقل تكلفة، دون أن يتحمل مشقة أو أن يبذل جهداً. نعم، لقد اعتاد الناس أن يعيشوا عالة على الآخرين، دون أن يحفلوا بشيء أو أن يكترثوا لشيء، واعتادوا أن يقتصروا على القيام بأعمال سهلة، فمتى آن الأوان ظهر كل واحد على حقيقته..

– ولكن هناك أخلاق... هناك مبادئ رغم كل شيء.

تدخل راسكولنيكوف على حين فجأة قائلاً:

– ما الذي يقلقك؟ هذه هي النتيجة التي تترتب على نظريتك نفسها!

– نظريتي أنا؟

– استخرج النتائج التي تترتب على المبدأ الذي وضعته منذ قليل، تجد أنه يجيز للإنسان أن يقتل الأخرين...

صاح لوجين يقول:

– أرجوك!..

قال زوسيموف:

– لا، ليس هذا صحيحاً.

كان راسكولنيكوف ما يزال راقداً، وكان شاحباً شحوباً شديداً، وكانت شفته العليا ترتجف، ويتنفس بمشقة وعسر. تابع لوجين كلامه. فقال متعاليا:

– هنالك حدود معتدلة معقولة. ليست الفكرة الاقتصادية حضاً على القتل، وإذا فرضنا أن...

فقاطعه راسكولنيكوف على حين فجأة من جديد يسأله بصوت خفيف مرتجف من شدة الغضب، بصوت يشوبه نوع من فرح خبيث، يشوبه نوع من التلذذ بالإهانة:

– هل صحيح أنك قلت لخطيبتك، ساعة وافقت على زواجها منك، إن ما يسعدك مزيداً من السعادة أنها فقيرة معدمة... لأن من المفيد جداً أن ينتشل الرجل امرأة من وهدة الشقاء، ليسيطر عليها بعد ذلك عن طريق الخيرات التي يمن بها عليها؟

صاح لوجين يقول بصوت شرير حانق، وقد خرج عن طوره:

– أيها السيد الكريم، إنك تشوه فكرتي. معذرة. غير أن من واجبي أن أعلن لك أن الشائعات التي بلغتك، أو قل الشائعات التي نقلت إليك عمداً، لا تقوم على أي أساس من الصحة... وأنني... أشتبه... الخلاصة... أشتبه في أن هذا السهم... الخلاصة... إنما أرسلته أمك!... على كل حال... إنني بغض النظر عن هذا... قد لاحظت... رغم ما لأمك من مزايا عظيمة... إنها مشبوبة العواطف رومانسية النفس قليلًا...

لكنني ما كان لي أن أتخيل أنها يمكن أن تنظر إلى الأمور هذه النظرة المشوهة التي صورها خيالها... وعلى كل حال، على كل حال...

صرخ راسكولنيكوف يقول له وهو ينهض عن وسادته ويحدّق إليه بعينين تقدحان شررا:

– هل تريد أن أقول لك؟

– ماذا تقول لي؟

قال لوجين ذلك، وانتظر جواب راسكولنيكوف متحدياً بمظهر من أهين منذ قليل، وخيم الصمت بضع ثوان.

قال راسكولنيكوف:

– اعلم أنك... إذا تجرأت مرة أخرى، فقلت في حق أمي كلمةً واحدة، فلأنزلنّك تدحرجاً على السلم...

صاح رازوميخين يقول لراسكولنيكوف:

– ماذا دهالك؟

فقال راسكولنيكوف:

– نعم، هكذا.

اصفر لوجين، وعضّ على شفته، ثم قال متمهلاً محاولاً أن يكظم غيظه بكل ما أوتي من قوة، لأن الغضب كان يخنقه خنقاً، قال:

– اسمع يا سيد. لم يفتني أن ألاحظ منذ قليل، حين دخلتُ، الاستقبال الخشن الذي من طرفك، ولكنني تعمدت أن أبقى لأرى إلى أي حد سوف تمضي... ولقد كان يمكن أن أغفر أشياء كثيرة لإنسان مريض تربطني به قرابة... أما لك أنت، فلن أغفر... لن أغفر في يوم من الأيام...

صاح راسكولنيكوف يقول:

– لست مريضاً!

– ذنبك إذن أعظم!

– اذهب إلى جهنم!

ولكن لوجين كان قد خرج دون أن يكمل كلامه. تسلل بين المائدة والكرسي من جديد، ونهض له رازوميخين في هذه المرة عن كرسيه، ليفسح له مجال المرور. خرج لوجين حتى دون أن ينظر إلى أحد ودون أن يحيى برأسه زوسيموف الذي كان منذ برهة طويلة يومئ إليه برأسه مهيباً به أن يدع المريض وشأنه، وقد خرج وهو يرفع قبعته إلى مستوى كتفه على سبيل الاحتياط، لحظة انحنى ليجتاز عتبة الباب. كان واضحاً من طريقة حنية ظهره أنه انصرف وهو يحمل شعوراً بأنه أهين إهانة فظيعة.

قال رازوميخين لراسكولنيكوف وهو يهز رأسه متحيرًا مرتبكًا:

– هل يمكن أن يتصرف أحد هذا التصرف؟

فصاح راسكولنيكوف يقول خارجاً عن طوره:

– دعوني، دعوني جميعاً! ألا تريدون أن تتركوني وشأني أيها الجلّادون؟ أنا لست خائفاً منكم... لست الآن خائفاً من أحد. اخرجوا من هنا! أريد أن أكون وحيداً، وحيداً، وحيداً...

قال زوسيموف وهو يومئ لرازوميخين:

– فلننصرف!

– كيف؟ هل يمكن أن نتركه وهو على هذه الحال؟

فكرر زوسيموف قوله جازماً:

– فلننصرف.

وخرج.

فكّر رازوميخين لحظة، ثم مضى يلحق بصاحبه زوسيموف.

قال زوسيموف وقد صارا على السلّم:

– لو لم نطعه لساءت حاله مزيداً من السوء. ما ينبغي أن نحنقه.

– ماذا أصابه؟

– ليت هزّة سارة تصيبه. نعم، ذلك ما هو في حاجة إليه. لقد استرد قواه منذ قليل... أظن أن هناك أمراً يشغل باله، أظن أن هناك فكرة تثقل على صدره، وتحاصر فكره... وذلك ما أخشاه! لا شك أن الأمر كذلك...

– لعل للسيد بيوتر بتروفتش دخلاً فيما هو فيه. إن الحديث الذي جرى بينهما يدل على أن بيوتر بتروفتش سيتزوج أخت روديا، وأن روديا قد أبلغ هذا النبأ برسالة وصلت إليه قبيل مرضه ببرهة وجيزة..

– نعم، إن الشيطان هو الذي قاد هذا الرجل إليه، في هذا اليوم عينه! لعل هذا الرجل قد أفسد الآن كل شيء. ولكن قل لي: هل لاحظت أن روديا كان لا يكترث بشيء، ولا يخرج عن صمته إلا لأمر واحد كان يخرجه عن طوره هو جريمة القتل تلك؟

أجاب رازوميخين موافقاً:

– نعم، نعم، لاحظت ذلك بوضوح. إن هذه الجريمة تهمه، بل وترعبه... ولكن مردّ ذلك إلى أنه في ذلك اليوم نفسه الذي مرض فيه قد ارتاع في مكتب رئيس الشرطة، حتى لقد أغمى عليه.

– ستقصّ عليّ ذلك تفصيلاً في هذا المساء، وسأقول أنا لك شيئاً حينذاك. إن حالته تعنيني كثيراً. سأجيء أستطلع أخباره بعد نصف ساعة. مهما يكن من أمر، فلا خوف عليه من أن يُصاب باحتقان...

– شكراً لك. وفي أثناء هذا الوقت، سأنتظر أنا عند باشنكا، وسأكلف ناستاسيا بمراقبته..

نظر راسكولنيكوف إلى ناستاسيا ضجراً نافد الصبر. إن ناستاسيا لم تشأ أن تنصرف.

قالت له:

– هل لك بقليل من الشاي الآن؟

– بل فيما بعد. الآن أريد أن أنام. اتركيني!

قال راسكولنيكوف ذلك، واستدار نحو الحائط بحركة تشنجية. وخرجت ناستاسيا.

الفصل السادس

ولكن ما أن خرجت حتى نهض فأوصد الباب بالقفل وفضّ صرّة الملابس التي أتى بها رازوميخين وأعاد ربطها، ثم أخذ يلبس. شيء غريب: لكأن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة هادئاً كل الهدوء. لم يبق فيه أثر من ذلك الهذيان الذي يشبه أن يكون جنونا والذي كان يسكن فيه منذ قليل، ولا بقي فيه شيء من ذلك الرعب الشديد الذي استولى عليه في الآونة الأخيرة. كانت تلك دقيقة من الهدوء الغريب الذي استولى عليه فجأة. إن حركاته الدقيقة الواضحة تدل على عزم قوي. وكان يدمدم قائلاً بينه وبين نفسه: «في هذا اليوم، في هذا اليوم نفسه». كان يدرك مع ذلك أنه ما يزال ضعيفاً، غير أن توتراً نفسياً شديداً كان يهب له قوّة وثقة. وكان من جهة أخرى يأمل أن لا يتهاوى في الشارع. فلما انتهى من ارتداء ثيابه الجديدة، نظر إلى المال الموضوع على المائدة، ففكر ثم وضعه في جيبه. كان هناك خمسة وعشرون روبلا. وتناول كذلك النقود النحاسية الصغيرة الباقية من الروبلات العشرة التي وقفها رازوميخين على شراء الملابس. ثم فتح الباب برفق، وخرج من الغرفة، وهبط السلم وهو يلقي نظرة على المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً تماماً: كانت ناستاسيا مديرة له ظهرها مائلة تنفخ على سماور مولاتها، فلم تسمع شيئاً. ومن ذا الذي كان يمكن أن يفترض، على كل حال، أن راسكولنيكوف قد يخرج؟ وما انقضت دقيقة واحدة حتى كان راسكولنيكوف في الشارع.

الساعة تقارب الثامنة، والشمس تغرب، والجو خانق كما كان بالأمس، ولكن راسكولنيكوف كان يستنشق، بمهم شديد، هذا الهواء المعفِّر العفن الموبوء الذي تنشره المدينة الكبيرة. أخذ يشعر بدوار خفيف. وهذا نوع من طاقة وحشية يسطع فجأة في عينيه الملتهبتين، وينعكس على وجهه المهزول المزرقّ. كان لا يعرف إلى أين يجب أن يذهب، لا ولا يخطر بباله أن يلقي على نفسه هذا السؤال. كان لا يعرف إلا شيئاً واحداً هو أن كل شيء يجب أن ينتهي في هذا اليوم نفسه، دفعة واحدة، وفوراً؛ وأنه بدون ذلك لن

يعود إلى بيته، لأنه لا يريد أن يعيش هكذا. أما كيف ينتهي من ذلك كله، وبأية وسيلة ينتهي من ذلك كله، فإنه لم يعرف سبيلاً إلى هذا ولم يكن يريد أن يفكر في هذا! لقد كان يدفع عن نفسه هذه المسألة الأليمة، غير أنه يحس ويعلم أن كل شيء يجب أن يتغير بطريقة أو بأخرى «مهما يكن من أمر، ومهما يحدث من حادث». هذا ما كان يكرره لنفسه بيأس وثقة وعناد.

وقادت خطاه عادةٌ قديمة من عاداته، فسار في الطريق التي يسلكها في نزهاته المألوفة، واتجه رأساً نحو «سوق العلف». حتى إذا أوشك أن يصل إليه رأى على أرض الشارع شابًا أسمر يعزف على أغرن يدوي لحنًا عاطفيًا وهو واقف أمام أحد الدكاكين. وكان الشاب يصاحب بالعزف غناء صبية في نحو الخامسة عشرة من عمرها، قد وقفت أمامه على الرصيف ترتدي تنورة منتفخة وخماراً وقفازين وقبعة من قش تزينها ريشة حمراء بلون النار؛ ومجموع ثيابها يبدو عتيقاً بالياً. كانت الصبية تغني بصوت مغنية من مغنيات الشارع، وهو صوت مصدّع لكنه ممتع قوي، وما تزال تمعن في الغناء آملةً أن ينفحها صاحب الدكان كوبكين. وقف راسكولنيكوف إلى جانب شخصين أو ثلاثة أشخاص كانوا يصغون إلى الغناء، فأصغى هو أيضاً، ثم أخرج قطعة نقدية قيمتها خمسة كوبيكات فدسّها في يد الصبية. فما كان من الصبية إلا أن توقفت عن الغناء عند النغمة التي كانت قد بلغتها، وهي النغمة الأقوى علواً والأبلغ تأثيراً، ثم صرخت تقول للعازف بصوت جاف: «كفى!»؛ واستأنف الاثنان سيرهما إلى الدكان التالي.

اتجه راسكولنيكوف بالكلام فجأة إلى رجل كهل كان يسمع لعزف الأرغن إلى جانبه، وكان يبدو أنه متنزه هائم على وجهه، فقال له:

– هل تحب أغاني الشوارع؟

فنظر إليه الرجل مبهوتاً.

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال له وكأن الأمر لا شأن له بغناء الشوارع البتة:

– أنا أحب أن أسمع الغناء على صوت أرغن يدوي، في ليلة حالكة من ليالي الخريف، ليلة رطبة باردة، رطبة على وجه الخصوص، بينما المارّة، قد ازرقّت وجوههم جميعاً حتى لكأنهم مرضى، ولا سيما حين ينهمر ثلج ذائب يتساقط قائما لا تهب عليه نسمة من ريح، فتسطع رؤوس مصابيح الغاز من خلال الثلج المنهمر...

قال السيد مدمدماً وقد روعه السؤال مثلما روعه هذا المظهر الغريب في راسكولنيكوف:

– لا أدري!... معذرة..

ومضى ينتقل إلى الجهة الأخرى من الشارع.

سار راسكولنيكوف قدماً، فوصل إلى ناصية «سوق العلف»، إلى ذلك المكان نفسه الذي كان قد سمع فيه البائع وزوجته اليزافيتا. ولكن البائع وزوجته لم يكونا هناك في ذلك الوقت. تعرف راسكولنيكوف المكان، فوقف، ونظر حوله، ثم اتجه إلى شاب يلبس قميصاً أحمر كان يتثاءب عند مدخل دكان لبيع الدقيق فقال له:

– هنا، عند هذه الناصية، يعمل بائع وامرأته، هه؟

فأجابه الفتى وهو يزوره بنظره:

– يجيء إلى هنا باعة كثيرون لا يُحصى لهم عدد!

– ماذا يسمونه؟

– يسمونه باسمه.

– وأنت، ألست من زارايسك؟ من أي إقليم أنت؟

ألقى الفتى نظرة أخرى إلى راسكولنيكوف ثم قال:

– منطقتنا يا صاحب السعادة ليست إقليماً بل مقاطعة، وإذ إن أخي هو الذي يسافر، وأبقى أنا في الدار، فإنني لا أعرف شيئاً. أرجو أن تعذرني يا صاحب السعادة!

– هل المحل الذي أراه في الطابق الأعلى مطعم؟

– بل هو خمّارة... وفيها بلياردو... وتجد فيه حتى أميرات... هو محل عظيم!

مضى راسكولنيكوف ينتقل إلى الجهة الأخرى من الميدان. وهناك، عند الزاوية، كان يجتمع جمهور كثيف ليس فيه إلا فلاحون. تسلّل راسكولنيكوف إلى حيث يتكاثف الجمهور أكبر تكاثف، وأخذ يتفحص الوجوه. كان يتمنى أن يكلم كل واحد من هؤلاء الناس، لا يدري لماذا! ولكن الفلاحين لم يلتفتوا إليه. كانوا يحتشدون جماعات صغيرة تتحادث متمازحة. وقف راسكولنيكوف لحظة يفكر، ثم مضى يمنة في اتجاه شارع «ف...». حتى إذا غادر «سوق العلف» دخل في زقاق ضيق...

سبق له كثيراً أن سلك هذا الزقاق القصير المنحني الذي يصل بين الميدان وبين شارع سادوفايا. لقد كان يحب في الآونة الأخيرة، حين كان كل شيء يثير فيه الاشمئزاز والتقزز، أن يتجول في هذه النواحي، «نشدانا لمزيد من الاشمئزاز والتقزز». ولكنه يسلك الآن هذا الزقاق دون أن يفكر في أي شيء. إن في هذا المكان عمارة كبيرة ليس فيها إلا خمارات ومطاعم ومقاه، تخرج منها في كل لحظة نساء حاسرات الرؤوس يرتدين ثياباً خفيفة، ويحتشدن جماعات في مكانين أو ثلاثة على الرصيف ولا سيما قرب مداخل الأقبية حيث يكفي المرء أن يهبط درجتين حتى يصل إلى بيت من بيوت اللذة. إن في أحد هذه البيوت الآن جلبة كبيرة تجتاح الشارع كله: فهناك عزف على القيثارة، وغناء، ومرح بلغ ذروته؛ وعند المدخل تزدحم نساء

كثيرات، فبعضهن جالسات على الدرجات، وبعضهن جالسات حتى على الرصيف، وبعضهن واقفات يثرثرن. وغير بعيد من ذلك المكان، يسير على أرض الشارع جندي سكران مترنح، قد وضع في فمه سيجارة، وراح يشتم بصوت عال. كان كأنه يريد أن يدخل مكاناً ما، ولكنه أصبح لا يعرف أين. وهذا رجل يرتدي أسمالا رثة قد طفق يتبادل الشتائم مع رجل آخر يرتدي أسمالًا رثة أيضاً. وهذا شخص قد بلغ السكر منه كل مبلغ فاستلقى يرقد على أرض الشارع عرضاً. وقف راسكولنيكوف قرب جماعة كبيرة من النساء. كنّ يثرثرن بصوت أبحّ. إنهن جميعاً حاسرات الرؤوس، يرتدين فساتين من قماش خفيف مشجّر، وينتعلن أحذية من جلد الماعز. منهن من تجاوزن الأربعين من العمر غير أن منهن صبايا في السابعة عشرة. وجميعهن تقريبا يحملن آثار كدمات.

اجتذبته الأغاني والجلبة الصادرة عن القبو، دون أن يعرف لماذا. في وسط الضحكات والصرخات، كان يُسمع صوت رجل يغني بصوت نحيل حاد ويصاحب غناءه المرح عزف على قيثارة، بينما أعقاب الأرجل تقرع الأرض قرعاً قوياً لإظهار الإيقاع. مال راسكولنيكوف نحو الباب، وألقى من على الرصيف نظرات مستطلعة، وراح يصغي مظلم النفس شارد الفكر. كانت الأغنية التي يصدح بها الصوت النحيل الحاد تقول:

يا حارسي الجميل

لا تضربني ظلمًا بغير سبب

شعر راسكولنيكوف برغبة رهيبة في سماع هذه الأغنية، كأن المسألة كلها في نظره هي هذه!

قال يسأل نفسه: «ماذا لو دخلت؟ إنهم يضحكون مقهقهين. إنهم سكارى. ماذا لو سكرت أنا أيضاً؟»

سألته إحدى النساء بصوت واضح لكنه أبح بعض الشيء:

– ألا تدخل يا سيدي العزيز؟

كانت المرأة شابة، بل كانت بين هذه الجماعة من النساء المرأة الوحيدة التي لا يبعث منظرها على النفور البتة.

قال وهو ينتصب وينظر إليها:

– ما أجملك!

ابتسمت المرأة. لقد سرّها هذا المديح سروراً عظيماً. وقالت له:

– أنت أيضاً شاب جميل.

فقالت امرأة أخرى تعارض بصوت أجش:

– لكنه نحيل جداً. خارج من المستشفى، هه؟

وكان يمرّ فلاح له وجه سكّير مرح ماكر، يرتدي سترة خلت أزرارها، فقال فجأة:

– يظهر أنهن بنات من أعلى طبقة. على الرغم من أن أنوفهن كبيرة!

وأضاف:

– أرأيت إلى هذا المرح ما أعظمه!

قالت له إحداهن:

– هيا ادخل ما دمت قد جئت!

– فوراً يا حلوة، فوراً.

أجابها الفلاح بذلك، وهرول يهبط الدرجات.

وأراد راسكولنيكوف أن يستأنف سيره. فلما هم أن يستدير لينصرف، صرخت البنت تقول له:

– اسمع يا سيد!

– ماذا؟

– فارتبكت، وقالت له:

– سيسعدني دائماً، أيها السيد، أن أقضي معك بضع ساعات؛ ولكنني... أشعر الأن بخجل شديد منك. هلا أهديت إليّ ستة كوبيكات أشرب بها كأساً، أيها الفارس الجميل!

فأخرج راسكولنيكوف من جيبه ما وقع تحت يده: ثلاث قطع نقدية من فئة الخمسة كوبيكات.

– آ... يا للسيد السخي!

– ما اسمك؟

– لن يكون عليك إلا أن تسأل عن دوكليدا.

قالت امرأة من جماعة النساء، وهي تومئ إلى دوكليدا بإشارة من رأسها:

– ما أعجب هذه الأساليب! كيف ترضى هذه البنت أن تستعطى هذا الاستعطاء؟ لو كنت في مكانها لأثرت أن أدفن نفسي في التراب من شعوري بالخزي والعار!

نظر راسكولنيكوف إلى المرأة التي قالت هذا الكلام، نظرة مستطلعة مستغربة. هي مومس في نحو الثلاثين من عمرها، مجدورة الوجه منتفخة الشفة العليا، تغطى بشرتها كدمات زرقاء. ولقد قالت عتابها بلهجة هادئة جادة.

تساءل راسكولنيكوف وهو يستأنف سيره: «تُرى أين قرأت أن رجلاً محكوماً عليه بالإعدام قد قال أو تخيل قبل إعدامه بساعة أنه لو اضطر أن يعيش في مكان ما، على قمة، فوق صخرة، بموضع لا تزيد مساحته على موطئ قدم، وكان كل ما حوله هوةً سحيقة، خضماً كبيراً، ظلمات أبدية، عزلةً خالدة، زوابع لا تنقطع، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطئ القدم هذا مدى الحياة، بل ألف سنة، بل أبد الدهر، لظل مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه العيشة على أن يموت فوراً، أن يعيش فحسب، أن يعيش! أن يعيش أي عيشة، ولكن أن يعيش.. نعم، أين قرأت هذا؟ ما أصدق هذا الكلام! رباه، ما أصدق هذا الكلام!...»[٥٣].

قال راسكولنيكوف ذلك، ثم أردف بعد لحظة:

– الإنسان جبان، ولكن سافل أيضاً ذلك الذي يصفه بالجُبن لهذا السبب!

ودخل في شارع آخر. فما لبث أن قال لنفسه:

«هه! هذا «قصر الكريستال»! لقد تكلم عنه رازوميخين منذ قليل... ولكن ماذا كنت أريد أن أعمل؟ نعم نعم، كنت أريد أن أقرأ... لقد ذكر زوسيموف أنه قرأ في الجرائد...».

– هل عندكم جرائد؟

[٥٣] لا شك في أن هذه التأملات التي تمرّ بذهن رجل محكوم عليه بالإعدام إنما احتفظ بها دوستويفسكي من الدقائق التي عاشها قرب المقصلة في ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٩.

كذلك سأل راسكولنيكوف وهو يدخل حانة واسعة، نظيفة، ذات عدة قاعات، ولكنها مع ذلك خالية إلا من عدد قليل من الناس. كان هنالك شخصان أو ثلاثة يحتسون الشاي؛ وفي قاعة أخرى، في آخر الحانة، جلست جماعة من أربعة أشخاص يشربون الشمبانيا، اعتقد راسكولنيكوف حين رآهم أن زاميوتوف أحدهم. ولكن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً كل الثقة من صدق رؤيته، على مسافة بعيدة هذا البعد.

قال لنفسه: «وأي ضير في هذا على كل حال؟»

سأله الخادم:

– هل تريد فودكا؟

فقال له راسكولنيكوف:

– بل هات لي شاياً، وجئتني بجرائد، جرائد قديمة، جرائد الأيام الخمسة الأخيرة. سوف أنفحك بقشيشاً سخياً.

– حاضر. إليك الآن جرائد اليوم. وهل تريد فودكا أيضاً؟

ووصلت الجرائد والشاي. جلس راسكولنيكوف وانكب على الجرائد باحثاً منقباً: «أيستلر – أيستلر – الأزتيكيان – أيستلر. – بارتولا. – ماسيمو. – الأزتيكيان. – أيستلر –»[٥٤] إلى الشيطان هذا كله... آ... أخيراً... هذه هي الأنباء المتفرقة... «سقوط في سلم»، «تاجر سكران يحترق حياً»، و«حريق في حي

---

[٥٤] كان رجل اسمه إيستلر قد افتتح في ضواحي بطرسبرج حانة على الطراز الريفي فكان ينشر إعلانات كثيرة عنها في الجرائد. أما الإعلانات التي يقرأ راسكولنيكوف عناوينها «ماسيمو – بارتولا – الازتيكيان» فهي عن رجل أمريكي اسمه موريس كان يعرض في صيف ١٨٦٥ بمدينة سان بطرسبرج «آخر شخصين من آزتيكيي المكسيك»، أحدهما بنت اسمها بارتولا، والثاني صبي اسمه ماسيمو. وكان الرجل الأمريكي ينشر إعلانات في الصحف كل يوم عن هذا العرض لاجتذاب المشاهدين.
وأما «حريق في... وحريق في... وحريق آخر في...»، فهي أنباء حرائق كثيرة شبت بمدينة سان بطرسبرج في ذلك الصيف نفسه من عام ١٨٦٥، لذلك كتبت جريدة «الصوت» في عددها ١٦٦ تقول: «جميع الصحف ملأى بوصف حرائق خطيرة كثيراً أو قليلاً».

الرمال»، «حريق في حي بطرسبرجسكايا»، «حريق آخر في حي بطرسبرجسكايا» «أيستلر.. أيستلر.. أيستلر.. ماسيمو...» آ... وصلنا..

وجد راسكولنيكوف أخيراً ما كان يبحث عنه، وأخذ يقرأ. إن الأسطر تتراقص أمام عينيه، ولكنه قرأ «النبأ» حتى نهايته، وطفق يبحث، في شراهة ونهم، عن تفاصيل جديدة في الأعداد التالية، فكانت يداه ترتجفان من نفاد الصبر وهو يتصفّح الجرائد. وفجأة جاء أحد فجلس إلى مائدته، بقربه. رفع راسكولنيكوف عينيه. أنه زاميوتوف، زاميوتوف نفسه، بلا تبدل ولا تغير، زاميوتوف، بخواتمه، وسلاسله، والفرق الذي يشطر شعره الأسود العكف المطيّب، والصديرة الأنيقة، والبدلة القديمة قليلاً، والقميص الذي ذهب بعض رونقه. كان زاميوتوف مرحاً، أو قل على الأقل أنه كان يبتسم بكثير من المرح والطيبة. وكان وجهه الأسمر يبدو ساخناً بعض السخونة من الشمبانيا التي شربها.

بدأ يتكلم مدهوشاً فقال لراسكولنيكوف بلهجة من يعرفه منذ مدة طويلة:

– كيف؟ أأنت هنا؟ أمس قال لي رازوميخين أنك لم تفق من غيبوبتك. شيء عجيب. هل تعرف أنني زرتك أثناء مرضك؟

كان راسكولنيكوف يعرف أن زاميوتوف سيتعرض له. فوضع الجرائد جانبا، والتفت إليه. إن ابتسامة ساخرة تطوف بشفتيه، ويرى المرء في هذه الابتسامة، منذ الآن، صبراً نافذاً وغيظاً شديداً.

أجابه يقول:

– أعرف أنك زرتني. حُكي لي هذا. حتى لقد بحثت عن جوربي. ولكن هل تعلم أن رازوميخين مجنون بك، قال لي إنكما ذهبتما معاً إلى عند لويزا ايفانوفنا... نعم، تلك التي حاولتَ أن تدافع عنها في ذلك اليوم،

غامزاً «الضابط بارود» الذي لم يفهم من غمزك شيئاً. ألا تتذكر؟ كيف أمكن أن لا يفهم أن الإشارة كانت واضحة، هه؟

– يا له من رجل صخّاب!

– من؟ الضابط بارود؟

– بل صديقك رازوميخين.

– إنك تعيش حياة فرحة يا سيد زاميوتوف. تستطيع أن تذهب إلى الأماكن الممتعة اللذيذة دون أن تنفق قرشاً واحداً. قال لي: من ذلك الذي قدّم لك الشمبانيا منذ قليل؟

– نعم، شربنا شمبانيا...

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ساخراً:

– أعرف... هذه أجورك. أنك تجني نفعاً من كل شيء.

ثم أضاف وهو يربت على كتف زاميوتوف:

– لا ضير في هذا، يا صاحبي، لا ضير... أنا لم أقل ما قلته عن نية سيئة خبيثة، وإنما قلته عن «محبة ومودة، من باب التسلية»، كما قال الدّهان حين كان يضرب ميتكا. أنت تعرف هذا في قضية مقتل العجوز..

– ولكن كيف تعرفه أنت؟

– أنا؟ ربما كنت أعرف أكثر مما تعرف.

– أمرك عجيب... أغلب الظن أنك ما تزال مريضاً. ما كان ينبغي لك أن تخرج!

– أيبدو لك أمري عجيباً؟

– نعم. ما هذا؟ أكنت تقرأ الجرائد؟

– نعم.

– تتحدث الجرائد كثيرا عن حرائق.

– نعم، ولكن ليست الحرائق هي التي تهمني أنا!

قال ذلك ونظر إلى زاميوتوف نظرة ملغزة، وعادت بسمة ساخرة تعقف شفتيه، ثم أضاف وهو يغمز بعينه:

– لا، ليست الحرائق هي التي تهمني. أعترف أيها الشاب اللطيف أنك تحترق شوقاً إلى أن تعرف ماذا كنت أقرأ!

– غير صحيح! لقد ألقيت عليك ذلك السؤال كما يمكن أن ألقي عليك أي سؤال آخر. أليس من حق أحد أن يلقي سؤالا؟ ما بالك تبلغ هذا المبلغ من...

– اسمع، أنت رجل متعلم، مثقف، هيه؟

أجاب زاميوتوف بوقار:

– قطعت في المدرسة الثانوية ست سنين.

– ست سنين؟ يا للفتى الظريف؛ وإلى ذلك في شعره فرق، وفي أصابعه خواتم... هو رجل غني.. يا للشاب اللطيف!

قال راسكولنيكوف ذلك وانفجر يضحك أمام أنف زاميوتوف ضحكة عصبية. فتراجع زاميوتوف إلى وراء، لا لأنه أنزعج بل لأنه دُهش.

كرر يقول بلهجة الجد:

– حقاً إن أمرك عجيب! كأنك ما تزال تهذي!

– أنا؟ أهذي؟ أخطأ ظنك أيها الفتى الظريف! أمري عجيب، هه؟ أنا أثير فضولك، أليس كذلك؟ هه؟ أأثير فضولك؟

– نعم!

– الخلاصة... أنت تريد أن تعرف عم كنت أبحث، تريد أن تعرف ماذا كنت أقرأ، أليس كذلك؟ انظر كم عدداً من الجرائد طلبت! هذا يبعث على اشتباه قوي، هه؟

– هلّا قلت إذاً!...

– سأقول لك فيما بعد. أما الآن، يا صديقي العزيز، فإنني أعلن لك... عفواً... بل «أعترف» لك... لا... ليس هذا هو التعبير الصحيح... إنما التعبير الصحيح هو: «أدلي بإفادتي، وتسجل أنت». نعم هذا هو التعبير الصحيح. وهاأنذا أدلي لك بإفادتي فأقول إنني أردت أن أقرأ، أن أنقب، وأن أمعن في التنقيب...

هنا ضيّق راسكولنيكوف عينيه وتوقف عن الكلام برهة ثم استأنف يقول همساً وهو يسرف في تقريب وجهه من وجه زاميوتوف:

– أنا أمعن في التنقيب – وأنا ما جئت إلى هنا إلا لهذا الغرض – عن جميع الأخبار التي تتصل بمقتل العجوز أرملة الموظف.

كان زاميوتوف يحدّق إلى عيني راسكولنيكوف، دون أن يقوم بأية حركة، دون أن يبعد وجهه عن وجهه. إن الشيء الذي أثار دهشة زاميوتوف بعد ذلك أكثر من كل ما عداه، هو أن الصمت بينهما دام عندئذ دقيقة كاملة، دون أن يكف أحدهما عن التحديق إلى صاحبه والتفرس فيه.

صاح زاميوتوف فجأة وقد نفد صبره وأصبح لا يعرف ماذا يجب أن يظن:

– طيب! وهل يعنيني أنا أن تقرأ أنت هذا النبأ أو ذاك من الأنباء؟

فدمدم راسكولنيكوف يقول دون أن يحرك ساكناً بسبب صيحة زاميوتوف:

– إن الأمر يتصل بتلك العجوز نفسها التي أغمي عليّ في قسم الشرطة منذ جرى الحديث عليها. نعم، لحظة جرى الحديث عليها. أفهمت الأن؟

قال زاميوتوف وقد كاد يجنّ جنونه:

– ماذا يجب أن أفهم؟ ما الذي يجب أن أفهمه؟

فما أن سمع راسكولنيكوف هذا حتى تبدل وجهه الهادئ الساكن في ثانية واحدة، ثم إذا هو ينفجر ضاحكاً بعصبية كما انفجر ضاحكاً منذ قليل، حتى لكأنه لا يستطيع أن يمسك عن الضحك. وفي مثل وميض البرق سرعة، طافت في خياله بوضوح هائل ذكرى الإحساس الذي شعر به من قبل، حين كان واقفاً وراء الباب، ممسكاً فأسه، يرى المزلاج يتهزز، بينما كان الرجلان، في الجهة الأخرى من الباب، يشتمان ويحاولان فتح الباب، فأحب هو على حين فجأة أن يهينهما، وأن يكيل لهما سيلاً من الشتائم، وأن يمدّ لهما لسانه، وأن يضحك، أن يضحك، أن يضحك!

قال زاميوتوف:

– إما أنك مجنون، وإما أنك...

ولكنه أمسك عن إتمام كلامه، كأن فكرة قد ومضت في فكره على حين بغتة.

– وإما ماذا... إما ماذا؟ ماذا؟ هيا، قل!

قال زاميوتوف غاضباً:

– لا شيء. كل هذا سخف!

وصمت الاثنان. إن راسكولنيكوف، بعد انفجاره المفاجئ، وضحكته العصبية، قد أصبح حزيناً حالماً على حين فجأة. وها هو ذا يضع كوعيه على المائدة، ويسند رأسه بيده. لقد بدا عليه أنه نسي زاميوتوف نسيانا تاما. ودام الصمت برهة طويلة.

قال زاميوتوف:

– لماذا لا تشرب الشاي؟ سوف يبرد...

– ماذا؟ الشاي؟ نعم..

وقرّب راسكولنيكوف الشاي إلى شفتيه، وازدرد لقمة من خبز، حتى إذا نظر إلى زاميوتوف بدا عليه أنه تذكر كل شيء فجأة، وأنه يطرد عنه خموده وخوره. وعلى الفور استرد وجهه ما كان يعبر عنه منذ قليل من سخرية. واستمر يشرب الشاي.

قال زاميوتوف:

– أمثال هذه السرقات تتكاثر في هذه الأيام. إليك هذا المثال: لقد قرأت في الآونة الأخيرة في «أخبار موسكو» أنه قبض على عصابة كاملة من مزيفي النقد. إنهم شركة حقيقية تقوم بتزييف الأوراق المالية.

فأجابه راسكولنيكوف هادئاً:

– قرأت هذا منذ شهر. هذه قصة قديمة.

ثم أضاف مبتسماً:

– في رأيك إذًا إنهم لصوص محتالون!

– لصوص محتالون طبعًا!

– لصوص محتالون؟ أما أنا فأرى أنهم أطفال، أرى أنهم أغرار سذّج، لا لصوص محتالون. أهو أمر طبيعي أن يجتمع نحو خمسين شخصاً لغاية كهذه الغاية؟ لو كانوا ثلاثة لكان هذا وحده كبيراً. وحتى في هذه الحالة لا بد أن يكون كل واحد واثقاً بالاثنين الآخرين أكثر من ثقته بنفسه. إذ يكفي أن يزل لسان أحد منهم أثناء سكر، فيثرثر قليلاً، حتى يفسد الأمر كله. نعم، سذج أغرار! ولولا أنهم سذج أغرار لما عهدوا إلى أناس لا يستحقون الثقة بأن يذهبوا إلى البنوك يبدلون أوراقهم المالية. هل يُعهد بمهمة كهذه المهمة إلى أي إنسان؟ ولنفرض الآن أن هؤلاء الأغرار قد نجحوا فأصبح كل واحد منهم يملك مليوناً. فماذا بعد ذلك؟ هل يمكن أن يستمر هذا إلى الأبد؟ إن كل واحد سيظل رهناً بالآخرين مدى الحياة! ألا إن الانتحار شنقاً خير من هذا! ثم إن هؤلاء لم يحسنوا حتى تبديل أوراقهم المالية: إن الشخص الذي تقدّم إلى شباك الصرف في البنك قد ارتعشت يداه ارتعاشا قويا حين قبض الخمسة آلاف روبل؛ ثم لم يعدّ إلا أربعة آلاف منها، أما الألف الخامسة فقد أخذها على الثقة دون أن يعدّها، فأراد أن يدسّها في جيبه وأن يولّي هارباً بأقصى سرعة. لذلك أيقظ الريب والشبهة. ففسد الأمر كله بسبب ذلك الأبله. أهذا ممكن حقاً؟

– أن تكون يداه قد ارتعشتا؟ طبعاً... هذا أمر يتصوّر. أنا أرى أن ذلك طبيعي جداً. هناك حالات يفقد فيها المرء سيطرته على نفسه، إذ يكون الأمر فوق طاقته!

– أمعقول أن هذا الأمر فوق طاقة المرء؟

– أكان يمكنك أنت أن تحافظ على سيطرتك على نفسك في حالة كتلك الحالة؟ أنا على كل حال ما كان يمكنني أن أسيطر على نفسي! كيف يرضى إنسان أن يتعرض لمثل هذه المخاطرة الرهيبة في سبيل مائة روبل مكافأة؟ كيف يمضي يبدّل أوراقاً مالية مزيفة؟ وأين؟ في بنك، حيث الموظفون خبراء يعرفون كيف يكتشفون أي تزوير! لا، لا، لو وقفت أنا ذلك الموقف لفقدت صوابي! وأنت؟ ألا تفقد صوابك في حالة كتلك الحالة؟

شعر راسكولنيكوف فجأة، مرة أخرى، برغبة رهيبة في أن «يمدّ لسانه» استهزاء! وكانت تسري في ظهره رعدات أحياناً.

ومضى يقول:

– أنا لو كنت في مكان ذلك الرجل لتصرّفت غير ذلك التصرف. إليك كيف كان يمكن أن أفعل: لو كان عليّ أن أبدل تلك الأوراق المالية، لرحلت أعدّ الألف الأولى مرة تلو المرة، ثلاث مرات أو أربعاً، وأنا أقلّب كل ورقة على جميع الوجوه وأنظر إليها من جميع الجهات؛ فإذا تناولت الألف الثانية أخذت أعدها حتى أصل إلى النصف، ثم سحبت من الحزمة ورقة بخمسين روبلا فأخذت أفحصها في الضوء الساطع ثم أقلبها ثم أفحصها من جديد كأنني أخشى أن تكون مزيفة، قائلاً للرجل: «إنني شكاك قليلاً. إن لي قريبة قبضت ورقة مزيفة فأضاعت بذلك خمسة وعشرين روبلا»، ثم أروح أقص حكاية طويلة؛ فإذا وصلت إلى الألف الثالثة قلت له: «انتظر؛ أظن أنني أخطأت في عدّ المائة السابعة، في الألف الثانية»، ثم

تركت الألف الثالثة ورجعت إلى الثانية، وهكذا دواليك... فإذا فرغت من العد، عدت أسحب ورقة كيفما اتفق، من الألف الثانية مثلاً، أو من الألف الخامسة، ورحت أفحصها من جديد، بالنظر إليها استشفافاً، فإذا بشكوك تراودني، فأقول: «هل تستطيع، من فضلك، أن تعطيني ورقة غيرها بدلاً منها؟»، وهكذا دواليك إلى أن ينضح الرجل دماً وماء، وإلى أن يضيق بي ذرعاً فلا يدري كيف يتخلص مني، ثم انصرف أخيراً... لا... عفواً... لا أنصرف هكذا ببساطة، بل أعود إليه فأستوضحه أمراً من الأمور، وأسأله عن شيء من الأشياء. نعم، كذلك كان يمكن أن أتصرف.

قال زاميوتوف وهو يضحك:

– حقاً أنك لفظيع! على أن هذا كله كلام. أما في الواقع، فلا شك أنك كنت ستفضح نفسك. هل تريد أن أقول لك رأيي؟ اسمع إذاً: في رأيي أن أحداً لا يستطيع أن يسيطر على نفسه. وليس يصدق هذا عليك وعليّ فحسب، بل يصدق أيضاً على أكبر لص وأعظم وغد. إليك هذا المثال القريب: لقد قُتلت في حيّنا امرأة عجوز. يخيل إليّ أن الذي قتلها سفاح رهيب لم يحجم عن ارتكاب جريمته في وضح النهار، ثم تمكن أن ينجو بأعجوبة. ومع ذلك ارتجفت يدا ذلك القاتل: أنه لم يحسن السرقة، إنه لم يصمد. الوقائع تبرهن على ذلك.

بدا الاستياء في وجه راسكولنيكوف.

– الوقائع تبرهن على ذلك؟ حاولوا إذاً أن تقبضوا عليه لاحقوه وطاردوه!

بهذا هتف راسكولنيكوف بلهجة تحدٍ فيها شيء من فرح خبيث. قال زاميوتوف:

– سنقبض عليه حتماً!

– من؟ أنتم؟ ستقبضون عليه أنتم؟ مستحيل! أليس الأمر الرئيسي في نظركم هو أن تعرفوا هل الشخص الذي تشتبهون فيه ينفق مالاً أم هو لا ينفق مالًا؟ أنتم تقولون لأنفسكم: إن فلاناً لم يكن يملك في السابق مالاً، وها هو ذا ينفق الآن كثيراً على حين فجأة، فكيف لا يكون هو الجاني؟ ألا إن طفلاً صغيراً ليستطيع إذن أن يضلكم متى أراد!

أجاب زاميوتوف:

– هذا لا ينفي أنهم جميعاً يسلكون هذا السلوك. إن الجاني يرتكب جريمته بكثير من البراعة والحذق، ويعرّض حياته للخطر، ثم يُتيح للذين يتعقبوه أن يقبضوا عليه في حانة. إنه أثناء إنفاقه المال أنما يُقبض عليه... ليس جميع الجناة ماكرين مثلك. أنت، مثلاً، لا يمكن أن تذهب إلى حانة، إذا كنت قد...

قطّب راسكولنيكوف حاجبيه وحدّق إلى زاميوتوف بنظرة ثابتة. ثم قال متجهما:

– يبدو أن لعابك يسيل شوقاً إلى معرفة ما كان يمكن أن أفعله في مثل هذه الحالة.

فأجابه زاميوتوف برصانة ورزانة:

– نعم، أتمنى أن أعرف ذلك.

وكان في صوت زاميوتوف وفي نظرته جدّ مفرط.

سأله راسكولنيكوف:

– هل تتمنى ذلك كثيراً؟

– كثيراً.

فبدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال لصاحبه وهو يقرب وجهه من وجهه مرة أخرى، ويحدّق إليه بنظرة ثابتة من جديد، قال بصوت هامس، حتى إن صاحبه أحس هذه المرة برعدة تسري في جسمه:

– اسمع إذاً! إليك ما كان يمكن أن أفعله! لو كنت أنا القاتل لأخذت المال والأشياء فخرجت من البيت ومضيت فوراً دون أن أضيع دقيقة واحدة، ودون أن أدور في الشوارع دورة واحدة، إلى مكان منعزل منزو هو حديقة محاطة بسياج مثلاً، أو هو شيء من هذا القبيل. وأكون قد حددت سلفاً، في تلك الحديقة أو في ذلك الفناء، أكون قد حددت صخرة كبيرة وزنها ثلاثون رطلاً أو أكثر، صخرة لعلها موجودة في ذلك المكان منذ بناء المنزل، فهأناذا الآن أزحزح تلك الصخرة التي لا بد أن تكون الأرض تحتها مقعرة طبعاً، وهأناذا أدفن المال والأشياء في هذا القعر؛ حتى إذا انتهيت من دفنها، ورددت الصخرة إلى مكانها، وسويت التراب حولها، انصرفت لا ألوي على شيء، ثم لبثت بعد ذلك سنة أو سنتين أو ثلاث سنين أمتنع عن زيارة المكان وأخذ الغنيمة. هلمّ فابحث إذن! ما رأيت ولا عرفت!

قال زاميوتوف الذي أخذ يدمدم دمدمة، دون أن يعرف لماذا، قال وهو ينحني بغتة نحو راسكولنيكوف:

– أنت مجنون!

سطعت عينا راسكولنيكوف، واصفر وجهه اصفراراً رهيباً، وارتجفت شفته العليا، ومال حتى اقترب من زاميوتوف أكبر اقتراب ممكن، وحرّك شفتيه دون أن ينطق كلمة واحدة، وانقضى على هذه الحال نصف دقيقة. كان راسكولنيكوف يعرف ماذا يفعل، ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه ولا أن يتحكم بسلوكه. إن كلمة رهيبة كانت تهم أن تنبجس من فمه، كما كان المزلاج، في ذلك اليوم، يهم أن يخرج من الرزة. كانت الكلمة توشك أن تفلت بين لحظة وأخرى؛ كان راسكولنيكوف يوشك أن يطلقها، أن ينطقها. قال فجأة:

– ماذا لو كنت أنا قاتل العجوز واليزافيتا؟

لكنه ثاب إلى رشده، وكبح جماح نفسه.

نظر إليه زاميوتوف مرتاعاً، وانكفأ لونه حتى صار كغطاء المائدة بياضاً، وتجعدت شفتاه بابتسامة، وسأله بصوت لا يكاد يُسمع:

– ولكن أهذا ممكن؟

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة خبيثة، وقال له:

– اعترف بأنك صدّقت، أليس كذلك؟ اعترف!

أسرع زاميوتوف يقول:

– لا لم أصدق قط... وأنا أستبعد الآن ذلك أكثر مما استبعدته في أي وقت مضى!

– وقعتَ في الفخ! إذاً لقد صدّقت في يوم من الأيام، ما دمتَ تقول إنك تستبعده الآن أكثر مما استبعدته في أي وقت مضى!

صاح زاميوتوف يقول مرتبكاً ارتباكاً واضحاً:

– لا... أبداً!.. أمن أجل أن تصل إلى هذه النتيجة أخفتني!

– أأنت لا تصدّق إذن؟ فعم تكلمتم، في ذلك اليوم، حين خرجت أنا من القسم؟ ولماذا أخذ الضابط «بارود» يستجوبني بعد صحوي من الإغماء؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم صرخ ينادي خادم الحانة وهو ينهض ويتناول قبعته:

– هيه!! أنت! الحساب!

هرع الخادم إليه قائلاً:

– ثلاثون كوبيكاً.

– خذ، وهذه عشرون أخرى بقشيشاً!

ثم قال لزاميوتوف وهو يمد إليه يداً مرتعشة ملأى بأوراق مالية:

– أرأيت. أوراق حمراء، وأوراق زرقاء!** المجموع: خمسة وعشرون روبلا! فمن أين جاءتني هذه الأوراق؟ ومن أين جاءتني ثيابي الجديدة؟ أنت تعلم أنني لم أكن أملك كوبيكاً واحداً. أراهن على أنك استجوبت صاحبة البيت الذي أقيم فيه! ولكن كفى الآن! إلى اللقاء. لك خالص تمنياتي!

وخرج راسكولنيكوف مختلجاً بنوع من إحساس غريب، إحساس هستيري، تخالطه مع ذلك لذة عظيمة. ولكنه ظل في الواقع متجهم النفس خائر القوة. كان وجهه متقلصاً، كأنه خارج من نوبة. وازداد إعياؤه بسرعة. إنه الآن، عند كل إحساس جديد، وعند كل صدمة جديدة، تستيقظ فيه قواه وتعود إليه، ولكن قواه هذه ما تلبث أن تخور بسرعة أيضاً، مع زوال الصدمة وإمحاء الإحساس.

وحين أصبح زاميوتوف وحيداً، لبث جالساً إلى تلك المائدة نفسها مدة طويلة، غارقاً في تأمله. إن راسكولنيكوف قد قلب له جميع أفكاره فيما يتعلق بنقطة معينة رأساً على عقب، دون أن يعرف ذلك، وجعل رأيه يستقر استقراراً لا عودة عنه، ويثبت ثباتاً لا يتزحزح. قال لنفسه جازما: «إن إيليا بتروفتش غبي!»

** «أرأيت؟ أوراق حمراء وأوراق زرقاء!»: الأوراق المالية الحمراء هي أوراق العشرة روبلات، أما الزرقاء فهي أوراق الخمسة روبلات.

ما كاد راسكولنيكوف يفتح باب الحانة المفضي إلى الشارع، حتى كان رازوميخين على درجات المدخل يهم أن يدخل. ولكنهما لم ير أحد منهما الآخر، رغم أن المسافة بينهما خطوة واحدة، حتى لقد أوشك رأساهما أن يتصادما. ولبثا لحظة يشتمل كل منهما صاحبه بنظره. لقد ذُهل رازوميخين ذهولاً ليس بعده ذهول. غير أن غضباً مفاجئاً شديداً لم يلبث أن سطع في عينيه ببريق رهيب.

زأر يقول بصوت عالي:

– آه... أنت هنا؟ قام عن سريره، هرب من بيته! أتعرف أنني بحثت عنك حتى تحت السرير؟ بل لقد صعدنا إلى العلية نبحث عنك! وأوشكت بسببك أن أضرب ناستاسيا؛ انظروا أين هو! روديا، ما معنى هذا؟ قل لي الحقيقة كلها! اعترف! هل تسمع؟

أجابه راسكولنيكوف بهدوء:

– معناه أنني سئمتكم جميعاً إلى حد الموت، وأنني أريد أن أكون وحيدا.

– وحيداً؟ بينما أنت عاجز حتى عن المشي، بينما وجهك أصفر كوجه الأموات، بينما أنت تختنق طول الوقت؟ ألا إنك لأبله! ماذا جئت تعمل في «قصر الكريستال»؟ اعترف، اعترف فوراً!

– اتركني.

كذلك قال راسكولنيكوف؛ وأراد أن يمشي متخطياً رازوميخين فغضب رازوميخين غضباً شديداً، وخرج عن طوره، فأمسك صاحبه من كتفه إمساكا قويا، وصاح يقول له:

– أتركك؟ أتجرؤ أن تقول: «اتركني»! اسمع إذاً: هل تعرف ما أنا فاعل بك؟ سوف أقبض عليك بذراعي، فأربطك بحبل كما تُربط صرّة، ثم أنقلك إلى البيت فأحبسك فيه مقفلاً عليك الباب بالمفتاح!

بدأ راسكولنيكوف يتكلم في رفق، فقال بلهجة تبدو هادئة كل الهدوء:

– اسمع يا رازوميخين! ألست ترى إذاً أنني لا أريد نعمك وأياديك علي؟ ما حاجتكم دائماً إلى أن تغمروا بالنعم أولئك الذي لا يعبؤون بها، أولئك الذين لا يستطيعون حقاً أن يحتملوها؟ لماذا سعيت إليّ في بداية مرضي؟ لعله كان يسعدني جداً أن أموت. أفلم أُفهمك اليوم إفهاماً كافياً أنك تعذبني، وأنك... تزعجني وتضايقني؟ ما حاجتكم هذه دائماً إلى تعذيب الناس؟ أؤكد لك أن هذا كله يؤخر شفائي، لأنه يجعلني في حالة اهتياج متصل. انظر إلى زوسيموف: لقد انصرف حتى لا يهيجني. فاتركني بسلام أنت أيضاً، ناشدتك الله! ثم أي حق لك في أن تحتجزني بالقوة؟ ألا ترى أنني أملك عقلي كاملاً وأنا أكلمك في هذه اللحظة؟ قل لي: بأية وسيلة أستطيع أن أمنعك من التشبث بي بعد الآن، وأن أحملك على ألا تغدق عليّ بنعمك وآلائك هذه؟ افرض أنني سافل؛ ولكن دعوني، دعوني جميعا، ناشدتكم الله، دعوني، دعوني!

كان راسكولنيكوف قد بدأ كلامه بلهجة هادئة، متلذذاً منذ ذلك الحين بالسم الذي سينفثه، ولكنه أنهى حديثه مهتاجاً خارجاً عن طوره محتبس الأنفاس مختنق الصدر، كما حدث مع لوجين.

فكر رازوميخين لحظة ثم ترك ذراع صاحبه، وقال له بهدوء، شارد الفكر تقريبا:

– اذهب إلى الشيطان!...

فلما همّ راسكولنيكوف أن ينصرف، زأر يقول له فجأة:

– انتظر! أصغ إلي! إنني أعلن لك أنكم جميعاً، من أولكم إلى آخر كم، لستم إلا ثرثارين صغارا، ومتبجحين تافهين! إنكم ما إن يصبكم شر يسير حتى تحضنوه كما تحضن الدجاجة بيضها. وحتى في هذا إنما أنتم تسرقون من الكتاب الأجانب! ليس فيكم ذرة من حياة، ليس فيكم ذرة من حياة شخصية أصيلة!

ليس ما يجري في عروقكم دما بل مصالة. ما من أحد منكم يوحي إليّ بالثقة. همكم الأول في جميع الظروف هو أن لا تسلكوا سلوك رجال...

وهنا رأى أن راسكولنيكوف يهم أن ينصرف مرة أخرى، فصرخ يقول وقد تضاعف غضبه وحنقه:

– قـ... ـف! أصغ إليّ حتى النهاية! أنت تعلم أنني أحتفل الليلة بانتقالي إلى المسكن الجديد. وربما كان ضيوفي قد وصلوا... على أنني تركت هنالك عمي لاستقبالهم (كذلك أسرع يضيف)... فإذا لم تكن أبله، إذا لم تكن أبله كل البلاهة، إذا لم تكن أبله متكبراً، إذا لم تكن ترجمة عن أصل أجنبي... اسمع يا روديا، أنا أعلم أنك فتى ذكي، ولكن هذا لا ينفي أنك أبله... فإذا لم تكن أبله، فإن مجيئك إليّ لقضاء السهرة عندي خير لك من أن تُبلي نعلي حذاءيك متسكعاً في غير طائل، ما دمت قد خرجت... وسآتيك بمقعد مريح رخص... إن عند أصحاب البيت الذي أقيم فيه مقعداً من هذا النوع... وتشرب فنجانا من الشاي، وتجالس الناس... بل هناك ما هو خير من هذا: سأرقدك على مضجع، ولكنك تكون بيننا على الأقل... وسيجيء زوسيموف أيضاً... سوف تأتي، هه؟

– لا.

هتف رازوميخين يقول نافد الصبر:

– لا تقل هذا. أنت لا تعرف نفسك. ثم إنك لا تفهم من شؤون الحياة شيئاً. لقد حدث لي ألف مرة أن بصقت على الناس، ثم هرولت أسعى وراءهم. سوف تخجل من هذه العواطف، وسوف ترجع إلى البشر. تذكر عنواني إذن: عمارة بوتشنكوف، الطابق الثاني.

– يخيل إليّ يا سيد رازوميخين أنك مستعد لأن تُضرب في سبيل أن يكون لك على أحد فضل ومنة.

– أنا؟ لا، بل إنني مستعد لأن أجدع أنف من توسوس له نفسه بذلك! تذكر إذن عمارة بوتشنكوف، رقم ٤٧، مسكن الموظف بابوشكين.

– لن أجيء يا رازوميخين.

قال راسكولنيكوف ذلك ثم استدار وانصرف.

صرخ رازوميخين يقول وراءه:

– زاميوتوف في الحانة؟

– نعم.

– رأيتُه؟

– رأيتُه.

– وكلمته؟

– كلمته.

– عم كلمته؟ هيّا، لا تقل إذا كنت لا تريد أن تقول. شيطان يأخذك! العنوان: عمارة بوتشنكوف، رقم ٤٧، شقة بابوشكين. تذكر العنوان!

مضى راسكولنيكوف حتى شارع سادوفايا ثم انعطف وغاب. وقد تابعه رازوميخين بنظره شارد الفكر حالماً، ثم أشاح بيده تعبيراً عن عدم الاكتراث، ودخل، لكنه لم يلبث أن توقف على وسط السلم، وقال يحدث نفسه بصوت عالي: «شيطان يأخذه! إنه يتكلم كما يتكلم إنسان سليم العقل، ومع ذلك يشبه أن يكون... ولكن ما أغباني! ألا يتكلم المجانين كلاما معقولا جدا؟ ثم إن ذلك بعينه هو ما يخشاه

زوسيموف فيما يخيل إلي... – وهنا لطم رازوميخين جبينه بيده متسائلا: – ما عسى يحدث لو.... كيف أتركه وحيداً في هذه اللحظة؟ إن من الجائز جداً أن يلقي نفسه في الماء. آه... لقد ارتكبت حماقة كبيرة! ما كان ينبغي أن أتركه ينصرف!». وأسرع رازوميخين يلاحق راسكولنيكوف، ولكن لم يكن قد بقي لراسكولنيكوف أثر. بصق رازوميخين على الأرض، وقفل راجعاً إلى «قصر الكريستال» بخطى واسعة ليسأل عن زاميوتوف بأقصى سرعة.

مضى راسكولنيكوف قُدماً إلى جسر «ص...»[٥٦]، فتوقف في وسط الجسر، ووضع كوعيه على إفريزه، وأخذ ينظر إلى بعيد. إنه بعد أن ودّع رازوميخين قد بلغ من الضعف والإعياء والوهن أنه لم يجرّ ساقيه إلى هذا الموضع إلا في كثير من المشقة والعناء. تمنى لو يجلس في أي مكان، تمنى لو يرقد في عرض الشارع! مال راسكولنيكوف على الماء، وأخذ ينظر، على غير شعور ولا إرادة، إلى أواخر الانعكاسات الوردية لأشعة الشمس الغاربة، وإلى صف المنازل التي يغشاها الغسق رويداً رويداً. هذه غرفة بعيدة من الغرف التي تقع تحت السقوف على الكورنيش إلى اليسار منه تلتمع نافذتها وتتوهج كأن حريقاً يشتعل هناك، تحت شعاع الشمس الساقط عليها. وهذا ماء القناة يظلم مزيداً من الإظلام شيئاً بعد شيء. كان راسكولنيكوف يبدو كأنه ينظر إلى الماء بانتباه. ثم إذا بدوائر حمراء تأخذ تدور أمام عينيه، وإذا بكل شيء بعد ذلك، إذا بالمنازل والمارّة والأرصفة والعربات تأخذ تدور من حوله وتتراقص. وها هو ذا يرى مشهداً رهيباً فظيعاً فإذا هو يرتجف فينجو من الإغماء. كان قد أحسّ أن أحداً وقف بقربه إلى يمينه، فنظر فرأى امرأة فارعة الطول، على رأسها خمار، ذات وجه شاحب مستطيل هزيل، عيناها حمراوان غائرتان في حجاجيهما. كانت المرأة تنظر إليه في عناد، ولكن كان واضحاً أنها لا تبصر شيئاً ولا تميز أحداً. وها هي ذي تضع ساعدها الأيمن قائماً على الإفريز، ثم ترفع قدمها اليمنى فتخطو خطوة فوقه وتتبعها بالقدم

---

[٥٦] «جسر ص...»: هو جسر «الصعود» على قناة كاترينا.

اليسرى فتلقي بنفسها في الماء. انشق الماء الموحل من صدمة سقوطها ثم ابتلع فريسته، ولكن المرأة الغريق لم تلبث أن طفت على السطح بعد دقيقة واحدة، ثم جرت مع التيار ببطء غاطسة الرأس والقدمين، طافية الظهر، وقد انتفخت تنورتها فكأنها لحاف.

صرخت عشرات من الأصوات:

– إنها تغرق! إنها تغرق!

فهرع الناس، حتى امتلأ بهم الرصيفان، واحتشد الجمهور على الجسر حول راسكولنيكوف يصدمه ويعصره عصراً من الخلف.

وهتفت امرأة تقول، من مكان غير بعيد، بصوت نادب شاكٍ:

– رباه! هذه صاحبتنا أفروسينوشكا. أنقذوها أيها الأخيار الطيبون! أنقذوها!

وأخذ بعض المحتشدين يصرخون:

– علينا بقارب، علينا بقارب!

ولكن لم يبق ثمة داع إلى قارب: فإن شرطياً من شرطة المدينة أسرع يهبط سلماً يفضي إلى القناة، ثم خلع معطفه وحذاءيه، وألقى بنفسه في الماء، ولم يلق عناء كبيراً باللحاق بالمرأة الغريق، فإن تيار الماء قد حملها حتى صارت على بعد خطوتين من الضفة، فقبض على ثوبها بيده اليمنى، وأمسك باليد اليسرى عصا مدّها إليه زميل له، حتى أُخرجت المرأة من الماء، وأضجعت على الدرجات الصخرية. ولم تلبث أن ثاب إليها وعيها، فنهضت، وجلست وأخذت تعطس وتشخر وتمسح بيديها ثيابها المبتلة بحركة لا إرادية. ولم تنطق بكلمة واحدة.

صرخت تلك المرأة، قرب أفروسينوشكا، قائلة:

– لقد ركبها ألف عفريت أيها الأخوة والشرب هو السبب. حاولتْ منذ مدة أن تشنق نفسها، فأخرجنا عنقها من الحبل. ومضيتُ اليوم إلى البقال بعد أن أوصيت الصغيرة بمراقبتها، فإذا بالمصيبة تقع... هي جارتنا يا أخي، جارتنا. نحن نسكن في مكان قريب، في العمارة الثانية، هناك، آخر الشارع...

تفرق الحشد، وظل الشرطيان منهمكين حول المرأة الغريق. وهذا صوت يصرخ متكلماً عن شيء يتصل بقسم شرطة... كان راسكولنيكوف ينظر إلى هذا كله وهو يحس إحساسا غريبا بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث. وها هو ذا يشعر بنفور وتقزز، ثم يقول مجمجمًا بينه وبين نفسه: «لا، لا، هذا شيء يدعو إلى الاشمئزاز. الماء... لا فائدة منه.. لن يحدث شيء... ما فائدة الانتظار إذن؟ أما قسم الشرطة... ولكن لماذا غاب زاميوتوف عن القسم؟ إن مكاتب قسم الشرطة تظل مفتوحة بعد الساعة التاسعة». وأدار راسكولنيكوف ظهره للإفريز، ونظر حواليه.

ثم قال بلهجة جازمة: «لِمَ لا؟ ليكن!». وغادر الجسر وسار متجهاً إلى قسم الشرطة. كان قلبه يخفق مغلقاً. كان لا يريد أن يفكر. حتى القلق تبدد. لم يبق في نفسه أثر من انتفاضة القوة تلك التي أخرجته من غرفته «لينتهي من الأمر». وحل محل تلك القوة خمولٌ وخمود وتبلد.

قال لنفسه وهو يسير على رصيف القناة بملل وكسل وتوانٍ: «نعم، هذا أيضاً حل. سأنتهي من الأمر مع ذلك، لأنني أريد أن أنتهي منه. ولكن هل هذا هو الحل حقاً؟ آه... لا ضير... سيبقى لي موطئ قدم من الأرض أقف عليه. ولكن يا لها من نهاية! هل يمكن أن يكون هذا نهاية؟ أقول لهم الأمر أم لا أقوله؟ ولكن دعنا من هذا! إنني متعب مكدود مرهق. يجب أن أضطجع حالًا، يجب أن أقعد في مكان ما. أَعيَب

ما في الأمر أن هذا كله غباء! هيا، ابْصق على هذا أيضاً! آه.. ما أكثر الحماقات التي يمكن أن تساور فكرنا أحياناً...»

كان على راسكولنيكوف، من أجل الوصول إلى قسم الشرطة، أن يمضي في أول الأمر قُدُماً، ثم إن يلتفت يسرة عند الشارع الثاني. ولكنه توقف قبل أن يصل إلى العطفة الأولى، وفكر، ودخل في زقاق ضيق، ثم قام بدورة سائراً في شارعين، ربما بدون نية محددة تماماً، ولكن ربما ليهب لنفسه مهلة جديدة أيضاً، ليكسب فسحة من وقت. كان يسير مطرقاً إلى الأرض. وفجأة أحسّ كأن أحداً يهمس في إذنه، فرفع رأسه، فوجد نفسه أمام تلك العمارة، أمام مدخلها تماماً. إنه منذ ذلك المساء لم يكن قد عاد إلى المكان.

وهذه رغبةٌ لا سبيل إلى مقاومتها ولا يمكن تفسيرها، تسيطر عليه وتستبد به. دخل العمارة، ونفد إلى الباب الأول، الباب الأيمن، وأخذ يصعد السلّم الذي يعرفه جيداً، حتى وصل إلى الطابق الثالث. كان ظلام حالك يلف السلم الضيق شديد الانحدار. وقد توقف راسكولنيكوف على فسحة السلم عند كل طابق، فكان ينظر حواليه مستطلعاً. هذا زجاج النافذة في الطابق الأرضي قد خُلع. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنه لم يكن هكذا في ذلك اليوم». ثم وصل إلى الشقة التي تقع في الطابق الثاني حيث كان يعمل نيقولاي وديمتري. «البيت مغلق، وقد أعيد دهن الباب. معنى ذلك أن البيت مُعد للإيجار». ثم هذا هو الطابق الثالث. «هنا». توقف راسكولنيكوف مسمّرًا: كان باب البيت مفتوحا تماما، وكان في البيت ناس، إن كلامهم مسموع. لم يكن راسكولنيكوف يتوقع هذا. وبعد تردد قصير، صعد الدرجات الأخيرة، ودخل البيت.

إنه يُجدّد أيضاً. إن فيه عُمّالاً. بدا راسكولنيكوف كالمذهول. لقد كان يتصور، دون أن يدري لماذا، أنه سيجد البيت كما تركه تماماً؛ حتى الجثتين كان يتصور أنه سيجدهما راقدتين على أرض الغرفة في ذلك

الموضع نفسه. فماذا يرى الآن: جدراناً عارية، وما من أثاث! ما أغرب هذا! تقدم نحو النافذة وجلس على حافتها.

لم يكن هنالك إلا عاملان اثنان. أنهما شابان ولكن أحدهما أكبر سناً من الثاني بكثير. كان يغطيان الجدران بورق أبيض ذي أزهار صغيرة بنفسجية، بدلاً من الورق القديم الأصفر الحائل الممزق. شعر راسكولنيكوف من ذلك بأسف شديد. وأخذ ينظر إلى الورق الجديد مغتاظاً، كأنه يتحسر على أن تغيراً قد حدث.

يبدو أن العاملين قد أطالا يوم عملهم. وهما الآن يرتبان لفافات الورق، ويستعدان للعودة إلى المنزل. لم يلفت ظهور راسكولنيكوف انتباههما. كان يجري بينهما حديث نشيط. طوى راسكولنيكوف ذراعيه على صدره وراح يصغي إلى حديثهما.

قال الأكبر للأصغر:

– جاءتني منذ الفجر، لابسة أجمل الثياب. قلت لها: «مالك تغنجين هذا الغنج»، فقالت لي: «أريد بعد الآن يا تيت فاسيلتش، أن أكون لك جسماً وروحاً!». أسمعت؟ وليتك رأيت الثياب التي كانت تلبسها. لكأنها صورة من صور مجلة، صورة حقيقية من صور مجلة.

سأله الأصغر:

– وما هي هذه المجلة يا عمي؟

كان واضحاً أن الأصغر يتتلمذ على الأكبر.

– المجلة يا أخي واحدة من تلك الصور الملونة، صورة الموضة، التي تصل إلى الخياطين المحليين بالبريد من الخارج كل سبت. والغاية منها أن تُري الناس كيف يجب أن يلبسوا، رجالاً ونساء. هي رسم. فأما الرجال فثيابهم هي المعاطف أساساً، ولكن يجب أن ترى قسم ثياب النساء.. هناك حدّث ولا حرج... مهما تقل عنها فلن توفيها حقها!

هتف الأصغر يقول متحمساً:

– ما أكثر ما يراه المرء في «بيوتر»[٥٧] هذه! إن المرء يرى فيها كل شيء حقاً، عدا أمه وأبيه!

قال الأكبر في رصانة:

– نعم، يرى كل شيء عدا أمه وأبيه!

نهض راسكولنيكوف ومضى إلى الغرفة الثانية التي كانت في الماضي تضم الصندوق والسرير والخزانة ذات الأدراج. فلما رآها خالية من الأثاث بدت له صغيرة صغراً رهيباً. لم يبدل ورق جدرانها. وفي الركن، يُرى على الجدران بوضوح ذلك المكان الذي كانت فيه الأيقونات. نظر راسكولنيكوف حواليه، ثم عاد إلى النافذة يجلس على حافتها. نظر إليه العامل الكبير نظرة شزراء وسأله بخشونة:

– ماذا تفعل هنا؟

ولكن راسكولنيكوف لم يجبه، بل نهض وخرج إلى فسحة السلم، فأمسك بحبل الجرس وشدّه. هو ذلك الجرس نفسه، وهو ذلك الرنين نفسه. شدّ الجرس مرة ثانية فمرة ثالثة. فكان يصغي ويتذكر. عاوده

---

[٥٧] «بيوتر»: اختصار شعبي لاسم مدينة بطرسبرج.

الإحساس الذي شعر به في ذلك اليوم، ذلك الإحساس الرهيب الكاوي، عاوده بحدة ما تنفك تقوى شيئا بعد شيء. فكان يرتعش كلما رنّ الجرس مرة جديدة، وكانت لذته تزداد.

صرخ العامل يقول وهو يخرج إلى فسحة السلم:

– ماذا تريد؟ مَنْ أنت؟

فعاد راسكولنيكوف إلى الغرفة. وقال:

– أنا أبحث عن شقة أستأجرها، وقد جئت أرى هذا البيت!

قال العامل:

– ما من أحد يزور مسكناً في الليل. ثم إن عليك أن تصطحب البوّاب..

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال:

– أرى أن الأرض قد غُسلت. هل سيعاد دهنها؟ لم يبق دم، هه؟

– دم؟

– لقد قتلت العجوز وأختها. كان ههنا بركة دم..

صاح العامل يقول قلقاً:

– ولكن من أنت؟

ـ أنا؟

– نعم أنت.

– تريد أن تعرف؟ تعال معي إذن إلى قسم الشرطة. هناك سأقول لك من أنا.

نظر العاملان إلى راسكولنيكوف مبهوتين. وقال الأكبر للأصغر:

– هلم... لقد آن لنا أن ننصرف، حتى لقد تأخرنا. هيّا يا أليوشا! يجب أن نغلق..

قال راسكولنيكوف بلهجة هادئة:

– هلموا ننصرف!

وخرج أول الخارجين، وهبط السلم ببطء. حتى إذا وصل إلى الباب المطل على الشارع، صرخ ينادي البواب:

– هيه! يا بواب!

وكان يقف عند باب العمارة عدة أشخاص ينظرون إلى المارّة وامرأة وتاجر يرتدي ثوباً من ثياب المنزل، وأناس آخرون. مضى راسكولنيكوف إليهم قُدما.

سأله أحد البوابين:

– ماذا تريد؟

– هل ذهبتَ إلى قسم الشرطة؟

– عدت منه منذ برهة. ماذا تريد؟

– أما يزالون هناك؟

– ما يزالون هناك.

– وهل كان مساعد مفوّض الشرطة هناك أيضاً؟

– وكان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً. ماذا تريد؟

لم يجب راسكولنيكوف وتسمّر بين الواقفين حالماً.

اقترب العامل الكبير وقال:

– جاء يرى الشقة.

– أي شقة؟

– الشقة التي نعمل فيها. سألنا: «لماذا غُسل الدم؟». ثم قال: «ارتكبت ههنا جريمة قتل، وأنا أريد أن أستأجر البيت». وقد أخذ يشد حبل الجرس، حتى كاد ينتزعه. ثم قال: «هلموا بنا إلى قسم الشرطة، فسأقول لكم هناك كل شيء».

نظر البواب إلى راسكولنيكوف متحيراً مرتاباً.

ثم صرخ يسأله مهدداً:

– ولكن من أنت؟

– روديون رومانوفتش راسكولنيكوف، طالب سابق. وأسكن قريباً من هنا، في زقاق مجاور، عمارة شيل، شقة ١٤؛ اسأل عنى بواب العمارة. إنه يعرفني.

قال راسكولنيكوف ذلك كله بلهجة هادئة، شارد الفكر، حتى دون أن يلتفت، فقد كان يحدّق إلى الشارع الذي اجتاحه الظلام.

– ولماذا جئت إلى هذه الشقة؟

– لأراها.

– ماذا تريد أن ترى هناك؟

– لا شيء.

– ما رأيك في أن نقتادك إلى قسم الشرطة، هه؟

كذلك قال التاجر فجأة، ثم صمت.

نظر إليه راسكولنيكوف من فوق كتفه، وتفرس فيه بانتباه، ثم قال له بلهجة ما تزال هادئة:

– موافق، هلمّوا بنا إلى قسم الشرطة!

استأنف التاجر كلامه فقال بثقة أكبر:

– نعم، يجب اقتياده إلى قسم الشرطة. لماذا جاء إلى هناك، فإن: ذلك يدل على أن هناك شيئاً يشغل باله، أليس كذلك؟

جمجم العامل يقول:

– أهو سكران أم لا؟ الله وحده يعلم!

وعاد البواب يصرخ وقد أخذ يغضب حقاً:

– ولكن ماذا تريد؟ ما مجيئك إلينا لتزعجنا هذا الإزعاج؟

قال راسكولنيكوف ساخراً:

– ها... إنك تخاف الذهاب إلى قسم الشرطة!

– ممّ عساني أخاف؟ ولكن لماذا تأتي إلينا فتزعجنا هذا الإزعاج؟

صرخت المرأة:

– هذا لص!

فقال البواب الآخر، وهو رجل ضخم يرتدي معطفاً فضفاضاً، ويحمل مجموعة من المفاتيح معلقة بحزامه:

– علام نناقشه؟ اخرج من هنا أيها المتشرّد!... هيا انصرف. أقول لك انصرف!

ثم أمسك راسكولنيكوف من كتفه، ورماه إلى الخارج، فترنح راسكولنيكوف وكاد يهوي على الأرض ولكنه لم يسقط، ثم انتصب ونظر إلى الجميع صامتًا ثم مضى.

قال العامل:

– إنسان عجيب!

فعقّبت المرأة قائلة:

– جميع الناس عجيبون في هذه الأيام!

وأضاف التاجر يقول:

– كان ينبغي أن نقتاده إلى الشرطة مع ذلك.

فقال البواب الكبير يحسم المناقشة:

– لا داعي لاقتياده إلى الشرطة. هو محتال مشاكس ما في ذلك ريب، ولو اقتدناه إلى الشرطة لما عرفنا كيف نتخلص منه، أنا أعرف أمثال هؤلاء الناس!...

تساءل راسكولنيكوف وهو يقف في عرض الطريق عند أحد المفارق وينظر إلى ما حوله كأنه ينتظر أن يهديه أحد إلى الحل الحاسم والقول الفصل: «أذهب إلى الشرطة أم لا أذهب؟» ولكن ما من جواب جاءه من أي مكان. كان كل شيء أصمّ ميتاً كالحجارة التي كان يسير عليها.. ميتاً بالنسبة إليه وحده. وها هو ذا يلمح فجأة، في البعيد، على مسافة مائتي خطوة، في آخر الشارع، في الظلام المتزايد، ها هو ذا يلمح احتشاداً، ويسمع جلبة وصراخاً. وكانت تقف عربة في وسط الجمهور المحتشد. وومض في الشارع ضوء مصباح. دار راسكولنيكوف واتجه نحو الحشد. كان يبدو حقاً أنه يريد أن يتشبث بأي شيء، فلما أدرك هو ذلك ضحك في فتور، لأنه كان يعرف أن قراره فيما يتعلق بالشرطة قد اتُخذ وانتهى الأمر، وكان يعلم علم اليقين أن كل شيء سيكون قد انتهى بعد قليل.

الفصل السابع

كانت تقف في وسط الشارع عربة أنيقة من عربات السادة، قد شُدّ إليها حصانان أشهبان قويان ثائران. وكانت خاليةً قد نزل حوذيها عن مقعده ووقف إلى جانبها يشد الحصانين باللجام؛ وقد تجمهر حولها عدد كبير من الناس، وراء حاجز من رجال الشرطة. وكان أحد رجال الشرطة يحمل بيده مصباحاً مشتعلا قد مال به إلى تحت يضيء بنوره شيئاً كان يوجد على أرض الشارع ملتصقاً بالعجلات. وكان جميع الناس يتكلمون ويصرخون ويتأوهون، وكان الحوذي مضطرباً يردّد بين الفينة والفينة قوله:

– يا للمصيبة! رباه! يا للمصيبة!

استطاع راسكولنيكوف أن يشق لنفسه ممراً، فأفلح أخيراً في أن يرى ذلك الشيء الذي يثير هذا الاضطراب القوي وهذا الفضول الشديد. إنه رجل يرقد على الأرض دامياً مغشياً عليه يرتدي ثياباً فقيرة رثة لكنها من ثياب «السادة»، قد داسه الحصانان، فالدم يسيل من جمجمته ومن وجهه المثخن المهشم. كان واضحاً أن الإصابة خطيرة.

صاح الحوذي نادباً شاكياً:

– يا رب السماء! كيف كان يمكن أن أتفاداه! لم تكن العربة مسرعة، وأنا كنت أصرخ منبّهاً! كانت العربة تسير في رفق، كانت تسير على مهل. جميع الناس رأوا ذلك. إن كنت أكذب فقد كذب إذن جميع الناس. ولكن السكران لا يرى حتى في وضح النهار... هذا معروف. أبصرته يجتاز الشارع مترنحاً حتى ليكاد يتهاوى على الأرض من شدة السكر. صرخت أنبهه، مرة، مرتين، ثلاث مرات... ولجمت الحصانين، ولكن ها هو ذا يمشي إليهما قدّماً فيسقط بين حوافرهما... فإما أنه فعل ذلك عامداً، وإما أنه قد بلغ منه

السكر كل مبلغ... وحصاناي مهران صغيران عصبيان، فها هما يجمحان، وها هو ذا يصرخ فيزداد جموحهما فتقع المصيبة...

قال أحد شهود الحادث:

– نعم، ذلك ما حدث.

وقال صوت آخر:

– نعم، لقد صرخ الحوذي، صرخ ثلاث مرات..

وقال ثالث مؤيداً:

– نعم، ثلاث مرات، جميع الناس سمعوا...

على أن الحوذي لم يكن منهار العزيمة ولا شديد الخوف. وكان واضحاً أن المركبة يملكها شخص ثري لا بد أنه كان ينتظر وصولها في مكان ما. وهذه حقيقة لم تغرب عن بال رجال الشرطة طبعا، ولا أسقطوها من الحساب. لم يبق إذن إلا أن يُنقل المصاب إلى قسم الشرطة وإلى المستشفى. ولم يكن أحد يعرف اسمه.

في أثناء ذلك، كان راسكولنيكوف قد تسلل إلى وسط الجمهور، ومال على الأرض، فإذا بالمصباح الصغير يضيء وجه الشقي على حين فجأة، وإذا براسكولنيكوف يتعرفه فوراً.

صرخ يقول وهو يندفع إلى الصف الأول:

– أنا أعرفه! أنا أعرفه! هو موظف محال على التقاعد، هو الموظف مارميلادوف. أنه يسكن قريباً من هنا، في عمارة كوسل... أسرعوا، نادوا طبيباً! سأدفع! خذ...

قال ذلك وأخرج من جيبه مالاً فعرضه على أحد رجال الشرطة. كان راسكولنيكوف في حالة اضطراب تبعث على الدهشة.

سُرّ رجال الشرطة بمعرفة شخص المصاب. وأسرع راسكولنيكوف يعرّف بنفسه أيضاً، فذكر اسمه، وذكر عنوانه، وألحّ إلحاحاً شديداً، كما لو كان المصاب أباه، على أن يُنقل مارميلادوف إلى مسكنه بأسرع ما يمكن. وكان مارميلادوف ما يزال فاقدا وعيه مغشيا عليه. قال راسكولنيكوف متعجلاً:

– بيته هناك: بعد ثلاث عمارات. إنه يسكن في عمارة كوسل، الألماني الغني... لا شك أنه كان سكران عائداً إلى بيته. أنا أعرفه. إنه سكير... له أسرة، وزوجة، وأولاد، وبنت. لماذا المستشفى؟ إن نقله إلى المستشفى يستغرق وقتاً طويلاً. ولا بد أن يوجد في عمارته طبيب. سوف أدفع، سوف أدفع. فبذلك يعتني به ذووه، ويفعلون ما يجب فعله فوراً. وإلا يتعرّض للموت حتى قبل أن يصل إلى المستشفى.

وأفلح راسكولنيكوف في أن يدسّ قطعة نقدية في يد أحد رجال الشرطة. وكانت القضية من جهة أخرى واضحة شرعية. وبدا على كل حال أن نقل الجريح إلى بيته أبسط وأيسر. فرفع المصاب وحُمل، ووُجد من يساعد في ذلك. كانت عمارة كوسل تقع على مسافة ثلاثين خطوة. فكان راسكولنيكوف يمشي وراء الجريح سانداً رأسه بكثير من الحذر والاحتياط، وكان يدل الآخرين على الطريق.

– من هنا! من هنا! وحين نصعد السلم يجب أن نجعل رأسه عالياً... دوروا... نعم هنا... سوف أدفع... أشكر لكم صنيعكم...

كذلك كان يدمدم راسكولنيكوف.

كانت كاترينا ايفانوفنا، على عادتها كلما أتيحت لها دقيقة من فراغ، تسير في غرفتها الصغيرة طولاً وعرضاً، فتمضي من النافذة إلى المدفأة ومن المدفأة إلى النافذة، مصالبةً ذراعيها على صدرها، مكلمةً نفسها، ساعلةً

من حين إلى حين. ولقد تعودت منذ مدة من الزمن أن تتحدث إلى ابنتها الكبرى بولينكا التي يبلغ عمرها عشر سنين والتي كانت، رغم أنها لا تستطيع أن تفهم أشياء كثيرة بعد، تدرك حق الإدراك أن أمها في حاجة إليها، فكانت لذلك تتابعها بنظراتها الذكية محملقة، وتبذل كل ما تملك من قوّة في سبيل أن تتظاهر بأنها تفهم كل ما كانت تقوله لها. وفي تلك اللحظة، كانت بولينكا تنضو عن أخيها الصغير ثيابه لتضعه في السرير بعد أن لبث مريضاً طوال النهار، فكان الصبي الصغير، بانتظار إبدال قميصه الذي يجب أن يُغسل في تلك الليلة نفسها، جالساً على كرسي، رزيناً صامتاً. كان منتصب الجسم، ساكناً، ملصقاً ساقيه إحداهما بالأخرى وهو يرفعهما إلى الأمام، موجهاً إبهاميه إلى الخارج، نافخاً خدّيه، محملقاً بعينيه، يصغي إلى ما كانت تقوله أمه لأخته دون أن يتحرك، كما ينبغي للصغار العقلاء حين تخلع عنهم ثيابهم للنوم. وكانت البنت الثانية، وهي أصغر سناً منه، وثيابها أطمار بالية تماماً، تنتظر دورها واقفة قرب الحاجز. وكان الباب المطل على فسحة السلم مفتوحاً على سعته كلها، من أجل أن يهرب منه ولو جزء من دخان التبغ الذي يأتي من الغرف الأخرى، ويسبّب للمصدورة المسكينة نوبات سعال طويلة أليمة قاسية. لقد نحلت كاترينا ايفانوفنا مزيداً من النحول منذ أسبوع، وأصبحت البقع الحمراء على خديها تزداد حُمرة.

كانت تقول لابنتها وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً:

– لا تستطيعين أن تعرفي، لا تستطيعين أن تتخيلي، يا بولينكا، نوع الحياة الفرحة المرحة الباذخة التي كنا نحياها في دار بابا، ولا نوع الشقاء الذي نزل عليّ بسبب هذا السكير، والذي سينزل عليكم أنتم جميعاً كذلك. كان بابا في رتبة تعدل رتبة كولونيل. كان يوشك أن يصبح حاكماً، لم يكن عليه إلا أن يخطو خطوة واحدة حتى يصبح حاكماً، لذلك كان جميع الناس يجيئون إليه ويقولون له: «نحن نعدّك حاكما لنا منذ الآن يا إيفان ميخائيلتش». وحين... كح كح كح... حين... كح كح كح... لعن الله هذه الحياة... (صاحت هكذا وهي تبصق وتضغط صدرها) – نعم، حين... آه... حين رأتني الأميرة بيزيملنايا، في آخر حفلة

رقص، عند رئيس مجلس النبلاء – وهذه الأميرة هي التي باركتني حين تزوجت أباك يا بوليا نعم... حين رأتني أسرعت تسأل على الفور: «أليست هذه الفتاة الفتانة هي التي رقصت رقصة الشال حين تخرجت من المدرسة الداخلية؟» يجب ترقيع هذا الثقب، عليك أن تأخذي إبرة وخيطاً فترقعيه، كما علمتك، وإلا فإنه... كح... غداً... كح كح كح... سيتسع مزيداً من الاتساع (صرخت تقول ذلك صراخاً وقد هدّها السعال). وفى ذلك الأوان إنما وفد إلينا من بطرسبرج شاب من الحاشية هو الأمير ستشيجولسكي... ورقص معي رقصة مازوركا، وقال لي أنه سيجيء في الغداة ليخطبني... فشكرته بألطف العبارات، ولكنني صرفته قائلة له أن قلبي يملكه رجل آخر منذ مدة طويلة، وهذا الآخر هو أبوك يا بوليا. وغضب أبي غضباً شديداً. هل أُعدّ الماء؟ هيا ائتني بالقميص. والجوارب، أين هي؟ يا ليديا (كذلك قالت لصغرى بنتيها) ستنامين هذه الليلة بدون قميص... دبري أمرك... ودعي الجوربين جانباً كذلك... سأغسلهما... ألن يعود هذا الرث السكران؟ لقد لبس قميصه حتى أصبح وسخاً كممسحة. ومزقه أيضاً. أتمنى لو أغسل كل شيء دفعة واحدة. فبذلك لا أتعذب ليلتين متواليتين... يا رب! كح كح كح... ما هذا أيضاً؟ (هتفت تسأل هذا السؤال وهي ترى جمهوراً على فسحة السلّم، وترى مع الجمهور أشخاصاً يحملون حِمْلاً ويحاولون أن يشقوا طريقهم نحو الغرفة) ماذا جرى؟ ماذا يحملون؟ رباه!

سأل الشرطي وهو ينظر حواليه بينما كان يُحمل مارميلادوف إلى الغرفة دامياً مغشياً عليه:

– أين نضعه؟

قال راسكولنيكوف:

– على الديوان! أضجعوه على الديوان، واجعلوا رأسه في هذه الجهة.

صاح يقول واحد وهو على فسحة السلم:

– داسته عربة في الشارع وهو سكران!

وقفت كاترينا ايفانوفنا جامدة، شاحبة الوجه، تتنفس بصعوبة ومشقة. وارتعب الأولاد. وأطلقت ليدوتشكا صرخة وهرعت إلى بولينكا، فعانقتها وهي ترتجف بجميع أعضاء جسمها.

حتى إذا أُضجع مارميلادوف على الديوان، هرع راسكولنيكوف إلى كاترينا ايفانوفنا، وقال لها مسرعاً: لقد جئت إليكم مرة قبل الآن، هل تذكرين؟ سيفيق من غيبوبته. سوف أدفع!

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول يائسة وهي تندفع نحو زوجها:

– نال ما كان يسعى إليه!

لم يلبث راسكولنيكوف أن لاحظ أن هذه المرأة ليست من تلك النساء اللواتي يغمى عليهن لأيسر الأسباب. وبمثل لمح البصر سرعة وضعت وسادة تحت رأس المسكين: ما من أحد قد خطرت بباله هذه الفكرة من قبل. ثم أخذت كاترينا ايفانوفنا تخلع ثيابه، وتفحصه، وكانت منهمكة في العناية بالجريح مسيطرة على نفسها، عاضةً على شفتيها المرتعشتين، تكظم الصرخات التي تهم أن تنطلق من صدرها.

وفي أثناء ذلك استطاع راسكولنيكوف أن يقنع أحد الحضور بأن يمضي يستدعي طبيبا. وكان يوجد طبيب في عمارة مجاورة.

وكرر يقول لكاترينا ايفانوفنا:

– أرسلت في طلب طبيب. لا تقلقي. سوف أدفع. أليس عندكم ماء؟ وأعطني أيضاً فوطة، منشفة، أي شيء، بسرعة! لا نعلم بعد هل جرحه بليغ... على كل حال، هو جريح وليس قتيلاً... ثقي بذلك... لننتظر ما سيقوله الطبيب.

هرعت كاترينا ايفانوفنا إلى النافذة. كان يوجد هناك، في ركن، على كرسي خاسف، طستٌ كبير من فخار، مملوء ماءً، قد هيأته من أجل أن تغسل في الليل ملابس أولادها وزوجها. إن كاترينا ايفانوفنا هي التي تتولى غسل الملابس بيديها ليلاً، وهي تفعل ذلك مرتين في الأسبوع على الأقل، وقد تفعله أكثر من مرتين أحياناً، ذلك أنهم قد وصلوا إلى حيث أصبحوا لا يملكون من كل ملبس من الملابس إلا قطعة واحدة لكل فرد. وكاترينا ايفانوفنا لا تحتمل الوساخة، وتؤثر على هذا أن تقوم في الليل، بينما الجميع نائمون، بعمل تفرضه على نفسها ويفوق طاقتها: تغسل الملابس ثم تنشرها على حبل لتجف، بغية أن تجد الأسرة أشياءها نظيفة في الصباح. حملت الطست كما أمرها بذلك راسكولنيكوف، وكادت تسقط معه على الأرض. وكان راسكولنيكوف قد استطاع في أثناء ذلك أن يعثر على منشفة. فبلّها بالماء وأخذ يغسل وجه مارميلادوف الدامي. وكانت كاترينا ايفانوفنا تقف إلى جانبه، متنفسة بمشقة وصعوبة، ضاغطة صدرها بيديها. لقد كانت هي نفسها في حاجه إلى إسعاف. وبدأ راسكولنيكوف يقول لنفسه إنه ربما أخطأ حين ألحّ على ضرورة نقل المريض إلى هنا. وكان الشرطي مرتبكاً حائراً.

وصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول لابنتها:

– بوليا[٥٨]، اذهبي إلى أختك صونيا، وأحضريها بسرعة. فإذا لم تجديها في مسكنها، فلا بأس... قولي إن أباها قد داسته خيول، وأن عليها أن تجيء حالاً متى عادت. أسرعي يا بوليا! خذي، ضعي هذا المنديل على رأسك.

وصرخ الصبي الصغير من على كرسيه على حين فجأة يهيب بها أن تسرع قائلا:

– أثلعي... (أسرعي)...

[٥٨] «بوليا» و «بولينكا»: تصغير اسم آبوليناريا.

قال ذلك وعاد يغرق في صمته، واسترد وضعه: محملق العينين، متصلب الجذع، متجمد الجسم، مشدود الساقين.

وامتلأت الغرفة بالناس في أثناء ذلك، فلو ألقيت تفاحة لما سقطت على الأرض من شدة ازدحامهم. وانصرف رجال الشرطة، إلا واحداً بقي إلى حين، بغية أن يصد الجمهور الذي كان يصل من السلم ويتدفق من جديد. إن المستأجرين الذي يسكنون عند مدام ليبفكسيل قد هرعوا جميعهم تقريباً من غرفهم التي تقع في آخر الشقة: تجمعوا في أول الأمر على الباب، ثم اجتاحوا الغرفة نفسها. غضبت كاترينا ايفانوفنا، فصرخت تخاطب الناس:

– دعوه يموت بسلام على الأقل. آه... أهذه مسرحية ما هذا الذي تفعله أنت؟ تدخلون ولا تزالون تدخنون السجائر! كح كح كح! لم يبق إلا أن تحتفظوا بقبعاتكم على رؤوسكم أثناء رؤية المشهد. هه... هذا واحد قد احتفظ بقبعته على رأسه فعلا! هيا اخرجوا من هنا... احترموا الأموات على الأقل!

قالت ذلك ثم خنقتها نوبة سعال شديدة. ولكن تقريعها كان له أثره. واضح أنهم يخشون كاترينا ايفانوفنا بعض الخشية. فها هم أولاء سكان البيت يتجهون نحو الباب واحداً بعد آخر، وهم يشعرون بذلك الإحساس الغريب، إحساس اللذة الذي يُلاحظ دائماً حتى لدى أقرب الأقرباء حين يرون شقاء يحل بقريبهم؛ وهو إحساس لا يخلو منه أي إنسان، مهما يكن إحساسه بالأسف والشفقة صادقاً.

وكانت تُسمع وراء الباب أحاديث يدور فيها الكلام على المستشفى، وعلى أنه ليس من اللائق تعكير صفو عمارة في غير طائل.

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول:

– ماذا؟ ليس من اللائق أن يموت الإنسان؟

وهمّت أن تفتح الباب وأن تصب على هؤلاء الناس سيلاً من الشتائم، ولكن حين وصلت إلى العتبة رأت نفسها تصطدم بمدام ليبفكسيل نفسها التي علمت بالمصيبة فأسرعت تعيد النظام إلى نصابه. إن مدام ليبفكسيل هذه ألمانية مشاكسة مزعجة.

قالت وهي تصفق يديها إحداهما بالأخرى:

– آه... يا رب! زوجك داسه حصان وهو سكران. إلى المستشفى، إلى المستشفى إنما كان يجب... أنا صاحبة البيت...

فقالت كاترينا ايفانوفنا في تعالٍ وكبرياء:

– أرجوك يا آماليا لودفيجوفنا أن تفكري فيما تقولين... يا آماليا لودفيجوفنا...

كانت كاترينا ايفانوفنا تخاطب صاحبة البيت دائماً في تعال وكبرياء، كيما «تلزم هذه حدودها»؛ ولم تستطع حتى في هذا الظرف أن تحرم نفسها من هذه اللذة.

قالت مدام ليبفكسيل:

– قلت لك مرة واحدة إلى الأبد أن لا تسميني آماليا لودفيجوفنا قط. أنا آماليا ايفانوفنا.

– أنت لست آماليا ايفانوفنا، بل آماليا لودفيجوفنا؛ وأنا لست واحدة من أولئك الذين يتملقونك تملقاً ذليلاً، ومنهم السيد ليبزياتنيكوف الذي تدوّي قهقهاته في هذه اللحظة نفسها وراء الباب (وكان يدوي وراء الباب ضحك فعلاً، وكانت تُسمع هذه الجملة: «قد بدأت مشاكسة!») فإنني سأسميك دائماً آماليا لودفيجوفنا. ولست أفهم على كل حال لماذا يسوءك هذا الاسم إلى هذه الدرجة. لقد رأيت ما حدث لسيميون زاخاروفتش: إنه يموت. فأرجوك أن تغلقي هذا الباب فوراً، وأن لا تدعي لأحد أن يدخل إلى

هنا. فليمت بسلام على الأقل! وإلا فإنني أؤكد لك أن سلوكك هذا سيعرفه الحاكم العام نفسه من الغد. إن الأمير قد عرفني قبل أن أتزوج، وهو يتذكر سيميون زاخاروفتش جيداً، وقد أحسن إليه مراراً. وجميع الناس يعلمون أن سيميون زاخاروفتش كان له أصدقاء وحُماة كثر أهملهم هو نفسه بسبب عزته وكبريائه، وبسبب ما كان يحسه من ضعفه المحزن. ولكن شاباً سمحاً (وأومأت إلى راسكولنيكوف) ذا ثراء وعلاقات، شاباً يعرفه سيميون زاخاروفتش منذ طفولته، يتولى مساعدتنا الآن، ففي وسعك أن تكوني على يقين يا آماليا لودفيجوفنا من أن ...

قيل ذلك كله بسرعة قصوى كانت تتزايد من دقيقة إلى دقيقة. ولكن السعال قطع بلاغة كاترينا ايفانوفنا فجأة؛ واستعاد المحتضر وعيه في تلك اللحظة وأطلق أنيناً فهرعت إليه. وفتح عينيه، وأخذ ينظر إلى راسكولنيكوف الواقف بقربه، أخذ ينظر إليه دون أن يتعرف أحداً ودون أن يفهم شيئاً. وكان يتنفس تنفساً شاقاً عميقاً متقطعاً. وظهر دم على طرفي شفتيه. وكان العرق يتكاثف على جبينه. وإذ لم يستطع أن يحدد شخصية راسكولنيكوف، أجال بصره على ما حوله قلقاً. وكانت كاترينا ايفانوفنا تلقي عليه نظرة حزينة لكنها قاسية، وكانت تسيل من عينيها دموع.

قالت بائسة:

– رباه! إن صدره معجون عجناً! ما أكثر الدم! ما أكثر الدم! يجب أن تُنزع عنه ملابسه. استدر قليلا يا سيميون زاخاروفتش، إذا كنت تقوى على ذلك.

تعرفها مارميلادوف. فنطق بصوت أبح:

– كاهن!

فتراجعت كاترينا ايفانوفنا نحو النافذة، وأسندت جبينها إلى الزجاج، وهتفت تقول وقد بلغت ذروة الكمد والكرب:

– قاتل الله هذه الحياة!

وعاد المحتضر يقول من جديد، بعد لحظة صمت:

– كاهن!

فصرخت كاترينا ايفانوفنا:

– أر... سلنا... نستد... عيه!

ففهم وصمت. وكان يبحث عنها بنظراته وجلاً قلقاً. فعادت إليه ووقفت بقربه. فهدأ قليلاً ولكن هدوءه لم يطل فإن عينيه لم تلبثا أن توقفتا على الصغيرة ليدوتشكا[٥٩] (أثيرته) التي كانت في ركن من الأركان ترتجف ارتجاف من أصابته نوبة عصبية، وتحدّق إليه بعينيها المدهوشتين، عيني الطفلة، تحديقا ثابتا.

غمغم محاولاً أن يقول شيئاً وهو يومئ إليها قلقاً:

– أ... أ..

فصرخت كاترينا ايفانوفنا:

– ماذا أيضاً؟

فقال وقد تلبثت نظراته على قدمي البنت الصغيرة الحافيتين:

---

[٥٩] «ليدا» و «ليدوتشكا»: تصغير اسم ليديا.

– حافية! حافية!

فزأرت كاترينا ايفانوفنا تقول وقد بلغ غضبها أشده:

– اسكت! أنت تعلم حق العلم لماذا هي حافية!

صاح راسكولنيكوف يقول متخففاً من قلقه:

– الحمد لله! وصل الطبيب!

دخل الطبيب. أنه شيخ مهندم (وهو ألماني) أخذ يلقي على ما حوله نظرات زاخرة بالريبة والشك. اقترب من المريض، وجس نبضه، وتفحص رأسه بانتباه، ثم تعاون مع كاترينا ايفانوفنا على حل أزرار القميص المبتل بالدم، وعرّى الصدر. كان الصدر خاسفاً خسوفاً مروّعاً، وكان مهروساً ممزقاً. إن عدّة أضلاع في الجهة اليمنى كانت محطمة مهشمة. وفى الجهة اليسرى، عند القلب، كانت تُرى بقعة سوداء ضاربة إلى صفرة، بقعة كبيرة رهيبة: إنها آثار حافر حصان. قطب الطبيب حاجبيه. وروى له الشرطي أن الجريح قد تشبثت به إحدى عجلات العربة، فجرّته أثناء دورانها مسافة ثلاثين خطوة على أرض الشارع.

قال الطبيب لراسكولنيكوف هامساً:

– أغرب ما في الأمر أنه عاد إليه شعوره!

فسأله راسكولنيكوف:

– ما رأيك؟

– سيموت حالًا.

– أليس هناك أي أمل؟

– لا أمل البتة. إنه يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه. أنه في النزع الأخير. ثم إن رأسه مصاب بجرح خطير جداً. هِمْ.... يمكننا طبعاً أن نجري له فصداً... ولكن ما فائدة ذلك؟ سيموت حتماً بعد خمس دقائق أو عشر.

– لنجرب الفصد مع ذلك!

– طيب. ولكنني أنبّهك مرة أخرى إلى أننا لن نجني من ذلك أية فائدة.

وفي هذه اللحظة نفسها سُمع وقع أقدام مرة أخرى. فتنحى الجمهور على فسحة السلم وظهر كاهن شيخ أبيض الشعر يحمل الأعراض السرية[٦٠]، ووراءه شرطي جاء به إلى البيت. فسرعان ما أخلى له الطبيب المكان، بعد أن تبادل معه نظرة ذات دلالة، وبادر راسكولنيكوف يرجو الطبيب أن يبقى ولو لحظة قصيرة. فرفع الطبيب كتفيه، ولكنه بقي.

تنحى الجميع. ولم يدم الاعتراف إلا وقتاً قصيراً جداً: فأغلب الظن أن المحتضر كان فاقداً إدراكه وكان عاجزاً عن الكلام، وكان لا يستطيع، في أكثر تقدير، أن ينطق إلا بأصوات متقطعة غير متميزة. أمسكت كاترينا ايفانوفنا يد ليدوتشكا، فأنهضت الصبي الصغير عن كرسيه ثم مضت إلى الركن قرب المدفأة، فجثت على ركبتيها وأركعت الأولاد أمامها. استمرت البنت الصغيرة ترتجف. أما الصبي الصغير الذي كان جاثياً بركبتيه العاريتين على بلاط الأرض، فكان يرفع يده اليمنى في فواصل مطّردة، فيرسم إشارات الصليب واسعة كبيرة، ثم يسجد فيلصق جبينه بالأرض، وكان واضحاً أن هذا يحدث له لذة قصوى. وكانت كاترينا ايفانوفنا تعض على شفتيها وتحبس دموعها. كانت تصلي هي أيضاً، وتعدل قميص الصغير من حين إلى حين في الوقت نفسه. حتى لقد استطاعت، دون أن تنهض ودون أن تقطع صلاتها،

[٦٠] ... كاهن يحمل الأعراض السرية... هي الخبز والخمر المقدسان واللذان يرمزان إلى لحم المسيح ودمه، ويستخدمان في المناولة وعند الاعتراف (بما في ذلك اعتراف ما قبل الموت) لدى المسيحيين. وهذه الأعراض السرية يضعها الكاهن في صندوق خاص حينما يأتي إلى المحتضر.

استطاعت أن تسلَّ من الخزانة ذات الأدراج منديلاً ألقته على كتفي الصبية العاريتين. ولكن الباب المطل على الغرف الأخرى قد فتحة المستطلعون أثناء ذلك مرة أخرى. كان جمهور المشاهدين على فسحة السلم – وهم السكان الذين هرعوا من جميع طوابق العمارة – تزداد كثافته شيئاً بعد شيء، إلا أن أحداً منهم لم يتخط عتبة الغرفة. وكان لا يضيء هذا المشهد كله إلا بقية شمعة.

وفى تلك اللحظة وصلت بوليا التي ذهبت تُحضر أختها، فاندفعت تشق لها ممراً بين ذلك الجمهور. دخلت منقطعة الأنفاس تقريباً، لأنها قد ركضت بسرعة مفرطة، فنزعت المنديل الذي كان يغطي كتفيها، وبحثت عن أمها بعينيها، ثم اقتربت منها وقالت لها: «ستجيء، فقد لقيتها في الشارع!» أركعت الأم ابنتها إلى جانبها. ثم وصلت فتاة، فتقدمت وسط الجمهور خجلةً بلا ضجة، فكان ظهورها المفاجئ في هذه الغرفة التي يسودها الفقر والبؤس والأسمال الرثة والموت واليأس أمراً غريباً يبعث على أشد الدهشة. كانت ترتدي أسمالاً أيضاً وكانت ثيابها رخيصة، ولكنها صارخة صخابة تناسب أذواق وقواعد العالم الخاص الذي تعيش فيه هذه الفتاة، وتلائم الغايات الدنيئة التي تسيطر على ذلك العالم. وقفت صونيا على العتبة لا تجرؤ أن تجتازها. وكانت تنظر حواليها زائغة الهيئة تائهة الفكر. كان يبدو عليها أنها لا تدرك شيئاً ولا تعي شيئاً، وكان يبدو عليها أيضاً أنها ذُهلت من ثوبها الحريري الذي اشترته مستعملاً – والذي كانت ألوانه الزاهية وذيوله الطويلة المضحكة لا تناسب هذا المكان – وذُهلت من تنورتها المسلكة الفضفاضة التي تملأ عرض الباب كله، ومن حذاءيها اللامعين وشمسيتها التي لا فائدة منها البتة لأن الوقت ليل، ومن قبعتها المدوّرة المضحكة المصنوعة من قش، المزدانة بريشة حمراء. وكان يلوح تحت هذه القبعة، الموضوعة مائلة، وجه صغير نحيل أصفر مرتاع، فاغر الفم شارد العينين من الرعب. إن صونيا تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما، وهي قصيرة القامة هزيلة الجسم، لكنها لطيفة، شقراء، لها عينان زرقاوان رائعتان. وقد راحت تحدّق إلى الديوان وإلى الكاهن بنظرات ثابتة. وكانت مقطعة الأنفاس هي أيضاً، لأنها ركضت

ركضاً سريعاً. ولا شك أن كلماتٍ تبادلها بعضهم في الجمهور همساً قد تناهت إلى مسامعها فها هي ذي تخفض رأسها وتتقدم خطوة إلى أمام. ولكنها لم تعزم أمرها بعد على الابتعاد عن الباب.

انتهى الاعتراف والتناول. وعادت كاترينا ايفانوفنا إلى قرب الديوان. وتنحى الكاهن. ولكنه اعتقد أن من واجبه أن يوجّه إلى كاترينا ايفانوفنا بضع كلمات تواسيها وتقوي عزيمتها. فقاطعته كاترينا ايفانوفنا تقول بلهجة خشنة غاضبة وهي تشير إلى الأولاد:

– وهؤلاء، أين أضعهم الآن؟

فقال الكاهن:

– الله رحيم. تأملي في عون الرب!

– هو رحيم بلا شك، لكنه ليس رحيماً بنا نحن.

قال الكاهن وهو يهز رأسه:

– هذا إثم يا سيدتي، هذا إثم!

فصرخت كاترينا ايفانوفنا مشيرة إلى المحتضر:

– وهذا، أليس إثماً؟

– لعل الذين كانوا سبب وقوع هذه المصيبة بغير إرادة منهم، لعلهم يوافقون على أن يدفعوا لك تعويضاً بسبب فقدانك مواردك على الأقل...

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول بشراسة وهي تلوح بيدها:

– أنت لا تفهم! لماذا عساهم يدفعون لي تعويضاً؟ إن هذا السكير هو الذي ألقى بنفسه بين حوافر الخيل! ثم ما كلامك هذا عن مواردي! إنه لم يمدني بأية موارد في يوم من الأيام! إنه لم يهيئ لي إلا أنواع العذاب! هذا كل ما أمدني به! لقد كان سكيراً، سكيراً، ما وصل إلى يده شيء إلا سارع يشرب به خمراً؛ كان ينهبنا نهباً، كان يذهب إلى الحانات يتلف فيها حياته وحياتي! سيموت الآن، الحمد لله، وسيكون موته توفيراً واقتصاداً!

– على المرء أن يعفو ويصفح ويغفر، في ساعة الموت! إن الشعور بمثل هذه العواطف إثم يا سيدتي، إثم كبير!

كانت كاترينا ايفانوفنا ما تزال منهمكة حول المحتضر تسقيه وتمسح عن رأسه العرق والدم وتعدّل وضع الوسادة تحت رأسه؛ فهي تتحدث مع الكاهن دون أن تنقطع عن عملها ملتفتة إليه أحياناً. ولكنها وثَبتْ نحوه على حين فجأة حانقة غاضبة، وقد خرجت عن طورها:

– آه يا أبي! ما هذا كله إلا كلام، كلام لا أكثر! العفو والصفح والمغفرة! هه! لو لم يقع له هذا الحادث، لرجع إلى البيت في هذا المساء سكران؛ ولأنه لا يملك قميصاً غير هذا القميص الوسخ الممزق الذي يلبسه، لكان عليّ أنا أثناء غطيطه في النوم أن أتبلل بالماء لأغسل له القميص ولأغسل ملابس الأولاد؛ ولكان عليّ بعد ذلك أن أجفف الغسيل كله على النافذة، حتى إذا طلع الفجر أخذت أعمل في الترقيع! على هذا النحو كنت سأقضي الليل! فعلام الكلام عن العفو والصفح والمغفرة إذن؟ لقد عفوت وصفحات وغفرت منذ زمان!

واعترتها نوبة سعال شديدة فاضطرت أن تنقطع عن الكلام. وبصقت في منديلها ومدته تحت عيني الكاهن ضاغطة صدرها بيدها الأخرى. كان المنديل مبللاً بالدم.

خفض الكاهن رأسه ولم يقل شيئاً.

وكان مارميلادوف المحتضر لا يحول عينيه عن وجه كاترينا ايفانوفنا التي مالت عليه من جديد. كان يريد أن يقول لها شيئاً ما. حاول ذلك محركاً لسانه بمشقة، متمتماً ببضع كلمات مبهمة غير متميزة، ولكن كاترينا ايفانوفنا، وقد أدركت أنه يريد أن يسألها أن تغفر له أسرعت تصرخ قائلة له بلهجة آمرة:

– اسكت! اسكت! لا داعي! أعرف ما تريد أن تقول!

فصمت الجريح. ولكن بصره التائه سقط في تلك اللحظة على الباب، فلمح صونيا. لم يكن قد لاحظها قبل ذلك: كانت صونيا تقف في الجزء المظلم من الغرفة.

في الجزء المظلم من الغرفة.

– من هذه؟ من هذه؟

كذلك ثأثأ يسأل فجأة بصوت أبحّ لاهث، وهو يحاول أن ينهض، ويومئ بعينيه مرتاعاً إلى الباب الذي كانت ابنته ما تزال واقفة عنده.

فصرخت كاترينا ايفانوفنا تقول له:

– ابق راقداً! ابق راقداً!

ولكنه استطاع بجهد خارق أن ينهض جسمه مستنداً بيده إلى الديوان. فحدّق إلى ابنته برهة من الوقت بنظرة غريبة، كأنه لم يتعرفها. ذلك أنه لم يسبق له أن رآها بمثل هذا الزي الغريب. ولكنه لم يلبث أن تعرفها فجأة. كانت مُذلة منهارةً في ملابسها المبهرجة تحس بالخزي والعار، وهي تنتظر في رفق ووداعة، وفي

إذعان وتسليم، أن يجيء دورها لتوديع أبيها المحتضر. ارتسم على وجه الأب تعبير عن ألم لا نهاية له، وعذاب ليس له حدود. وصرخ يقول:

– صونيا، ابنتي، اغفري لي!

وأراد أن يمد إليها يده، لكنه فقد توازنه لأنه لم يتكئ على شيء، فتدحرج عن الديوان منكبّ الوجه على الأرض. أسرعوا ينهضونه، وعادوا يرقدونه على السرير. ولكنه كان قد أخذ يلفظ أنفاسه. أطلقت صونيا صرخة ضعيفة، وهرعت إليه، وعانقته طويلاً، فمات بين ذراعيها.

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول وهي ترى جثة زوجها:

– نال ما كان يسعى إليه. ولكن ما العمل الآن؟ أين إلى بالمال أنفقه على دفنه؟ وهؤلاء، هؤلاء، من أين أطعمهم غداً؟

اقترب راسكولنيكوف من كاترينا ايفانوفنا. وبدأ يتكلم فقال:

– كاترينا ايفانوفنا! في الأسبوع الماضي روى لي زوجك المتوفى قصة حياته تفصيلاً... ثقي أنه تكلم عنك بحماسة شديدة واحترام عظيم. وقد أصبحنا صديقين منذ ذلك المساء الذي عرفت فيه مدى إخلاصه لكم جميعاً، ومدى ما يحمله لك خاصة يا كاترينا ايفانوفنا من حب وتقدير، رغم آفته الشقية، آفة الإدمان على الشراب... فاسمحي الآن إذن... اسمحي لي أن أساهم... أن أقوم بآخر واجباتي نحو صديقي المتوفى. خذي هذا المبلغ... أظن أنه عشرون روبلاً... فإذا كان هذا يساعدكم ولو قليلاً، فإنني... لكنني سأعود إليكم، سأعود إليكم حتماً، وقد أعود من الغد... أستودعكم الله!

قال ذلك وغادر الغرفة متعجلاً، وشق لنفسه ممراً بين الجمهور بسرعة. ولكنه لم يلبث أن اصطدم بنيكوديم فومتش الذي علم بنبأ الحادث، فأراد أن يتولى بنفسه اتخاذ الإجراءات الضرورية. لم يكونا قد التقيا منذ وقع ذلك المشهد في قسم الشرطة، ولكن نيكوديم فومتش عرفه من أول نظرة. قال:

– هه! هذا أنت؟

– مات! ولقد جاء الطبيب، وجاء الكاهن، وتم كل شيء كما يجب أن يتم. لا تزعج كثيراً تلك المرأة الشقية. حسبها أنها مصدومة. واسها واشدد أزرها إن أمكن...

ثم أضاف يقول ساخراً، وهو يرمقه بنظرة ثابتة:

– أنا أعرف أنك رجل طيب القلب.

لاحظ نيكوديم فومتش، ضوء المصباح، لاحظ بقعًا من الدم ما تزال طرية على صديرة راسكولنيكوف، فقال ينبهه:

– ولكنك... ملطخ بالدم!

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة ذات دلالة:

– نعم، تلطخت... أنا كلي ملطخ بالدم.

ثم ابتسم، وحيّاه بحركة من رأسه، وأخذ يهبط السلم.

كان ينزل ببطء، ولكنه كان يرتعش كمن أصابته حمى. إن موجة كبيرة من الإحساس الجديد الشديد بالحياة الفياضة تغمر نفسه الآن، على غير شعور منه. يمكن أن يشبّه هذا الإحساس بالإحساس الذي يشعر به رجل محكوم عليه بالإعدام حين يعلم فجأة بصدور قرار العفو عنه. فلما وصل إلى منتصف السلم

أدركه الكاهن الذي غادر إلى بيته. تنحى راسكولنيكوف ليدع له مجال المرور، وبادله تحية صامتة. ولكنه حين كان يهبط الدرجات الأخيرة سمع وراءه على حين فجأة وقع خطوات سريعة. كان واضحاً أن هناك من يحاول أن يلحق به. إنها بولينكا. كانت تركض وراءه وهي تناديه صائحة: «اسمع! اسمع!»

التفت راسكولنيكوف. كانت الصبية قد هبطت الطوابق الأخيرة بسرعة شديدة، وها هي ذي الآن تقف أمامه على الدرجة التي تعلو درجته. إن نوراً ضئيلاً كان يتسلل من الفناء إلى ذلك المكان. ميّز راسكولنيكوف الوجه الذي كان ينظر إليه ويبتسم له فرحاً كما يفعل الأطفال. إنه وجه صغير هزيل، ولكنه لطيف. لقد هرعت الصبية وراءه مكلفةً بمهمة كان واضحاً أنها تسرها كثيراً.

سألته معجلةً بصوت لاهث:

– اسمع! ما اسمك؟ وأين تسكن؟

وضع راسكولنيكوف يديه على كتفي الطفلة، ونظر إليها بنوع من الفرح. لقد وجد في النظر إليها متعة كبيرة دون أن يعرف لماذا.

سألها:

– من أرسلك؟

فأجابته وهي تبتسم بمزيد من الفرح:

– أختي صونيا هي التي أرسلتني.

– قدّرت ذلك.

– وأمي أيضاً. فحين سألتني صونيا أن أجري وراءك، اقتربت أمي فقالت لي هي أيضاً: «نعم، اركضي وراءه بسرعة يا بولينكا».

– هل تحبين أختك صونيا؟

– أكثر مما أحب أي أحد في العالم!

قالت بولينكا ذلك بلهجة قاطعة، وأصبح في ابتسامتها مزيد من الجد على حين فجأة.

سألها:

– وأنا؟ هل ستحبينني؟

فلم تزد الصبية، في الجواب عن هذا السؤال، على أن قرّبت وجهها من وجهه، ومدّت إليه شفتيها الممتلئتين البريئتين، بسذاجة، لتقبّله، ثم عانقته بذراعيها الصغيرتين، النحيلتين كعودي ثقاب، عناقا قويا، ومالت برأسها على كتفه، وأخذت تبكي بكاء رفيقاً، ودفنت وجهها على كتفه. وقالت بعد دقيقة وهي ترفع وجهها الذي احتفظ بآثار الدموع والذي أخذت تمسحه بظهر يدها:

– مسكين بابا!

ثم أضافت تقول فجأة، وهي تصطنع هيئة الجد التي يصطنعها الأطفال حين يريدون بغتة أن يتكلموا «كما يتكلم الكبار»:

– ما أكثر المصائب التي تحل بنا!

– وأبوك، هل كان يحبك؟

فتابعت كلامها تقول جادة دون ابتسام، كشخص كبير تماماً في هذه المرة:

– من بيننا جميعاً كان يحب ليدوتشكا حباً خاصاً. كان يحبها لأنها صغيرة جداً، ولأنها مريضة أيضاً. وكان يجيئها دائماً بهدايا صغيرة. ونحن، كان يعلمنا القراءة.

وأضافت تقول بوقار:

– أنا، كان يعلمني قواعد اللغة، والدين. وكانت أمي لا تقول شيئاً، ولكننا كنا نعرف أنها تسرُّ بذلك، وكان بابا يعرف هذا أيضاً. وماما تريد الآن أن تعلمني الفرنسية، لأنه آن الأوان لأن أتعلم...

– وهل تجيدين الصلاة؟

– طبعاً نجيد الصلاة. أنا أجيد الصلاة منذ مدة طويلة! أنا أصلي، في سري، لأنني كبيرة. أما كوليا وليدوتشكا فهما يصليان بصوت عالٍ، مع ماما. يرتلان أولا: «سلام عليك يا مريم...»، ثم يتلوان دعاء آخر: «اغفر لأختنا صونيا يا رب، وباركها!». ويتلون بعد ذلك دعاء آخر: «اغفر لأبينا الآخر، يا رب، وباركه!». ذلك أن أبانا الأول مات. أما هذا فهو أبونا الثاني. لذلك ندعو للأول أيضاً.

– بولينكا! اسمي أنا روديون. فادعوا لي أنا أيضاً في بعض الأحيان. أضيفوا في صلاتكم: «ولروديون المسكين»، لا أكثر من ذلك.

قالت الصبية بحماسة وحرارة:

– طول حياتي، سأدعو لك!

ثم أخذت تضحك فجأة، واندفعت إليه فعانقته بذراعيها عناقاً قوياً.

ذكر لها راسكولنيكوف اسمه، وذكر لها عنوانه، ووعد بأن يجيء إليهم من الغد. فانصرفت الفتاة وقد طفح قلبها بالإعجاب به. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين أصبح راسكولنيكوف في الشارع. وبعد خمس دقائق وصل إلى الجسر، إلى ذلك الموضع نفسه الذي ألقت فيه المرأة المسكينة بنفسها في الماء.

قال لنفسه بلهجة جازمة احتفالية: «كفى؛ تراجعي يا أنواع السراب! إلى الوراء يا أيتها المخاوف الوهمية! تقهقري أيتها الأطياف! الحياة موجودة! ألست حياً في الساعة التي أنا فيها؟ إن حياتي لم تمت بموت المرأة العجوز! لا! إن ملكوتها الآن هو ملكوت السماوات! كفاك أيتها المرأة العجوز! آن لك أن تدعي العالم هادئاً! أما ملكوتي أنا فهو ملكوت العقل والضياء... و... القوة... والإرادة... وسنرى من المنتصر منا نحن الاثنين الآن!». كذلك أضاف متغطرساً، كأنما هو يخاطب ويتحدى قوة غامضة ما. وتابع يكلم نفسه فقال: «كيف رضيت أن أحيا على حيّز ضيق من المكان لا يزيد على أن يكون موطئ قدم؟

... أنا الآن ضعيف جداً، ولكن... أعتقد أن مرضي قد انتهى... وحين خرجت منذ برهة، كنت أعلم حق العلم أنه سينتهي. بالمناسبة: إن عمارة بوتشنكوف على مسافة خطوتين من هنا. سأذهب حتماً إلى بيت رازوميخين... نعم، سأذهب إليه حتى ولو كان لا يقيم في منزل قريب هذا القرب كله. إلا فليكسب الرهان! إلا فليسخر مني! أي ضير في هذا. إن ما أنا في حاجة إليه هو القوة، القوة. بغير القوة لا يصل المرء إلى شيء. والقوة لا تُنال إلا بالقوة. هذا ما لا يعرفونه!» كذلك أضاف يقول بزهو وكبرياء وثقة. وغادر الجسر بخطى بطيئة. فكانت الكبرياء والثقة تزدادان فيه كلما انقضت دقيقة جديدة؛ وكلما انقضت دقيقة جديدة كان يصبح رجلاً آخر. فما الذي حدث إذن حتى تحقق في نفسه هذا التحول؟ كان هو نفسه يجهل ذلك. إنه، كالغريق الذي يتعلق بقشة، يتصور أنه «يستطيع أن يحيا، وأن الحياة ما تزال موجودة، وأن حياته هو لم تمت بموت المرأة العجوز». ولعله أسرف في التعجل حين انتهى إلى هذه النتيجة، ولكن ذلك لم يخطر له ببال.

قال لنفسه فجأة: «ومع ذلك طلبت صلوات ودعوات لروديون عبد الرب، المسكين!» ولكنه لم يلبث أن أضاف: «كان هذا من باب الاحتياط على كل حال!» وأسرع يضحك من فعلته الصبيانية. لقد كان مزاجه مشرقا إشراقا رائعا!

اهتدى إلى مسكن رازوميخين بسهولة: كان المستأجر الجديد معروفاً في عمارة بوتشنكوف، ودلّه البواب على الطريق فوراً. فما إن وصل إلى منتصف السلم حتى كان يسمع ضجة حديث حار يقوم بين حشد كبير. كان الباب المطل على السلم مفتوحا على كل سعته. فكان يُسمع صراخ ونقاش. إن غرفة رازوميخين واسعة سعة كافية، فكانت تضم نحو خمسة عشر شخصاً. توقف راسكولنيكوف في ردهة المدخل، ووراء الحاجز، كانت خادمتان، مستعارتان من صاحبة البيت، وصحون وأطباق مثقلة بفطائر ومشهيّات. والصحون والأطباق مستعارة من صاحبة البيت أيضاً. سأل راسكولنيكوف عن رازوميخين، فهرع إليه رازوميخين مسروراً مفتوناً. إن المرء ليلاحظ من أول نظرة أنه قد أسرف في الشراب؛ ورغم أنه في العادة لا يمعن في الشراب إلى حدّ السكر، فإن مظهره الآن لا يخطئه الظن.

قال راسكولنيكوف بسرعة:

– اسمع! أنا لم آت إلا لأقول لك إنك كسبت الرهان، وإنه ما من إنسان يستطيع في الواقع أن يحزر ما قد يقع له... ولكنني لا أستطيع أن أدخل... أنا ضعيف إلى حد أنني قد أقع أرضاً... لذلك أقول لك: السلام عليكم وإلى اللقاء. تعال إليّ غداً.

– اسمع، سأصحبك، ما دمت تقول أنت نفسك أنك تبلغ من الضعف أنك...

– وضيوفك؟ قل لي: مِنْ ذلك الرجل المجعّد الشعر الذي ألقى الآن نظره علينا؟

ـــ ذاك؟ الشيطان وحده يعلم من هو؟ لا شك أنه رجل له بعمي علاقة، أو أنه دعا نفسه بنفسه!.. سأترك الضيوف مع عمي! إنه رجل رائع! خسارة كبرى أنك لا تستطيع الآن أن تتعرف إلى عمي! شيطان يأخذهم جميعاً! ثم إنهم في هذه اللحظة لا يملكون من العقل ما يمكنهم من أن يفطنوا إليّ! وما أحوجني إلى استنشاق الهواء! يا عزيزي، لقد جئت في الأوان المناسب. فلو تأخرتَ دقيقتين لأخذت أتضارب معهم! قسماً بالرب! ليتك سمعت ما كانوا يقولون. ليس في وسعك أن تتصور مدى الأكاذيب التي يستطيع فرد أن يقولها! ولكن قد تستطيع أن تتصور ذلك. لم لا؟ وليكذبوا ما شاءوا أن يكذبوا على كل حال!.. ولكن لا بد أن يأتي يوم سينقطعون فيه عن الأكاذيب!.. اجلس لحظةً، سأنادي زوسيموف.

هجم زوسيموف على راسكولنيكوف بشراهة، وظهر عليه استطلاع قوي وفضول غريب، ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وأضاء.

قال جازماً بعد أن فحص المريض كيفما اتفق:

– عليك أن تنام حالاً. وعليك قبل ذلك أن تتناول شيئاً قبل أن تنام. ابلع هذه الحبة، هه؟ لقد حضّرتها منذ قليل.

أجابه راسكولنيكوف:

– لأبلعنّ حبتين إذا لزم الأمر!

وبلع الدواء حالًا.

وقال زوسيموف لرازوميخين:

– إنك لعلى صواب حقاً إذ تريد أن تصحبه. ما سيحدث غداً، سنراه في حينه؛ أما اليوم فحالته ليست سيئة جداً. لقد تبدل تبدلاً واضحاً عما كان عليه قبل قليل. إن الإنسان يتعلم في كل يوم أموراً جديدة.

قال رازوميخين لراسكولنيكوف منذ صارا في الشارع:

– هل تعلم بماذا همس زوسيموف في أذني لحظة خرجنا؟ صاحبي، سأكلمك بصراحة، لأن هؤلاء جميعاً حمقى أغبياء. لقد طلب مني زوسيموف أن أثرثر معك أثناء الطريق، حتى تثرثر أنت أيضاً، ثم أمضي أقصُّ عليه فوراً كل ما تكون قد قلته... ذلك أنه قد قام في ذهنه أنك... أنك مجنون... أو أنك توشك أن تصبح مجنوناً. هل تتخيل هذا؟ أنا أرى أولاً أنك أذكى منه ثلاثة أضعاف، وأرى ثانياً أنك إذا لم تكن مجنوناً فلن تكترث بما قد يقوم في ذهنه؛ وأرى ثالثاً أن هذه الشريحة من اللحم التي هي طبيب جراح، قد أصبحت لا تُعنى إلا بالأمراض العقلية، فاقتنعت بعد حديثك مع زاميوتوف بأنك...

– هل روى لك زاميوتوف كل شيء؟

– كل شيء. ولقد أحسن صنعاً. إن هذا أفهمني القضية كلها، وقد فهمها زاميوتوف هو أيضاً. الخلاصة يا روديا... الواقع أن... حقاً أنا الآن سكران قليلاً، ولكن لا ضير... الواقع أن هذه الفكرة... هل تفهم؟.. قد ترسخت في أذهانهم، هل تفهم؟ لم يجرؤوا طبعاً أن يفصحوا عنها صراحة، لأن الأمر سخيف حقاً، ولا سيما بعد أن اعتلقوا الدهَّان. نعم لقد تبدد كل شيء إلى الأبد كفقاعة صابون. ولكن لماذا هم أغبياء إلى هذه الدرجة من الغباء؟ لقد ضربت زاميوتوف قليلا. ولكن هذا سر بيننا. أنت لا تعرف هذا، أليس كذلك؟ ذلك أنني لاحظت أنه أمْيَل إلى المماحكة والنّزَق.. حدث هذا كله عند لويزا. أما الآن فقد اتضح كل شيء. والحق أن المذنب الرئيسي إنما كان ايليا بتروفتش. لقد استغل حادثة إغمائك في قسم الشرطة، ثم خجل هو نفسه مما ذهب إليه ظنه. أنا أعلم كل شيء.

كان راسكولنيكوف يصغي بشراهة. وقد أفاض رازوميخين في الكلام بتأثير السكر.

قال راسكولنيكوف:

– أنها أغمي عليّ لأن الجو كان خانقاً ومليئاً برائحة الدهان.

– عجيب أمرك! ما بالك تشعر أنك في حاجة إلى تبرير! لم تكن رائحة الدهان وحدها هي السبب، فإنما أنت تحضن المرض منذ شهر. إن زوسيموف يشهد بهذا. لا تستطيع أن تتخيل مدى ما يشعر به هذا الغر، زاميوتوف، من خجل واضطراب. لقد قال: «إنني لا أساوي إصبع هذا الرجل»، يعنى إصبعك أنت. إنه يبرهن أحياناً يا أخي على أن له عواطف طيبة كريمة. ولكن الدرس الذي تلقاه اليوم في قصر الكريستال، قد بلغ منتهى الكمال. ذلك أنك أخذت في أول الأمر تخيفه حتى أخذ يرتعد! ثم كدت تجبره إجباراً على أن يصدّق ذلك الأمر السخيف المستحيل... ثم إذا بك تمدّ له لسانك مستهزئاً على حين فجأة!.. يا سلام، نعم، بلغ ذلك منتهى الكمال! ظل الرجل محطماً مسحوقاً. يميناً أنك لأستاذ، لقد عاملتهم بما يستحقون أن يعاملوا به. آه.. خسارة أنني لم أكن هناك! هل تعلم؟ لقد كان زاميوتوف ينتظرك عندي محترقا من نفاد الصبر. كان بورفيري أيضاً يود لو يتعرف إليك...

– آ... أذلك الرجل أيضاً؟.. ولماذا يعدونني مجنوناً؟

– أقصد... لا مجنوناً تماماً! أظن يا صاحبي أنني أسرفت في الثرثرة بعض الإسراف... أن ما خطف انتباهه هو أنك لا تهتم إلا بهذا الأمر. هم الآن يرون طبعاً لماذا تهتم به. هم الآن يعرفون الظروف، يعرفون أن ذلك كله قد اختلط بمرضك فأثارك. أنا سكران قليلاً كما ترى يا صاحبي. ولكن له فكرة ما لا يعلمها إلا الشيطان. أعود فأقول لك: أن الأمراض العقلية قد ذهبت بعقله. أما أنت فما عليك إلا أن تبصق على هذا كله...

وصمت الاثنان نصف دقيقة.

ثم بدأ راسكولنيكوف الكلام فقال:

– اسمع يا رازوميخين، أريد أن أكلمك بصراحة. أنا آتٍ من بيت رجل ميت. أن موظفاً قد مات... وقد تركت هناك كل ما بقي لي من مال... هذا إلى أنني قد قبّلتني منذ قليل مخلوقة لو كنت قد قتلت أحداً لكان في وسعها مع ذلك أن... الخلاصة... رأيت هنالك مخلوقة أخرى... على قبعتها ريشة حمراء... ولكنني أرى أنني أهذر وأهذي... أنني ضعيف جداً... اسندني... هناك السلّم...

سأله رازوميخين قلقاً:

– ماذا بك؟ ماذا بك؟

– رأسي يدور قليلاً، ولكن ليس هذا هو الأمر... وإنما الأمر أنني حزين جداً، حزين جداً! كامرأة... حقاً... انظر! ما هذا؟ انظر! انظر!..

– ماذا؟

– ألا ترى؟ إن في غرفتي ضوءاً. نعم، إنني أرى الضوء من خلال الشق..

كانا قد وصلا من السلم إلى الفسحة السابقة على الفسحة الأخيرة، أمام باب صاحبة البيت؛ ومن هناك كان يُرى ضوء في غرفة راسكولنيكوف فعلا.

قال رازوميخين:

– غريب! لعلها ناستاسيا.

– ناستاسيا لا تجيء إليّ أبداً في مثل هذه الساعة؛ ثم إنها نائمة منذ مدة طويلة... على أن هذا كله يستوي عندي... أستودعك الله!

– ما هذا الذي تقوله؟ لا بد لي أن أصحبك طبعاً! سندخل معاً!

– أعرف أننا سندخل معاً، ولكنني أريد أن أصافحك وأن أودعك هنا. هلمّ هات يدك وودّعني!

– ماذا دهاك يا روديا؟

– لا شيء. هيا، ستكون شاهداً.

واستمرا يصعدان السلم، وخطر ببال رازوميخين عندئذ أن زوسيموف ربما كان على حق، فدمدم يقول بينه وبين نفسه: «يا للأسف! أثرت في نفسه الاضطراب بثرثرتي» وفيما هما يقتربان من الباب سمعا فجأة أصوات كلام في الغرفة. هتف زاميوتوف يسأل:

– ولكن ماذا يجري هنا؟

بادر راسكولنيكوف فأمسك قبضة الباب وفتحه على سعته كلها. فتحه ووقف متسمُراً على العتبة.

كانت أمه وأخته تنتظرانه منذ ساعة ونصف ساعة، جالستين على الديوان. تُرى لماذا كان يتوقع ذلك أقل مما كان يتوقع أي شيء آخر؟ لماذا خطرتا بباله أقل مما خطر بباله أي إنسان آخر، مع أنه في ذلك اليوم نفسه تلقى رسالة تؤكد أن وصولهما قريب، وشيك؟ لقد لبثتا طوال مدة الانتظار لا تكفان عن مساءلة ناستاسيا التي كانت ما تزال في الغرفة أمامهما، فاتسع وقتها لأن تروي لهما كل شيء عن راسكولنيكوف. ولقد استبد بهما ذعر شديد حين علمتا «أنه هرب اليوم من البيت» مريضاً، وأنه كان يهذي، على ما روت لهما

ناستاسيا. «ماذا جرى له يا رب؟». ولقد بكت المرأتان كلتاهما وعانتا عذاباً شديداً خلال مدة الانتظار هذه التي دامت ساعة ونصف ساعة.

فلما ظهر راسكولنيكوف استقبلتاه بصيحات فرح وحماسة، واندفعتا كلتاهما نحوه، ولكن راسكولنيكوف لبث جامداً كجثة. إن فكرة مفاجئة لا تطاق قد نزلت عليه عندئذٍ نزول الصاعقة؛ حتى إن ذراعيه لم ترتفعا لمعانقتهما، ولم يكن يملك من القوة ما يمكنه من ذلك. شدّته الأم والأخت إلى صدريهما، وأغرقتهما بالقبل، وكانتا تضحكان وتبكيان في آن واحد. فتقدم خطوة، وترنح، ثم هوى على الأرض مغشياً عليه.

انطلقت صيحات الرعب، وأنات الخوف... وكان رازوميخين قد لبث على عتبة الباب، فهرع إلى الغرفة، وأمسك المريض بذراعيه القويتين، فأرقده على الديوان بمثل لمح البصر سرعة.

وصاح رازوميخين يقول للأم والأخت مطمئناً مهدئاً:

– ما هذا بشيء، ما هذا بشيء! ليس هذا إلا إغماء تافهاً لا قيمة له. لقد قال الطبيب منذ هنيهة إن صحته قد تحسنت كثيراً، وأنه شفي شفاءً تاماً... إليه بقليل من الماء! ها... ها هو ذا يسترد وعيه، ها هو ذا يستعيد شعوره!

ثم أمسك يد دونيا إمساكاً قوياً كاد يهشمها، ليجبرها على أن تميل على أخيها فترى أنه «استعاد شعوره». كانت الأم والأخت تنظران إلى رازوميخين نظرتهما إلى إله، وتشعران نحوه بامتنان عظيم وشكر عميق وعاطفة قوية وحنان شديد. كانتا قد عرفتا من ناستاسيا ما فعله هذا «الشاب الهمام» في سبيل عزيزهما روديا طوال مدة مرضه، كما نعتته بهذه الصفة بولخيريا الكسندروفنا راسكولنيكوفا، في ذلك المساء نفسه، أثناء حديث حميم جرى بينها وبين دونيا.

الجزء الثالث

الفصل الأول

انتصب راسكولنيكوف وجلس على الديوان.

وأومأ إيماءة خفيفة يهيب برازوميخين أن يوقف سيل المواساة العارم المتقطع الذي كان يغمر به أمه وأخته، ثم أمسك بيديهما كلتيهما، وراح يتأملهما صامتاً، واحدة بعد أخرى، خلال دقيقة أو دقيقتين. خافت الأم من نظرته، فقد كانت هذه النظرة تشف عن عاطفة عنيفة إلى حد الألم، وكانت في الوقت نفسه ثابتة تكاد تدل على جنون... وأخذت بولخيريا الكسندروفنا تبكي.

وكانت آفدوتيا رومانوفنا شاحبة الوجه، يدها ترتجف في يد أخيها. قال راسكولنيكوف بصوت متقطع وهو يومئ إلى رازوميخين:

– عودا إلى بيتكما... معه! إلى الغد. كل شيء غداً سوف... هل وصلتما منذ مدة طويلة؟

أجابت بولخيريا الكسندروفنا:

– هذا المساء يا روديا. لقد تأخر القطار تأخراً رهيباً! ولكنني لن أتركك الآن بحال من الأحوال يا روديا. سأقضي الليل قرب..

قال وهو يحرك يده بإشارة اهتياج وغيظ:

– لا تعذبوني هذا التعذيب!

صاح رازوميخين يقول:

– سأبقى بقربه! لن أتركه دقيقة واحدة. ليذهب ضيوفي إلى الشيطان! إلا فليغضبوا إذا حلا لهم أن يغضبوا! ثم إن عمي هناك يترأس الحفل...

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي تصافح رازوميخين من جديد:

– أنى لي أن أوفيك حقك من الشكر!

ولكن راسكولنيكوف قاطعها مرة أخرى، وقال مردداً في غضب:

– لا أستطيع! لا أستطيع! لا تعذبوني! كفى هذا! اذهبوا... لا أستطيع!..

دمدمت دونيا تقول مرتاعة:

– لنذهب يا ماما، لنخرج من هذه الغرفة ولو لحظة قصيرة. إن لم نخرج فسنقتله... هذا أكيد...

فهتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول باكية:

– ألا يجوز لي إذن أن انظر إليه قليلاً بعد فراق دام ثلاث سنين؟

وعاد راسكولنيكوف يتكلم فقال:

– انتظروا... أنتم تقاطعونني دائماً... وقد اضطربت أفكاري واختلطت... هل رأيتما لوجين؟

قالت الأم:

– لا، يا روديا، ولكنه يعرف أننا وصلنا.

ثم أضافت تقول بوجل:

– وقد عرفنا يا روديا أن بيوتر بتروفتش قد تفضل فزارك في هذا اليوم.

– نعم... تفضّل!.. يا دونيا لقد أبلغت لوجين أنني سأدحرجه إلى أسفل السلم إذا هو جاء إليّ مرة أخرى. وأرسلته إلى الشيطان.

– روديا، ما هذا الكلام الذي تقوله؟ لا شك أنك لا تريد... مع ذلك... أن تقول إن...

كذلك بدأت تقول بولخيريا الكسندروفنا مرتاعة، ولكنها نظرت إلى دونيا فلم تلبث أن قطعت كلامها وصمتت.

كانت آفدوتيا رومانوفنا تحدّق إلى أخيها بنظرات ثابتة وتنتظر التتمة. وكانت المرأتان قد عرفتا أمر المشاجرة من ناستاسيا، بمقدار ما كانت ناستاسيا قادرة على أن تصوّرها، فكانتا لذلك في حيرة شديدة واضطراب قوي.

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال بجهد ومشقة:

– دونيا، أنا لا أريد هذا الزواج. لذلك يجب عليك أن تعلني له رفضك من الغد.. لا أحب أن أراه بعد الآن!

صاحت بولخيريا الكسندروفنا:

– رباه!

وبدأت آفدوتيا رومانوفنا تتكلم فقالت باندفاع:

– هلّا فكرت قليلاً فيما تطلبه مني يا أخي!...

ولكنها لم تلبث أن سيطرت على نفسها، فأضافت تقول برفق وهدوء ولين:

– قد لا تكون صحتك الآن حسنة... أنت متعب!

– أنا أهذي إذن؟ لا، أنا لا أهذي! إنك تريدين أن تتزوجي لوجين في سبيلي أنا! ولكنني أنا أرفض هذه التضحيات. لذلك ستكتبين له اليوم رسالة قطيعة. وسأقرأ الرسالة في الصباح، وينتهي كل شيء.

هتفت الفتاة تقول مستنكرة:

– لا أستطيع أن أفعل هذا. وبأي حق...

فقاطعتها أمها مرتاعة وهي تندفع إليها:

– أنت أيضاً سريعة الغضب يا دونيتشكا... كفى الآن... غداً.. ألست ترين إذن أنه... آه... والأفضل أن ننصرف أيضاً!

وصاح رازوميخين الثمل يقول:

– إنه يهذي! وإلا فهل كان يجرؤ أن... لسوف تخرج من رأسه هذه الحماقات كلها غداً. لقد طرده اليوم فعلاً. هذا صحيح. وغضب الآخر طبعًا. كان يفيض في الكلام هنا، ويعرض علمه ومعرفته. لكنه خرج مع ذلك واضعاً ذيله بين ساقيه..

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

– أصحيح إذن؟

وقالت دونيا وقد امتلأ قلبها شفقة ورحمة:

– إلى الغد يا أخي. هلمي يا أمي! أستودعك الله يا روديا!

كرر راسكولنيكوف يقول مستجمعاً آخر قواه:

– اسمعي يا أختي! أنا لا أهذي. ليس هذا صحيحاً. إن هذا الزواج دناءة! لنفرض أنني أحط إنسان. ولكن يجب عليك أنت أن لا... إنه يكفي أن يكون واحد منا... ثم إنني على كوني أحط إنسان، لن أعدّك أختي إذا أنت... فإما لوجين وإما أنا! وانصرفوا الآن!

زأر رازوميخين يقول:

– ولكنك جُننت! يا لك من طاغية مستبد!

لم يجب راسكولنيكوف، ربما لأنه كان لا يملك من القوة ما يمكنه من الكلام. وعاد يرقد على الديوان، واستدار إلى جهة الحائط، مهدود القوى تماماً. نظرت آفدوتيا رومانوفنا مستوضحة إلى رازوميخين. كانت عيناها السوداوان تسطعان. حتى لقد ارتعش رازوميخين بتأثير هذه النظرة. ولبثت بولخيريا الكسندروفنا جامدة مذهولة. وهمست تقول لرازوميخين يائسة:

– لكنني لن أستطيع أن أنصرف بحال من الأحوال. سأبقى هنا، في مكان ما. اصحبْ أنت دونيا.

فأجابها رازوميخين همساً كذلك، ولكنه كان غاضباً خارجاً عن طوره:

– بهذا تفسدين كل شيء. لنخرج إلى فسحة السلّم على الأقل. يا ناستاسيا، هاتي لنا ضوءًا.

حتى إذا صاروا في السلم، تابع كلامه يقول بصوت خافت:

– أحلف لكما أنه كاد يضربنا أنا والطبيب منذ قليل. هل تفهمان؟ نعم، كاد يضرب الطبيب نفسه. واضطر الطبيب أن يطيعه حتى لا يهيجه مزيداً من الهياج، فانصرف؛ ورغم أنني بقيت أنا تحت، من أجل أن أحرسه، فقد استطاع أن يلبس ثيابه... وأن يهرب! فإذا أهجناه الآن وأغضبناه، فسيهرب، أو هو سيحاول، في وسط الليل، أن يرتكب عملًا ضدّ نفسه...

– ما هذا الذي تقوله؟

– ثم إن آفدوتيا رومانوفنا لا تستطيع أن تقضي الليل وحيدة في تلك الغرفة المفروشة. هلّا فكرت قليلاً في المنزل الذي تنزلونه! ألم يكن في وسع ذلك الوغد بيوتر بتروفتش أن يجد لكما مسكناً أليق؟ على أنني سكران قليلا، لذلك شتمت... لا تولوا هذا انتباها!

قالت بولخيريا الكسندروفنا مصرّة:

– إذن سأمضي أتوسل إلى صاحبة البيت أن تهب لنا، أنا ودونيا، ركناً صغيراً نبيت فيه هذه الليلة، لا أستطيع أن أتركه وهو على هذه الحال، لا أستطيع.

كانوا قد هبطوا طابقاً وهم يتكلمون، فأصبحوا الآن أمام باب صاحبة البيت. وكانت ناستاسيا تتقدمهم درجة فتنير لهما المكان. كان رازوميخين يعاني اندفاعا خارقا. إنه قبل نصف ساعة، على إفراطه في الثرثرة أثناء مرافقته راسكولنيكوف إلى بيته – كما اعترف هو نفسه بذلك – كان يشعر بأنه صاحٍ تقريباً، وبأنه ممتلئ نشاطاً رغم المقادير الضخمة من الخمرة التي شربها في السهرة. أما الآن فهو في حالة نشوة شديدة، والخمرة تصعد إلى رأسه بقوة متزايدة. هو الآن واقف بين السيدتين، ممسك يديهما، يحاول بصراحة قوية أن يقنعهما بالحجج التي يعرضها. وأغلب الظن أنه من أجل أن يقنعهما بمزيد من القوة إنما كان يشد يد كل منهما بما يشبه الكلابة، عند كل كلمة يقولها، فإذا هو يوجعهما، بينما عيناه تلتهمان آفدوتيا رومانوفنا التهاماً، من دون أي تحرّج. فكانتا من شدة الألم تخلّصان أصابعهما أحياناً من قبضة يده الضخمة المعروقة، ولكنه لا ينتبه هو إلى هذا، حتى ليشدهما إليه شداً أقوى. ولو قد طلبتا منه في تلك اللحظة أن يرمى نفسه من أجلهما إلى أسفل السلم منكّس الرأس لفعل ذلك فوراً بلا مناقشة ولا تردد. كانت بولخيريا الكسندروفنا تستغرب بعض الاستغراب أن يضغط الشاب يدها هذا الضغط القوي، وأن يكون تصرفه شاذاً هذا الشذوذ، ولكنها من شدة تأثرها حين تتذكر ابنها روديا، ومن أنها ترى في رازوميخين عوناً أرسلته العناية الإلهية، كانت لا تريد أن تعترف لنفسها بهذه التفاصيل. أما آفدوتيا رومانوفنا المتأثرة أيضاً،

فقد كانت، رغم أنها ليست بالفتاة الوجلة، لا تخلو من شعور بالدهشة والذهول بل ومن إحساس بالخوف والرعب، حين يلتقي بصرها بتلك النظرة الملتمعة التي يلقيها عليها صديق أخيها، غير أن الثقة العظيمة التي أوحى إليها بها حديث ناستاسيا عن هذا الرجل الغريب هي التي كانت تنتزعها من الرغبة في الهروب منه جارّة معها أمها. ثم إنها كانت تدرك حق الإدراك أنهما أصبحتا لا تستطيعان الخلاص منه الآن. يضاف إلى هذا أنها قد هدأت بعد عشر دقائق: فرازوميخين يملك موهبة الظهور على حقيقته كاملة من أول نظرة، أيةً كانت الحالة التي هو فيها، فإذا بمن يراه يعرف من يعامل.

هتف رازوميخين يقول ليقنع بولخيريا الكسندروفنا:

– لا مجال للتفكير في الالتجاء إلى صاحبة البيت! تلك أكبر حماقة يمكن ارتكابها. لو بقيت لأثرت غضبها وحنقها رغم أنك أمه، ولا يدري إلا الشيطان ماذا يمكن أن يحدث! اسمعيني، إليك ما سأفعله: تبقى ناستاسيا الآن إلى جانبه، وأصحبكما أنا كلتيكما إلى بيتكما، لأنكما لا تستطيعان أن تسيرا وحيدتين هكذا في الشوارع. عندنا، في بطرسبرج، من هذه الناحية... لا بأس... فمتى أوصلتكما رجعت إلى هنا راكضاً، فما أن ينقضي على ذلك ربع ساعة حتى أعود إليكما من جديد لأخبركما بكل شيء: أقول لكما كيف حالته، وهل نام أم هو لم ينم، إلخ إلخ. لكما عليّ عهد الشرف لأعودنّ إليكما بعد ربع ساعة. ثم أثب إلى بيتي حيث يوجد ضيوف هم جميعاً سكارى، فآخذ زوسيموف – إن زوسيموف هو طبيبه، وهو الآن في بيتي لكنه ليس بسكران، هو لا يسكر أبداً – آخذه وأمضي به إلى روديا. ومن هناك نجيء إليكما فوراً نحن الاثنين؛ فبذلك تتلقيان أخباراً عن روديا مرتين في غضون ساعة، وفي إحدى هاتين المرتين تتلقيان الأخبار من فم طبيب، نعم من فم طبيب، فيكون فيها من الجد ما لا يكون في الأخبار التي قد أنقلها أنا وحدي بطبيعة الحال... فإذا لم يكن روديا بخير اصطحبتكما إليه حتماً، يميناً لأصطحبنكما إليه إن لم يكن بخير... أما إذا كانت حالته حسنة، فلن يكون عليكما عندئذ، إلا أن ترقدا وتناما. وأنا سأقضي الليلة هنا، على

فسحة السلم؛ ولن يلاحظ هو ذلك. وسأطلب من زوسيموف أن يبيت عند صاحبة البيت، فيكون بذلك تحت تصرفي ورهن إشارتي. من ينفعه في هذا الوقت أكثر، أنتما أم الطبيب؟ الطبيب طبعاً! فعودا إذن إلى بيتكما! ولا مجال للتفكير في الالتجاء إلى صاحبة البيت. أنا يمكن أن أبيت عندها، أما أنتما فلا. لن تحب أن تبيتا عندها... لأنها امرأة حمقاء. سوف تغار... سوف تغار بسبب آفدوتيا رومانوفنا. وبسببك أنت أيضاً... هذه امرأة غريبة الأطوار جداً. على أنني أنا أيضاً غبي! لا بأس... هيا بنا... أتثقان بي؟ أتثقان بي أم لا؟

قالت آفدوتيا رومانوفنا:

– فلننصرف يا ماما. لا شك في أنه فاعل ما يقول. لقد ردّ أخي إلى الحياة. وإذا صحّ أن الطبيب يقبل أن يقضي الليلة هنا، فهل نتمنى خيراً من هذا؟

هتف رازوميخين يقول مفتتنًا غاية الافتتان:

– حقاً... إنك لتفهمينني لأنك ملاك! هيا بنا. يا ناستاسيا، أصعدي إلى فوق، فوراً، مع النور، وبقي هناك بالقرب منه، وسأعود أنا بعد ربع ساعة.

لم تعارضه بولخيريا الكسندروفنا أية معارضة، رغم أنها لم تقتنع اقتناعاً تاماً. وتأبط رازوميخين ذراع السيدتين وجرّهما على السلم. ولكن الأم ظلت قلقة، فكانت تقول لنفسها: «قد يكون شاباً ذا نخوة، ولكن أهو قادر على أن يفي بوعده، وهو على هذه الحال؟»

قال رازوميخين وكأنه حزر ما يدور في خاطر بولخيريا الكسندروفنا، بينما هو يسير على الرصيف بخطى واسعة فلا تكاد تستطيع السيدتان أن تجارياه إلا بمشقة كبيرة، وذلك أمر لم يلاحظه على كل حال؛ قال:

– آ... أنا أفهم! إنك تقدّرين أنني في الحالة التي أنا فيها، لا... نعم... أنا سكران، سكران تماماً، ولكن ليست هذه هي المسألة. ليست الخمرة هي التي أسكرتني... فالضربة التي سقطت على رأسي أنما سقطت على رأسي حين رأيتكما! على كل حال، لا تكترثا لهذا! أنا لا شيء! أنا أهذي، أنا لست جديراً بكما، لست جديراً بكما البتة... وما أن أوصلكما، حتى أذهب إلى القناة، فأصب على رأسي جردلين من الماء فأفيق فوراً. ليتكما تعرفان كم أحبكما كلتيكما! لا تضحكا! لا تزعلا! ازعلا من جميع الناس، ولكن لا تزعلا مني أنا! أنا صديقه، فأنا إذن صديقكما. ذلك ما أريد أن يكون! ولقد أوجست هذا منذ السنة الماضية... نعم، في لحظة ما، هكذا... على أنني لم أوجس شيئاً البتة، لسبب بسيط هو أنكما هبطتما عليّ من السماء. من الجائز جداً أن لا أنام طوال الليل. كان زوسيموف يخشى منذ قليل أن يجنّ روديا. لذلك يجب تحاشي إهاجته.

هتفت الأم تسأله:

– ما هذا الذي تقوله؟

وسألته آفدوتيا رومانوفنا مروّعة:

– حقاً؟ الطبيب نفسه قال لك؟

– قال لي! ولكن كلامه ليس صحيحاً، ليس صحيحاً على الإطلاق. لقد أعطى له دواء، رأيت هذا المسحوق ولكنكما وصلتما... آه... كان من الأفضل أن لا تصلا إلا غداً! على كل حال، لقد أحسنّا صنعاً إذ انصرفنا. وبعد ساعة سيأتيكم زوسيموف بتقرير كامل. ليس زوسيموف سكران مثلي، ليس هو سكران. وأنا لن أكون سكران أيضاً!... لماذا شربت حتى ثملت؟ لماذا؟ لأنهم جرّوني إلى مناقشتهم، أولئك الملاعين! وكنت مع ذلك قد آليت على نفسي أن لا أناقش. وما أسخف ما كانوا يقولونها كدت أن

أقتتل معهم! وتركت عمي يترأس بدلاً مني. هل تصدّقان؟ أنهم ينادون باللاشخصية ويعتبرونها أفضل شيء... يقولون إن على المرء أن لا يكون عين نفسه. ويسمون هذا ذروة التقدم. ويا ليت السخافات التي قالوها كان فيها شيء من أصالة وطرافة. أبداً...

قالت بولخيريا الكسندروفنا خجلة وجلة:

– اسمع..

ولكن مقاطعتها هذه لم تزده إلا اندفاعا وحماسة. فصاح يقول بصوت أعلى:

– آه، إنما أنا أحب الهذر والهذيان والخطأ والضلال. إن الخطأ هو الميزة الوحيدة التي يمتاز بها الكائن الإنساني على سائر الكائنات الحية. من يخطئ يصل إلى الحقيقة. أنا إنسان لأنني أخطئ. ما وصل امرؤ إلى حقيقة واحدة إلا بعد أن أخطأ أربع عشرة مرة وربما مائة وأربع عشرة مرة! وهذا في ذاته ليس فيه ما يعيب. لك أن تقول آراء جنونية، ولكن لتكن هذه الآراء آراءك أنت، فأغمرك بالقبل. لأنْ يخطئ المرء بطريقته الشخصية، فذلك يكاد يكون خيراً من ترديد حقيقة لقنه إياها غيره. أنت في الحالة الأولى إنسان، أما في الحالة الثانية فأنت ببغاء لا أكثر. الحقيقة لا تطير، أما الحياة فيمكن خنقها. إلى أين وصلنا من هذا الآن؟ نحن جميعاً، بغير استثناء، سواء في ميدان العلم، أو الثقافة، أو الفكر، أو العبقرية الخالقة، أو المثل الأعلى، أو الرغبات، أو اللبرالية، أو العقل، أو التجربة، نحن في كل شيء، في كل شيء، في كل شيء، نعم، في كل شيء، مازلنا في الصفوف الإعدادية لدخول المدرسة الثانوية! نحب أن نكرر ونمضغ أفكار الأخرين، وتعودنا على ذلك! أليس هذا صحيحاً؟ أليس الأمر كما أقول؟ أليست هذه هي الحقيقة؟

كذلك قال رازوميخين وهو يهز يدي السيدتين ويضغطهما.

فدمدمت المسكينة بولخيريا الكسندروفنا تقول:

– الله... لا أعلم!

وأضافت آفدوتيا رومانوفنا قائلة بلهجة الجد:

– نعم، هو هذا، هو هذا، رغم أنني لا أوافقك على جميع النقاط.

ثم سرعان ما أطلقت صرخة ألم، لأن رازوميخين قد ضغط يدها في هذه المرة ضغطاً قوياً فلم تملك إلا أن تطلق تلك الصرخة.

وهتف رازوميخين يقول مفتتناً:

– نعم؟ تقولين نعم؟ إلا أنك إذن... إلا أنك إذن لينبوع خير، وطهارة، وعقل، وكمال. ناوليني يدلك، ناوليني يدك، وأنت أيضاً، ناوليني يدك. أريد أن أقبل يديكما في هذا المكان، في هذه اللحظة، جاثياً على ركبتي، راكعاً!

وركع في منتصف الطريق، الذي كان خالياً في تلك اللحظة من حسن الحظ.

صرخت بولخيريا الكسندروفنا تقول قلقة أشد القلق:

– كفى، من فضلك! ما هذا الذي تفعله؟

وقالت دونيا ضاحكة، رغم قلقها هي أيضاً:

– انهض، انهض!..

– لن أنهض بحال من الأحوال، لن أنهض إلا بعد أن تناولاني يديكما! نعم، هكذا. وكفى الآن! أنهض ونمضي. أنا امرؤ غبي مسكين. أنا لست جديراً بكما. أنا سكران. وإنني لأشعر من هذا بخزي وعار... أنا لا أستحق أن أحبكما. أما السجود أمامكما فهو واجب يقع على كل إنسان ليس أحمق كل الحمق. لذلك

سجدت... ولكن هذا هو مسكنكما. يكفي هذا وحده سبباً أجاز لروديون أن يطرد صاحبكما بيوتر بتروفتش شر طردة! كيف أباح لنفسه أن يسكنكما في غرفة مفروشة كهذه الغرفة؟ هذه فضيحة! هل تعلمان نوع الناس الذين يؤوونهم هنا؟ ثم يقول إنك خطيبته!.. أنت خطيبته أليس كذلك؟ فاسمحي لي أن أقول لك إذن أن خطيبك رجل قذر!

بدأت بولخيريا الكسندروفنا تتكلم فقالت:

– اسمع يا سيد رازوميخين؛ إنك تنسى أن...

فأسرع رازوميخين يقول مستدركاً:

– نعم، نعم، أنتِ على حق!! أنا أقول سخافات! إنني لأشعر بخجل وعار. ولكن... ولكن لا يمكنك أن تغضبي لأنني كلمتك بهذه الطريقة. ذلك أنني تكلمت مخلصاً صادقاً، ولم أقل ذلك الكلام لأنني... هِمْ... لا... لن أقول... لو قلت لكان كلامي دناءة.. الخلاصة... أنا لم أقل ذلك لأنني... بك... هِمْ... لا، ما ينبغي أن أقول لماذا... لا أجرؤ... ولكن، حين دخل علينا في هذا اليوم، أدركنا جميعاً على الفور أن هذا الرجل ليس منا. لا لأنه وصل مجعد. الشعر وقد خرج من عند الحلاق رأساً، لا ولا لأنه أسرع يعرض ثقافته ومعلوماته، بل لأنه جاسوس ومستغل لأنه بخيل كيهودي، لأنه دجال، ولأن هذا كله واضح لا يخفى! أتظنانه ذكياً؟ لا بل هو غبي، غبي! أهذا زوج لك؟ لا، لا!

ثم أضاف يقول وهو يتوقف فجأة لحظة بدأوا يصعدون السلم:

– اسمعا يا سيدتيّ: إن الضيوف الذين هم في بيتي الآن أناس شرفاء مهما يكونوا سكارى، ورغم أننا جميعاً نهذر وتهذي – وأنا أيضاً أهذر وأهذي – فإن هذرنا وهذياننا سيفضيان بنا يوماً إلى الحقيقة، لأننا نحن نسير في طريق الإخلاص والتجرد عن المنفعة، وليس هذا طريق بيوتر بتروفتش، فإن بيوتر بتروفتش لا

يسلك طريق التجرد عن المنفعة... نعم، فرغم أنني وصفتهم في هذا المساء بجميع النعوت وانهلت عليهم بجميع الشتائم، فإنني أقدرهم جميعًا حق قدرهم. وأنا أحب زاميوتوف رغم أنني لا أحترمه. أنا أحبه فعلاً، لأنه غر على كل حال. أحب حتى ذلك الشرس زوسيموف، لأنه شريف ولأنه يعرف مهنته. ولكن كفى الآن هذا. لقد قلت كل شيء... وسامحاني، أليس كذلك؟ هيا بنا! أنني أعرف هذا الدهليز. لقد سبق أن جئت إلى هذا المكان، وهنا، في رقم ٣، وقعت فضيحة. أين تسكنان؟ في أي رقم؟ ثمانية؟ طيب... أغلقا عليكما الباب طوال الليل، ولا تدعا لأحد أن يدخل. سأعود إليكما بأنباء بعد ربع ساعة، وبعد نصف ساعة من عودتي الأولى، سأعود ثانية مع زوسيموف، ستريان. أستودعكما الله. أنا ذاهب!

قالت بولخيريا الكسندروفنا لابنتها خائفة مضطربة:

– رباه! ماذا سيحدث يا دونيتشكا!

فأجابت دونيا وهي تخلع قبعتها وطرحتها:

– هدئي روعك يا ماما. إن الله نفسه هو الذي أرسل إلينا هذا السيد، رغم أنه مسرف في السكر. في وسعنا أن نعتمد عليه، أؤكد لك. انظري إلى كل ما فعله في سبيل أخي من قبل أن نصل...

– آه يا دونيتشكا. الله يعلم هل يعود! وكيف أمكن أن أوافق على ترك روديا؟.. ثم إنني لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الحالة! ما أقساه! لكأنه لم يُسرّ برؤيتنا!

وتلألأت في عيني الأم دموع.

– لا يا أماه. ليس هذا هو الأمر. أنت ما رأيته رؤية جيدة، لأنك كنت تبكين طول الوقت. إنه مريض مرضاً شديداً. فهذا المرض هو سبب كل شيء.

– آ... المرض! ماذا سيحدث؟ وهل رأيت بأية لهجة خاطبك؟

أضافت الأم هذا السؤال الأخير، وهي تختلس نظرة وجلة إلى عيني ابنتها لتقرأ ما يدور في ذهنها، متعزيةً بعض التعزي منذ الآن، لأن دونيا دافعت عن أخيها، فهذا دليل على أنها غفرت له.

ثم أردفت تقول وهي تريد أن تعرف رأي ابنتها دون أي تكتم:

– أنا واثقة بأنه سيرجع غداً إلى عواطف أخرى.

فردّت آفدوتيا رومانوفنا تقول بلهجة قاطعة:

– أما أنا فواثقة بأنه سيكرر غداً ما قاله اليوم... في هذا الموضوع.

وبهذا الردّ وضعت الفتاة حدّاً للحديث، فقد كانت المسألة صعبة لأنها تتناول نقطة كانت بولخيريا الكسندروفنا، في هذه اللحظة على الأقل، تخشى المجازفة في الكلام عليها. واقتربت دونيا من أمها فقبلتها. فعانقتها أمها عناقاً قوياً دون أن تقول كلمة واحدة. ثم جلست تنتظر عودة رازوميخين قلقة، وتنظر وجلة إلى ابنتها التي غرقت في خواطرها وأفكارها مضطربة هي أيضاً، وأخذت تذرع الغرفة طولا وعرضاً، مصالبة ذراعيها على صدرها. إن هذا المشي في الغرفة طولاً وعرضاً هو عادة من عاداتها، وأمها تخشى دائماً في مثل هذه الظروف أن تعكر تأملاتها.

لا شك أن رازوميخين السكران كان مضحكاً جداً حين استولى عليه هذا الهيام المباغت بآفدوتيا رومانوفنا. ولكن ما أكثر الذين لو رأوا آفدوتيا رومانوفنا، ولا سيما في ذلك الوقت الذي كانت تطوف فيه بالغرفة حزينة مفكّرة مصالبة ذراعيها على صدرها، ما أكثر الذين لو رأوها لعذروا الفتى ولو كان في حالة طبيعية من غير سكر. إن آفدوتيا رومانوفنا فتاة جميلة جداً، فارعة القوام، معتدلة القد، قوية، واثقة بنفسها كما تشهد بذلك كل إشارة من إشاراتها دون أن يجرّدها ذلك من شيء من مرونتها وليونتها،

وخفتها ورشاقتها. هي تشبه أخاها وجهاً، ولكنها يمكن أن توصف بأنها «آية في الجمال». شعرها كستنائي اللون، أزهى قليلاً من شعر أخيها. وعيناها اللتان تشبهان أن تكونا سوداوين، تلتمعان وتسطعان، وتعبران عن عزة وشمم، وتعبران أحياناً عن رقة وعذوبة وطيبة لا حدود لها. وهي شاحبة، لكن شحوبها ليس شحوب المرض، فإن وجهها يشع نضارة وعافية. وفمها أميل إلى الصغر، وشفتها السفلى حمراء قانية، بارزة قليلا كبروز ذقنها كذلك. وهذا هو العيب الوحيد في ذلك الوجه الرائع؛ على أنه عيب يضفي عليها طابعاً أصيلا من صلابة وثبات، بل من تعالٍ وكبرياء. وإذا كان وجهها يعبر عن الجد والتفكير أكثر مما يعبر عن المرح، فإن ابتسامتها، وضحكتها الفرحة التي هي ضحكة الشباب والتي فيها شيء من إهمال، تناسبان وجهها كثيراً. فلا غرابة إذن أن نرى رازوميخين الذي يتصف بالحرارة والبساطة والاستقامة، أن نرى رازوميخين القوي كعملاق، الثمل فوق ذلك، الذي لم يسبق أن رأى جمالاً كهذا الجمال، لا غرابة أن نراه يفقد عقله منذ أول نظرة. يضاف إلى ذلك أن المصادفة قد شاءت، بما يشبه العمد، أن يرى دونيا في اللحظة السارة التي كانت فيها زاخرة بالفرح لرؤية أخيها، وأن يراها بعد ذلك وقد أخذت شفتها السفلى ترتجف استياء من مطالب هذا الأخ القاسية الوقحة، فكيف كان يمكنه أن يقاوم وأن يصمد؟

ولقد صدق حين قال على السلم، في سكره، أن صاحبة البيت الذي يسكن فيه راسكولنيكوف، أي براسكوفيا بافلوفنا الغريبة الأطوار، سوف تغار لا من آفدوتيا رومانوفنا فحسب، بل ربما غارت كذلك من بولخيريا الكسندروفنا، فإن هذه رغم أنها بلغت الثالثة والأربعين من العمر، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير بوجهها الذي يحمل بقايا الجمال السابق، وهذا هو في كثير من الأحيان شأن النساء اللواتي استطعن الاحتفاظ حتى اقتراب الشيخوخة بصحو الذهن، ونضارة الإحساسات وحرارة القلب الطاهر الشريف (ولنضف إلى هذا مستطردين أن الاحتفاظ بهذا كله هو للمرأة الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها أن لا تفقد جمالها حين تشيخ). صحيح أن شعر بولخيريا الكسندروفنا قد أخذ يبيض ويتناثر؛ وصحيح أن

غضوناً صغيرة رقيقة قد ظهرت حول عينيها منذ مدة طويلة؛ وصحيح أن خديّها قد خسفا وجفّا بسبب الهموم والأحزان؛ ولكن هذا الوجه قد ظل جميلاً؛ حتى ليمكن أن يقال إنها صورة دونيا بزيادة عشرين عاماً، مع فارق وحيد هو أن الشفة السفلى عند الأم ليست بارزة. وكانت بولخيريا الكسندروفنا امرأة حساسة، ولكن هذه الحساسية لا تمضي إلى حد العاطفة المُصْطنعة. وهي خجولة، ميّالة إلى المجاراة، مستعدة للتنازلات، حتى حين يخالف ذلك اقتناعاتها. ولكن لهذا حدوداً. فمتى كان الأمر أمر شرفها وواجبها واقتناعاتها العميقة، فما من ظرف من الظروف يمكن أن يحملها على تخطي تلك الحدود.

ما إن انقضت عشرون دقيقة على انصراف رازوميخين، حتى نُقر الباب نقرتين خفيفتين متسارعتين: لقد عاد رازوميخين.

أسرع يقول منذ فُتح له:

– لن أدخل. لا يتسع الوقت. إنه ينام نوماً هادئاً مريحاً. أسأل الله أن يظل نائماً هذا النوم عشر ساعات متتالية؛ ناستاسيا قائمة عليه. أوصيتها أن لا تتركه إلى أن أرجع. والآن سأمضي أُحضر زوسيموف. سيحدثكما هو عن حاله. ثم تهدآن فتنامان، ذلك أنني أرى أنكما تكادان تسقطان من فرط التعب...

قال ذلك ثم اندفع منصرفاً.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول فرحة كل الفرح:

– ما أعظم ما يمتاز به هذا الفتى من فطنة وإخلاص!

فأجابت آفدوتيا رومانوفنا تقول بشيء من الحرارة وهي تستأنف سيرها في الغرفة طولاً وعرضاً:

– إنه رجل رائع فيما يبدو!

وما إن انقضت على ذلك ساعة واحدة، حتى سُمعت أصوات وقع أقدام في الدهليز، ونُقر الباب من جديد. كانت المرأتان قد انتظرتا في هذه المرة وهما ممتلئتان ثقة بصدق وعد رازوميخين. وقد جاء رازوميخين مصطحباً زوسيموف فعلاً. وقد رضي زوسيموف فوراً أن يترك الاحتفال ليعود راسكولنيكوف، ولكنه لم يقبل أن يجيء إلى السيدتين إلا بشدّ الأذن، لأنه كان يرتاب في حالة رازوميخين. فما أسرع ما أرضى غروره، وحتى شعر بشيء من السرور، حين أدرك أنهما كانتا تنتظرانه حقاً كما يُنتظر عرّاف. وقد لبث معهما عشر دقائق تماماً، وأفلح كل الإفلاح في أن يقنع بولخيريا الكسندروفنا وأن يهدئ روعها. وكانت أقواله كلها تشهد باهتمامه الشديد بالمريض؛ ولكنه حافظ مع ذلك على هيئة مسرفة في الجد والرصانة تناسب طبيبا في السابعة والعشرين من عمره يُستشار في ظرف خطير، فلم ينطق بكلمة واحدة تبتعد به عن موضوعه، لا ولا أظهر أية رغبة في أن تقوم بينه وبين السيدتين صلات شخصية مستديمة وأكثر مودة. وإذ لاحظ منذ دخوله جمال آفدوتيا رومانوفنا الباهر، حاول فوراً أن لا ينتبه إليها أي انتباه، وظل طوال مدة الزيارة لا يكلم إلا بولخيريا الكسندروفنا وحدها. وشعر من سلوكه هذا برضى كثير عن نفسه. أما فيما يتصل بالمريض فقد أعلن أنه وجده هذه المرة في حالة مُرضية على وجه الإجمال؛ وشخّص المرض فقال إن له، عدا الظروف المادية المؤسفة التي عاش فيها المريض خلال الأشهر الأخيرة، له عدا تلك الظروف أسباباً نفسية، «فهو ثمرة عوامل كثيرة معقدة، منها عوامل نفسية ومادية، فهو ثمرة الهموم والمخاوف وبعض الأفكار، إلخ». وإذ لاحظ أن آفدوتيا رومانوفنا تصغي إليه بانتباه شديد جداً، أفاض في شرح رأيه مجاملاً. حتى إذا سألته بولخيريا الكسندروفنا بصوت قلق خجول عما إذا كان هنالك شيء من «أعراض جنون...»، أجابها وهو يبتسم ابتسامة هادئة صريحة بأن أقواله قد بولغ في تفسيرها؛ فلئن كان صحيحاً أنه لاحظ لدى المريض ميلا إلى مرض الفكرة الثابتة، لئن لاحظ لديه علامات مرض الفكرة الوحيدة لا سيما وأنه، هو زوسيموف، عاكف الآن على دراسة هذا الفرع الهام من فروع الطب

فإن «علينا أن نتذكر أيضاً أن المريض كان يهذي حتى هذا اليوم، أو حتى هذا اليوم تقريباً»، وأضاف زوسيموف يقول: «ولا شك أن وصول أسرته سيحسن إليه كثيراً، وسيسرّي عنه، أي سيساعد على شفائه»، هذا إذا أمكن (أضاف ذلك بلهجة ذات دلالة) أن «يجنّب صدمات شديدة جديدة». قال زوسيموف ذلك ثم نهض، فحيا تحية هي مزيج من جد ومودة، وخرج تغمره عبارات الامتنان والدعاء من بولخيريا الكسندروفنا. حتى إن يد آفدوتيا رومانوفنا، الصغيرة، قد امتدت إليه من تلقاء نفسها، فصافحها، وخرج مفتوناً بهذه الزيارة، ومفتوناً بنفسه أكثر من ذلك أيضاً.

قال رازوميخين يختم الزيارة وهو يخرج مع زوسيموف:

– سنتحدث غداً. أما الآن فيجب أن تناما، يجب أن تناما حالًا. سأجيئكما غداً في أول ساعة، لأنبئكما بكل شيء.

قال زوسيموف بحرارة حين صارا في الشارع:

– فتاة فتانة، آفدوتيا رومانوفنا هذه!

زأر رازوميخين يقول:

– فتانة؟ تقول فتانة؟

وهجم عليه فجأة، فأمسك بخناقه، وتابع كلامه وهو يهزه من ياقته ويضغطه على حائط:

– إذا تجرأت في ذات يوم... هل تسمع؟ هل تسمع؟ هل تسمع؟

فقال زوسيموف متخبطاً:

– دعني يا سكير!

فلما تركه حدّق إلى رازوميخين بنظرة ثابتة ثم انفجر يضحك في قهقهة شديدة. كان رازوميخين واقفاً أمامه، مترجّح الذراعين، غارقاً في تأملات سوداء خطيرة.

قال رازوميخين مظلم الوجه متجهّماً:

– أنا حمار طبعاً، ولكن أنت أيضاً، أنت أيضاً...

– لا يا صاحبي. شأني أنا شأن آخر. أنا لا أفكر في سخافات.

وأخذا يسيران دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وكان يبدو على رازوميخين أنه مهموم جداً. فلما وصلا إلى قرب عمارة راسكولنيكوف قطع رازوميخين الصمت فقال:

– اسمع يا زوسيموف. أنت فتى رائع، ولكنك بالإضافة إلى جميع عيوبك السيئة، تمتاز بأنك زير نساء، وبأنك من أكثر أمثالك خلاعة، بل أنت نجس إلى أبعد حدود النجاسة. أنت مخلوق ضعيف ذو أعصاب ضعيفة. أنت ترفِّه نفسك، وتسمِّن جسمك، ولا تتورع عن شيء، لذلك أقول إنك نجس، فبهذا أنما يصبح المرء نجساً. وقد بلغت من الرخاوة حداً لا أستطيع معه أن أفهم كيف أمكنك أن تكون رغم هذا طبيباً بارعاً، بل طبيباً مخلصاً متفانياً. أنت تنام على فراش من ريش (طبيب ينام على فراش من ريش!) ثم تنهض في الليل مسرعاً لتعود مريضاً من المرضى! أحسب أنك بعد ثلاث سنين لن ترضى أن تنهض في سبيل مريض. على أن المسألة ليست هذه! إليك المسألة: ستبيت هذه الليلة في شقة صاحبة البيت (لقد استطعت أن أقنعها بذلك بعد لأي)، وسأبيت أنا في المطبخ. هذه فرصة لك من أجل أن تتعرف إليها عن كثب... ولكنها يا صاحبي ليست كما تظن. ليس ههنا ظل من...

– ولكنني لا أظن شيئاً البتة!

– ههنا يا صاحبي سكوت وخفر وحياء وخجل وعفة لا تغالَب. وههنا بالإضافة إلى ذلك تنهدات وذوبان كذوبان الشموع، نعم ذوبان كذوبان الشموع! خلصني منها ناشدتك بجميع شياطين الأرض؛ وهي جذابة إلى أبعد حدود الجاذبية... سأعرف كيف أشكر لك هذا الصنيع، أحلف لأعرفنّ كيف أشكر لك هذا الصنيع!

أخذ زوسيموف يضحك مزيداً من الضحك؛ ثم قال:

– ما أشد اضطرابك! ولكن ما عساني صانعاً بها؟

– أؤكد لك أن هذا لن يتعبك كثيراً. ستجلس بالقرب منها، فتقول لها أي شيء يخطر ببالك. نعم، لن يكون عليك إلا أن تجلس وأن تتحدث. ابدأ بعلاجها من مرضٍ ما ما دمت طبيباً. ولن تندم على أنك فعلت ذلك. أحلف لك! ثم إن عندها بيانو من طراز قديم. أنت تعلم أنني أعزف على البيانو قليلاً... وهناك أغنية روسية عاطفية تقول: «بدموعي السخينة، سأسقي...». هي تعبد الأغاني العاطفية عبادة، وبهذا إنما بدأنا. وإذ أنك عازف ماهر، إذ أنك أستاذ في العزف، إذ أنك عازف مثل روبنشتاين[٦١]... أحلف لك لن تندم!

– أتراك بذلت لها وعوداً؟ تعهداً خطياً مثلاً؟ ألعلك وعدتها بأن تتزوجها؟

– لا، لا، لا شيء من هذا البتة! إنها ليست كما تظن. لقد حاول تشيباروف...

– ما عليك إذا إلا أن تتركها!

– ولكن هذا مستحيل.

---

[٦١] كان عازف البيانو روبنشتاين (١٨٢٩ – ١٨٩٤) عندئذ في قمة مجده.

– لماذا؟

– لا لشيء إلا لأنه مستحيل. هذا هو الأمر. هناك مبدأ الإغراء يا صاحبي.

– ولكن لماذا حاولت إغراءها؟

– أنا لم أحاول إغراءها البتة. لعلني أنا الذي أُغريت، بسبب غباوتي. ويستوي عندها أن أكون أنا أو أن تكون أنت. كل ما يهمها أن يجلس إلى جانبها رجل يتنهد لها. هي يا صاحبي... لا أدري كيف أعبّر لك. أنت تجيد علم الرياضيات، وتواصل دراستها، أنا أعلم ذلك... حدثها إذن عن حساب التكامل. يميناً أنني لا أمزح. أحلف لك أنها لا تكترث بالأمر. سوف يكفيها أن تنظر إليك طوال السنة وأن تتنهد. أنا مثلاً لبثت يومين على الأقل أحدثها، عن مجلس النواب الروسي، حديثاً طويلاً جداً، إذ كان لا بد أن أحدثها عن شيء ما! فكانت لا تزيد على أن تتنهد وتذوب. ولكن حذار أن تكلمها في الحب، فلو كلمتها في الحب لأمكن من شدة حيائها أن تصاب بنوبة تشنج. المهم أن تجعلها تعتقد بأنك لا تقوى على تركها. سيكفيها هذا. وستكون عندئذ كأنك في بيتك: اقرأ، اضطجع، اكتب. بل في وسعك أن تجازف فتقبلها... ولكن امضِ إلى هذا بحكمة وحذر!..

– ولكن ما حاجتي إلى هذا كله؟

– آه! لا أدري كيف أشرح لك. اسمع: أن كلاً منكما قد خلق للآخر. حتى لقد فكّرت فيك من قبل. وما دمت ستنتهي إلى هذه النهاية أخيراً، فسيّان أن يتم هذا متقدماً بعض التقدم أو متأخراً بعض التأخر. ههنا يا عزيزي يتحقق مبدأ فراش الريش، بل تتحقق أشياء أخرى كثيرة أيضاً. هنا إغراء، هنا خاتمة المطاف، هنا المرساة، هنا المرفأ الهادئ الآمن، هنا سرَّة الأرض، هنا أسس الكون نفسها، هنا أنواع الفطائر الدسمة، سماور السماء، التنهدات الهادئة، المدافئ الساخنة، الثياب المبطنة بالفرو! نعم، ستكون كالميت، وفي الوقت

نفسه ستكون حياً: ترمي طائرين بحجر واحد! اللعنة! أصبحت أقول سخفاً. آن أوان النوم. اسمع: يتفق لي أحياناً أن أستيقظ في الليل؛ فإذا استيقظت هذه الليلة فسأذهب أرى كيف حال روديون. سخافة أقولها. لن يحدث له شيء. فلا تقلق كثيراً ولكن إذا حدثك قلبك بشيء فاذهب إليه مرة. فإذا لاحظت شيئاً غير مألوف، كهذيان أو حمى، فأيقظني فوراً. على أن هذا ضعيف الاحتمال...

الفصل الثاني

استيقظ رازوميخين في الغد بعد الساعة السابعة بقليل، مشغول البال مهموماً. إن أموراً كثيرة تدعو إلى القلق قد هاجمته في ذلك الصباح ولم يكن قد تنبأ بها. ولم يكن قد تخيل في حياته أنه يمكن أن يستيقظ يوماً على هذه الحال. تذكر حوادث الأمس بجميع تفاصيلها، وأدرك أنه قد وقع له شيء خارق تماماً، وأنه أحس بعاطفة كان يجهلها كل الجهل حتى ذلك الحين، عاطفة لا تشبه العواطف التي سبق أن أحس بها قبل ذلك في شيء. لكنه أدرك في الوقت نفسه إدراكاً واضحاً أن الحلم الذي نشأ في دماغه حلم مستحيل التحقق، حلم يبلغ من استحالة التحقق أنه شعر منه بالخزي والعار، فأسرع ينتقل إلى هموم أخرى محسوسة مباشرة من الهموم التي أورثه إياها «ذلك اليوم المشؤوم».

والشيء الذي آلمه تذكره أكثر من أي شيء آخر هو أنه تصرَّف تصرُّف إنسان «دنيء خسيس»، لا لأنه قد سكر فحسب، بل أيضاً لأنه كان غبياً أحمق فشعر بغيرة بلهاء فأخذ يذم للفتاة خطيبها مستفيداً من الوضع الذي كانت فيه، دون أن يعرف ما بينهما من علاقات على وجه الدقة، بل ودون أن يعرف ما هو هذا الرجل على وجه التحديد. ثم أي حقٍ له في أن يحكم عليه بمثل هذه السرعة وبمثل هذه الخفة وهذا الطيش؟ من ذا الذي نصّبه قاضياً؟ وهل يمكن أن تقبل إنسانة مثل آفدوتيا رومانوفنا أن تبيع نفسها بالمال لرجل تافه حقير؟ فلا بد إذن أنه يملك بعض المزايا... أما هذه الغرفة المفروشة التي استأجرها لهما فكيف كان يمكنه أن يعرف ما هي؟ أفليس يهيئ لهما شقة مناسبة؟ آه... ما أدنأ هذا كله في نظر رازوميخين الآن! هل يبرّر سكره ذلك السلوك؟ يا له من عذر! إلا أن سكره ذاك ليلطخه بمزيد من العار! الخمرة تكشف عن حقيقة الرجل، ولقد انكشفت الحقيقة كاملة. «إن قذارة قلبه الحسود الطماع» قد ظهرت واضحة للعيان. ثم هل يجوز له أن يراوده، هو رازوميخين، حلم كهذا الحلم، على أي نحو من الأنحاء؟ ما قيمته بالقياس إلى هذه الفتاة، هو السكير العربيد، المتشدق المهذار؟ بل «كيف يمكن أن تُعقد بينه وبينها مقارنة

تبلغ هذا المبلغ من السخف والاستهتار؟» كذلك تساءل رازوميخين فإذا هو يحمر خجلا، ويشعر بكرب شديد، ثم إذا هو يتذكر تذكراً واضحاً جداً، على حين فجأة، بما يشبه العمد، أنه قال بالأمس، على السلم أن صاحبة البيت ستغار عليه من آفدوتيا رومانوفنا، فوقعت هذه الفكرة من نفسه موقعاً لا يطاق ولا يحتمل، فإذا هو يضرب المدفأة بقبضة يده ضربة استجمع لها كل ما يملك من قوة، فجُرحت يده وكُسرت آجرة.

دمدم يقول بينه وبين نفسه، بعد دقيقة، وهو يحس بشعور عميق من المذلة: «لا شك أنه لا يمكن محو أو إصلاح جميع هذه الحقارات التي ارتكبتها، لا الآن ولا في أي يوم من الأيام. فلا فائدة من التفكير فيها إذن، وإنما الأفضل أن أذهب إليهما دون أن أقول شيئاً، وأن أقوم بواجباتي دون أن أقول شيئاً كذلك... دون أن أستغفر... دون أن أقول شيئاً البتة... فقد ضاع كل شيء منذ الآن طبعاً!»

ومع ذلك عُني رازوميخين بهندامه أثناء ارتدائه ملابسه أكثر مما ألف أن يعنى به قبل ذلك اليوم. لم يكن يملك إلا بدلة واحدة. ولكن هبه كان يملك بدلة أخرى فلعله ما كان ليرتديها. قال يحدث نفسه: «لو كنت أملك بدلة أخرى لتعمدت أن لا أرتديها». على أنه لا يستطيع أن يستخف ويستهتر، فيذهب إليهما وسخ الثياب مشعث المظهر. فليس من حقه أن يهين مشاعر الآخرين، لا سيما وأن هؤلاء الآخرين محتاجون إليه، وأنهم هم الذين يطلبونه. لذلك حرص رازوميخين على أن ينظف ملابسه بالفرشاة بعناية خاصة. أما قميصه فقد كان نظيفاً. والحق أن رازوميخين من هذه الناحية شديد العناية دائماً.

وقد اهتم في ذلك الصباح بنظافته اهتماماً دقيقاً. وجد قطعة من الصابون عند ناستاسيا، فغسل شعره ورقبته، وغسل يديه خاصة. أما سؤاله أيحلق ذقنه أم لا (ولقد كان لدى براسكوفيا بافلوفنا أمواس ممتازة بقيت لها من زوجها المتوفى السيد زارنتسين)، فقد أجاب عنه بالنفي، حتى لقد ثارت ثائرته حينذاك،

فقال: «لتبق لحيتي كما هي؛ وإلا ظنتا أنني حلقت في سبيل أن... نعم ذلك ما ستظنانه! إذن لن أحلق بحال من الأحوال!»

وتابع يقول لنفسه: «إنني قذر أشد القذارة، فظ أبلغ الفظاظة، قليل الأدب إلى أبعد حد... وهبني رجلاً شريفاً (ذلك أنني أعرف نفسي وأعرف أنني رجل شريف)، فهل لي أن أعتز وأن أفتخر بأنني رجل شريف. المفروض في كل إنسان أن يكون شريفاً، بل وأن يكون أكثر من ذلك. ثم إن لي (أنا أتذكر هذا جيداً) سقطات صغيرة إن لم تكن غير شريفة، فلا يمكن أن توصف على وجه الدقة بأنها... هذا عدا الأفكار التي تساورني في بعض الأحيان... فكيف أطمع في أن أوازن بيني وبين آفدوتيا رومانوفنا؟ على كل حال، فليذهب هذا كله إلى الشيطان! نعم، سأبقى كما أنا عن عمد! سأظل وغداً، خنزيراً، عابثاً... ولا أكترث. سأبقى على هذه الحال، وسأزيد...»

وبينما كان رازوميخين يحاور نفسه هذا الحوار، جاءه زوسيموف الذي بات ليلته في صالون براسكوفيا بافلوفنا.

كان زوسيموف يتهيأ للعودة إلى بيته، فأراد قبل انصرافه أن يلقى نظرة على المريض. فأبلغه رازوميخين أن المريض نائم نوماً عميقاً. فأمر أن لا يوقظ، ووعد بأن يعود في نحو الساعة الحادية عشرة. ولكنه أضاف يقول:

– هذا إذا وجدته في غرفته! ما أصعب أن يعالج الطبيب مريضاً وهو لا سلطة له عليه. قل لي: هل هو الذي سيذهب إليهما؟ أم هما اللتان ستجيئان إليه؟

أجاب رازوميخين وقد فهم معنى السؤال:

– أظن أنهما هما اللتان ستجيئان. وأغلب الظن أنهما ستحدّثانه في شؤونهم العائلية. لذلك سوف أتركهم وأخرج. أما أنت فإنك بصفتك طبيباً تملك حقوقاً أكثر.

– ما أنا بكاهن يسمع اعترافات. سوف أجيء ثم ما ألبث أن أخرج. إن أعمالا كثيرة تناديني...

قاطعه رازوميخين يقول وقد اربدّ وجهه:

– هناك شيء يقلقني: أمس مساءً، أثناء سكري، أفلتت من لساني، وأنا أعود به إلى البيت، حماقات سخيفة. من ذلك خاصة أنني قلت له... إنك تخشى أن يكون به جنوح إلى الجنون.

– وقد عدت تقول هذا للسيدتين.

– أعرف. هذه بلاهة. اضربني إذا شئت. ولكن أأنت تعتقد حقاً أنه قد يجن بصدد هذا الشأن؟

– لا، لن يُجنّ! ولا تنس أنك أنت الذي قلت لي بأن هوساً ملحاً يسيطر عليه، وذلك حين جئت بي إليه. وبالأمس زدنا النار أواراً، ولا سيما أنت... حيت رحت تتكلم عن الدهّان. يا له من موضوع خبيث، حين يكون هذا كله هو السبب في فقدانه صوابه!.. آه... لو كنت أعلم على وجه الدقة ما قد جرى في قسم الشرطة في ذلك اليوم، لو كنت أعلم أن وغداً هناك قد أهانه مفصحاً عن اشتباهه فيه، لما سمحت لك بأن تجري لسانك في حديث كذلك الحديث. إن المصابين بمرض الهوس الملح يجعلون من الفأرة جبلاً، ويرون أشياء كثيرة حيث لا يوجد شيء البتة! إذا صدقت ذاكرتي، فإن ما رواه زاميوتوف بالأمس قد أوضح نصف المسألة. إنني أعرف حالة رجل في الأربعين من عمره كان مصاباً بمرض الوسواس، فلما كان جالساً إلى المائدة، فأخذ طفل في الثامنة من عمره يستهزئ به، لم يستطع احتمال سخرياته، فقتله. ونحن هنا إزاء شاب شقي يرتدي أسمالا بالية، ويعاني بداية مرض، فإذا بشرطي فظ غليظ يهينه موجهاً إليه شبهات كهذه الشبهات، فماذا تنتظر أن يحدث؟ شخص مصاب بالوسواس، هو إلى ذلك على جانب

عظيم من كبرياء مسعورة، أفلا يكون ذلك هو السبب الحقيقي للداء الذي يعانى منه الآن. على كل حال... لا ضير في هذا!.. بالمناسبة: إن زاميوتوف فتى لطيف حقاً، ولكن... هِمْ... لقد أخطأ أمس حين روى ذلك كله! يا له من ثرثار فظيع!

– ولكن لمن روى ذلك؟ لك ولي.

– رواه أيضاً لبورفيري.

– ما قيمة أن يرويه أيضاً لبورفيري؟

– بالمناسبة: هل لك تأثير فيهما، أقصد في الأم والأخت؟ يجب أن تكونا حذرتين معه اليوم.

أجاب رازوميخين قائلاً على مضض:

– سيجري كل شيء على ما يرام.

– لماذا هو غاضب على لوجين؟ ما مأخذه عليه؟ إن هذا الرجل يملك مالًا، ويبدو أن الفتاة لا تنفر منه. وهما لا تملكان فجلة، هه؟

صرخ رازوميخين يقول مهتاجاً:

– لماذا تسألني هذا السؤال؟ ما شأنك أنت وهذا؟ أنى لي أن أعرف هل تملكان فجلة، أم لا! اسألهما إن شئت فتعرف ذلك.

– ما أغباك أحياناً! واضح أنك ما صحوت من سكرك! إلى اللقاء. واشكر عني براسكوفيا بافلوفنا على ضيافتها. لقد حبست نفسها في غرفتها، وقلتُ لها «صباح الخير» من وراء الباب فلم تجبني. وكانت قد

استيقظت في الساعة السابعة، وجيء إليها بالسماور في غرفتها عن طريق الدهليز. ولكنني لم أُشرّف برؤيتها.

في الساعة التاسعة تماماً وصل رازوميخين إلى منزل باكالايف؛ فكانت السيدتان تنتظرانه منذ مدة طويلة محمومتين من نفاد الصبر. لقد نهضتا في الساعة السابعة أو قبل ذلك. فلما دخل عليهما مظلم الوجه كظلام الليل، حيّاهما بخراقة، وسرعان ما غضب من خجله هذا غضباً شديداً. ذلك أنه لم يضع في حسابه ما ستستقبله به بولخيريا الكسندروفنا: لقد هرعت بولخيريا الكسندروفنا إليه، فأمسكت يديه، وكادت تقبّلهما. وألقى نظرة خجلى على آفدوتيا رومانوفنا، فكان وجهها الذي ينم في العادة عن الكبرياء، يعبر في هذه اللحظة عن شكر عميق وصداقة واضحة واحترام كامل؛ وكان هو لا يتوقع شيئا من هذا كله، بل كان لا ينتظر إلا نظرات ساخرة، واحتقاراً ظاهراً، فلو استقبلته فعلا بشتائم متلاحقة لكان وقع ذلك في نفسه أسهل وأيسر، ولكانت قدرته على احتماله أعظم وأكبر. لقد شعر الآن باضطراب كبير وبلبلة عظيمة حقا. ولكن كان هناك موضوع للحديث من حسن الحظ، فسرعان ما تشبث به.

حين علمت بولخيريا الكسندروفنا أن روديا «لم يستيقظ بعد»، وأن «كل شيء على ما يرام»، أظهرت ارتياحاً كبيراً ورضى عظيماً، لأنها حقاً «في حاجة ماسة إلى أن تتحدث مع رازوميخين حديثاً طويلاً قبل أن ترى ابنها». وأُثير عندئذ موضوع الشاي، فدُعي رازوميخين إلى تناول الشاي مع السيدتين، وكانتا قد انتظرتاه لهذا. دقّت آفدوتيا رومانوفنا الجرس، فجاء خادم قذر المظهر رث الثياب، فأُمر بإحضار الشاي، فأتى بالشاي أخيراً، ولكن بطريقة تبلغ من القذارة وقلة اللياقة حدّ أن السيدتين صُعقتا خجلاً. وودّ رازوميخين لو يندّد بهذه «الغرفة المفروشة»، ولكنه تذكر لوجين فأمسك عن الكلام، وشعر بحرج، وابتهج ابتهاجاً عظيماً حين أخذت بولخيريا الكسندروفنا تمطره بوابل من الأسئلة.

ظل يتكلم خلال ثلاثة أرباع الساعة، فكان يُقاطَع دائماً وتطرح الأسئلة عليه من جديد. واستطاع مع ذلك أن يروي – بمقدار ما يعرف – الوقائع الأساسية من حياة روديون رومانوفتش منذ سنة حتى إصابته بالمرض الذي يعاني منه الآن. لكنه سكت عن أمور كثيرة كان ينبغي أن يسكت عنها، ولا سيما المشهد الذي وقع في قسم الشرطة وجميع النتائج التي نجمت عنه. وكانت السيدتان تلتهمان أقواله التهاماً. لكنه حين ظن أنه انتهى من الكلام وأرضى سامعتيه، بدا أنه في نظرهما لم يكد يبدأ الكلام.

قالت بولخيريا الكسندروفنا تسأله متعجلة:

– قل لي، قل لي ما رأيك... معذرةً... إنني لا أعرف اسمك حتى الآن...

– دمترى بروكوفتش.

– نعم، قل لي يا دمترى بروكوفتش: أود جداً جداً لو أعرف.. كيف هو... يرى الأمور الآن... بوجه عام... أقصد... هل تفهمني؟ رباه كيف أفصح بوضوح؟.. أعني ماذا يحب، وماذا لا يحب؟ أما يزال شديد الغضب سريع الاهتياج؟ ما هي رغباته... و... و... كيف أعبّر... ما هي أحلامه، إذا جاز لي أن... ما الذي يؤثر فيه الآن أكبر تأثير؟ الخلاصة، أودُّ لو...

قالت آفدوتيا رومانوفنا:

– ماما! كيف يمكن الجواب على جميع هذه الأسئلة في آن واحد؟

– يا رب! ذلك أنني، يا دمترى بروكوفتش، لم أكن أتوقع أبداً، أبداً، أن أجده على هذه الحال!

أجاب دمترى بروكوفتش يقول:

– هذا طبيعي جداً. أنا ليس لي أم. ولكن لي عماً يجئ إلى هنا كل سنة، فكلما جاء صعب عليه أن يتعرفني حتى من الناحية الجسمية، مع أنه رجل ذكي، عمي هذا. وقد افترقتم أنتم منذ ثلاث سنين، فجرى ماء كثير تحت الجسور خلال هذه السنين الثلاث. ماذا أقول لك أيضاً؟ إنني أعرف روديون منذ سنة ونصف سنة. فكان منذ عرفته قاتم النفس متجهم الوجه شديد الكبرياء متعالياً؛ وهو في هذه الآونة الأخيرة (ولعل ذلك يرجع إلى عهد أبعد) كثير الشكوك والوساوس أيضاً. هو سَمِحٌ طيب. وهو لا يحب أن يظهر عواطفه، ويؤثر أن يرتكب إساءةً على أن يفتح قلبه. على أنه في بعض الأحيان يبرأ من الوساوس، فلا يظهر عليه عندئذ، إلا برودة في العاطفة وفتور في الإحساس حتى ليصل من ذلك إلى درجة يفقد معها روح التواصل الإنساني، فكأن له طبعين متعارضين يتناوبان الغلبة واحداً بعد آخر. يتفق له أحياناً أن يكون صموتاً إلى حد رهيب: فإما أن يزعم أنه ليس في وقته متسع، وإما أن يزعم أن الناس جميعاً يزعجونه؛ ومع ذلك يظل مستلقياً على سريره لا يعمل شيئاً. وما هو بالساخر، ليس لأنه فقد روح الفكاهة، بل لأنه كمن لا يريد أن يتلبث على سفاسف سخيفة وترهات باطلة. إنه لا يصغي أبداً إلى ما يقال له حتى النهاية. إنه لا يهتم أبداً بالأشياء التي يهتم بها الآخرون في لحظة من اللحظات. وهو معتدّ بنفسه اعتداداً عظيماً، ويظهر أن من حقه أن يعتد بنفسه هذا الاعتداد. ماذا أقول أيضاً؟.. أظن أن وصولكما سيفيده وسيحدث فيه أثراً نافعاً.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول وقد أرهقتها أقوال رازوميخين:

– سمع الله منك.

وعزم رازوميخين أمره أخيراً على أن ينظر إلى آفدوتيا رومانوفنا بمزيد من الثقة والطمأنينة. كان قد نظر إليها مراراً أثناء الحديث، ولكنه كان ينظر إليها خلسة، بسرعة كوميض البرق، ثم يحول بصره عنها على الفور. وكانت آفدوتيا رومانوفنا تجلس أمام المائدة تارة فتصغي بانتباه، وتنهض تارة أخرى فتأخذ تمشي

على عادتها من ركن إلى ركن مصالبة ذراعيها، كازةً شفتيها، ملقية سؤالًا من حين إلى حين، ولكن من دون أن تقطع سيرها، من دون أن تقطع تأملها الذي كان يبدو أنها تتابعه مستمراً متصلاً. وكان من عادتها أيضاً أن لا تصغى حتى النهاية إلى ما يقال لها. كانت ترتدي فستاناً داكن اللون من نسيج خفيف، وقد عقدت حول عنقها منديلاً أبيض شفافاً. وقد لاحظ رازوميخين رأساً، من علامات كثيرة، أن السيدتين في حالة شديدة من الفقر. ولو كانت آفدوتيا رومانوفنا مرتدية ملابس أميرة، فلعلها كانت لا تثير في نفسه كل هذا الخجل والخوف، أما الآن فربما كان السبب في الخوف الذي استقر في قلبه إنما يرجع إلى أن ملابسها كانت فقيرة إلى هذا الحد، وأنه أدرك كل ما هي فيه من بؤس؛ ولذلك أصبح يخاف من كل قول من أقواله، وكل حركة من حركاته، وهذا أمر هو بالنسبة إلى رجل ضعيف الثقة بنفسه أصلاً لا بد أن يكون مصدراً جديداً من مصادر الحرج والإرتباك.

قالت آفدوتيا رومانوفنا مبتسمة:

– لقد علّمتنا أشياء كثيرة هامة عن طبع أخي، ولقد تكلمت من دون تحيز ما في ذلك شك. هذا جيد. وكنت أظن أنك تقف منه موقف المعجب المتحيز.

ثم أضافت تقول حالمةً مفكّرة:

– يخيل إليّ أنه لا بد أن يكون في حياته امرأة فعلًا!

– أنا لم أقل هذا! ولكن من الجائز أن تكوني على حق. غير أن..

– ماذا؟

– إنه لا يحب أحداً، ولعله لن يحب أحداً في يوم من الأيام.

كذلك قال رازوميخين قاطعاً جازماً.

– أيكون عاجزاً عن أن يحب؟

أفلت لسان رازوميخين يقول فجأة دون أن يتوقع هو نفسه ذلك:

– هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبهاً رهيباً في كل شيء؟

ثم تذكر ما قاله عن أخيها، فاحمرّ وجهه احمراراً شديداً وارتبك ارتباكاً فظيعاً. فلم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تحبس ابتسامة ساخرة وهي تنظر إليه.

واستأنفت بولخيريا الكسندروفنا كلامها وقد استاءت بعض الاستياء فقالت:

– من الجائز أن يكون رأيكما كليكما في روديا خطأ. لا أتكلم الآن عن الحاضر يا دونيتشكا. إن ما كتبه بيوتر بتروفتش في تلك الرسالة، وما قد تصورناه أنا وأنت، قد لا يكون صحيحاً. ولكنك لا تستطيع أن تتخيل يا دمترى بروكوفتش مدى ما يتصف به روديا من شدة الجموح وقوة النزوات. أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أركن إلى طبعه، حتى حين كان في الخامسة عشر من عمره. وإني لعلى يقين من أنه ما يزال حتى هذه الساعة قادراً على ارتكاب أشياء لا تخطر ببال أي إنسان آخر غيره. لا تذهب بعيداً: هل تعلم أنه منذ سنة ونصف سنة قد أدهشني وعذبني، وكاد يميتني غيظاً وقهراً، حين وضع في رأسه أن يتزوج تلك الـ... ماذا أقول؟ تلك الـ... أقصد بنت زارنتسينا هذه، صاحبة البيت الذي يسكن فيه؟

اتجهت آفدوتيا رومانوفنا إلى رازوميخين فسألته:

– هل تعرف تفاصيل عن هذا الأمر؟

وتابعت بولخيريا الكسندروفنا كلامها فقالت بحرارة:

– هل تحسب أن دموعي وضراعاتي وشقاءنا ومرضي وموتي من الأسى، هل تحسب أن هذا كله كان يمكن أن يصده عن تحقيق ما قام في رأسه؟ لا... كان سيجتاز جميع العقبات هادئاً كل الهدوء. ماذا؟ هل من الممكن حقاً أنه لا يحبنا؟

أجاب رازوميخين بتعقل وحذر:

– إنه لم يقل لي كلمة واحدة عن هذا الأمر. ولكني عرفت شذرات من السيدة زارنتسينا نفسها، مع أنها ليست كثيرة الكلام هي أيضاً. والحق أن ما عرفته غريب بعض الغرابة...

قالت المرأتان كلتاهما تسألانه:

– ما الذي عرفته؟

– لم أعرف أشياء ذا شأن، كل ما علمته أن هذا الزواج الذي كان مقرراً ومبتوتاً فيه، والذي لم يحل دونه إلا موت الخطيبة، كانت السيدة زارنتسينا مستاءة منه. ويقال عدا ذلك أن الخطيبة لم تكن جميلة، حتى لقد كانت توصف بأنها دميمة... وأنها بالإضافة إلى ذلك ممراض... وأنها فوق هذا غريبة الأطوار. ولكنها كانت لا تخلو من بعض المزايا. لا بد أن تكون لها مزايا فلولا هذه المزايا لكان الأمر عجيباً لا سبيل إلى فهمه البتة. ثم إنها لم تكن تملك مهراً. على أن روديا آخر من يمكن أن يعنيه أمر المهر. الخلاصة أن الحكم على الموضوع في ظرف كذلك الظرف صعب.

قالت آفدوتيا رومانوفنا موجزة:

– أنا مقتنعة بأنها كانت تملك مزايا كثيرة.

فعقبت بولخيريا الكسندروفنا تختم الحديث قائلة:

– أسأل الله أن يعفو عني ويغفر لي. لا أكتمكما أنني ابتهجت لموتها، رغم أنني لم أعرف في يوم من الأيام أيهما كان سيشقي الأخر!

ثم عادت تسأل رازوميخين – وهي تلقي على دونيا نظرات مختلسة كان واضحاً أن دونيا تستاء منها – عادت تسأل رازوميخين بحذر وتردد عن المشهد الذي حدث أمس بين روديا ولوجين. لم يكن خافياً أن هذا الحادث كان يشغل بالها ويقلق نفسها أكثر من أي شيء آخر، حتى ليرعبها ويهزها هزاً. أعاد رازوميخين رواية القصة تفصيلاً، ولكنه أضاف إليها في هذه المرة النتيجة التي يستخلصها هو، فاتهم راسكولنيكوف، دون لف ولا دوران، بأنه أهان بيوتر بتروفتش عن سابق عمد وتصميم؛ ولم يلحّ في هذه المرة على مرضه الذي ذكر قبل ذلك أنه عذر يشفع له. وختم يقول:

– لقد أعدّ ذلك حتى قبل أن يمرض.

قالت بولخيريا الكسندروفنا مكروبة مقهورة:

– أظن ذلك أنا أيضاً.

ولكنها شُدهت حين رأت رازوميخين يتكلم في هذه المرة عن بيوتر بتروفتش بكثير من الاعتدال، بل وبشيء من الاحترام. وأثار هذا الرأي دهشة آفدوتيا رومانوفنا أيضاً.

ولم تطق بولخيريا الكسندروفنا صبراً فقالت تسأله:

– أهذا هو رأيك إذن في بيوتر بتروفتش؟

فأجاب رازوميخين يقول بحرارة وجزم:

– لا يمكنني أن أرى غير هذا الرأي في خطيب ابنتك، ولست أقول هذا من باب التأدب والمجاملة، وإنما أقوله لأن... لأن... أقوله ولو لهذا السبب البسيط: وهو أن آفدوتيا رومانوفنا نفسها هي التي أرادت طوعاً أن تولي هذا الرجل شرف اختياره زوجاً لها. ولكن ذممته ذلك الذم كله بالأمس، فلأنني كنت بالأمس سكران... سكران سكرا مقززاً، ولأنني عدا ذلك... كنت قد فقدت عقلي... لأنني جننت... جننت تماماً. أما اليوم فإنا أشعر من ذلك بخزي وعار.

قال رازوميخين ذلك، واحمرّ وصمت. واحمرّت آفدوتيا رومانوفنا، ولكنها لم تقطع الصمت. إنها لم تنبس بكلمة واحدة منذ دار الحديث عن لوجين.

ومع ذلك ظلت بولخيريا الكسندروفنا مرتبكة ارتباكا واضحا لأن ابنتها لا تساعدها. ثم اعترفت مترددة وهي تلتفت في كل لحظة صوب ابنتها، بأن هناك ظرفاً يقلقها الآن إقلاقاً شديداً.

بدأت تتكلم فقالت:

– الحق يا دمترى بروكوفتش...

ثم اتجهت إلى ابنتها فقالت تسألها:

– سأكون صريحة كل الصراحة مع دمترى بروكوفتش يا دونيتشكا، أليس كذلك؟

فأجابتها آفدوتيا رومانوفنا تقول باقتناع:

– طبعاً يا ماما.

فلما أُذِن لها بأن تبوح بحزنها أحست بأن جبلاً قد أزيح عن صدرها فأسرعت تقول:

– إليك الأمر: اليوم، في ساعة مبكرة من هذا الصباح، وصلتنا بطاقة من بيوتر بتروفتش رداً على الرسالة التي أنبأناه فيها بالأمس بوصولنا. كان ينبغي له طبعاً أن يجئ إلى المحطة لاستقبالنا كما كان وعدنا بذلك. ولكننا، في المحطة، لم نجده هو بل وجدنا خادماً قادنا إلى هذه الغرفة المفروشة التي كان معه عنوانها. وأبلغنا الخادم أن بيوتر بتروفتش سيجيء إلينا اليوم في الصباح. ولكن بيوتر بتروفتش لم يجئ وإنما بعث إلينا بهذه البطاقة. الأفضل أن تقرأها بنفسك، لأن هناك نقطة تقلقني كثيراً. سرعان ما سترى ما هي هذه النقطة، فتقول لي رأيك صريحاً يا دمترى بروكوفتش. إنك تعرف طبع روديا أكثر مما يعرفه أي إنسان آخر، فسوف تستطيع إذن أكثر مما يستطيع أي إنسان آخر أن تسدي إلينا بنصيحتك. وإني لألفت نظرك إلى أن دونيا قد اتخذت قرارها منذ اللحظة الأولى، أما أنا فما زلت حائرة لا أدري ما الذي يجب فعله... وكنت أنتظرك.

فض رازوميخين البطاقة التي تحمل تاريخ اليوم السابق، وقرأ ما يلي:

«السيدة الكريمة بولخيريا الكسندروفنا، يشرفني أن أعلمك أنني بسبب موانع لم أكن أتوقعها لم أستطع أن أستقبلكم على رصيف المحطة، فأرسلت إليكم رجلاً بارعاً فطناً سيساعدكم. وكذلك سأحرم نفسي، في صباح الغد، من التشرف بزيارتكم، بسبب بعض الأعمال التي تستدعي ذهابي إلى مجلس الشيوخ، ولأنني أريد أيضاً أن لا أزعج اجتماعكم العائلي، أعني لقاءك الأول بابنك ولقاء آفدوتيا رومانوفنا بأخيها. فلن يتاح لي إذن شرف لقائكم وتقديم احترامي لكم في مسكنكم إلا مساء غد في الساعة الثامنة تماماً. وإنني أسمح لنفسي بأن أضيف إلى هذا رجاء ملحاً، فأطلب إليكم أن تتدبروا الأمر بحيث تعفونني من حضور روديون رومانوفتش اجتماعنا، لأنه أهانني بالأمس بفظاظة لا مثيل لها حين زرته أثناء مرضه، ولأنني أريد أن أكلمكم عنى انفراد في أمر أحب أن أعرف تفسيركم له ورأيكم فيه. ويشرفني أن ألفت نظركم إلى أنني سأضطر إلى الانسحاب فوراً إذا أنا لقيت عندكم روديون رومانوفتش رغم طلبي هذا،

ولن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً إلا أنفسكم. وإنما أكتب هذا لأنني أتنبأ بأن روديون رومانوفتش الذي كان يبدو مريضاً حينما زرته ثم استرد صحته فجأة بعد ذلك بساعتين قد يجيء إليكم ما دام يخرج الآن. إن ما أقوله قد رأيته بعيني رأسي في بيت رجل سكّير داسته خيول فهشمته فمات. وقد أعطى روديون رومانوفتش ابنة ذلك السكير، وهي بنت معروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس، أعطاها خمسة وعشرين روبلاً بحجة دفع نفقات الجنازة، فأدهشني ذلك أشد الدهشة، أنا الذي أعرف الجهود التي بذلتموها في سبيل جمع ذلك المبلغ. أختم رسالتي هذه راجياً أن تنقلي إلى آفدوتيا رومانوفنا المحترمة أبلغ اعتباري، وأن تتفضلي بقبول أسمى مشاعر الاحترام والإخلاص من خادمك المطيع:

ب. لوجين»

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي توشك أن تبكي:

– فما الذي يجب أن أعمله الآن يا دمترى بروكوفتش؟ كيف يمكنني أن أطلب من روديا أن لا يجئ؟ لقد كان يطالب أمس مطالبة صارمة بطرد بيوتر بتروفتش، فإذا بالآية تنقلب الآن، فيكون هو الذي لا يجوز استقباله! ولكنه سيجيء عامداً متى عرف، فما عسى يحدث حينذاك؟

قال رازوميخين فوراً بهدوء:

– افعلي ما قررته آفدوتيا رومانوفنا.

– آه... رباه! هي تقول... هي تقول... الله يعلم ماذا تقول... وهي لا تشرح الأسباب التي تدفعها إلى قول ما تقول! هي تقول إن من الأفضل، بل إن من المحتم قطعاً، أن يجيء روديا هذا المساء، في الساعة الثامنة، وأن يلتقيا. أما أنا فكنت أريد حتى أن لا أطلعه على هذه الرسالة، وكنت أؤثر أن أعمد إلى الحيلة بواسطتك، لأمنعه من المجيء، لأنه... سريع الاهتياج جداً! ثم إن هناك أمراً لا أفهمه: من هو ذلك

السكير الذي داسته الخيل فمات، ومن هي تلك البنت، وكيف أمكنه أن يعطي تلك البنت آخر ما بقي له من المال الذي...

– الذي لقيتِ ذلك العناء كله في الحصول عليه.

كذلك أضافت آفدوتيا رومانوفنا.

قال رازوميخين شارد الفكر:

– لم يكن أمس في حالة طبيعية. لو عرفت كيف تصرف أمس في حانة ولو كان في سلوكه شيء من التعقل!.. هِمْ... على كل حال، لقد حدثني بالأمس فعلاً، حين كنت أقوده إلى بيته، عن موظف مات، وحدثني كذلك عن فتاة ما، لكني لم أفهم من كلامه شيئاً. ثم إنني أنا نفسي، بالأمس، قد...

– الأفضل يا ماما أن نذهب نحن إليه. أؤكد لك أننا بذلك سنرى ماذا بقي علينا أن نفعل. وقد آن لنا أن نذهب على كل حال. رباه! تجاوزت الساعة العاشرة.

كذلك صاحت آفدوتيا رومانوفنا وهي تلقى نظرة على الساعة الذهبية الرائعة، المرصعة بالمينا، التي كانت تحملها معلقةً في عنقها بسلسلة رقيقة من صنع البندقية، والتي تتنافر تنافراً عجيباً مع جملة زينتها. قال رازوميخين لنفسه: «هذه هدية الخطوبة!»

قالت بولخيريا الكسندروفنا وقد تململت باضطراب:

– آه... آن الأوان! آن الأوان يا دونيتشكا إ إذا تأخرنا في الذهاب إليه، فقد يظن أننا ما زلنا غاضبتين بسبب ما حدث أمس. آه... يا رب!

قالت ذلك وأسرعت ترمي على كتفيها خماراً أسود، وتضع قبعتها على رأسها. وارتدت دونيتشكا ثيابها أيضاً. إن قفازيها ليسا مهترئين جداً فحسب، بل هما مثقبان أيضاً. ولم يفت رازوميخين ذلك. على أن هذا الفقر الظاهر في ملابس السيدتين كان يضفي عليهما وقاراً خاصاً، وهذا ما يحدث عادةً لأولئك الذين يعرفون كيف يرتدون ملابس فقيرة. كان رازوميخين ينظر إلى الفتاة باحترام وتقديس، ويشعر باعتزاز وافتخار حين يتصور أنه سيصحبها. كان يقول لنفسه: «إن تلك الملكة[٦٢] التي كانت ترقّع جوربيها في سجنها لا بد أنها كانت أثناء ذلك أعظم إجلالاً وأكبر مهابة منها في أعظم الأعياد وأروع الاحتفالات!».

وهتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

– رباه! هل كان في وسعي أن أصدّق يوماً أنني سوف أهاب، كما أهاب الآن، لقاء مع ابني، مع عزيزي، مع روديا؟

ثم أضافت تقول وهي تلقي على رازوميخين نظرة خجلى:

– أنا خائفة يا دمتري بروكوفتش.

قالت دونيا وهي تقبّلها:

– لا تخافي يا ماما، بل ثقي به. أما أنا فواثقة.

صاحت المرأة المسكينة تقول:

– آه... يا رب!.. أنا أيضاً واثقة! ومع ذلك لم أنم طوال الليل!

---

[٦٢] ... إن تلك الملكة التي كانت ترقع جوربيها... هي ماريا أنطوانيت (١٧٥٥ – ١٧٩٢) قرينة الملك لويس السادس عشر التي سُجنت ثم أعدمت في عهد الثورة الفرنسية الكبرى.

وخرجوا إلى الشارع.

– هل تعلمين يا دونيتشكا؟ أنني ما إن غفوت قليلاً عند طلوع الصبح حتى حلمت فجأة بتلك المسكينة مارفا بتروفنا... كانت تلبس ثياباً بيضاء... واقتربت مني... وأمسكت يدي... وكانت تهز رأسها وهي تنظر إلى نظرة قاسية، قاسية جداً، كأنها تلومني على شيء ما... أهذه علامة حسنة؟ آه... يا رب! إنك يا دمترى بروكوفتش لا تعلم، بعد، أن مارفا بتروفنا قد ماتت.

– لا، لا أعلم. ولكن من هي مارفا بتروفنا هذه؟

– ماتت فجأة... تصور أنها...

تدخلت دونيا تقول لأمها:

– ستقولين له فيما بعد يا ماما. هو لا يعرف من هي مارفا بتروفنا هذه.

– صحيح؟ لا تعلم؟ كنت أظن أنك على اطلاع... اغفر لي يا دمترى بروكوفتش... أصبحت لا أعرف أين رأسي في هذه الأيام الأخيرة. حقاً أنني أعدك معيناً أرسلته العناية الإلهية، لذلك كنت أحسبك مطلعاً على كل شيء. إنني أعدك واحداً من أسرتنا. لا تؤاخذني إذا أنا كلمتك بهذه الطريقة!.. آه... رباه! ماذا أصاب يدك اليمنى؟ أهي مجروحة؟

دمدم رازوميخين يقول سعيداً كل السعادة:

– نعم، مجروحة.

– إنني أسرف في الصراحة أحياناً، فتردني دونيا... ولكن... رباه! ما هذه الغرفة الصغيرة التي يقيم فيها؟ تُرى هل استيقظ من نومه؟ وتلك المرأة، صاحبة البيت، كيف تسمي هذا الجحر غرفة؟ اسمع، أنت تقول

إنه لا يحب أن يتكلم عما يعتلج في قلبه، فلا شك إذاً أنني سأزعجه وأضجره... بعواطفي وضعفي! ألا تستطيع أن تهديني يا دمترى بروكوفتش إلى الطريقة التي يمكنني أن أعمد إليها في معاملته؟ لقد طاش صوابي تماماً...

– لا تلقي عليه أسئلة كثيرة، إذا رأيته يعبس أو يتجهم. ولا تسأليه عن صحته خاصة، فإنه لا يحب هذا.

– آه يا دمترى بروكوفتش، ما أصعب الأمومة! وانظر إلى هذا السلم! يا له من سلم فظيع!

قالت دونيا ملاطفة:

– ماما، أنك شاحبة الوجه جداً، هدئي من روعك يا يمامتي! إنه سعيداً بلقائنا، فلماذا تعذبين نفسك هذا التعذيب؟

هذا ما أضافته وقد سطعت عيناها.

– انتظرا، سأرى أولًا هل استيقظ من نومه.

باطأت السيدتان خطاهما، وتقدّمهما رازوميخين على السلم. فلما وصلتا إلى الطابق الثالث لاحظتا أن باب صاحبة البيت مشقوق قليلاً، ورأتا في الظلام عينين سوداوين حادتين جداً كانتا ترقبانهما. فلما التقت النظرات أغلق الباب بشدة، فقرقع قرقعة بلغت من القوة أن بولخيريا الكسندروفنا أوشكت أن تصرخ رعباً.

الفصل الثالث

استقبلهم زوسيموف قائلاً في فرح: «هو بخير، هو بخير». إن زوسيموف يعود راسكولنيكوف منذ نحو عشر دقائق، وقد جلس في ذلك المكان نفسه الذي جلس فيه بالأمس، على ركن من الديوان. وكان راسكولنيكوف يجلس في الركن المقابل، مرتديا، ثيابه كاملة، وقد اعتنى بغسل وجهه وتصفيف شعره، وذلك أمر لم يقع له منذ مدة طويلة. امتلأت الغرفة دفعة واحدة، ولكن ناستاسيا استطاعت مع ذلك أن تتسلل وراء الزائرين، وبقيت تنصت إلى الحديث.

كانت صحة راسكولنيكوف قد تحسنت بعض التحسن فعلاً، ولا سيما إذا قورنت بما كانت عليه أمس. كل ما هنالك أنه الأن شديد الشحوب شارد الفكر متجهم النفس. فإذا نظرت إليه كنت كمن ينظر إلى رجل أصابه جرح بالغ، أو عانى ألماً جسمياً حاداً. كان مقطب الحاجبين، مكزوز الشفتين، محموم النظرة. وكان لا يتكلم إلا قليلا، فإذا تكلم تكلم على مضض، كأنه يقوم بواجب، وكان في حركاته أحياناً نوع من قلق.

ليس ينقصه إلا ضماد في الذراع أو عصبة من قماش في الإصبع حتى يكتمل الشبه بينه وبين رجل أصيب بداحوس أليم، أو جرح موجع أو أي شيء آخر من هذا القبيل.

على أن هذا الوجه الشاحب المتجهم بدا أنه يتألق لحظة حين دخلت الأم والأخت. غير أن ذلك لم يزد على أن يضيف إلى الذهول المتجهم تعبيراً عن ألم مكثف. وسرعان ما انطفأ الألق، وبقي الألم. ولم يفت زوسيموف الذي كان يراقب مريضه ويدرسه بكل ما يستطيعه من اهتمام وشغف طبيب في بدايات ممارسته مهنته، لم يفته أن يلاحظ لدى مريضه، بغير قليل من الدهشة، حين وصلت أسرته، نوعاً من تصميم أليم خفي، يشبه التصميم الذي يقوم في نفس إنسان يرى عذاباً عليه أن يحتمله، بدلاً من الفرح

الذي ينبغي أن يظهر بسبب هذه الزيارة. وقد استطاع الطبيب أن يلاحظ بعد ذلك أن كل كلمة تقريباً من الحديث الذي جرى حينذاك كانت كأنها تثير وتنكأ جرحاً لدى المريض. ولكن الطبيب قد أدهشه في الوقت نفسه أن يرى أن المريض كان يسيطر على نفسه بعض السيطرة، فاستطاع أن يخفي هذه العواطف، مع أنه كان بالأمس يثور حنقه عند كل كلمة تُقال، كمن استبدت به فكرة وحيدة ثابتة.

قال راسكولنيكوف وهو يقبّل أمه وأخته بعاطفة رقيقة وحنان واضح (وهذ ما جعل وجه بولخيريا الكسندروفنا مشرقا):

– نعم، ألاحظ أنا نفسي أنني شُفيت.

ثم أضاف يقول مخاطباً رازوميخين وهو يصافحه بمودة:

– لا أقول هذا مثلما قلته أمس!

سُرّ زوسيموف كثيراً من وصول الزوار، لأنه كان قد استنفد خلال الدقائق العشر التي قضاها مع المريض جميع موضوعات الحديث، فبدأ كلامه يقول:

– حتى لقد دُهشت من رؤيته على هذه الحال اليوم. فإذا استمر هذا التحسن، فلن تنقضي ثلاثة أيام أو أربعة حتى يعود كما كان تماماً، أعني كما كان منذ شهر أو شهرين أو ربما ثلاثة.

ثم أضاف إلى ذلك مخاطباً راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة محاذرة، كأنه يخشى أن يثير غضبه:

– ذلك أن هذا المرض قد بدأ كامناً منذ مدة طويلة، هه؟ اعترف أن بعض الذنب في ذلك يرجع إليك...

أجاب راسكولنيكوف يقول ببرود:

– جائز جداً.

– أقول هذا لأن شفاءك الكامل متوقف بعد الآن عليك أنت خاصة. أولاً أن أقنعك الآن، بعد أن أصبح الحديث معك ممكناً، أنه ينبغي علينا القضاء على الأسباب الأولى، الأسباب الأساسية إن صح التعبير، التي ولّدت مرضك. فإذا فعلت ذلك شفيت، وإلا تفاقم مرضك. أنا لا أعرف ما هي تلك الأسباب، ولكن لا بد أنك تعرفها أنت. فأنت شاب ذكي، ولا شك أنك لاحظت نفسك. ويخيل إليّ أن بداية اضطراباتك قد جاءت حين تركت الجامعة تقريباً. فما ينبغي إذن أن تبقى عاطلاً عن أي عمل يشغلك. أعتقد أن عملاً موجهاً إلى غاية محدّدة سيساعدك كثيراً.

– نعم، نعم. أنت على حق تماماً. سأعيد تسجيلي في الجامعة. وعندئذ سيجري كل شيء... على ما يرام.

كان بين أهداف زوسيموف من إسداء نصائحه الحكيمة تلك أن ينال إعجاب السيدتين، لذلك كان طبيعياً أن يرتبك بعض الارتباك وأن يضطرب بعض الاضطراب حين فرغ من إلقاء خطابه فرفع عينيه نحو راسكولنيكوف فرأى في وجهه سخرية ظاهرة لا تخفى. على أن ذلك لم يدم إلا لحظة. فإن بولخيريا الكسندروفنا سرعان ما طفقت تفيض في شكر زوسيموف، وتعبر له خاصة عن امتنانها من زيارته لهما في الشقة المفروشة في الليلة الماضية.

قال راسكولنيكوف يسألها قلقاً:

– كيف؟ هل ذهب إليكما ليلاً؟ إذن لم تناما بعد رحلة متعبة كتلك الرحلة؟

– في الساعة الثانية كان كل شيء قد انتهى يا روديا. وقد ألفنا، أنا ودونيا، في بيتنا، أن لا ننام قط قبل الساعة الثانية من الصباح.

واصل راسكولنيكوف كلامه فقال وقد أظلم وجهه فجأة، وأطرق إلى الأرض:

– أنا أيضاً لا أعرف كيف أشكره...

ثم اتجه يخاطب زوسيموف فقال:

– بصرف النظر عن الناحية المالية – معذرةُ إذا أنا أشرت إلى هذه الناحية! – فإنني لا أعرف فعلا كيف استحققت كل هذه العناية منك. حقاً إنني لا أفهم... لذلك كانت هذه العناية تشق على نفسي... أقول لك هذا بصراحة تامة.

أجابه زوسيموف وهو يحمل نفسه على الضحك حملاً:

– لا تثورنْ أعصابك يا صاحبي. افرض أنك أول زبائني. إن الطبيب الذي ما يزال في بداية ممارسته يدلّل دائماً زبائنه الأول، حتى لقد يُشغف بعضهم. وأنت تعلم أن زبائني ليسوا كُثُراً حتى الآن.

أضاف راسكولنيكوف يقول وهو يومئ إلى رازوميخين:

– ناهيكم عن هذا... الذي لم ينل مني إلا أنواع التصديع وضروب الإهانة.

هتف رازوميخين قائلاً:

– أسخافات جديدة؟ هاأنت ذا قد أصبحت «عاطفياً»!

ألا أنه لو كان يملك مزيداً من نفاذ البصيرة للاحظ أن الأمر ليس أمر «عاطفية»، بل شيء آخر هو نقيض العاطفية تماما. وقد لاحظت آفدوتيا رومانوفنا ذلك. وكانت تراقب أخاها في قلق.

وتابع راسكولنيكوف كلامه كمن يتلو درساً حفظه في هذا الصباح:

– أما عنك أنت يا أماه فلا أكاد أجرؤ أن أتكلم. إنني لم أدرك إلا اليوم مدى العذاب الذي لا بد أنك عانيته أمس حين كنت تنتظرينني هنا.

قال ذلك ومدّ يده إلى أخته على حين فجأة مبتسماً دون أن يقول كلمة. ولكن شعوراً صادقاً يظهر في ابتسامته هذه المرة. فأسرعت دونيا تتناول اليد الممدودة إليها، فتصافحها بحرارة، سعيدة شاكرة. هذه أول مرة يتجه فيها إلى أخته بعد الشقاق الذي وقع بينهما أمس. وأشرق وجه الأم سعادة حين رأت هذه المصالحة الصامتة الحاسمة بين الأخ وأخته.

همس رازوميخين يقول متحمساً وهو يستدير بقوة على كرسيه:

– هذا ما يعجبني فيه! إن له دائماً اندفاعات كهذه!

وقالت الأم لنفسها: « وما أجمل الطريقة التي اتبعها! ما أنبلها من بادرة! ما أحلاها من حركة بسيطة مرهفة أنهى بها سوء التفاهم الذي قام بينه وبين أخته! لقد كفاه أن يمد إليها يده، في هذه اللحظة، وهو يرمقها بنظرة فيها رقة ولطف وحنان... وما أجمل عينيه! ما أجمل وجهه كله!... ألا إنه لأجمل حتى من دونيتشكا... ولكن رباه! ما هذه الثياب التي يرتديها! ما أردأ ملابسه! إن الخادم في دكان آفاناسي إيفانوفيتش، الخادم فاسيا، يرتدي ثياباً أحسن من ثيابه! أواه... لشد ما أحب أن أندفع إليه فأعانقه و... آخذ أبكي... لكنني أخاف، أخاف جداً!.. إنه غريب الأطوار يا رب! هو يتكلم برقة وحنان، ومع ذلك أنا خائفة! عجيب، ممّ أنا خائفة؟»

استأنفت كلامها فجأةً، إذ سارعت ترد على ملاحظة ابنها، فقالت:

– آه يا روديا! لا تستطيع أن تتصور مدى ما شعرنا به من شقاء، أنا ودونيتشكا، أمس. أما وقد انتهى هذا الآن، أما وأنه انقضى فأصبحنا جميعاً سعداء من جديد، فإننا نستطيع أن نرويه لك. تصور أننا هرعنا إلى هنا لنقبّلك، منذ نزلنا من القطار، فقالت لنا تلك المرأة.. هه... ها هي ذي... نعمت صباحاً يا ناستاسيا... نعم، قالت لنا هذه المرأة... هكذا فجأةً... إنك كنت في السرير تعاني من حمى حارة، ثم هربت وأنت

تهذي هذياناً شديداً، دون أن يعرف الطبيب عن ذلك شيئاً، وأنهم ركضوا يبحثون عنك في الشارع. لا تستطيع أن تتصور ما أحدثه هذا فينا من أثر!.. لقد تذكرت أنا على الفور النهاية الفاجعة التي انتهى إليها الملازم بوتانتشيكوف، أحد أصحابنا القدماء، صديق أبيك – ألا تتذكره يا روديا – الذي كان مصاباً هو أيضاً بحمى حارة فهرب من البيت مثلك فسقط في بئر الحوش، ولم يمكن إخراجه منه إلا في اليوم التالي. وقد غالينا طبعا في تصور خطورة حالتك. وتمنينا أن نركض نبحث عن بيوتر بتروفتش ليساعدنا قليلاً على الأقل... لأننا كنا وحيدتين، وحيدتين تماماً...

قالت جملتها الأخيرة هذه بصوت فيه شكوى وتوجع. لكنها أمسكت عن الكلام فجأة، لأنها تذكرت أن الكلام عن بيوتر بتروفتش ما يزال خطراً بعض الشيء، «رغم أن الجميع قد أصبحوا سعداء من جديد».

جمجم راسكولنيكوف يقول مجيباً:

– نعم نعم، هذا كله مؤسف طبعاً...

ولكن هيئته كانت تنم على ذهول وغياب يبلغان من الشدة أن دونيتشكا نظرت إليه مشدوهة.

وتابع يقول وهو يبذل جهداً واضحاً ليستجمع ذكرياته:

– ماذا كنت أريد أن أقول لكما أيضاً؟ ها... نعم... أرجوك يا أمي، وأرجوك أنت يا دونيتشكا، أن لا يذهب بكما الظن إلى أنني كنت لا أنوي أن أسبقكما إلى الذهاب إليكما، وأنني انتظرت أن تجيئا أنتما إليّ.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول مدهوشة هي أيضاً:

– ما هذا الذي تقوله يا روديا؟

وقالت دونيا لنفسها: «ما باله؟ أتراه لا يجيبنا إلا من باب القيام بالواجب؟ إنه يصالحنا ويستغفرنا، ولكنه كأنه يقوم بسخرة ثقيلة أو يتلو درساً محفوظاً».

– لقد أردت منذ صحوت أن أذهب إليكما، لكن مسألة الثياب أخّرتني... لقد نسيت أمس أن أقول لها، أعني أن أقول لناستاسيا أن... تغسل هذا الدم. ولم أستطع أن أرتدي ثيابي إلا الآن.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تسأله في قلق:

– الدم؟ أي دم؟

فأجابها:

– لا تقلقي، ليس الأمر بذي بال. هذا الدم سببه أنني ترنحت قليلاً أمس، بسبب الهذيان، فاصطدمت برجلٍ كانت قد داسته عربة... هو موظف..

قاطعه رازوميخين قائلاً:

– هذيان؟ ولكن هاأنت ذا تتذكر كل شيء!

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة تنم على الهم:

– صحيح... أتذكر كل شيء، حتى أدق التفاصيل. ولكن لماذا فعلت كيت وكيت، لماذا ذهبت إلى مكان كذا، لماذا قلت ذلك الشيء في ذلك المكان، هذا ما لا أستطيع أن أفسّره لنفسي.

تدخل زوسيموف فقال:

– هذه ظاهرة معروفة جداً. رب فعلٍ يقوم به صاحبه على نحوٍ رائع، ببراعة فائقة وحذق مدهش، ثم يبقى الباعث عليه والدافع إليه مموّهاً، لارتباطه بمشاعر مَرَضية شتى. فكأن الأمر كله حلم من الأحلام.

قال راسكولنيكوف لنفسه: «إنه لحظ موفق أن يعدني أشبه بمجنون!»

قالت دونيا وهي تلقي على زوسيموف نظرة قلقة:

– ولكن ألا يصدق هذا على أناس أصحاء أيضاً؟

فأجابها زوسيموف قائلاً:

– هذه ملاحظة سديدة جداً، بمعنى أننا جميعاً على وجه التقريب نشبه المجانين حقاً في كثير من الأحيان، مع فرق واحد مع ذلك هو أن «المرضى» مجانين أكثر منا قليلاً، فمن الضروري أن نميز ههنا درجات. أما الإنسان «السوي»، فمن الواجب أن نقول أنه لا يكاد له وجود. قد نجد فرداً سوياً، أو فرداً قريباً من السوي، بين عشرات الألوف وربما مئات الألوف من الأفراد.

اربدّت وجوه الحاضرين جميعاً حين سمعوا كلمة «المجانين» هذه التي أفلتت من لسان زوسيموف بغير حذر ولا ترو أثناء ثرثرته حول موضوعه المفضل. وكانت تطوف على شفتي راسكولنيكوف الذي ما يزال جالسا، كانت تطوف على شفتيه اللتين زال عنهما لونهما، ابتسامة تنم على أنه كان مسترسلاً في أحلام عميقة.

صاح رازوميخين يسأله بسرعة شديدة:

– هيه، لقد قاطعتك... ما حكاية الرجل الذي داسته العربة؟

قال راسكولنيكوف وكأنه يستيقظ فجأة:

– ماذا؟ آ... نعم... لقد تلوثت بالدم حين ساعدت في نقله إلى بيته... بالمناسبة يا أمي: لقد فعلت أمس أمراً لا يغتفر. حقاً لم أكن أملك كل عقلي. لقد أعطيت امرأة ذلك الرجل، أمس، كل المال الذي أرسلته

إليّ... من أجل دفنه... هي الآن أرملة، أنها امرأة شقية فقيرة... عندها ثلاثة يتامى صغار جائعين... ما من قرش واحد في بيتهم... وهناك أيضاً بنت... لعلكما كنتما ستفعلان ما فعلته أنا لو كنتما في مكاني. طبعاً لم يكن من حقي أن أفعل ذلك، أنا أعترف بهذا... لأنني أعرف حق المعرفة كيف حصلتما على ذلك المال. فمن أجل أن يساعد المرء غيره يجب عليه أولاً أن يكون له حق في ذلك وإلا: «موتوا أيها الكلاب إذا لم تكونوا راضين».

أليس الأمر كذلك يا دونيا؟

قال راسكولنيكوف هذا وضحك.

أجابته دونيا بلهجة جازمة تقول:

– لا، ليس الأمر كذلك!

فدمدم يقول وهو يلقي عليها نظرة توشك أن تكون كارهة، وتطوف بشفتيه ابتسامة ساخرة:

– ها... أنت أيضاً تزخرين بنيات طيبة. كان ينبغي لي أن أفهم هذا!.. ذلك جميل جداً على كل حال... ربما كان ذلك أفضل!.. إذا وصلت إلى نقطة لا تجسرين أن تتخطيها فسوف تشقين، وإذا تخطيتها فربما شقيت أكثر. ثم إن هذا كله سخافات (أضاف ذلك مهتاجاً، نادماً على أنه استسلم لاندفاعه). وإنما أردت يا أمي أن أعتذر إليك، أن أستغفرك.

كذلك ختم راسكولنيكوف كلامه بصوت جازم متقطع.

قالت الأم راضية كل الرضى:

– كل ما تفعله يا روديا فهو خير. أنا واثقة بهذا.

فأجابها بابتسامة مصطنعة:

– لا تثقي كل هذه الثقة!

أعقب ذلك صمت. لقد كان الحديث كله متوتراً جداً، سواء في الصمت، أو في المصالحة، وفي الغفران. وكان الجميع يحسون ذلك.

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو ينظر إلى أمه وأخته بطرف عينه: «لكأنهما خائفتان مني حقاً». والحق أن بولخيريا الكسندروفنا كان يزداد خوفها على قدر امتداد صمتها.

وومضت هذه الفكرة في ذهن راسكولنيكوف: «أنا أنما كنت أحبهما إذن من بعد».

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول فجأة:

– هل تعلم يا روديا؟ لقد ماتت مارفا بتروفنا!

– من هي مارفا بتروفنا؟

– عجيب! مارفا بتروفنا سفيدريجايلوفا. حدثتك عنها طويلاً في رسالتي!

– آ... آ... نعم... تذكرت! إذن ماتت؟ آ... حقاً؟.. (قال ذلك مرتعشاً كمن يصحو من نوم). ماتت... أصحيح أنها ماتت؟ ممَّ ماتت؟

أسرعت بولخيريا الكسندروفنا تجيبه وقد شجعها هذا الاستطلاع:

– ماتت فجأة. حدث ذلك يوم أرسلت إليك رسالتي. تصور! وتصور أن أغلب الظن أن ذلك لبرجل الرهيب هو سبب موتها. يقال أنه كان قد ضربها ضربًا فظيعًا.

سأل راسكولنيكوف أخته:

– هل كان ذلك من عاداتها؟

– لا، بالعكس. كان يبدو على الدوام صبورا جدا معها، بل ولطيفا جدا في معاملتها. وكان في كثير من المناسبات كثير اللين والتسامح في تصرفه إزاء طبع زوجته. ولكن ذلك دام سبع سنين، فلعله فقد صبره على حين فجأة.

– إذن لم يكن فظيعاً إلى ذلك الحد ما دام قد استطاع أن يسيطر على نفسه خلال سبع سنين. لكأنك تعذرينه يا دونيتشكا.

– لا، لا، إنه رجل فظيعا لا أستطيع أن أتخيل رجلاً أفظع منه.

كذلك أجابت دونيتشكا وهي تكاد ترتجف. وقطبت حاجبيها وغرقت في أفكارها.

وأسرعت بولخيريا الكسندروفنا تتابع كلامها فقالت:

– ضربها في الصباح فأمرت بعد ذلك بإعداد العربة لتذهب إلى المدينة بعد الغداء رأساً، لأنها تذهب إلى المدينة دائماً في مثل تلك الحالات. يقال إنها التهمت غداءها بشهية قوية.

– بعد أن ضُربت؟

– نعم، هذه عادة من عاداتها. وما إن انتهت من تناول طعامها حتى أسرعت تستحم حتى لا تتأخر في الذهاب إلى المدينة. إنها تعالج نفسها بالحمامات. أن لديهم ينبوع ماء بارد، فهي تستحم به بانتظام واطراد كل يوم. ولكنها ما إن غطست في الماء حتى أصيبت بالسكتة.

قال زوسيموف معقباً:

– لا غرابة!

– وهل ضربها ضرباً شديداً جداً؟

قالت دونيا:

– أي قيمة لهذا؟

وقال راسكولنيكوف فجأة، في اهتياج ولهجة غير متوقعة:

– هِمْ... ثم ما قيمة قصّ سخافات من هذا النوع يا أمي؟

فقالت بولخيريا الكسندروفنا:

– آه يا بني!.. أنما أنا رويت هذه الأمور لأنني أصبحت لا أعرف عم ينبغي أن أتكلم!

فقال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة من جديد:

– أتراكم تخافون جميعاً مني؟

قالت دونيا وهي تحدق إلى عيني أخيها بنظرة ثابتة:

– هذا صحيح. حتى إن ماما قد رسمت إشارة الصليب قبل صعودها السلم، من شدة خوفها.

تقلص وجه راسكولنيكوف حتى لكأنه أصيب بالتشنج.

فتمتمت بولخيريا الكسندروفنا تقول مرتبكةً كل الارتباك:

– آه... ما هذا الذي تقولينه يا دونيا؟ لا تزعل يا روديا، أرجوك... لماذا تقولين هذا الكلام يا دونيا؟ صحيح أنني طوال مدة الرحلة، في القطار، كنت أتخيل كيف سنلتقي، وما الذي سيقوله بعضنا لبعض...

وقد بلغت من شدة السعادة أنني لم أشعر بالرحلة. ولكن ما هذا الذي أقوله؟ إنني ما زلت سعيدة... الآن أيضاً أنا سعيدة... ما كان ينبغي لك يا دونيا أن تقولي هذا الكلام... أنني سعيدة يا روديا، أن رؤيتك تجعلني سعيدة..

فدمدم راسكولنيكوف يقول لأمه مرتبكاً، وهو يشد على يدها دون أن ينظر إليها:

– كفى يا ماما. سيتسع وقتنا للتحدث طويلاً!

ولكنه ما إن قال هذا الكلام حتى اضطرب فجأة، واصفر وجهه، وعاوده ذلك الإحساس الرهيب الذي يعرفه حق المعرفة، الإحساس ببرودة رهيبة تجتاح نفسه، وشعر شعوراً لا يخالجه ريب بأنه قد كذب كذبة فظيعة، وبأنه لن يستطيع أن يكلم أحداً بعد الآن بقلب مفتوح في يوم من الأيام، بل ولن يستطيع بعد الآن أن يتكلم في أمر من الأمور أياً كان. وبلغ الإحساس الذي ولدته هذه الفكرة في نفسه من شدة الإيلام أنه كاد يفقد الشعور بالواقع فقداناً كاملا خلال لحظة، فنهض واتجه نحو الباب قُدُماً لا يلوي على شيء ولا ينظر إلى أحد.

هتف رازوميخين يسأله وهو يمسكه من ذراعه:

– ماذا تفعل؟

فعاد راسكولنيكوف يجلس، وأجال بصره حواليه صامتاً. فكان الجميع يتأملونه مشدوهين.

وهتف يقول فجأة:

– حقاً إنكم جميعاً لتبعثون الضجر والسأم في النفس! هلّا قلتم شيئاً! ما بالنا نبقى جالسين هكذا! تكلموا! تكلموا! سوف نتكلم... معاً! أنجتمع ثم لا نقول شيئا؟ هيا قولوا شيئاً! هلموا!

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي ترسم إشارة الصليب:

– الحمد لله. لشد ما خفت أن يتكرر ما حدث أمس.

وقالت آفدوتيا رومانوفنا تسأل أخاها مرتابة:

– ما بك يا روديا؟

فأجابها راسكولنيكوف وقد أخذ يضحك فجأة:

– لا شيء... لا شيء... تذكرت سخافة من السخافات!

دمدم زوسيموف يقول:

– إذا كان الأمر أمر سخافة من السخافات، فهذا يبعث على الاطمئنان. وإلا كان يمكن أن أفترض...

ثم أضاف:

– على كل حال، يجب أن أنصرف. قد أجئ لأراك، إذا أنا وجدتك!

ثم حيّا وخرج.

قالت بولخيريا الكسندروفنا:

– يا له من رجل رائع!

فقال راسكولنيكوف فجأة وبسرعة شديدة غير متوقعة، وبحرارة أشدّ مما أظهر من حرارة حتى الآن:

– نعم، هو رجل رائع، مدهش، مثقف، ذكي... لا أتذكر الآن أين التقيت به قبل مرضي. ولكن يبدو لي أنني سبق أن التقيت به.

ثم أضاف وهو يومئ إلى رازوميخين بإشارة من رأسه:

– وهذا أيضاً رجل ممتاز!

ثم التفت إلى أخته يسألها وقد أخذ يضحك فجأة لا يدري أحد لماذا:

– هل يعجبك يا دونيا؟

فأجابته دونيا قائلة:

– كثيراً.

قال رازوميخين وهو ينهض محمرّ الوجه من الخجل والاضطراب:

– يا للأحمق!

وابتسمت بولخيريا الكسندروفنا ابتسامة خفيفة، بينما كان راسكولنيكوف يضحك ضحكاً صاخباً.

– ولكن إلى أين أنت ذاهب؟

– أنا أيضاً مشغول.

– لا لست مشغولاً بشيء البتة، ابقَ! ألا يكفي أن ينصرف زوسيموف حتى يكون عليك أن تنصرف أنت أيضاً. لا، لا تذهب؛ ثم كم الساعة الآن؟ الثانية عشرة؟ ما أجمل هذه الساعة التي تحملينها يا دونيا! ولكن ما بالكم تصمتون جميعاً من جديد؟ لا يتكلم أحد غيري هنا!

أجابت دونيا:

– هي هدية من مارفا بتروفنا.

وعقّبت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

– وقد كلفت ثمناً غالياً جداً.

– هي ضخمة جداً بالقياس إلى ساعة نسائية.

– أُحب الساعات الضخمة هكذا.

وقال رازوميخين لنفسه: «ليست هدية من الخطيب إذن»، وابتهج لهذا دون أن يدري كثيراً لماذا!

وقال راسكولنيكوف:

– تصورت أنا أنها هدية من لوجين!

– لا، إنه لم يقدم إلى دونيا حتى الآن أية هدية!

قال راسكولنيكوف فجأة وهو ينظر إلى أمه التي ذهلت من انتقاله إلى هذا الكلام بغير تدرج، ومن اصطناعه هذه اللهجة التي اصطنعها:

– آ... آ... هل تذكرين يا أمي أنني عشقت وأنني أردت أن أتزوج؟

– نعم أتذكر يا بني.

وتبادلت بولخيريا الكسندروفنا نظرةً مع دونيتشكا ورازوميخين.

– نعم. وماذا أقول لك عن ذلك الأمر أيضاً؟ لقد نسيت فأصبحت لا أتذكر..

وتابع كلامه وهو يطرق إلى الأرض ويصبح شارد الذهن حالماً من جديد:

– كانت فتاة مراضاً... مراضاً جداً. وكانت تحب أن تتصدق على المتسوّلين. وكانت تحلم بالدير... وقد أجهشت باكية في ذات يوم حين حدثتني عن ذلك. نعم... نعم... أتذكر. لا يمكن أن يقال إنها كانت جميلة! حقاً... لا أدري لماذا تعلقت بها. ربما لأنها كانت دائماً مريضة. وأحسب أنها لو كانت عرجاء أو حدباء لأحببتها أكثر. (قال ذلك وابتسم ابتسامة ذاهلة). كان ذلك نوعا من جنون الربيع!

قالت دونيا مندفعة:

– لا، لم يكن نوعاً من جنون الربيع.

ألقى راسكولنيكوف على أخته نظرة منتبهة. ولكن كان يبدو عليه أنه لم يفهم كلامها ولا سمعه. ثم نهض وهو ما يزال شارد الفكر، فمضى إلى أمه، فقبلها، وعاد يجلس في مكانه.

سألته بولخيريا الكسندروفنا مضطربة أشد الاضطراب:

– أما زلت تحبها؟

– هي؟ ما زلت أحبها؟ آ... نعم... أنت تتكلمين عنها... لا... ذلك كله قد أصبح الآن عالماً آخر... انقضى زمان طويل... انقضى زمان طويل... ليس هذا فحسب... بل إن كل ما يجري حولي الآن فكأنه يجري في عالم آخر.

قال راسكولنيكوف ذلك، ونظر إليهم بانتباه ثم أردف يقول:

– إليكم هذا المثال: أنا انظر إليكم الآن، فكأنكم على مسافة ألف فرسخ مني... ولكن لماذا نتكلم عن هذه الأشياء؟ ثم لماذا تسألونني؟ (أضاف ذلك غاضباً، وصمت، وأخذ يقضم أظافره، وغاب في أحلامه من جديد).

وقطعت بولخيريا الكسندروفنا هذا الصمت الأليم، إذ قالت فجأة:

– ما أردأ مسكنك يا روديا! إنه أشبه بتابوت! أنا على يقين من أن مسكنك هذا هو نصف أسباب كآبتك!

فقال راسكولنيكوف ذاهل الهيئة:

– المسكن... نعم... لا بد أن لمسكني هذا دخلاً في الأمر... أنا أيضاً خطر ببالي هذا.

ثم أضاف يقول فجأة وهو يبتسم ابتسامة غريبة:

– ولكن ليتك تعلمين عن أي فكرة غريبة عبّرتِ أنت الآن يا أمي!

كان راسكولنيكوف يحس أن هذا الاجتماع، وهذه الأم وهذه الأخت اللتين يراهما بعد فراق دام ثلاث سنين، وهذه اللهجة الحميمة في الحديث، بينما هو عاجز عن أن يقول كل شيء، كان راسكولنيكوف يحس أن هذا كله يوشك أن يصبح أمراً لا يطاق إطلاقاً. غير أن هناك مسألة لا تحتمل مناقشتها إرجاءً، مسألة كان قد قرر منذ صحا من نومه أن يحلّها في هذا اليوم نفسه بطريقة أو بأخرى. وها هو ذا يحس الآن بالارتياح لأن بوسعه أن يتخذ هذه المسألة وسيلة للخروج من مأزقه.

بدأ كلامه فقال بلهجة خشنة قاسية:

– اسمعي يا دونيا. أنا طبعاً أستغفرك عمّا جرى أمس، ولكنني أرى أن من واجبي أن أذكرك بأنني ما زلت مصراً على الشيء الأساسي من أقوالي. إما أنا وإما لوجين. قد أكون أنا أسوأ الناس طراً، ولكن ما ينبغي أن تكوني أنت كذلك. يكفي أن يكون أحدنا سيئاً. إذا تزوجت لوجين، فلن أعدّك أختي.

صاحت بولخيريا الكسندروفنا تقول بمرارة:

– روديا، روديا! ها نحن إذن نعود إلى ما كنا فيه بالأمس! لماذا تعد نفسك «أسوأ الناس طراً»؟ أنا لا أستطيع أن أحتمل هذا. أمس أيضاً كان هذا نفسه..

وأجابت دونيا تقول بلهجة جازمة، قاسية كلهجته:

– هذا ناشئ عن خطأ ترتكبه يا أخي. لقد فكرت هذه الليلة، فاكتشفت سبب خطتك. إن كل شيء ناشئ، فيما يبدو لي، عن تصورك أنني أضحّي بنفسي في سبيل أحد. وهذا ليس صحيحاً البتة. فإنا أنما أتزوج تحقيقاً لمصلحتي الخاصة، لأن حياتي صعبة. طبعاً... إذا استطعت في المستقبل أن أنفع أهلي... فسوف يسعدني ذلك، ولكن السبب الرئيسي للقرار الذي اتخذته ليس هو هذا...

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو يقضم أظافره حانقاً: «إنها تكذب! يا للمتعجرفة! إنها لا تريد أن تعترف بأنها تحلم أن تكون محسنة. آه! يا لهذه الطبائع! حتى حين يحبون، فكأنهم يكرهون. آه... لشد ما أكرههم جميعاً!»

وتابعت دونيا تقول:

– باختصار: أنا أتزوج بيوتر بتروفتش لأنني أختار أهون الشرين. وإذ أنني قررت أن أنفّذ كل ما ينتظره مني، بأمانة واستقامة وشرف، فإنني أعتقد أنني لا أخدعه... لماذا تبتسم؟

سألها راسكولنيكوف بلهجة مسمومة:

– ستنفّذين كل شيء؟

– إلى حد ما. وإن الطريقة التي اتبعها بيوتر بتروفتش في خطبتي قد أفهمتني على الفور ما ينتظره مني. صحيح أن رأيه في نفسه عالٍ كثيراً، ولكنني آمل أن يقدّرني أيضاً... لماذا تضحك من جديد؟

– وأنت لماذا تحمرّين من جديد؟ إنك تكذبين يا أختي، تكذبين عامدة، بعناد امرأة، حتى لا تتراجعي أمامي. أنت لا يمكن أن تحترمي لوجين: لقد رأيتهُ وتحدثت معه. إذن أنت تبيعين نفسك بالمال. إذن أنت تتصرفين تصرفاً دنيئاً على كل حال. وإنه ليسعدني، أن تكوني على الأقل قادرة على أن تحمزي خجلاً.

صاحبت دونيا تقول وقد فقدت كل هدوئها:

– هذا غير صحيح. أنا لا أكذب! لن أتزوجه دون أن أقتنع بأنه يقدرني حق قدري، وأنه يحرص عليّ. لن أتزوجه دون أن أقتنع اقتناعاً جازماً بأنني أستطيع أن أقدره. ومن حسن الحظ أن في وسعي أن أقتنع بهذا على وجه اليقين في هذا اليوم نفسه. ليس هذا الزواج دناءةً على نحو ما تصف. وهبك على صواب، وهبني قررت أن أرتكب عملا دنيئاً، أفلا تكون أنت قاسياً حين تقول لي هذا الكلام؟ لماذا تتطلب مني بطولةُ تعجز عنها أنت نفسك؟ هذا ظلم واستبداد، هذا عنف وطغيان! إذا كنت أُشقي أحداً، فإنما أشقي نفسي! أنا لم أذبح أحداً بعد... لماذا تنظر إليّ هكذا؟ لماذا اصفر وجهك هذا الاصفرار فجأة؟ روديا، ماذا بك؟ روديا، عزيزي...

صاحت بولخيريا الكسندروفنا:

– رباه! لقد بلغت من تعذيبه أنه سيُغمى عليه!

– لا، لا، لم يحدث شيء، لا قيمة لهذا. كل ما حدث هو أنني أحسست بشيء من دوار... ولكن لم يُغم عليّ. إنكم تظنون كل شيء إغماءً.... ماذا كنت أريد أن أقول؟ نعم: بأية وسيلة ستقتنعين، في هذا اليوم نفسه، بأنك تستطيعين احترامه، وبأنه يقدرك؟ ذلك هو ما قلته، أليس كذلك؟ يخيل إليّ أنك قلت: «في هذا اليوم نفسه»، أم تراني سمعت خطأً؟

قالت دونيا:

– ماما، أطلعي أخي على رسالة بيوتر بتروفتش.

فمدّت بولخيريا الكسندروفنا الرسالة إليه، مرتعشةَ اليدين. فتناولها باهتمام شديد واستطلاع قوي، ولكنه قبل أن يفضها نظر إلى دونيا مدهوشاً. وقال ببطء، كأنما وافته فكرة جديدة:

– غريب جداً أنني ثرت هذه الثورة كلها من أجل... لماذا هذا الاضطراب كله؟ تزوجي من تشائين...

قال هذا كمن يحدث نفسه، ولكنه كان يتكلم بصوت عالٍ، وظل برهة من الوقت ينظر إلى أخته مرتبكاً.

وفضّ الرسالة أخيراً وهو ما يزال على ما هو عليه من دهشة لا تعليل لها. ثم أخذ يقرأ الرسالة ببطء وانتباه. أعاد قراءة الرسالة مرتين. وكانت بولخيريا الكسندروفنا قلقة إلى أبعد حدود القلق. وكان الجميع، من جهة أخرى، يتوقعون انفجاراً.

بدأ راسكولنيكوف كلامه بعد لحظةٍ من تأمل، فقال وهو يرد الرسالة إلى أمه، ولكن دون أن يخاطب أحداً بعينه:

– غريب. هو محامٍ. وله زبائن، وحتى حديثه لا يخلو من... حذلقة. ومع ذلك يحس المرء حين يقرؤه أنه ليس على شيء من تعليم أو ثقافة.

حدثت حركة شاملة: لقد كانوا يتوقعون شيئاً آخر غير هذا تماماً.

قال رازوميخين بلهجة قاطعة:

– ور لكنهم جميعاً يكتبون هكذا.

– هل قرأت هذه الرسالة؟

– نعم.

قالت بولخيريا الكسندروفنا مرتبكةً:

– أطلعناه عليها يا روديا، و... سألناه... النصح... منذ برهة...

فقاطعها رازوميخين يقول:

– هذا أسلوب القضاء لا أكثر... إن جميع الأوراق القضائية تُحرّر الآن بهذا الأسلوب!

– القضاء؟ نعم... صحيح!.. ذلك أن أسلوب هذه الرسالة ليس أسلوب رجل محروم من أي حظ من ثقافة، ولكنه في الوقت نفسه ليس أسلوباً أدبياً. إنه أسلوب رجل من رجال الأعمال.

قالت آفدوتيا رومانوفنا وقد أزعجتها لهجة أخيها الجديدة:

– أن بيوتر بتروفتش لا يخفى أن تعليمه كان متواضعاً؛ بل أنه ليعتز بأنه عصامي شق طريقه بنفسه.

– إذا كان يعتز فلا شك أن هناك ما يدعوه إلى الاعتزاز! أعتقد أنك انزعجت يا أختي لأنني لم أخرج من هذه الرسالة كلها إلا بهذه الملاحظة التافهة؛ وأنت تظنين أنني تعمدت أن أتشبث بهذه السفاسف لأسخر منك بدافع زعلي. والحق عن ذلك بعيد: ففي صدد موضوع الأسلوب هذا، أنما خطرت بالي ملاحظة تبدو لي في هذه الحالة ذات شأن. لقد ورد في الرسالة تعبير يقول: «لن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً إلا أنفسكم»، وهو تعبير ذو دلالة بليغة في ذاته، عدا أنه يشتمل على تهديد: لقد قرر لوجين أن ينصرف فوراً إذا أنا حضرت. فهذا التهديد بالانصراف معناه أنه سيترككما إذا أنتما لم تطاوعاه، مع أنه هو الذي حملكما على المجيء إلى بطرسبرج. فما رأيك؟ هل يمكن أن تسوءك هذه الكلمات حين يكتبها لوجين مثلما يمكن أن تسوءك لو كتبها هذا (قال ذلك وهو يومئ إلى رازوميخين) أو كتبها زوسيموف أو كتبها أي واحد منا؟

قالت دونيتشكا متحمسة:

– لـ... لا!.. لقد أدركت حق الإدراك أن في أسلوبه سذاجة شديدة، وأنه قد لا يكون حاذقاً كل الحذق في استعمال قلمه. إن ملاحظتك سديدة جداً يا أخي، حتى إنني لم أكن أتوقع أن...

– نعم، هذا هو طابع الأسلوب القضائي، وبالأسلوب القضائي لا يمكن أن يكتب المرء غير هذا. ولعل لوجين كان فيما كتبه فظاً أكثر مما أراد. ومع ذلك أريد أن أخيب ظنك قليلاً: إن في هذه الرسالة نفسها تعبيراً آخر هو نميمة في حقي، نميمة خسيسة. لئن وهبت بالأمس مالا لأرملة مصدورة يائسة، فإنني لم أفعل ذلك «بحجّة» دفع نفقات الجنازة، بل لدفع نفقات الجنازة فعلا. ثم إنني وضعت هذا المال لا في يد الفتاة أو في يد «البنت المعروفة بسوء السمعة» على حد تعبيره، (وهي الفتاة التي رأيتها بالأمس لأول مرة في حياتي) وإنما وضعت المال في يد الأرملة نفسها. إنني أرى في كلامه هذا رغبةً شديدة جامحة في تلطيخ صفحتي، وفي إحداث شقاق بيني وبينكم. هنا يكشف الأسلوب القضائي عن نيات صاحبه بوضوح، ويدل على تسرع فيه شيء من سذاجة. إن الرجل ذكي، ولكن لا يكفي أن يكون المرء ذكياً حتى يتصرف بذكاء. هذا كله يطلعك على حقيقته. ثم إنني... لا أعتقد أنه يحترمك كثيراً. لا أقول لك هذا إلا لتحيطي علماً... ذلك أنني أتمنى لك الخير صادقا كل الصدق.

لم تجب دونيا. كانت قد اتخذت قرارها منذ مدة، فهي تنتظر حلول المساء.

سألت بولخيريا الكسندروفنا ابنها، وقد اشتد قلقها بسبب أقواله الجديدة المفاجئة التي تتناول موضوع الأعمال.

– فماذا قررت يا روديا؟

– ماذا تعنين بقولك «ماذا قررت»؟

– أن... بيوتر بتروفتش يطلب في رسالته أن لا تجئ إلينا هذا المساء، وأنه سينصرف إذا أنت جئت. فهل... تجيء؟

– لست أنا من يجب أن يقرر. وإنما ينبغي أولاً أن تقرري أنت: هل تجدين في طلب بيوتر بتروفتش إهانة لك أم لا؛ وينبغي ثانياً أن تقرر دونيا: هل هي أيضاً مستاءة من هذا الطلب وتجد فيه إهانة لها أم لا.

وأضاف راسكولنيكوف يقول ببرود:

– أما أنا فسأفعل ما يناسبكما كلتيكما.

أسرعت بولخيريا الكسندروفنا تجيب:

– لقد اتخذت دونيتشكا قرارها وانتهى الأمر؛ وأنا أوافقها كل الموافقة.

قالت دونيا:

– نعم، لقد قررت يا روديا... قررت أن أطلب منك، ملحة مصرة، أن تحضر الاجتماع عندنا هذا المساء. هل تجيء؟

– سأجيء.

والتفت دونيا إلى رازوميخين فقالت له:

– وأنت أيضاً... أرجوك أن تكون عندنا في الساعة الثامنة. يا أمي، إنني أدعوه أيضاً.

قالت بولخيريا الكسندروفنا:

– هذا حسن جداً يا دونيا.

ثم أضافت:

– ليكن ما تقرران. ثم إنني أنا نفسي أؤثر هذا. إنني لا أحب أن أتظاهر وأن أكذب. نعم، الأفضل أن نقول الحقيقة جميعاً... اغضب أو لا تغضب يا بيوتر بتروفتش!

الفصل الرابع

في تلك اللحظة فُتح الباب برفق، ودخلت الغرفة فتاة تلقي على ما حولها نظرات وجلى. فالتفت الجميع نحوها مدهوشين مستطلعين. ولم يتعرفها راسكولنيكوف في الوهلة الأولى. أنها صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا. كان قد رآها أمس أول مرة، ولكنه رآها في لحظة خاص وظروف خاصة، ورآها مرتديةً ثيابًا خاصةً، فكانت صورتها المنقوشة في ذاكرته صورة إنسانة أخرى غير هذه التي يراها الآن. هي فتاة بسيطة الملبس بل فقيرة الملبس، تبدو في ميعة الصبا حتى لكأنها بنية صغيرة، متحفظة الحركات محتشمة، نقية الوجه على شيء من خوف ووجل، ترتدي ثوبا بسيطا مما يُلبس كل يوم، وتضع على رأسها قبعة بالية الزي، ولكنها تحمل بيدها شمسية كالأمس. فلما رأت، على دهشة شديدة منها، أن الغرفة تغص بالناس، لم تضطرب فحسب، بل فقدت كذلك كل سيطرة لها على نفسها، ووجلت كطفلة صغيرة وتحركت تهمّ أن تنسحب.

قال راسكولنيكوف وقد بلغ ذروة الدهشة:

– آ... أهذا أنت؟

وفقد هو أيضاً كل سيطرة له على نفسه.

وسرعان ما تذكر أن رسالة لوجين قد أخبرت أمه وأخته بوجود هذه الآنسة «المعروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس». وقد احتج هو منذ قليل على نمائم لوجين معلناً أنه رأى هذه الفتاة أول مرة مساء أمس، وها هي ذي تدخل عليه الآن بشخصها فجأة. وتذكّر أيضاً أنه لم يحتج أي احتجاج على ما ورد في رسالة لوجين من أن «البنت معروفة بسوء السمعة». ومض ذلك كله في ذهنه مضطربا مبهما بسرعة كسرعة البرق. ولكنه حين تأمل القادمة بانتباه أكبر، رأى أنها مخلوقة مسكينة مُذلة إلى حد كبير فلم يلبث أن أخذته بها

شفقة. فلما تحركت تهم من رعبها أن تهرب، كان هو قد شعر باضطراب، فأسرع يقول لها وهو يستوقفها بنظره:

– لم أكن أتوقع مجيئك البتة. هلا سررتني فجلست. لا شك أنك آتية من قِبَل كاترينا ايفانوفنا. من فضلك. لا، ليس هنا. بل هنا. اجلسي هنا.

حين دخلت صونيا، كان رازوميخين جالساً بالقرب من الباب على أحد الكراسي الثلاثة التي تضمها غرفة راسكولنيكوف، فنهض ليفسح لها مجال المرور. وقد دلها راسكولنيكوف في أول الأمر على مكان في طرف الديوان هو المكان الذي كان يشغله زوسيموف منذ برهة. لكنه وقد تذكر أن الجلوس على الديوان ينم عن رفع الكلفة، وأنه يتخذ الديوان سريراً له، أسرع يدلها على كرسي رازوميخين. وقال لرازوميخين وهو يجلسه على طرف الديوان الذي كان يجلس عليه زوسيموف:

– وأنت، اجلس هنا.

جلست صونيا وهي تكاد ترتعش من الخوف، ونظرت إلى السيدتين خجلة وجلة. كان واضحاً أنها لا تفهم هي نفسها كيف تجرأت أن تجلس إلى جانبهما. وقد بلغت من الارتياع حين تصورت ذلك أنها نهضت على حين فجأة مضطربة أشدّ الاضطراب، وتأتأت تقول متجهة بكلامها إلى راسكولنيكوف:

– أنا... أنا ما جئت إلا لدقيقة واحدة... اغفر لي إزعاجك. إن كاترينا ايفانوفنا هي التي أوفدتني إليك... لأنها لم تجد أحداً غيري يمكنها أن توفده. طلبت مني كاترينا ايفانوفنا أن أرجوك ملحة... أن تحضر غدا قداس الجنازة... صباحا... بعد الصلاة... في مقبرة ميتروفان[٦٣]... وأن تجيء بعد ذلك إلينا... إليها... لتصيب شيئاً من طعام... هي ترجوك أن تهب لها هذا الشرف. نعم، كلفتني بأن أسألك هذا...

[٦٣] «مقبرة متروفان»: مقبرة فقيرة تقع في جنوب العاصمة، بعد محطات القطار.

قالت صونيا ذلك، واشتد ارتباكها فصمتت.

نهض راسكولنيكوف هو أيضاً، واضطرب هو أيضاً، وقال يجيبها:

– سأحاول أن أجيء حتماً... حتماً...

ثم أردف يقول لها فجأة:

– هلّا سررتني فجلست. إن لي حديثاً معك.. أرجوك. أنت مستعجلة ولكن أرجوك، هبي لي دقيقتين!

قال ذلك وقرّب لها الكرسي. جلست صونيا. وعادت تلقي على السيدتين نظرة سريعة خجلة وجلة، ثم خفضت عينيها فجأة.

احمر وجه راسكولنيكوف الشاحب، وقبضت قسماته، وقدحت عيناه، وقال بلهجة قاطعة ملحة:

– يا أمي، هذه صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا، ابنة ذلك السيد المسكين مارميلادوف الذي داسته الخيل مساء أمس على مرأى مني، والذي سبق أن حدثتكم عنه..

ألقت بولخيريا الكسندروفنا نظرة على صونيا وقد زمّت عينيها قليلاً. إنها لم تستطع، رغم الخشية التي توقظها فيها نظرة ابنها الثابتة المتحدية، أن تمنع عن نفسها هذه المتعة. أما دونيا فقد حدّقت إلى وجه الفتاة المسكينة في جد وإصرار، وأخذت تدرسها بعناية واهتمام. وقد أرادت صونيا، حين سمعت التعريف بها، أن ترفع عينيها، ولكنها اضطربت مزيدا من الاضطراب.

وأسرع راسكولنيكوف يقول لها:

– وددت أن أعرف كيف جرت الأمور عندكم اليوم. ألم تلقوا مضايقات؟ من جهة الشرطة مثلا؟

فأجابت الفتاة:

– لا... جرى كل شيء مجرى عادياً. كان لا يمكن أن يشك أحد في سبب الوفاة. لم يزعجونا. ولكن السكان غاضبون علينا.

– لماذا؟

– لأن الجثمان بقى مدة طويلة... والجو الآن حار، والرائحة... لذلك سينقل الجثمان اليوم إلى المقبرة، عند صلاة الغروب، فيوضع في المصلى إلى الغد. كانت كاترينا ايفانوفنا لا تريد ذلك في أول الأمر، لكنها تدرك الآن أن ليس هناك وسيلة أخرى...

– إذن اليوم؟

– لا بل هي ترجوك أن تشرفنا بحضور صلاة الجنازة غداً... في الكنيسة... وبأن تأتي غداً إلينا للمشاركة في الوليمة.

– أهي تقيم وليمة؟

– نعم، وليمة جنازة. وقد كلفتني بأن أشكر لك المساعدة التي تفضلت عليها بها أمس. فلولاك لما ملكنا ما ننفقه على الدفن.

وأخذت شفتا الفتاة وذقنها تختلج فجأة، ولكنها كابرت وتجلدت فاستطاعت أن تسيطر على نفسها، ثم أغضت طرفها من جديد.

تفحصها راسكولنيكوف أثناء الحديث تفحصاً دقيقاً. إن لها وجهاً صغيراً بائساً، شديد الهزال والنحول، شاحب اللون، ليس في قسماته اتساق كثير، متكسّر الخطوط، بأنف وذقن صغيرين مدببين. حتى ليصعب أن يقال إنها جميلة. ولكن لها في مقابل ذلك عينين زرقاوين تبلغان من الصفاء أن وجهها يكتسي حين

تتقدان طيبة وسماحة لا يملك المرء إزاءهما إلا أن ينجذب إليها. هذا إلى أن لوجه صونيا، ولسائر شخصها، صفة خاصة تميزها هي أنها، على كونها في الثامنة عشرة من عمرها، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير، حتى ليكاد يحسبها المرء طفلة. وكان هذا يتجلى أحياناً في بعض حركاتها، فيكاد يبعث على الضحك.

سألها راسكولنيكوف وكان يواصل الحديث بإلحاح:

– ولكن كيف استطاعت كاترينا ايفانوفنا أن تتدبر أمورها بمثل ذلك المبلغ الضئيل من المال، حتى لتولم وليمة؟

– سيكون التابوت بسيطاً جداً... وسيكون كل شيء بسيطاً... فلا تكون النفقات باهظة... لقد أجرينا الحساب منذ قليل مع كاترينا ايفانوفنا، فلاحظنا أن سيبقى لنا من المال ما نولم به وليمة... لأن كاترينا ايفانوفنا تحرص على هذا أشدّ الحرص. ليس في الإمكان أن لا... أن في هذا عزاء لها. هذه طبيعتها، هي هكذا... أنت تعرفها..

– مفهوم، مفهوم... لماذا تتفحصين غرفتي؟ أمي أيضاً تقول إن غرفتي أشبه بقبر.

قالت صونيا تجيبه بنوع من همس قوي سريع، وهي تخفض عينيها من جديد:

– أنت أعطيتنا بالأمس كل ما كنت تملك... وعادت شفتاها وذقنها تختلج. كانت قد لاحظت منذ برهة طويلة ما يسود غرفة راسكولنيكوف من فقر شديد، فأفلتت هذه الكلمات منها الآن على غير إرادة أو شعور تقريباً. وخيم بعد ذلك صمت. وأضاءت عينا دونيا. وحتى بولخيريا الكسندروفنا نظرت إلى الفتاة في رضى وبشاشة. ثم قالت وهي تنهض:

– يا روديا، سنتغدى معاً بالطبع. هلمّي يا دونيا. أما أنت يا روديا فعليك أن تقوم بنزهة قصيرة، ثم تستريح: تستلقي قليلا، وتجيء إلينا بعد ذلك. أخشى أن نكون قد أتعبناك كثيراً.

أجاب راسكولنيكوف وهو ينهض متعجلاً:

– نعم نعم، سأجيء. ثم إن هناك أعمالاً يجب أن أقوم بها...

صاح رازوميخين يقول مدهوشاً وهو ينظر إلى راسكولنيكوف:

– أصحيح أنكم لن تتغدوا معاً؟ ما هذا الذي تقوله؟

– نعم نعم، سأجيء بالطبع. أما أنت يا رازوميخين، فابق دقيقةً أخرى. لستما في حاجة إليه على الفور يا أمي، أليس كذلك؟ أو ربما حرمتكما منه؟

– لا، لا!.. وأنت يا دمترى بروكوفتش، هل تصحبنا إلى الغداء؟ هل تتفضل فتقبل أن تصحبنا إلى الغداء؟

وثنّت دونيا على طلب أمها فقالت هي أيضاً:

– أرجوك، تعال...

انحنى رازوميخين وقد أشرق وجهه فرحاً. وشعر الجميع بنوع من الضيق والحرج الغريب للحظة ما.

– وداعاً يا روديا، بل إلى اللقاء... أنا لا أحب أن أقول وداعاً! وداعاً يا ناستاسيا... هوه! هأنذا أعود فأقول وداعاً!..

ودّت بولخيريا الكسندروفنا لو تحيي صونيا أيضاً، ولكنها لم تفلح في ذلك، فأسرعت تخرج من الغرفة.

ولكن آفدوتيا رومانوفنا، حين مرّت أمام صونيا بعد أمها كأنها انتظرت دورها فحيّتها تحية فيها كياسة، بل فيها مودة أيضاً. فاضطربت صونيا، وأحنت رأسها متعجلةً وجلةً، بينما طاف بقسمات وجهها تعبير أليم، كأن ما أظهرته لها آفدوتيا رومانوفنا من أدب ولطف قد شق على نفسها وجعلها تتعذب.

هتف راسكولنيكوف يقول لأخته وقد خرج في أثرها إلى فسحة السلم:

– أستودعك الله يا دونيا! هلاً صافحتني!

فأجابته دونيا وهي تلتفت إليه بحركة خرقاء فيها عطف وحب:

– لكنني صافحتك، هل نسيت؟

– أي ضير في أن تصافحيني مرة أخرى؟

وتناول يدها، وشدّ على أصابعها شداً قوياً، فابتسمت له دونيا، واحمرّت، وسحبت يدها بسرعة، وهرعت تلحق بأمّها سعيدة كل السعادة لا تدري لماذا!

قال راسكولنيكوف وهو يعود إلى الغرفة ويلقي على صونيا نظرة صافية مضيئة:

– عظيم! اللهم اجعل الموتى في سلام، وابق الأحياء على قيد الحياة. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ هو كذلك، هه؟

كانت صونيا تنظر مدهوشة إلى وجهه الذي أضاءه الفرح على حين فجأة. ثم لم تلبث قصة أبيها الراحل عنها أن عادت إلى ذاكرته بغتة..

بدأت بولخيريا الكسندروفنا تتكلم، منذ صارتا في الشارع، فقالت تخاطب ابنتها:

– رباه! دونيتشكا! إنني أشعر بارتياح عظيم لأننا خرجنا من عنده! نعم، إنني أحس كأن حملًا قد أزيح عن صدري. لو قال لي قائل بالأمس، في القطار، إن ترك ابني سيسرني، فهل كنت أصدّق؟

– أكرر لك يا أمي إنه ما يزال مريضاً جداً. هل يمكن أن لا تكوني قد لاحظت ذلك؟ لعل حزنه الناشئ عن أنه يتألم ويعطف علينا هو الذي جعله في هذه الحالة. يجب على الإنسان أن يكون متسامحاً، فيمكنه عندئذ أن يغفر أموراً كثيرة، كثيرة جداً.

فأجابتها بولخيريا الكسندروفنا بلهجة حادة ساخطة:

– وهل كنت أنت متسامحة؟ اسمعي يا دونيا: لقد أمعنت النظر إليكما، فهل تعرفين ماذا لاحظت؟ لاحظت أنك صورته تمامًا، تشبهينه وجهاً وروحاً، بل وتشبهينه روحاً أكثر مما تشبهينه وجهاً. كلاكما مكتئب المزاج، كلاكما متجهم النفس، مندفع الطبع؛ كلاكما متكبر متعال وسمح كريم. يستحيل أن يكون أنانياً يا دونيتشكا، أليس كذلك؟ حين أفكر فيما سيحدث عندنا المساء، يتجمد قلبي!

– لا تقلقي يا ماما! لن يحدث إلا ما يجب أن يحدث.

– ولكن هلّا فكرت يا دونيتشكا في الظرف الذي نحن فيه؟ ماذا لو رجع بيوتر بتروفتش عن وعده؟

هذا ما أفلت من لسان بولخيريا الكسندروفنا المسكينة بغير حذر أو تبصر. فأجابتها دونيا بلهجة جافة تنم على الاحتقار:

– إن ذلك لن يشرّفه كثيراً!

فأسرعت بولخيريا الكسندروفنا تقاطعها قائلة:

– لقد أحسنّا صنعاً إذ تركنا روديا. كان يستعجل الخروج لأمر ملح. بهذا يتاح له أن يتحرك قليلاً، وأن يستنشق هواء نقياً. الجو خانق في غرفته! ولكن أين يمكن أن يتنفس الإنسان في هذه المدينة؟ حتى في عرض الشارع يحسن المرء أنه في غرفة بلا نوافذ! رباه! يا لها من مدينة!.. انتبهي... ابتعدي... كادوا يدوسونك! هذا بيانو محمول! آه... ما أكثر ما يُصدم المرء هنا!.. أنا خائفة أيضاً من تلك البنت!..

– أية بنت؟

– صونيا سيميونوفنا تلك التي كانت...

– لماذا أنت خائفة منها؟

– عندي هواجس يا دونيا... صدقيني أو لا تصدقيني... ولكنني منذ أن دخلت، قلت لنفسي، في تلك الدقيقة نفسها، أن كل شيء ربما كان مرده إلى هذا...

هتفت دونيا تقول غاضبة:

– لا شيء مرده إلى هذا... عجيبة أنت وهواجسك يا ماما!.. إنه لا يعرفها إلا منذ أمس... حتى إنه لم يتعرفها حين دخلت!

– سوف ترين!.. هي... سوف ترين... سوف ترين!.. آه.. ما أشد ما أشعر به من خوف! كانت تنظر إليّ بعينين... بعينين لا أدري ماذا أقول فيهما... حتى لقد كنت من نظراتها لا أكاد أستطيع المكوث في مكاني... هل تتذكرين طريقته في تقديمها إلينا وتعريفنا بها؟ إن الأمر الذي يبدو لي غريباً عجيباً هو أن يقول عنها بيوتر بتروفتش ذلك الكلام، ثم إذا بروديا يقدمها إلينا، ويقدمها إليك أنت خاصة! ذلك دليل أنها عزيزة لديه.

– ما أكثر ما يقوله الناس! ألم يقولوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة؟ أتراك نسيت ذلك؟ أما أنا... فإنني واثقة بأنها إنسانة... رائعة.. وأن كل ما قيل عنها ليس إلا افتراء..

– أسأل الله أن يكون هذا صحيحاً!

– أما بيوتر بتروفتش فليس إلا نماماً دنيئاً.

كذلك قالت دونيتشكا بلهجة قاطعة على حين فجأة! فتعكر مزاج بولخيريا الكسندروفنا، وانقطع الحديث.

قال راسكولنيكوف وهو يقود رازوميخين نحو النافذة:

– إليك الأمر الذي أريد أن أحدثك فيه..

فقالت صونيا متعجلة وهي تحيي لتنصرف:

– سأقول إذن لكاترينا ايفانوفنا إنك ستجيء...

– لحظة يا صوفيا سيميونوفنا. ليس هناك أسرار. إنك لا تضايقيننا البتة... وأنا أريد أن أقول لك كلمتين أيضاً...

قال ذلك ثم التفت إلى رازوميخين قبل أن يتم جملته، فواصل كلامه له قائلا:

– إليك الأمر... أنت تعرف ذلك الرجل الذي يسمى... ما اسمه؟ نعم... بورفيري بتروفتش... أنت تعرفه، أليس كذلك؟

– أعرفه. نحن قريبان!

ثم أردف يسأل باستطلاع قوي:

– ولكن لماذا هذا السؤال؟

– أليس هو الذي يحقق في القضية، قضية مقتل العجوز؟ ألم تقل إنه هو الذي يحقق فيها؟

حملق رازوميخين فجأة وسأل:

– طيب وماذا؟

– لقد استجوب أولئك الذين لهم أشياء مرهونة، وأنا لي أشياء مرهونة هناك... أشياء صغيرة على كل حال: خاتم أعطتنيه أختي تذكاراً عند سفري إلى بطرسبرج، وساعة أبي الفضية. والرهنان كلاهما لا يساويان أكثر من خمسة روبلات أو ستة، لكنهما تذكاران، وأنا أحرص عليهما. فما الذي يجب عليّ فعله الآن؟ لا أريد لهذين الشيئين أن يضيعا، ولا سيما الساعة. فمنذ قليل، حين تكلمنا عن ساعة أختي، ارتجفت أنا خوفاً من أن تسألني أمي أن ترى ساعتي. إن هذه الساعة هي الشيء الوحيد الذي بقي لها من أبي! فإذا ضاعت هذه الساعة كان يمكن أن تمرض من ذلك أمي. هكذا هن النساء! فإنا انتظر منك نصيحة. قل ما عليّ أن أفعل. أنا أعلم أنه سيكون من الواجب أن أدلي بإفادة في قسم الشرطة، ولكن أليس الأفضل أن أتجه إلى بورفيرى نفسه؟ ما رأيك؟ إنني أود أن أسوّي هذا الأمر بأقصى سرعة. لسوف ترى أن أمي ستسأل عن هذه الساعة حتى قبل الغداء!

هتف رازوميخين يقول مضطرباً أشد الاضطراب:

– لا فائدة من الذهاب إلى الشرطة. الأفضل أن نتجه إلى بورفيرى. آه... أنا مسرور! نستطيع أن نمضي إليه فوراً. هو على مسافة خطوتين. وسنجده حتماً.

– إذن هلمّ بنا إليه!

– وسيسرّه أن يتعرف إليك! لقد حدثته كثيراً عنك، عدة مرات. أمس أيضاً حدثته عنك. هلم نذهب إليه. إذن كنت تعرف العجوز؟ هذا هو الأمر! هذا هو الأمر! إن كل شيء يترابط ترابطاً را... ئعاً! آ... نعم... يا صوفيا ايفانوفنا...

– صوفيا سيميونوفنا (هكذا صحّح راسكولنيكوف)... يا صوفيا سيميونوفنا، هذا الرجل هو صديقي رازوميخين، وهو رجل طيب...

قالت صونيا دون أن تنظر إلى رازوميخين مما جعل ارتباكها يزداد:

– إذا كان عليكما أن تخرجا الآن...

فقال راسكولنيكوف يحسم الأمر:

– نعم، فلنخرج. سأجيء إليك في هذا النهار يا صوفيا سيميونوفنا ولكن قولي لي أين تقيمين؟

قال لها راسكولنيكوف ذلك دون ارتباك، ولكنه كان يتكلم بسرعة محمومة، متحاشياً أن ينظر إلى الفتاة. ذكرت له الفتاة عنوانها واحمرّ وجهها. وخرجوا جميعاً.

سأله رازوميخين وهو يهبط السلم وراءهما:

– أأنت لا تغلق بابك إذن بالمفتاح؟

فأجابه راسكولنيكوف بقوله:

– أبداً. ثم أضاف يقول بإهمال:

– على أنني أنوي منذ سنتين أن أشتري قفلاً.

ثم قال يخاطب صونيا وهو يضحك:

– ما أسعد الذين لا يملكون شيئاً يستحق أن يوصدوا عليه الأبواب بالأقفال، أليس كذلك؟

حتى إذا صاروا في الخارج، توقفوا عند المدخل.

– أأنت ذاهبةٌ يمنةً يا صوفيا سيميونوفنا؟.. بالمناسبة: كيف فعلت حتى استطعت أن تعثري على بيتي؟

ألقى عليها هذا السؤال وكأنه كان يريد أن يقول شيئاً آخر. لقد ظل طوال الوقت يشتهي أن يتلبث بصره على عيني الفتاة الصافيتين الهادئتين دون أن يفلح في ذلك...

أجابته صونيا:

– أنت نفسك ذكرت بالأمس لبوليتشكا عنوانك.

– ذكرته لبوليا؟ آ... نعم... بوليتشكا! هي الصغرى... هي أختك! إذن أنا أعطيتها عنواني؟

– هل نسيت هذا؟

– لا... الآن تذكرت.

– ثم إنني سمعت أبي الراحل يتحدث عنك. لكنني لم أكن أعرف اسمك... وهو أيضاً لم يكن يعرف اسمك... فجئت الآن... ولما كنت قد عرفت اسمك أمس، سألت اليوم: «أين يسكن السيد راسكولنيكوف؟»... ولم أكن أعرف أنك تقيم في غرفة مفروشة.. أستودعك الله.. سأقول لكاترينا ايفانوفنا...

كانت تشعر بسرور رهيب من أنها استطاعت أخيراً أن تودِّع لتنصرف. وسارت خافضة العينين، مسرعة، تستعجل الهروب من نظراتها وأن تقطع العشرين خطوة التي تفصلها عن ناصية الشارع التالية على اليمين، وأن تبقى أخيراً وحدها فتستطيع أثناء سيرها البطيء، دون أن تنظر إلى أحد ودون أن ترى شيئاً، أن تفكر وتتذكر وتزن في ذهنها كل كلمة قيلت وكل أمر حدث. إنها لم تشعر طوال حياتها، بشيء يشبه ما تشعر به الآن. إن عالما جديدا كاملا يدخل إلى نفسها غامضا مجهولاً. وتذكرت فجأة أن راسكولنيكوف يريد أن يجيء إليها في هذا النهار، وربما في الصباح، وربما على الفور.

دمدمت تقول منقبضة الصدر متضرعة كطفل خائف:

– لا، لا اليوم، أرجوك! رباه! أيجيء إليّ، في هذه الغرفة؟.. إذن سوف يرى... رباه!

ولم يكن في وسعها طبعاً أن تلاحظ أن سيداً مجهولاً كان يتبعها في تلك اللحظة. كان هذا السيد قد تبعها منذ مدخل العمارة، حين توقفت هي وراسكولنيكوف ورازوميخين على الرصيف يتبادلون بضع كلمات. وكان هذا السيد المجهول قد بدا كأنه يرتعش حين التقط عرضاً، أثناء مروره بهم، تلك الكلمات التي قالتها صونيا: «سألت: «أين يسكن السيد راسكولنيكوف؟»». فألقى على المتحادثين الثلاثة، ولا سيما على راسكولنيكوف الذي كانت الفتاة تتجه إليه بالكلام، نظرة سريعة لكنها منتبهة، ثم تفحص المنزل وحفظ رقمه. تمّ ذلك كله بمثل لمح البصر سرعة، ودون أن يتوقف ودون أن يلفت نظر أحد، ثم ابتعد الرجل متباطئ الخطى كَمَنْ ينتظر أحداً. كان ينتظر صونيا. ورأى صونيا تودّع الشابين، فأدرك أنها ذاهبة إلى مسكنها.

قال يسائل نفسه وهو يتذكر ملامح صونيا: «إلى مسكنها! ولكن أين مسكنها؟ لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما... يجب أن أستعلم!»

فلما وصل إلى ناصية الشارع انتقل إلى الرصيف المقابل، والتفت فرأى صونيا تسير الآن في نفس الاتجاه، ولكن دون أن تلاحظ شيئاً. فلما وصلت هي أيضاً إلى الناصية مضت في نفس الشارع الذي مضى هو فيه. فأخذ يتبعها دون أن يحوّل عنها بصره. حتى إذا قطع نحو خمسين خطوة رجع إلى الرصيف الذي كانت تسير عليه صونيا، ولحق بها، وأخذ يسير وراءها على مسافة خمس خطوات منها.

هو رجل في نحو الخمسين من عمره، يميل إلى الطول، بدين، عريض المنكبين عالي الكتفين، حسن الملبس أنيق الهندام، له مظهر سيد من السادة، يحمل عصا جميلة يقرع بها أرض الرصيف عند كل خطوة من خطواته، ويداه موشحتان بقفازين جديدين. إن وجهه العريض لا يخلو من وسامة، وإن لبشرته نضارة لا يُرى مثلها في سكان بطرسبرج. وإن شعره أشقر زاهٍ، ما يزال كثيفاً، لم يكد يشيب؛ وإن لحيته المزدهرة الكثيفة أزهى من شعر رأسه أيضاً. عيناه زرقاوان لهما بريق كبريق المعدن، ولهما نظرة ثابتة ملحاح. وشفتاه حمراوان حمرة قوية. إنه، على وجه الإجمال، رجل ما يزال محافظا على نضارته، يبدو أصغر كثيرًا من سنه.

فلما وصلت صونيا إلى القناة، كان هو وهي وحدهما على الرصيف؛ فاستطاع الرجل أن يلاحظها فرأى ما كان يعبر عنه وجهها من شرود وتفكير. وحين وصلت أمام العمارة التي تسكن فيها، استدارت فدخلت الباب الكبير، فتبعها مدهوشا بعض الدهشة. حتى إذا بلغت فناء المنزل اتجهت يمنة نحو الركن الذي يوجد فيه السلم المفضي إلى شقتها. فجمجم السيد المجهول يقول لنفسه: «عجيب!»، وأخذ يصعد درجات السلم وراءها. وفي تلك اللحظة إنما انتبهت إليه صونيا. صعدت صونيا حتى وصلت إلى الطابق الثاني، فسارت إلى الرواق، ثم قرعت جرس باب الشقة ٩، حيث يقرأ المرء على بابها هاتين الكلمتين مكتوبتين بالطباشير: «كابرناوموف، خيّاط». فجمجم السيد المجهول يقول من جديد: «عجيب!». لقد أدهشته المصادفة الغريبة. وقرع هو جرس باب الشقة المجاورة، الشقة ٨. إن المسافة بين البابين لا تزيد على ست خطوات.

قال وهو ينظر إلى صونيا ضاحكاً:

– آ... أنت تسكنين عند كابرناوموف! لقد أصلح لي صدريتي أمس. أنا أسكن هنا، قريباً منك، عند السيدة ريسليخ، السيدة جرترودا كارلوفنا ريسليخ. يا لها من مصادفة!

نظرت إليه صونيا بانتباه.

وتابع هو كلامه يقول لها بلهجة فيها مرح خاص:

– نحن إذن جاران. أنا لا أقيم ببطرسبرج إلا منذ ثلاثة أيام، وسيسرني أن ألقاك مرة أخرى.

لم تجب صونيا. وفُتح الباب، فانسلت إلى بيتها. كانت وجلى فكأنها تشعر بخجلٍ وعارٍ من شيء ما...

كان رازوميخين مضطرباً اضطراباً شديداً في الطريق إلى بورفيرى. وقد كرر يقول لراسكولنيكوف عدة مرات:

– هذه فكرة حسنة! أنا مسرور، مسرور جداً!

قال راسكولنيكوف لنفسه: «ولكن مِمَّ أنت مسرور؟»

وتابع رازوميخين:

– كنت أجهل أنك أنت أيضاً قد رهنت عند العجوز بعض الأشياء. هل حدث ذلك منذ مدة طويلة؟ أقصد: هل منذ مدة طويلة ذهبت إليها؟

فقال راسكولنيكوف لنفسه: «يا للساذج! يا للأحمق! هل منذ مدة طويلة كنت عندها؟»

وتوقف لحظة يفكر. ثم قال يجيب صاحبه:

– قبل موتها بثلاثة أيام، فيما يبدو لي.

ثم أسرع يضيف بلهجة يُظهر بها اهتمامه الشديد بأشيائه المرهونة:

– على أنني لا أنوي استرداد أشيائي حالاً. فإنني لم يبق معي إلا روبل واحد... ومردّ هذا إلى ذلك الهذيان اللعين الذي اعتراني أمس!

وقد نطق كلمة «الهذيان» هذه نطقاً فيه دلالة وإصرار.

فسرعان ما قال رازوميخين مزاوداً دون أن يدري لماذا:

– نعم، نعم... ذلك هو السبب إذن في أنك... في ذلك اليوم... آه... لشد ما فاجأني ذلك... إنك، أثناء هذيانك، كنت لا تنقطع عن الكلام عن خواتم، وعن سلاسل، وعمّا لا أدري أيضاً... آ... نعم... اتضح الآن كل شيء... اتضحت الأمور... أصبح كل شيء واضحا!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «هكذا إذن! لقد قامت الفكرة في أذهانهم ونمت... إن هذا الرجل مستعد لأن يُصلب في سبيلي، ومع ذلك يشعر بسعادة عظيمة لأن السبب الذي جعلني أتكلم أثناء الهذيان عن خواتم، قد اتضح له الآن! لقد ترسخت الفكرة في أذهانهم جميعاً!»

ثم سأل صاحبه بصوت عالٍ:

– هل تعتقد أننا سنجده في بيته؟

فأسرع رازوميخين يجيبه قائلاً:

– سنجده، سنجده! إنه شاب شهم يا صاحبي... سوف ترى. صحيح أنه أخرق قليلاً... وإن يكن ممن يرتادون المجتمع الراقي... على أنني أجده أخرق من ناحية أخرى، بمعنى آخر... إنه شاب ذكي،

ليس بالغبي البتة... ولكن لتفكيره مجرى غريبًا بعض الغرابة. فهو كثير الشك والريب، قوي الاشتباه والحذر، شديد الاستخفاف والاستهتار... يحلو له أن يضلّك... لا أقصد أن يضلّك، بل أن يغرّر بك... الخلاصة: هو الأسلوب العتيق... أسلوب الوقائع المادية! ولكنه يجيد مهنته... يتقنها!.. في السنة الماضية حقق في قضية قتل كانت قد اختفت جميع آثارها تقريبا. وهو يرغب كثيرا في التعرف إليك، يرغب في ذلك كثيرا جدا.

– لماذا يرغب في ذلك كثيراً؟

– لا بسبب أن... وإنما لأنني، في الآونة الأخيرة، أثناء مرضك، اتفق لي أن حدثته عنك مراراً. فكان هو يصغي... فلما علم أنك تدرس القانون، وأنك لم تستطع أن تنهي دراستك بسبب الظروف، قال: « خسارة!»... فاستنتجت من ذلك... أقصد... من كافة هذه الأشياء مجتمعة... لا من ذلك وحده... وبالأمس، قال زاميوتوف... اسمع يا روديا، أمس مساءً، حين كنا عائدين إلى بيتك معاً، كنت أنا سكران جداً، فلعلني أسرفت في الثرثرة، فأرجو يا روديا أن لا تغلو في حمل كلامي على محمل الجد...

– ماذا؟ هم يعتقدون أنني مجنون، أليس كذلك؟ ولكن قد يكونون على حق.

قال راسكولنيكوف ذلك وابتسم ابتسامة مصطنعة.

– نعم نعم... لا بل!.. دعك من هذا الكلام! إن كل ما قلتُه (وسائر ما عداه أيضاً) ليس إلا سخفاً... ليس إلا ثمرة السكر!

صرخ راسكولنيكوف بغضب شديد نصفه تصنع وتظاهر:

– ولكن علام تعتذر؟ أوه!.. ما أكثر ما تضجرني وتزعجني هذه الأمور كلها.

قال رازوميخين:

– أعرف، أعرف، أنا أفهم. ثق أنني أفهم. بل إن الكلام عن هذا كله عار!

– إذا كان الكلام عن هذا كله عاراً، فلنكف إذن عنه!

صمت الاثنان. كان رازوميخين متحمساً وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك مشمئزاً. وكان من جهة أخرى قلقاً مما قاله له رازوميخين عن بورفيرى منذ هنيهة.

قال يحدث نفسه وقد شحب لونه وخفق قلبه: «لهذا الرجل أيضًا سيكون عليّ أن أشكو الفقر، وأن أظهر بمظهر من يستحق الشفقة والرثاء... وأن أفعل ذلك بطريقة تبدو طبيعية. ولكن الطريقة الطبيعية هي أن لا أقول شيئاً، أن لا أقول شيئاً البتة! ولكن لا... أن لا أقول شيئاً البتة هذا أيضاً لن يبدو طبيعياً!.. على كل حال سوف نرى كيف ستجري الأمور، وسوف نرى هل كان من الخير أن أذهب إلى هناك أم لم يكن ذلك من الخير!.. الفراشة تطير إلى لهب الشمعة من تلقاء نفسها. قلبي يخفق. هذا نذير سوء!»

قال رازوميخين:

– هنا، في هذه العمارة الرمادية.

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «النقطة الأساسية هي هذه: هل بورفيرى على علم بالزيارة التي قمت بها أمس لمسكن العجوز، وهل هو على علم بسؤالي عن الدم؟ يجب عليّ أن أعرف هذا منذ أدخل، من النظرة الأولى، يجب أن أقرأه في وجهه لحظة دخولي، وإلا فإن... لأعرفنَّ هذا ولو هلكت!»

وقال يخاطب رازوميخين فجأة، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

– هل تعرف ماذا لاحظت عليك؟ لقد لاحظت عليك من هذا الصباح، يا صاحبي، أنك مضطرب اضطراباً غير مألوف كثيراً. أأنا مخطئ؟

أجاب رازوميخين مستاء:

– أنا مضطرب؟ لا لست مضطرباً البتة.

– دعك من هذا الكلام يا صاحبي! الأمر واضحا منذ قليل، كنت جالساً على الكرسي كما لا تجلس عادةً. كنت جالساً على حافة الكرسي تماماً، وكنت كمن أصيب برعدة. وكنت تتحرّك من هذا الطرف إلى الطرف الآخر، لا أدري لماذا. فتارة تغضب، وتارة يظهر على وجهك تعبير مريح لسبب ما! بل لقد كان وجهك يحمر احمراراً شديداً. وقد احمر وجهك خاصة حين دُعيت إلى الغداء. نعم، اصطبغت بالحمرة حتى جذور شعرك.

– غير صحيح. أنت تكذب. ماذا تقصد إلى ماذا تغمز؟

– أريد أن أغمز إلى أنك خجول كتلميذ! ها... هاأنت ذا تحمر من جديد!

– يا للخنزير!

– ولكن علام هذا الاضطراب كلها؟ مسكين روميوا اسمع: لن يفوتني أن أتكلم عنك اليوم في مكان ما. هأ هأ هأ! سوف أُضحك أمي كثيراً... وسوف أضحك شخصاً آخر أيضاً.

قال رازوميخين وقد طاش عقله وتجمد رعباً:

– اسمع، اسمع، هذا أمر خطير، هذا... يا للعواقب!.. ما عساك قائلاً لهما؟ أنا... يا صاحبي... آه... يا لك من خنزير!..

– وردة، وردة من ورود الربيع حقاً! ليتك تعلم كم يناسبك هذا! روميو طوله متران تقريبا! ثم إنك قد غسلت وجهك اليوم، ونظفت أظافرك، هه؟ ذلك ما لم يحدث يوماً. ها... وها أنت ذا قد تدهنت وتطيبت! هيا أخفض رأسك لأرى!

– يا لك من خنزير!

كان راسكولنيكوف يقول هذا الكلام وهو يضحك ضحكاً يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه. وعلى هذه الحال من الضحك الشديد إنما دخل الشابان شقة بورفيرى بتروفتش. وذلك بعينه هو ما أراده راسكولنيكوف. من آخر البيت كان يمكن أن يُسمع دخولهما ضاحكين. وقد استمرا يضحكان هنا في الردهة.

همس رازوميخين يقول لراسكولنيكوف غاضباً وهو يقبض على كتفه:

– إياك أن تقول كلمة واحدة في هذا الموضوع هنا، وإلا هشّمت بوزك!

الفصل الخامس

كان راسكولنيكوف قد دخل الشقة. دخل دخول من يبذل كل ما يملك من قوة حتى لا ينفجر ضاحكاً. ودخل وراءه رازوميخين، الخجل الطويل القامة، محمرّ الوجه، أخرق الحركات، متقبض القسمات من الغضب. كان وجهه في تلك اللحظة، بل كان شخصه كله مضحكاً حقاً، يبرر ما كان فيه راسكولنيكوف من قهقهة صاخبة. وقد انحنى راسكولنيكوف يحيي رب البيت حتى قبل أن يقدَّم إليه. وكان رب البيت واقفاً في وسط الغرفة يلقي على القادمين نظرة سائلة. ثم مدّ راسكولنيكوف إليه يده فصافحه، وهو يبذل جهداً ظاهراً في سبيل أن يكبح جماح مرحه، وأن ينطق بالكلمات القليلة التي يوجبها التعارف. ولكنه ما إن أفلح في اتخاذ هيئة الجد، وفي أن يدمدم ببضع كلمات حتى عاد ينظر إلى رازوميخين كأنما رغم إرادته، فلم يستطع في هذه المرة أن يصمد، فإذا بضحكه يتدفق قوياً لا سبيل إلى مغالبته، لا سيما بعد أن كظمه مدة طويلة. فإذا بالغيظ الخارق الذي يستقبل به رازوميخين هذا الضحك «الصريح» يضفي على المشهد كله مظهر مرح طبيعي، بل ومرح صادق. وقد فاقم رازوميخين مظهر المرح مزيداً من المفاقمة كأنما عن عمد: ذلك أنه زأر يقول لراسكولنيكوف وهو يجري يده بحركة تنم عن الغضب قائلاً:

–آ... يا للشيطان الرجيم!

فإذا بالحركة التي أجراها تصدم منضدة صغيرة مستديرة عليها فنجان شاي فارغ، فيطير كل شيء في الهواء، ويسقط على الأرض مقرقعاً.

هتف بورفيرى بتروفتش يقول مرحاً:

– لماذا تحطمون الأثاث يا سادة؟ لماذا تلحقون أذى بالدولة؟

إليكم وصف المشهد الذي كان يُرى في تلك اللحظة: راسكولنيكوف يضحك ملء حنجرته تاركًا يده في يد رب البيت، ولكن دون أن يفقد حس الاعتدال، منتظراً اللحظة المناسبة التي سوف يستطيع فيها أن يسحب يده بسرعة وعلى نحو طبيعي. ورازوميخين قد هوى به سقوط المنضدة وتهشم الفنجان إلى درك الخجل والاضطراب، فألقى على الحطام نظرة سوداء، وبصق على الأرض، وابتعد نحو النافذة، فلبث أمامها مديراً ظهره، عابس الوجه مقطب الأسارير ينظر إلى الخارج دون أن يرى شيئاً. وبورفيرى بتروفتش يضحك ويرغب في الضحك، لكنه ينتظر شروحاً بطبيعة الحال. وفي ركن من الأركان، يجلس زاميوتوف على كرسي. كان زاميوتوف، حين دخل الزائران، قد نهض ينتظر وانفرج فمه عن ابتسامة، لكنه يبدو مدهوشاً مرتاباً، ولا سيما إزاء راسكولنيكوف، فهو ينظر إليه الآن متفرّساً بانتباه. إن وجود زاميوتوف قد فاجأ راسكولنيكوف وأزعجه، فقال يحدث نفسه: «هذا عنصر يجب أخذه في الحسبان» وبدأ يتكلم فقال يعرّف بنفسه مصطنعاً الخجل:

– معذرة، أرجوك. اسمي راسكولنيكوف..

قال بورفيرى بتروفتش يجيبه:

– لا داعي إلى الاعتذار البتة؛ إنه لجميل جداً أنك دخلت على هذا النحو.

وأردف يقول مشيراً إلى رازوميخين:

– هيه! ما باله لا يريد حتى أن يحيّي؟

قال راسكولنيكوف:

– حقاً لست أدري ما سبب حنقه عليّ إلى هذا الحد. كل ما فعلته هو أنني قلت له أثناء الطريق إنه أشبه بروميو... وبرهنت له على صدق قولي. لا شيء غير هذا. أو ذلك هو ما يخيل إليّ على الأقل!

دمدم رازوميخين يقول شاتماً دون أن يلتفت:

– خنزير!

فقال بورفيرى ضاحكاً:

– لا بد أن هناك أسباباً خطيرة كل الخطورة تجعله يغضب هذا الغضب كله لكلمة بسيطة صغيرة!

فقال رازوميخين مقاطعاً:

– هيه! اسكت أنت يا قاضي التحقيق! ثم فلتذهبوا جميعاً إلى الشيطان!

قال ذلك وقد أخذ يضحك هو أيضاً على حين فجأة واقترب من بورفيرى بتروفتش مشرق الوجه منبسط الأسارير كأن شيئاً لم يحدث. وتابع كلامه يقول:

– كفى! نحن جميعاً حمقى في الواقع. اسمع: هذا صديقي روديون رومانوفتش راسكولنيكوف. إنه أولاً، من كثرة ما سمع عنك، أراد أن يتعرف إليك؛ وهو ثانياً يحب أن يحدثك في قضية صغيرة. هه! زاميوتوف!؟ شيء عجيبا ماذا تفعل هنا؟ أأنتما متعارفان إذا؟ منذ متى؟

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه في قلق: «ما معنى هذا أيضاً؟»

ظهر الاضطراب على زاميوتوف، ولكن اضطرابه لم يكن شديداً. وقال يجيب بلهجة طلقة:

– لقد تعارفنا أمس في بيتك!

– إذن لقد أعفتني العناية الإلهية من جهد كان ينبغي أن أبذله. تصور يا بورفيرى أنه يلحّ، منذ أسبوع، إلحاحاً شديداً على أن أعرّفك به. فها أنتما قد استغنيتما عني، فتعارفتما دون وساطة مني... أين تبغك؟

كان بورفيرى بتروفتش يرتدي ملابس البيت: ثوب المنزل، وقميصاً نظيفاً، وبابوجين قديمين بنعلين باليين. هو رجل في نحو الخامسة والثلاثين من عمره؛ مربوع القامة؛ بدين الجسم؛ له كرش، حليق الوجه تماماً فلا شارب ولا لحية؛ مقصوص الشعر على رأس ضخم مدوّر بارز القفا؛ متورم الوجه، أفطس الأنف قليلاً، أصفر اللون كأنه مريض، ولكن وجهه لا يخلو من تعبير عن الحيوية، ولا عن السخرية. حتى لقد كان يمكن أن يعبر وجهه عن شيء من الطيبة لولا عيناه اللتان تنظر إليهما فترى فيهما اخضلالاً وبريقاً كبريق الماء، وتكاد تحجبهما أهداب يضرب لونها إلى بياض، وكأنهما من غمزهما المستمر ترسلان إشارات لا تنقطع. إن نظرة هاتين العينين تنافي سائر هيئته بعض المنافاة (وهي هيئة فيها شيء من أنوثة) وتجعل هذه الهيئة تبدو أميل إلى الجد والجهامة مما قد يتوقعه المرء عند أول نظرة يلقيها عليه.

ما أن علم بورفيرى بتروفتش أن زائره يرغب في أن يحدثه في «قضية صغيرة»، حتى رجاه أن يجلس على الديوان، ثم جلس على الطرف الآخر، محدّقاً إليه ومنتظراً عرض القضية بلا إبطاء، مُظهراً أشدّ الاهتمام. إن مثل هذا الانتباه الصادر عن رجل لا تعرفه، يبدو لك غير طبيعي، بل ويشعرك بشيء من الحرج والارتباك، ولا سيما إذا كان ما ستقوله لا يستحق في رأيك هذا الانتباه؛ ومع ذلك شرح راسكولنيكوف قضيته ببضع كلمات، في دقة ووضوح، فبلغ من رضاه عن نفسه أنه أتيح له أن ينعم النظر في بورفيرى بتروفتش أثناء ذلك. وكان بورفيرى بتروفتش، من جهته، لا يحوّل بصره عن راسكولنيكوف دقيقة واحدة. وكان رازوميخين قد استقر أمامهما إلى المنضدة، فهو يتابع عرض القضية بشغف عارم وصبر نافد، متجهاً بنظراته إلى هذا تارة، وإلى هذا تارة أخرى، وكان في هذا شيء من غلو طبعاً.

دمدم راسكولنيكوف يقول بينه وبين نفسه: «يا للأبله!»

أجاب بورفيرى بلهجة رسمية جداً:

– يجب عليك أن تبعث إلى الشرطة بلاغاً تقول فيه إنك وقد علمت بالنبأ، نبأ مقتل العجوز، وتريد إبلاغ قاضي التحقيق المكلف بالقضية أن هذه الأشياء هي أشياؤك وأنك تريد استردادها. أو أن... على كل حال، سيكتبون إليك...

قال راسكولنيكوف وهو يحاول أن يصطنع الخجل ما وسعه ذلك:

– ولكنني... ولكنني... في الوقت الحاضر... لا أملك مالاً... فحتى هذه الأشياء التافهة التي لا قيمة لها لا أستطيع أن... كل ما أريده الآن هو أن أصرّح بأن هذه الأشياء لي، وبأنني متى أصبح معي مال سوف...

أجاب بورفيرى بتروفتش مستقبلاً هذه الإيضاحات المالية ببرودة:

– ليس لهذا من قيمة. تستطيع على كل حال أن تكتب إليّ رأساً إذا أردت فتقول: لما كنت قد علمت كيت وكيت ولما كانت الأشياء كذا وكذا هي أشيائي، فإنني أرجوكم أن... إلخ.

فأسرع راسكولنيكوف يسأله، مظهراً بذلك اهتمامه بالناحية المالية من جديد:

– أأكتب هذه العريضة على ورق عادي؟

– نعم نعم، على ورق عادي...

أجابه بورفيرى بتروفتش بهذا، ثم نظر إليه على حين فجأة نظرة فيها سخرية صريحة، زامًّا عينيه كأنه يقول له إن أسلوبه هذا لا يخفى على ذكائه. على أن من الجائز أن لا يكون ذلك إلا إحساساً خالج راسكولنيكوف، لأن الغمزة لم تدم إلا لحظة قصيرة كومض البرق. ومع ذلك لا بد أن شيئاً من هذا القبيل

قد حدث. ومهما يكن من أمر، فإن راسكولنيكوف مستعد لأن يحلف أغلظ الإيمان على أن بورفيرى قد غمز له... فإذا بكلمتين تومضان في ذهنه بسرعة شديدة، فيقول لنفسه: «إنه يعلم!»

وتابع كلامه يقول وقد ارتبك قليلاً:

– اغفر لي إزعاجك بهذه الترّهات... صحيح أن هذين الشيئين اللذين كانا مرهونين عند العجوز لا تساوي قيمتهما أكثر من خمسة روبلات، ولكني أحرص عليهما حرصاً شديداً، لأنهما تذكار من واهبيهما؛ أعترف لك بأنني ذعرت أشد الذعر حين علمت أن...

قال رازوميخين متعمداً وهو يبيّت نية واضحة:

– ذلك هو السبب في إنك انتفضت أمس حين كنت أثرثر أنا مع زوسيموف فقلتُ له أن بورفيرى يستجوب الأشخاص الذين كانوا قد رهنوا أشياء عند العجوز.

طفح الكيل عندئذٍ. فهذا هو راسكولنيكوف يخرج عن طوره فيلقي على رازوميخين نظرة سوداء تشتعل غضبًا. ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فوراً. ثم قال له بحنق أحسن اصطناعه في حذق وبراعة:

– يا عزيزي، يخيل إليّ أنك تسخر من عقلي. أنا أوافقك على أنني أسرف قليلاً في الاهتمام بأشياء هي في نظرك تافهة لا قيمة لها. ولكن هذا ليس سبباً يدعو إلى اعتباري أنانياً أو بخيلاً، لأن هذه الأشياء التافهة في نظرك قد لا تكون تافهة في نظري أنا. لقد قلت لك منذ قليل إن تلك الساعة الفضية التي لا قيمة لها هي الشيء الوحيد الذي بقي لي من أبي. فاسخر مني ما شئت أن تسخر، ولكن أمي وصلت (وهنا التفت راسكولنيكوف نحو بورفيرى فجأة)، فإذا علمت (استأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يعود إلى رازوميخين مسرعاً ويحاول أن يجعل صوته متهدجاً مرتجفاً) فإذا علمت أن هذه الساعة قد فُقدت، فيميناً أنها ستهوي إلى حضيض الكرب واليأس. هكذا خُلقت النساء!

هتف رازوميخين يقول بمرارة:

– ولكنني لم أقصد هذا قط! أنا لم أقل ما قلته بهذا المعنى! هذا نقيض ما أردت أن...

تساءل راسكولنيكوف مهموماً مغموماً: «هل نجح هذا الأسلوب؟ هل كان كلامي طبيعياً؛ ألم أبالغ؟ لماذا قلت: «هكذا خُلقت النساء»؟»

قال بورفيرى بتروفتش يسأل لسبب من الأسباب:

– آ... وصلت أمك؟

– نعم.

– متى؟

– مساء أمس.

وصمت بورفيرى كأنه يفكر. ثم أردف يقول بهدوء، ببرود:

– أشياؤك لا يمكن أن تُفقد بحال من الأحوال. ثم إنني كنت أنتظرك منذ مدة طويلة.

قال بورفيرى ذلك، ثم التفت نحو رازوميخين وكأنما لم يحدث شيء، ووضع أمامه منفضة سجائر، لأن رازوميخين كان يهز سيجارته بغير شفقة فيسقط رمادها على السجادة. ارتعش راسكولنيكوف، ولكن بورفيرى الذي كان مشغولاً بسيجارة رازوميخين، كان يبدو عليه أنه لا يلاحظه.

صرخ رازوميخين سائلاً:

– كيف؟ كانت تنتظره؟ أكنت تعرف إذن أن له رهوناً هناك هو أيضاً؟

فاتجه بورفيرى بتروفتش إلى راسكولنيكوف رأساً وقال له:

– كان رهناك، الخاتم والساعة، موجودين عندها، ملفوفين بورقة واحدة، وقد كتب اسمك على الورقة واضحا بقلم الرصاص، كما سُجّل على الورقة تاريخ الرهن أيضاً...

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكاً أخرق، ويحاول خاصة أن ينظر إلى عيني بورفيرى:

– ما أقوى ذاكرتك!

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن أن يضيف قائلاً على حين فجأة:

– لئن أبديت هذه الملاحظة، فلأن هناك أشخاصاً كثيرين جداً قد رهنوا أشياء كما أعتقد... فلا بد أن يصعب عليك أن تتذكر أسماءهم جميعاً... ولكنك تتذكرهم تذكراً واضحاً، و... و..

ثم قال لنفسه: «ما أغباني! ضعيف جداً! لماذا أضفت هذا الكلام؟»

أجابه بورفيرى بشيء من سخر طفيف لا يكاد يلاحَظ:

– ولكن جميع أولئك الأشخاص أصبحتُ أعرفهم، وأنت الشخص الوحيد الذي لم يطالب بأشيائه حتى الآن.

– ذلك أنني كنت مريضًا.

– هذا أيضاً سمعته عنك. بل لقد سمعت كذلك أنك كنت قلقاً للغاية مضطرباً جداً من شيء ما. ثم إنك ما زلت تبدو شاحباً.

– لست شاحباً البتة. بالعكس: صحتي الآن حسنة جداً.

كذلك ردّ راسكولنيكوف بفظاظة وشراسة، وقد تغيرت لهجته فجأة. لقد غلى الغضب في نفسه، فأصبح لا يستطيع كبحه. وقال يحدث نفسه من جديد: «هذا الغضب هو الذي سيفضحني! ولكن لماذا يعذبونني هذا التعذيب!»

عاد رازوميخين يتكلم فقال:

– صحتك جيدة جداً! اسمعوا هذا الكلام! كان حتى أمس لا يكاد يعي، وكان يهذي! هل تصدق يا بورفيرى أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه، فما أن أدرنا ظهرنا، أنا وزوسيموف، حتى ارتدى ثيابه وتسلل خلسة ليمضي يتسكع لا أدري أين، إلى منتصف الليل، أو إلى منتصف الليل تقريباً، وهو في حالة هذيان كامل؟ هل تستطيع أن تتخيل شيئاً كهذا يا بورفيرى؟ أمر غريب!

قال بورفيرى وهو يهز رأسه بحركة من الحركات التي تجريها النساء:

– حقاً؟ في حالة هذيان كامل؟ غريب!..

وأفلت لسان راسكولنيكوف يقول غاضباً أشد الغضب:

– هذا سخف! لا تصدقه!

ولكن بورفيرى بتروفتش بدا كأنه لم يسمع هذه الأقوال العجيبة!

قال رازوميخين وقد تحمس مزيداً من الحماسة على حين فجأة:

– ولكن هل كان يمكن أن تخرج لولا أنك كنت في حالة هذيان؟ ولماذا خرجت؟ ماذا كان هدفك من الخروج؟ ولماذا خرجت خفيةً؟ إنك لم تكن تملك عقلك! أستطيع أن أقول لك هذا الآن وقد زال كل خطر!

قال راسكولنيكوف متجهاً بالكلام إلى بورفيرى وهو يبتسم ابتسامة فيها وقاحة وتحدٍ:

– لقد أرهقوني أمس إرهاقاً فظيعاً، فهربت لأستأجر شقة أخرى لا يستطيعون أن يعثروا عليّ فيها؛ وحين خرجت حملت كل ما أملكه من مال. وقد رأى السيد زاميوتوف ذلك المال. يا سيد زاميوتوف، أكنت بالأمس سليم العقل أو لا؟ عليك أنت أن تحسم النقاش.

لو استطاع في تلك اللحظة أن يخنق زاميوتوف لما تردّد في ذلك. كانت نظرة زاميوتوف وكان صمته يغيظانه أعظم الغيظ.

قال زاميوتوف يجيبه بجفاف:

– في رأيي أنك كنت تتكلم كلام إنسان عاقل جداً، بل وكلام رجل حاذق جداً... كل ما هنالك أنك كنت سريع الاهتياج والغضب.

وقال بورفيرى بتروفتش:

– واليوم ذكر لي نيكوديم فومتش أنه لقيك أمس، في ساعة متأخرة، بمنزل موظف داسته عربة.

فقال رازوميخين يستأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف:

– نعم، لننظر فيما قلته في بيت ذلك الموظف مثلاً: ألم تتصرف تصرف رجل مجنون هناك؟ لقد أعطيت أرملته كل ما كان معك من مال لدفع نفقات الجنازة. أفما كان في وسعك، إذا أنت حرصت حرصاً مطلقاً على مساعدتها، أن تعطيها خمسة عشر روبلاً أو حتى عشرين روبلاً، أو أن تحتفظ لنفسك بثلاثة روبلات في أقل تقدير؟ ولكنك لم تفعل هذا، بل جدت عليها بكل ما تملك: خمسة وعشرين روبلاً!

– ولكن لعلني عثرت في مكان ما على كنز. ما يدريك؟ ولهذا كنت كريماً ذلك الكرم كلّه بالأمس. إن السيد زاميوتوف يعلم أنني وجدت كنزاً! اغفر لنا (قال ذلك لبورفيرى بتروفتش مختلج الشفتين) اغفر لنا إزعاجك بمثل هذه السفاسف طوال نصف ساعة! نحن نضجرك، أليس كذلك؟

– بالعكس، بالعكس! ليتك تعلم كم يهمني أمرك ويشوقني حديثك! أنها لمتعة عظيمة أن يراك المرء وأن يصغي إليك... أعترف لك أنني شديد السرور بأنك تفضلت فجئت إليّ...

هتف رازوميخين يقول لبورفيرى:

– هيه! هلّا قدمت إلينا شيئاً من الشاي على الأقل! لقد جفّ حلقي تماماً!

– هذه فكرة رائعة، ولعل سائر الصحب يوافقونك عليها! ولكن ألست تحب أن تصيب قبل الشاي شيئاً أحلى؟

– لا...

وخرج بورفيرى بتروفتش ليأمر بالشاي.

كانت الخواطر تعصف في رأس راسكولنيكوف كالإعصار. وكان مهتاجاً أشد الاهتياج.

قال يحدث نفسه: «أنكى ما في الأمر أنهم لا يخفون ولا يكتمون، أنهم لا يتحرجون! كيف حدث، وأنت لا تعرفني بعد، أن تتحدث عني مع نيكوديم فومتش؟ معنى ذلك أنهم لا يحاولون حتى أن يخفوا أو يكتموا، وأنهم يطاردونني جميعاً كما يطارد الفريسة سرب من كلاب الصيد! أنهم يبصقون في وجهي صراحة! (كذلك قال لنفسه وهو يرتجف من شدة الغضب). ما بالكم لا تكونون صريحين! لماذا تلعبون معي لعبة القط والفأرة؟ حقاً أن هذا لمن قلة الأدب يا بورفيرى بتروفتش! ولعلني لن أسمح به بعد

الآن!.. السوف أنهض واقفاً، فأرميكم بالحقيقة كلها صفعاً على وجوهكم. ولسوف يرون عندئذ مدى الاحتقار الذي أحمله لهم!» دارت هذه الخواطر في رأس راسكولنيكوف وهو يجد في التنفس مشقة كبيرة. تابع يحدث نفسه: «ولكن ألا يمكن أن يكون هذا كله إحساساً باطلاً، وهماً من أوهام الخيال، سراباً لا أكثر؟ ألا يمكن أن أكون مخطئاً في الحكم على الأمر كله من أوله إلى آخره، وأن لا يكون غضبي ناشئاً إلا عن نقص الخبرة وقلة التجربة وعن عجزي عن تمثيل دوري الساقط؟ لعلهم يقولون كل ما يقولونه بدون فكرة مبيتة أو نية سيئة!.. لا، إن كل ما يقولونه عادي، ولكن المرء يحس وراء كل كلمة من كلماتهم... صحيح أن من الممكن أن يتكلم جميع الناس بهذه الطريقة وهذا الأسلوب، ولكن لا بد أن هؤلاء يضمرون أشياء يلمعون إليها إلماعاً. لماذا قال كلمة «عندها» بإلحاح خاص؟ ولماذا قال زاميوتوف أنني كنت أتكلم كلام رجل حاذق؟ لماذا يخاطبونني بهذه اللهجة؟ نعم، هي اللهجة... ورازوميخين موجود، فلماذا لا يشتبه في شيء؟ لكن هذا الأبله الساذج لا يشتبه في شيء يوماً من الأيام. ها هي ذي الحمى تعتريني من جديد! هل غمزني بورفيرى بعينه منذ لحظة أم هو لم يغمزني؟ سخافة! ترى لماذا وجّه إليّ تلك الغمزة؟ أتراهم لا يريدون إلا أن يثيروا أعصابي ويخرجوني عن طوري؟.. إما أن ذلك كله ليس إلا سراباً، وإما أنهم يعرفون... ولكن حتى زاميوتوف وقح! هل زاميوتوف وقح؟ لا بد أنه فكر طويلاً أثناء الليل. كنت أوجس أنه سيفكر! هو هنا كأنه في بيته رغم أنه جاء إلى هنا لأول مرة. بورفيرى لا يعده ضيفاً ويجلس مديراً ظهره له! إنهما متواطئان عليّ! لا شك في أنهما كانا يتكلمان عني أنا قبل وصولنا. هل يعرفان أنني ذهبت أرى الشقة؟ ليتني أعلم هذا بسرعة! حين قلت إنني هربت أمس مساء لأبحث عن شقة أستأجرها، فإن بورفيرى لم يفطن إلى أقوالي ولم يردّ على إشارتي. نعم، لقد دسست مسألة الشقة هذه بحذق. سوف يفيدني هذا في المستقبل!.. في حالة هذيان... هأ هأ هأ!.. ولكنه يعرف كل ما فعلته مساء أمس. كان يجهل أن أمي وصلت! وقد سجّلت العجوز تاريخ الرهن بقلم الرصاص! أنت تكذب، أنتم

مخطئون، لن أُسلم نفسي! ما هذه بوقائع على كل حال. سراب لا أكثر! هاتوا وقائع! والشقة نفسها ليست واقعة، وإنما هي هذيان! ألا أنني أعرف ماذا سيجب عليّ أن أقول لهم! أهم يعرفون ما حدث في الشقة؟ لن أنصرف قبل أن أعرف هذا. لماذا جئت؟ هأنا ذا أغضب الآن! هذه واقعة! أوه... ما أشد اهتياجي وما أسرع غضبي! ولكن لعل هذا أفضل... فإنني بذلك أمثل دور المريض... إنه يختبرني وسيحاول أن يشوش أفكاري. لماذا جئت؟..»

ذلك كله ومض في ذهن راسكولنيكوف سريعاً كالبرق.

وعاد بورفيرى بعد لحظة. أنه يبدو الآن مرحاً جداً.

قال يخاطب رازوميخين ضاحكاً، بلهجة مختلفة كل الاختلاف عن اللهجة التي كان يتكلم بها منذ قليل:

– هل تعرف يا صاحبي أنني بعد سهرة الأمس في بيتك الجديد، أخذ رأسي يدور، وأنني ما زلت على هذا الحال...

– كانت سهرة شائقة، أليس كذلك؟ لا تنس أنني تركتكم في أجمل لحظة. من الذي انتصر؟

– لم ينتصر أحد طبعاً. لقد أخذوا يتناقشون في مشكلات أبدية، وحمي وطيس المناقشة!..

– تصور يا روديا أنهم اندفعوا يتجادلون في هذا الموضوع: أهناك جرائم أم ليس هناك جرائم؟ يا للسخافات التي قالوها!.. شيء فظيع.

فأجاب راسكولنيكوف شارد الفكر وبلهجة عادية:

– لا غرابة! هذه مسألة اجتماعية عادية جداً، مع ذلك!

وتدخل بورفيرى فقال:

– غير أن السؤال لم تكن هذه صيغته.

فأسرع رازوميخين يعترف قائلاً وقد اشتعلت حماسته على عادته:

– صحيح. لم تكن هذه صيغته تماماً. اسمع يا روديا، اسمع وقل لي رأيك. أنا حريص على معرفة رأيك. لقد اندفعت أمس معهم بانتظار وصولك. وكنت قد أعلنت لهم جميعاً أنك آتٍ. بدأت المناقشة بوجهة نظر الاشتراكيين. معروفة وجهةُ نظر الاشتراكيين. الجريمة احتجاج على وضع اجتماعي غير سليم. ليست الجريمة شيئا غير هذا. ليس هناك أي باعث آخر على الجريمة.

صاح بورفيرى بتروفتش يقول:

– هاأنت ذا تعود إلى الافتراء!

كان بورفيرى بتروفتش ينتعش انتعاشاً واضحاً، ولا يكف عن الضحك وهو يلاحظ رازوميخين، فكان ذلك يزيد هياج رازوميخين.

وتابع رازوميخين كلامه يقول محموماً:

– نعم، ليس هناك أي باعث آخر، في نظر الاشتراكيين. أنا لا أفتري. سوف أريك كتبهم. هم يرون أن كل شيء، أن كل شيء على الإطلاق، إنما مردُّه إلى «جو البيئة السيئ». لا أكثر من ذلك. نعم، هذا هو تعبيرهم المفضّل. ويستنتجون من هنا أن جميع الجرائم ستزول دفعة واحدة متى نُظم المجتمع تنظيماً سليماً. فمتى زالت أسباب الاحتجاج، أصبح جميع الناس فورًا «صالحين» من تلقاء أنفسهم. إن الاشتراكيين لا ينظرون إلى الطبيعة بعين الاعتبار، بل يسقطونها من الحساب. لا مكان للطبيعة! هم لا يرون أن الإنسانية هي التي ستصل من تلقاء ذاتها، بتطور تاريخي حي، إلى أن تصبح مجتمعاً سليماً، وإنما يتصورون نظاما اجتماعيا سوف يخرج من رأس عالم رياضي لا يدري أحد ما هو، فإذا هو ينظم النوع الإنساني بأسره حالا،

وفي طرفة عين يجعله صالحاً مبرأ من كل خطيئة؛ وذلك طبعاً خارج أي منطق تاريخي، حياتي، حي. هذا هو السبب في أنهم بغريزتهم يكرهون التاريخ: «ليس التاريخ إلا أهوالًا كريهة وحماقات حقيرة». هذا ما يقولونه. وهم يفسّرون كل شيء بالحماقة. وذلك هو السبب في أنهم يكرهون تطور الحياة تطوراً حياً، وينادون خاصةً بأن: لا نفس حية!.. أن النفس الحية تتطلب الحياة، فالنفس الحية لا تخضع للميكانيكا، النفس الحية ريّابة، النفس الحية رجعية! لذلك تراهم يصنعون نفسا من كاوتشوك ينبعث منها نتن الموت، ولكنها ليست حيةً على الأقل، يصنعون نفساً طيعة ذليلة لا تتمرد! كل ذلك في سبيل أن يصلوا إلى حيث قادونا: إلى تلك المجموعة من الآجر، المقسّمة ممرات وغرفاً، التي يسمونها تعاونية[٦٤]! أن تعاونيتهم هذه جاهزة، والطبيعة هي التي لم تصبح جاهزة بعد لهذه الفالانستيرا، لأنها تقتضي الحياة، لأنها لم تفرغ بعد من التطور الحياتي، لأنها لم تتأهب بعد للمقبرة! ألا إن المنطق وحده لا يمكن أن يجعلنا نثب فوق الطبيعة ونتخطاها. إن المنطق يتصور ثلاث حالات، مع أن الحالات ملايين! أفنحذف هذه الملايين كلها باسم قضية الرخاء وحدها؟ لا شك أن حل المشكلة بهذه الطريقة هو أسهل الحلول! كل شيء واضح: لم تبق حاجة إلى التفكير! ذلك مغر جذاب. فإنما المهم أن لا نفكر. وفي الإمكان بعد ذلك أن نحصر سر الحياة كله في ورقتين مطبوعتين!

قال بورفيري ضاحكاً:

– ها هو ذا يندفع ويثرثر. يجب تكبيله!

ثم أضاف يقول ملتفتاً نحو راسكولنيكوف:

[٦٤] «... إلى تلك المجموعة من الآجر المقسمة ممرات وغرفا، التي يسمّونها فالانستيرا...» تلميح إلى أحد فصول رواية «ما العمل؟» (١٨٦٣) للكاتب الاجتماعي تشيرنيشيفسكي، وهو الفصل الذي يرسم صورة الحياة القادمة المشيدة على أسس اشتراكية. والفالانستيرات هي قصور ضخمة تستخدم كمساكن جماعية لأفراد المجتمع الاشتراكي القادم (حسب نظرية الاشتراكيين الطوباويين).

– تصوّر أن هذا نفسه هو ما حدث مساء أمس... وذلك في غرفة تعلو فيها ستة أصوات... وكان قد سقانا فوق ذلك حتى سكرنا. هل تتصور ما حدث؟ لا يا صاحبي، أنت مخطئ... إن «للبيئة» دخلاً كبيراً في الجريمة. أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

– أعرف أن للبيئة دخلاً كبيراً في الجريمة. ولكن قل لي: هبْ رجلاً في الأربعين قد اغتصب بنتاً في العاشرة، فهل البيئة هي التي دفعته إلى ارتكاب هذه الجريمة؟

قال: بورفيرى برصانة تشير الدهشة:

– بالمعنى الدقيق للكلمة، يجوز أن نقول إن البيئة هي التي دفعته إلى ذلك. نعم، إن اغتصاب بنت صغيرة يمكن جداً أن يعلّل بالتأثير الذي تحدثه البيئة.

كاد رازوميخين أن يستعر غضبه استعاراً رهيباً. وزأر يقول:

– هذا هراء. وبمثل هذا الهراء أستطيع أن أبرهن لك على أن السبب في أن أهدابك بيضاء هو أن برج الأجراس في كنيسة القديس يوحنا بموسكو يبلغ علوّه ٣٥ ساجين[٦٥]، وأن أبرهن لك على ذلك بوضوح، وبدقة، وأن أبرهن عليه برهاناً فيه تقدمية، بل وفيه ليبرالية. أتريد أن أبرهن لك على ذلك؟ هل تراهن على أنني قادر أن أفعل؟

– افعل! سوف نرى كيف تستطيع أن تفعل!

هتف رازوميخين يقول وهو ينهض بوثبة واحدة، ويحرك يده بإشارة تنم على الأسف والمضض:

[٦٥] الساجين قياس طول روسي قديم يساوي ٢,١٣ مترا.

– ما أشدّ ولعه بالتمثيل والعبث! لا حاجة إلى الكلام معك، لا داعي إلى هذا العناء! ذلك أنه يفعل هذا عامداً، أنت لا تعرفه بعد يا روديا! ولقد تحيّز أمس لهم، ليسخر منهم ويعبث بهم! الله يعلم ماذا قال لهم أمس! وما كان أشد سرورهم برؤيته منحازاً إلى صفهم! إنه قادر على أن يظل يمثل خمسة عشر يوما بغير انقطاع. في السنة الماضية، روى لنا، لسبب من الأسباب، أنه سيصبح راهباً، وظل يخدعنا بهذه القصة شهرين كاملين. ومنذ مدة قصيرة، أوهمنا بأنه سيتزوج، وقال إنه هيأ للاحتفال كل شيء. حتى لقد أوصى ببدلة جديدة، وصدّقناه نحن وأخذنا نهنئه. فماذا كان؟ لم يكن هناك خطيبة، لم يكن هناك شيء البتة: سراب لا أكثر!

– أنت تكذب! لقد أوصيت بالبدلة الجديدة أولاً، والبدلة الجديدة هي التي أوحت إليّ بفكرة تضليلكم جميعاً!

سأله راسكولنيكوف بإهمال:

– أأنت تحب التغرير بالناس كل هذا الحب حقاً؟

– أكانت تظن غير ذلك؟ انتظر إذن، فسوف أغرر بك أيضاً. هأ هأ هأ! ولكن اسمع، سأقول لك الحقيقة كلها: إن جميع هذه المسائل التي دار عليها الحديث، كمسألة الجريمة، ومسألة البنات الصغيرات، ومسألة «البيئة»، قد ذكرتني بمقالة لك منشورة، مقالة شاقتني دائماً على كل حال، وعنوانها: «في الجريمة»... أو شيء من هذا القبيل... لا أذكر الآن. لقد أتيح لي منذ شهرين أن أستمتع بقراءة تلك المقالة في مجلة «القول الدورية».

– مقالتي؟ في «القول الدورية»؟ صحيح أنني، منذ ستة أشهر، بعد تركي الجامعة، كتبت مقالة عن كتاب كان قد صدر منذ مدة قصيرة، ولكني بعثت بالمقالة إلى جريدة «القول الأسبوعية»، لا إلى «القول الدورية».

– لكنها نشرت في مجلة «القول الدورية».

– جريدة «القول الأسبوعية» توقفت عن الصدور ولذلك لم تنشر مقالتي...

– نعم. ولكنها حين توقفت عن الصدور قد انصهرت في «القول الدورية»؛ وذلك هو السبب في أن مقالاتك قد نشرت في «القول الدورية» منذ شهرين. أكنت تجهل ذلك؟

كان راسكولنيكوف يجهل ذلك فعلاً.

قال له بورفيرى بتروفتش:

– غريب! إنك تستطيع أن تطالب المجلة بأجرك عن المقال. ما أعجب طبعك! أنت تعيش إذن في عزلة كاملة فتجهل حتى الأمور التي تتصل بك من قرب. هذا واقع.

هتف رازوميخين يقول:

– مرحى روديا! أنا أيضاً كنت أجهل هذا! سأركض في هذا اليوم نفسه إلى قاعة مطالعة، فأطلب المقالة. هل ظهرت منذ شهرين؟ ولكن في أي يوم على وجه الدقة؟ لا بأس، سأجدها على كل حال. هذه حكاية حقاً. أتنشر مقالة ولا تذكر عن ذلك شيئاً؟

– ولكن كيف عرفتَ أن المقالة لي؟ أنا لم أوقعها إلا بالحروف الأولى.

– عرفت ذلك عرضاً وعرفته في الآونة الأخيرة فقط، بفضل رئيس التحرير الذي أعرفه. وقد كانت المقالة مشوّقة كثيراً، وأثارت اهتمامي.

– أذكر أنني حللت في تلك المقالة الحالة النفسية التي يكون عليها القاتل طوال مدة الجريمة.

– نعم، كنت تقول إن تنفيذ الجريمة يُصحب دائماً بحالة نفسية مرضية. وجهة نظر أصيلة، أصيلة جداً... ولكن هذا الجزء من مقالاتك ليس هو الجزء الذي أثار اهتمامي أكثر من غيره، وإنما أثارت اهتمامي فكرة دسستها في نهاية المقالة، ولم تتوقف عندها طويلا، وإنما أشرت إليها إشارة سريعة لسوء الحظ. وقد أردت أن تقول، إذا كنت تتذكر ذلك، أن على الأرض أناساً يستطيعون... لا يستطيعون فحسب... بل لهم كذلك حق مطلق في أن يرتكبوا جميع أنواع الأفعال الشائنة والجرائم، وأنه لا قيمة لأي قانون بالنسبة إلى هؤلاء الناس.

ابتسم راسكولنيكوف بسخرية إزاء هذا الكلام الذي يؤوّل فكرته تأويلا مراوغاً جداً.

سأل رازوميخين بنوع من الذعر:

– ماذا؟ ما هو الموضوع؟ الحق في ارتكاب الجريمة؟ ولكن لا بسبب «البيئة» على كل حال، هه؟

فأجابه بورفيرى:

– لا، لا، إنك لم تفهم المقصود. المسألة في تلك المقالة هي أن الناس فئتان: فئة العاديين، وفئة الخارقين. فأما «العاديون» فيجب أن يعيشوا طائعين خاضعين، وليس لهم حق في مخالفة القانون، وذلك لأنهم عاديون. وأما «الخارقون»، فيحق لهم أن يرتكبوا جميع الجرائم وأن يخالفوا جميع القوانين، وذلك لأنهم «خارقون». أكان هذا رأيك أم تراني مخطئا؟

دمدم رازوميخين يقول مدهوشاً:

– ولكن كيف؟ ليس من الممكن... أن يكون الأمر كذلك...

وابتسم راسكولنيكوف ابتسامة ساخرة من جديد. لقد أدرك فوراً ما الذي يريد أن يبلغه بورفيرى، ما الذي يريد أن يستدرجه إليه أو أن يستخرجه منه. وكان يتذكر مقالته. وقرر أن يرد على التحدي بمثله.

بدأ يتكلم فقال بلهجة بسيطة متواضعة:

– ليس هذا ما أردت أن أقوله على وجه الدقة. على أنني أعترف بأنك عرضت فكرتي عرضاً أميناً، بل وأميناً كل الأمانة إذا شئت (كأن كان يسره أن يوافق على أن فكرته قد عُرضت عرضاً أميناً كل الأمانة). والفرق الوحيد هو أنني لم أقطع بأن جميع الخارقين يجب عليهم أن يرتكبوا دائماً جميع أنواع الجرائم كما تقول. ولو قد فعلت ذلك لمنعت الرقابة نشر المقالة فيما يخيل إليّ. كل ما أوحيت به هو أن الإنسان الخارق يملك الحق... لا الحق الرسمي بل الحق الشخصي في أن يأذن لضميره بتخطي بعض الحواجز... وذلك في حالة واحدة هي الحالة التي يتطلب فيها تنفيذ فكرته هذا التخطي (وهي فكرة قد يتوقف عليها سلام النوع الإنساني). أنت تدعي أن مقالتي غير واضحة، فأنا مستعد لأن أشرحها لك في حدود الإمكان. ولعلني لا أخطئ إذ أفترض أن هذه هي رغبتك. فليكن لك ما تشاء!.. في رأيي أنه لو كانت اكتشافات كبلر أو نيوتن، بسبب تضافر ظروف معينة، ما كان لها أن تتحقق إلا إذا ضُحّي في سبيلها بحياة فرد أو عشرة أفراد أو مائة فرد بل بحياة عدد من الأفراد أكبر يعيقون تحقيقها أو يقفون حائلاً دونها، فإنه يكون من حق نيوتن بل ومن واجبه... أن يزيح أولئك الأفراد العشرة أو المائة في سبيل أن ينفع الإنسانية باكتشافه. ولكن ليس يترتب على هذا قط أن من حق نيوتن أن يقتل أي إنسان يحلو له أن يقتله، ولا أن يسرق كل يوم من أحد الأسواق. وأذكر أنني أوضحت في مقالتي أن جميع المؤسسين والمشرّعين في تاريخ

الإنسانية، من أقدمهم إلى أحدثهم، مروراً بأمثال ليسورجوس وسولون ومحمد ونابليون وغيرهم، يمكن أن يوصفوا جميعاً بأنهم مجرمون، لأنهم حين أقاموا قانوناً إنما خالفوا بذلك قانوناً قديماً كان يُعدّ مقدساً وكان موروثاً عن الأسلاف؛ وما كان لهم طبعاً أن يمتنعوا عن سفك الدم (مهما يكن بريئاً في بعض الأحيان، ومهما يكن قد بُذل بذلًا بطولياً في سبيل القانون القديم) حين يسهّل سفك هذا الدم مهمتهم، بل ويحسن أن نلاحظ أن أكثر هؤلاء الرواد الذين أحسنوا إلى الإنسانية وأصلحوا المجتمع أنما كانوا أناساً شاذين دمويين. وأوجز فأقول إنهم جميعاً، لا أعظمهم فحسب بل الذين يعلون أقل علو فوق الحد الوسط أيضاً، أي الذين هم قادرون ولو قدرة يسيرة على التعبير عن أفكارهم الجديدة، أنما كانوا مضطرين بحكم طبيعتهم نفسها إلى أن يكونوا قتلة، قليلاً أو كثيراً طبعاً، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يخرجوا عن الحد الوسط، وهم بحكم طبيعتهم أيضاً ما كان لهم أن يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط؛ بل وفي رأيي أنه كان من واجبهم أن لا يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط. الخلاصة: ها أنت ذا ترى أنه ليس فيما قلته حتى الآن شيء جديد كل الجدة. أما عن تقسيمي الرجال إلى فئتين، فئة العاديين وفئة الخارقين، فإنني أوافق على أن في هذا التقسيم شيئاً من التحكم، ولكنني لم أقدم أرقاماً أيضاً. وأنا أنما أؤمن بفكرتي الرئيسية، وهي أن الرجال ينقسمون، بحكم قوانين الطبيعة، إلى فئتين، بوجه عام: فئة دنيا هي فئة العاديين الذين لا وجود لهم إلا من حيث إنهم مواد إن صح التعبير، وليس لهم من وظيفة إلا أن يتناسلوا، وفئة عليا هي فئة الخارقين الذين أوتوا موهبة أن يقولوا في بيئتهم قولاً جديداً. ولا شك أن هناك تقسيمات فرعية لا حصر لعددها، ولكن السمات المميزة التي تفصل هاتين الفئتين قاطعة. فأما الفئة الأولى، وهي فئة المواد، فإن أفرادها، على وجه العموم، أناس، «خُلقوا محافظين»، أناس معتدلون يعيشون في الطاعة ويحلو لهم أن يعيشوا في الطاعة. وعندي أن عليهم أن يطيعوا، لأن الطاعة هي ما كتب لهم، وليس في طاعتهم ما يسيء إليهم أو يذل كرامتهم. وأما الفئة الثانية فهي تتألف من رجال يتميزون بأنهم جميعاً يكسرون

القانون، بأنهم جميعاً مدمّرون، أو بأنهم جميعاً ميالون إلى أن يصبحوا كذلك بحكم ملكاتهم. وجرائم هؤلاء الرجال تتفاوت خطورتها وتتنوع أشكالها طبعاً. وأكثرهم يريدون، بأساليب متنوعة جداً، تدمير الحاضر في سبيل شيء أفضل. فإذا وجب على أحدهم، من أجل تحقيق فكرته، أن يخطو فوق جثة، أو فوق بركة دم، فإنه يستطيع (في رأيي) أن يعزم أمره على أن يخطو فوق الجثة وفوق بركة الدم مرتاح الضمير، وكل شيء رهن بمضمون فكرته، وبما لها من أهمية طبعاً. لاحظوا ذلك. بهذا المعنى وحده أنها تحدثت في مقالتي عن حق ارتكاب الجريمة (إنك تتذكر أن نقطة البداية التي انطلقنا منها إنما كانت مسألة حقوقية). على أنه لا داعي إلى القلق كثيراً. فإن الجمهور لا يكاد يعترف لهؤلاء الرجال أبداً بهذا الحق. بالعكس: إن الجمهور يضطهدهم ويشنقهم (كثيراً أو قليلاً)، وهو في هذا يمارس حقه، ويقوم بوظيفته كجمهور محافظ، رغم أن الأجيال اللاحقة من هذا الجمهور نفسه ستخلد ذكر أولئك المضطهدين المعذَّبين فتقدسهم (كثيراً أو قليلاً). فالفئة الأولى من الرجال هي سيدة الحاضر، والفئة الثانية هي سيدة المستقبل. الأولون يحفظون العالم ويزيدونه كماً، والآخرون يحركونه ويقودونه إلى غاية. ولهؤلاء وأولئك حق واحد في الحياة. أي أن لهم كلهم حقوقاً متساوية، و«عاشت الحرب الأبدية» «بالفرنسية»، إلى أن تقوم أورشليم الجديدة طبعا!

– أأنت تؤمن إذن بأورشليم الجديدة؟

أجاب راسكولنيكوف بصوت ثابت:

– أؤمن!

قال ذلك خافضاً رأسه مثبتاً بصره على نقطة من السجادة، كما كان طوال مدة حديثه المستفيض.

– وهل تؤمن بالله أيضاً! اغفر لي فضولي!

فأجاب راسكولنيكوف وهو يرفع بصره إلى بورفيرى:

– أؤمن به.

– وهل تؤمن ببعث لعازار؟

– أؤ... أؤمن به. ولكن لماذا تسألني عن هذا كله؟

– هل تؤمن بذلك نصاً وحرفاً؟

– نصاً وحرفاً!

– صحيح؟ اغفر لي فضولي. لقد سألتك عن هذا كله من باب حب الاطلاع. ولكن اسمح لي. سوف أعود الآن إلى ما كنت تقوله. أنا أرى الجمهور لا يضطهدهم ويعذبهم جميعاً. بالعكس: بعضهم...

– بعضهم ينتصرون أثناء حياتهم؟.. نعم بعضهم يحققون غاياتهم أثناء حياتهم، وعندئذ فإنهم هم الذين...

– هم الذين يرسلون الآخرين إلى التعذيب والاضطهاد...

– نعم، إذا لزم الأمر... وأكثرهم يفعلون ذلك حقاً. ملاحظتك هذه... لطيفة جدا.

– أشكرك. ولكن قل لي: كيف نميز هؤلاء الخارقين عن أولئك العاديين؟ هل هم يحملون علامات خاصة منذ ولادتهم؟ أقصد أنه لا بد من دقة أكبر، أي لا بد من علامة مميزة واضحة. اغفر لي هذا الاهتمام، وهو اهتمام طبيعي لدى رجل عملي يريد الخير. إلا يمكننا مثلاً أن نلبسهم رداء خاصاً، أن نخلع عليهم زياً موحداً، أن نميزهم بعلامة فارقة؟ إذ لا بد أن تسلّم معي بأنه إذا حدث اختلاط، فتخيل رجل من رجال الفئة الأولى أنه ينتمي إلى الفئة الثانية، فأخذ «يزيح جميع العوائق»، على حد تعبيرك الموفق، فإن...

– صحيح... هذا يحدث كثيراً. ملاحظتك هذه ألطف من سابقتها أيضاً.

– أشكرك.

– لا داعي إلى الشكر. ولكن لاحظ أن هذا الخطأ لا يمكن أن يقع إلا لأفراد الفئة الأولى، أي فئة العاديين (الذين لعلني لم أوفق كثيراً حين أطلقت عليهم هذا الاسم): إن كثيراً من هؤلاء العاديين، رغم ميلهم الفطري إلى الطاعة، يمكن أن نلاحظ فيهم نزوة من تلك النزوات التي نلاحظها في الطبيعة، ونلاحظها حتى لدى الأبقار، فإذا هم يحبون أن يحسبوا أنفسهم رجالا من الطليعة، رجالا «مدمِّرين». وإذا هم يقحمون أنفسهم في الدعوة إلى «القول الجديد»، صادقين مخلصين من جهة أخرى. وكثيراً ما يحدث لهم في الوقت نفسه أن لا يلاحظوا ولا يعترفوا بأولئك الذين هم مجدّدون حقاً، حتى لقد يعدونهم أناساً منحطين، رجعيين، جديرين بالاحتقار. ولكني أعتقد أن هذا ليس فيه خطر كبير، فما ينبغي لك أن تقلق، وذلك لسبب بسيط هو أن هؤلاء لا يقطعون شوطًا بعيدًا في يوم من الأيام، وفي وسعك طبعًا، من أجل أن تعاقبهم على حماستهم الطائشة، وأن تردّهم إلى مواقعهم، في وسعك أن تجلدهم أحياناً. ولكن هذا كل شيء؛ بل إنه لا حاجة إلى أن يتولى أحد هذه المهمة، فإنهم يجلدون أنفسهم بأنفسهم، لأنهم أناس أخلاقيون جداً، فبعضهم يجلدون أنفسهم بأيديهم، وبعضهم يطلبون إلى أقرانهم البشر أن يؤدوا لهم هذه الخدمة. ثم إنهم يفرضون على أنفسهم أنواعًا من الكفارات على رؤوس الأشهاد فيكون هذا درسا مفيدا وعبرة جميلة. الخلاصة: ليس عليك أن تقلق. ذلك هو القانون!

– حسناً! لقد طمأنتني من هذه الناحية قليلاً على كل حال. ولكنني أرى خطراً آخر. قل لي من فضلك: هل هم كثيرون أولئك الأفراد الذين يحق لهم أن يذبحوا غيرهم، هل هم كثيرون أولئك «الخارقون»؟ إنني مستعد طبعاً لأن أنحني احتراماً لهم، ولكن لا بد أن توافقني على أن المرء لا بد أن يشعر برعدة تسري في ظهره إذا هم كانوا كثيرين؟ أليس كذلك؟

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً بتلك اللهجة نفسها:

– لا تقلق من هذا أيضاً. فعلى وجه العموم، لا تولد إلا قلة قليلة جداً من هؤلاء الأفراد الذين يملكون فكرة جديدة حقاً، أو يقدرون ولو قليلاً على أن يعبروا عن شيء ما جديد. هنالك شيء واحد محقق، هو أن نسبة الأفراد الذين يولدون في هذه الفئة أو تلك لا بد أن يحدّدها قانون طبيعي ما تحديداً دقيقاً. وهذا القانون ما يزال حتى الآن مجهولاً، ولكنني أعتقد أنه موجود، وأنه سيمكن اكتشافه في المستقبل. ولئن وجدت كتلة من الأفراد تبلغ هذا المبلغ من الضخامة، فما ذلك إلا لمحاولة خلق إنسان مستقل بعض الاستقلال، ولو بنسبة واحد إلى ألف، وذلك بتطور ما يزال سرياً مجهولاً، وبواسطة أنواع شتى من اختلاط عروق وأنواع، إلخ. أما الأفراد الذين يملكون استقلالاً أكبر فإن نسبتهم أصغر من ذلك: هم واحد بين عشرة آلاف (أتكلم على وجه التقريب). وأما الأفراد الذين يملكون درجة عليا من الاستقلال فإن نسبتهم أصغر من ذلك أيضاً: هم واحد بين مائة ألف. وأما العباقرة فلا يوجد منهم إلا واحد بين مليون. وأما كبار العباقرة، الذين هم قمة النوع الإنساني، فلا بد أن ننتظر أن تمر على الأرض ألوف ملايين الأفراد حتى يظهر منهم واحد. أنا لم أقم طبعاً بجولة في البوتقة التي يتم فيها هذا كله، ولكن القانون موجود، ولا بد أن يكون هناك قانون من هذا النوع. فلا مصادفة هنا!

صاح رازوميخين يقول أخيراً:

– قولا لي: أنتما تمزحان؟ أنتما بسبيل أن يخدع كل منكما الآخر؟ إن كلاً منهما جالس أمام صاحبه يستهزئ به ويضحك عليه! أنت تتكلم جاداً يا روديا؟

رفع راسكولنيكوف وجهه الشاحب نحو رازوميخين صامتاً، حزيناً، ولم يجب بشيء. فلما رأى رازوميخين هذا الوجه الهادئ المتألم، استغرب تلك اللهجة اللاذعة الفظة الوقحة الملحاحة التي استعملها بورفيرى. قال رازوميخين:

– طيب يا صاحبي، إذا كنت تتكلم جاداً... فمن حقك طبعاً أن تقول إن هذا كله ليس فيه جديد، فهو يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف مرة. ولكن الشيء الجديد حقاً في الأمر، الشيء الذي تنفرد به – وهذا ما أشعر منه بهول ورعب – هو أنك تجد أن من الطبيعي أن يسفح إنسان دماً وهو واع كل الوعي، وأنك تدافع عن هذا الرأي بمثل هذا التعصب كله... سامحني. معنى ذلك أن هذه هي الفكرة الأساسية التي تتضمنها مقالتك. وأنا أرى أن هذا السماح الأخلاقي بسفح الدم، أفظع حتى من السماح بسفح الدم رسمياً أو شرعياً...

قال بورفيرى:

– صحيح تمامًا. هو أفظع منه.

وقال رازوميخين يخاطب راسكولنيكوف:

– لا، لا، لقد سمحت لنفسك بالاندفاع في مزالق الخطأ. هناك خطأ. سوف أقرأ المقالة. حقاً لقد أسرفتَ في الغلو. لا يمكن أن يكون هذا تفكيرك. سوف أقرأ المقالة...

قال راسكولنيكوف:

– ليس في المقالة شيء من هذا كله. المقالة لا تتضمن إلا إشارة.

قال بورفيرى وقد أصبح لا يستطيع أن يستقرّ في مكانه:

– نعم، نعم، الآن أصبحت أدرك رأيك في الجريمة بشيء من الوضوح. اغفر لي إلحاحي (أنا أعرف أنني أضايقك مما يشعرني بالحرج). لقد طمأنتني منذ قليل في موضوع الاختلاط الذي يمكن أن يحدث بين الفئتين من باب الخطأ. ولكن... هناك حالات تظل تقلقني من وجهة النظر العملية. لنفرض أن رجلاً أو شاباً يعدّ نفسه مثل ليكورجوس أو مثل محمد – في المستقبل طبعاً. إنه سوف يشرع فوراً في «إزاحة» جميع العوائق. سوف يقول: إن على عاتقي أن أقوم بحملة بعيدة؛ ومن أجل القيام بحملة لا بد لي مال. ولذلك سوف يبدأ بالحصول على المال للقيام بحملته. واضح؟

هنا انفجر زاميوتوف ضاحكاً في ركنه ضحكاً قوياً على حين فجأة. ولكن راسكولنيكوف ظل ساكناً، حتى إنه لم يرفع نحوه عينيه. وأجاب يقول بلهجة هادئة:

– أعترف بأن حالات كهذه لا بد أن تقع فعلاً. إن الحمقى والمغرورين يقعون في هذا الفخ، ولا سيما إذا كانوا شبابا.

– أرأيت؟ فماذا إذن؟

أجاب راسكولنيكوف مبتسماً ابتسامة ساخرة:

– هذا لا يغير من الأمر. أنا لا دخل لي! هكذا أنما جرت الأمور دائماً. قال هو منذ قليل (هنا أومأ راسكولنيكوف إلى رازوميخين) أنني أبيح سفح الدم. ما قيمة ذلك؟ إن المجتمع تحميه المنافي والسجون وقضاة التحقيق والمعتقلات. فعلام القلق؟ طاردوا السارق!

– وإذا قبضنا عليه؟

– هذا ما يستحقه ويجب أن يُتيح لكم أن تقبضوا عليه.

– أنت منطقي. ولكن ماذا عن ضميره الأخلاقي؟

– فيما يعنيكم ضميره الأخلاقي؟

– مسألة إنسانية.

– من كان له ضمير أخلاقي فليس له إلا أن يتعذب إذا هو اعترف لنفسه بخطيئته. سيكون هذا عقابا له، بالإضافة إلى السجن.

سأل رازوميخين وهو يقطب حاجبيه:

– والأشخاص الذين يملكون العبقرية حقاً، الأشخاص الذين أُعطوا حق القتل، هل يجب عليهم أن لا يتألموا البتة ولو سفحوا دماً؟

– لماذا تستعمل تعبير يجب عليهم؟ ليس ههنا لا إذن ولا منع. ألا فليتألم من تأخذه بضحية شفقة! لا بد أن يتألم من كان واسع الوجدان عميق الشعور.

ثم أضاف راسكولنيكوف يقول فجأة وقد شرد فكره واختلفت لهجته عما كانت عليه أثناء الحديث:

– يخيل إليّ أن الرجال العظماء حقاً لا بد أن يشعروا على هذه الأرض بحزن عظيم.

ورفع راسكولنيكوف عينيه ونظر إلى الجميع مفكراً، وابتسم، وتناول قبعته. كان هادئا هدوءًا كبيرا بالقياس إلى الحالة التي كان عليها حين دخل؛ وكان يحس هو بذلك.

نهض الجميع.

واستأنف بورفيرى بتروفتش كلامه فقال:

– لك أن تشتمني ولك أن تغضب أن شئت؛ ولكني لا أستطيع أن أغالب رغبتي في أن ألقي عليك سؤالاً آخر صغيراً. أنا أعلم أنني أرهقتك إرهاقاً شديداً، ولكنني أحب أن أعبر لك عن فكرة صغيرة راودتني وأخشى أن أنساها...

– هات فكرتك الصغيرة.

كذلك قال له راسكولنيكوف جاداً، شاحب الوجه، وهو واقف أمامه ينتظر.

– إليك فكرتي... ولكنني لا أعرف حقاً كيف أعبر عنها تعبيراً مناسباً... أن فكرتي الصغيرة قد تكون تافهة قليلاً... هي فكرة سيكولوجية... اسمع: إنه لمن المستحيل عليك أثناء كتابتك تلك المقالة أن لا تكون... هئ هئ هئ... أن لا تكون قد عددت نفسك... إنساناً خارقاً بعض الشيء... إنساناً يحمل القول الجديد، بالمعنى الذي قصدته، أليس هذا صحيحاً؟

قال راسكولنيكوف باحتقار:

– جائز جداً.

وتحرك رازوميخين.

وعاد بورفيرى بتروفتش يتكلم فقال:

– فإذا كان الأمر كذلك، أفلا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك، في أعقاب إخفاق شخصي ما، أو للخلاص من الفقر، أو أيضاً لتعجيل سير الإنسانية إلى أمام، لا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك أن تتخطى الحاجز... فـ... فتقتل مثلاً أو تسرق؟..

قال بورفيرى بتروفتش هذا وغمز بعينه اليسرى وأخذ يضحك ضحكاً صامتا، كما فعل منذ قليل.

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة متكبرة متحدية:

– إذا كنت قد تخطيت الحاجز فلن أقول لك إنني تخطيته.

– أسألك لأن أمراً واحداً يهمني، هو أن أُحسن تأويل مقالتك، وأن أُحسن ذلك من الناحية الأدبية وحدها...

قال راسكولنيكوف لنفسه باشمئزاز: «هوه! يا لنيته الواضحة الوقحة!»

وقال يجيب مخاطبه ببرود:

– اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أنني لا أعد نفسي لا مثل محمد ولا مثل نابوليون... ولا مثل أي شخص من هذا النوع!.. وإذ أنني لست واحداً من هؤلاء الأشخاص، فإنني لا أستطيع أن أقدم إليك جواباً مرضياً، فأقول لك ما الذي يمكن أن أفعله.

قال بورفيرى بتروفتش فجأة بإلفة مخيفة:

– دعك من هذا الكلام! أيُّ واحد منا، في روسيا، لا يعد نفسه اليوم مثل نابوليون؟

وكان في نبرة صوته نفسها ما يدل على نية واضحة جداً.

ورشق زاميوتوف من ركنه هذا السؤال:

– ألا يمكن أن يكون واحد ممن يعدون أنفسهم مثل نابليون في المستقبل هو الذي قتل آليونا ايفانوفنا في الأسبوع الماضي؟

صمت راسكولنيكوف وحدّق إلى بورفيرى بنظرة ثابتة قاسية. واكفهرّ وجه رازوميخين. كان رازوميخين قد بدأ يشتبه منذ برهة. ونظر حواليه غاضباً. وانقضت دقيقة في صمت قاتم. وتحرك راسكولنيكوف يريد أن ينصرف.

قال بورفيرى بلهجة رقيقة عذبة:

– أتنصرف؟

ومدّ إليه يده بكثير من التحبب والتودد. وتابع يقول له:

– سعيد جدًا، سعيد جدًا بمعرفتك. أما عن مطالبتك برهنيك، فكن مطمئناً: يكفي أن تكتب عريضة بالمعنى الذي أشرت به عليك. نعم، بل ربما كان الأفضل من ذلك أيضاً أن تأتي إليّ، في يوم قريب... في الغد مثلاً... سأكون بمكتبي حتماً في نحو الساعة... الحادية عشرة. سنرتب الأمر كله، وسنثرثر قليلاً... بما أنك واحد من أواخر من ذهبوا إلى هناك، فإنك قد تستطيع أن تقول لنا شيئاً ما (هذا ما أضاف يقوله وهو يصطنع كل الطيبة وكل البساطة).

سأله راسكولنيكوف بلهجة خشنة:

– أتريد أن تستجوبني رسمياً، وفقاً للأصول؟

– فيم أستجوبك على هذا النحو؟ لا يدفعني إلى هذا أية ضرورة حتى الآن. طبعاً... أنا لا أدع لأية فرصة أن تفلت مني... وقد تحدثت إلى جميع الذين أودعوا رهونًا لدى العجوز. حتى لقد استطعت أن أحصل على بعض الدلائل. ولما كنت أنت آخر هؤلاء... ولكن بالمناسبة (هاتف يقول ذلك فجأة في غمرة من الفرح) بالمناسبة... الآن تذكرت... كيف نسيت هذا؟ (هنا التفت يخاطب رازوميخين)... نعم يا رازوميخين، إن الفتى نيكولاشكا ذاك الذي صدّعت به رأسي... قد ثبت لي اليوم... على وجه اليقين

(وهنا عاد يلتفت إلى راسكولنيكوف) أنه برئ... ولكن ما حيلتي؟ لقد كان لا بد لي أيضاً من إزعاج ميتكا... والآن إليك ما كنت أريد أن أسألك عنه: حين صعدت السلم، كانت الساعة بين السابعة والثامنة، أليس كذلك؟

أجاب راسكولنيكوف:

– نعم، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة.

وسرعان ما أدرك راسكولنيكوف ممتعضاً أنه كان في وسعه أن لا يذكر هذا.

– ألمْ ترَ، وأنت تصعد السلم، بعد الساعة السابعة، في شقة كان بابها مفتوحاً هل تتذكر؟ – ألم ترَ عمالاً كانوا يعملون في تلك الشقة، أو عاملاً منهم على الأقل؟ هم دهانون كانوا يدهنون الشقة، ألم تلاحظهم؟ هذا أمر هام جداً، هام جداً جداً بالنسبة إليهم.

أجاب راسكولنيكوف يقول ببطء، كأنه ينبش ذاكرته، وهو يحاول بجهد مرهق أن يكتشف الفخ الذي ينصبه له مخاطبه ليتحاشى الوقوع فيه:

– دهانون؟ لا، لم أر دهانين. لا، لم أرهم. ثم، لا أذكر أنني رأيت شقة كان بابها مفتوحا. ولكنني في مقابل ذلك (لقد اكتشف الآن الفخ وهو فرح بذلك) أذكر أن موظفاً كان ينتقل في الطابق الثالث من الشقة التي تقع أمام شقة آليونا ايفانوفنا. إنني أذكر هذا، بل أذكره واضحاً كل الوضوح... كان هناك جنود يحملون أريكة، فاضطررت أن ألتصق بالحائط. ولكنني لم أر دهانين، لا، لا أذكر أنني رأيت دهانين. ويخيل إليّ أنه لم يكن أي باب من الأبواب مفتوحاً. لا، لم يكن هناك باب مفتوح...

صاح رازوميخين يقول فجأة كأنه ثاب إلى رشده أخيراً وفهم في هذه اللحظة نفسها، صاح يقول مخاطبا بورفيرى:

– ولكن ما هذا الذي تقوله؟ أنت تعلم أن الدهانين كانوا يعملون يوم مقتل العجوز، أما هو فقد ذهب إلى العجوز قبل ذلك بيومين. فما هذا السؤال الذي تلقيه عليه؟

فهتف بورفيرى قائلاً وهو يلطم جبينه:

– آ... نعم... اختلط عليّ كل شيء. تباً لي. اللعنة! إن هذه القضية قد أفقدتني صوابي.

والتفت يقول لراسكولنيكوف كأنما ليعتذر:

– إنني من فرط اهتمامي بأن أعرف هل رأى أحدٌ أولئك الدهانين بعد الساعة السابعة في الشقة، قد تخيلت أنك تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال... نعم، لقد اختلط عليّ كل شيء..

قال رازوميخين غاضباً:

– يجب عليك أن تنتبه!

وقد قيلت هذه الكلمات الأخيرة حين وصلوا إلى حجرة المدخل. لقد شيّعهما بورفيرى بتروفتش إلى الباب بتودد كبير ولطف بالغ. فلما صارا في الشارع كان كل منهما مظلم النفس متجهم الوجه. وسارا بضع خطوات لا ينطقان بكلمة واحدة. وتنفس راسكولنيكوف تنفسًا عميقًا...

الفصل السادس

كان رازوميخين يردّد قائلاً في حيرة واضطراب وهو يحاول أن يدحض حجج راسكولنيكوف بكل ما أوتي من قوة:

– أنا لا أصدّق هذا! لا أستطيع أن أصدّقه!

كانا قد اقتربا من عمارة باكالايف، حيث تنتظرهما بولخيريا الكسندروفنا ودونيا منذ مدة طويلة. وفي غمرة المناقشة الحامية، كان الفتى يتوقف في كل لحظة مضطرباً قلقاً، على الأقل لأن هذه هي المرة الأولى التي يتحدثان فيها صراحة عن ذلك الأمر.

أجاب راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة باردة جافة:

– لا تصدّق! أنت على عادتك لم تلاحظ شيئاً، أما أنا فقد كنت أزن كل كلمة.

– أنت شكاك ريّاب، لذلك كنت تزن كل كلمة. هِمْ... أوافقك على أن لهجة بورفيرى كانت غريبة بعض الغرابة... وأن ذلك الوغد زاميوتوف خاصة... أنت على حق... لقد كان فيه شيء ما، ولكن لماذا؟ لماذا؟

– جاءت له فكرة أثناء الليل!

– ولكن لا، بالعكس، بالعكس! لو كانت تدور في ذهنيهما فكرة كهذه الفكرة الغبية، لحاولا، على العكس، أن يخفياها بجميع الوسائل، لحاولا أن يكتماها ليفاجئاك بها فيما بعد، أما ما فعلاه فقد كان... كان وقاحة لا حذر فيها...

– لو كانا يملكان وقائع، أقصد وقائع حقيقية، أو شبهات تقوم على أي أساس من وقائع، لحاولا أن يخفيا ما يدور في ذهنيها أملاً في أن يكتشفا مزيداً من الوقائع (ولقاما من جهة أخرى بتفتيش مسكني منذ مدة

طويلة). ولكنهما لا يملكان وقائع، لا يملكان أية واقعة. ليس هذا كله إلا سراباً!.. هذا كله لا رأس له ولا ذنب!.. هذا كله لا يقوم على شيء ولا يستند إلى شيء، لذلك يعمدان إلى الوقاحة. لعله هو نفسه غاضب من أنه لا يملك أية واقعة. لعل هذا هو السبب في حنقه وغضبه. وربما كان كذلك يبيّت نية خفية خبيثة. هذا رجل ذكي، كما يبدو لي أنا على الأقل... لعله أراد تخويفي بإظهار أنه يعرف أشياء... يا صاحبي، الأمر هنا أمر سيكولوجيا شخصية. على كل حال... فإن جميع هذه التفسيرات والتأويلات تشير اشمئزازي. هلّا تركنا هذا الحديث كله!

– ثم إن في كلامه إهانة، إهانة! أنا أفهمك. ولكن ما دمنا قد بدأنا التحدث بصراحة (وإنه لحسن جداً أننا وصلنا إلى ذلك، وأنا مغتبط بهذا أشد الاغتباط)، فأحب أن أعترف لك دون لف أو دوران أنني قد لاحظت منذ مدة طويلة أن هذه الفكرة تدور في ذهنيهما. ولكن لا شك أنها لم تكن قد تجسدت بعد، وأنها لم يكن لها إلا وجود كامن. على أن وجودها في ذهنيهما حتى في هذه الصورة أمر لا يطاق. كيف يجرؤان؟ أين، في أي جزء من نفسيهما استطاعت هذه الفكرة أن تجد لها عشاً؟ ليتك تعلم كم أحنقني هذا وكم أثار جنوني! طالب فقير دمّرته أنواع البؤس وصنوف الهواجس والمخاوف... على وشك الإصابة بمرض مصحوب بهذيان.... بل لعل المرض كان قد ألمّ به منذ ذلك الحين (لاحظ هذا)... شاب مفرط في الشك والحذر، شديد الكبرياء شاعر بقيمته، ظل مدفوناً في ركنه ستة أشهر لا يرى في أثنائها أحداً... قد بليت ثيابه حتى أصبحت خرقاً رثة لا تستر ظهره، وبلي حذاءه حتى اهترأ فكأنه حافي القدمين... شاب هذا شأنه يجد نفسه واقفاً على حين فجأة أمام رجال من الشرطة تافهين يصبون عليه وقاحاتهم، ويطلبونه بأن يبادر إلى سداد قيمة سند باطل فاجأه به المستشار الاعتباري تشيباروف... ورائحةُ الدهان الطري تزكم أنفه... والحرارة ثلاثون درجة في غرفة غاصة بالناس، فلا يكاد يستطيع أن يتنفس... وها هو ذا يسمع حديثاً عن مقتل امرأة كان قد رآها بالأمس... وهو فوق ذلك خاوي المعدة... أفعجيب أن يغمى على

هذا الشاب حينذاك؟ كيف يبنون كل تلك الافتراضات السخيفة على إغمائه ذاك؟ شيطان يأخذهم!.. اسمع يا روديا! أنا أدرك أن هذا أمر يثير الغيظ. ولكنني لو كنت في مكانك لما زدت على أن أضحك منه... لما زدت على أن أضحك عليهم، أمام أنوفهم، بل وأن أبصق في وجوههم... أن أرمي وجوههم بسيول من البصاق، وأن أكيل لهم صفعات يحسون بها إحساساً قوياً... ابصق عليهم! أقول لك ابصق عليهم، لا تكتئب! من المخزي أنك تهتم بالأمر!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «تكلم فأحسن الكلام على كل حال!»

ثم قال لرازوميخين بمرارة:

– أبصق عليهم؟ ولكنني سأخضع في غدٍ لاستجواب جديد. هل يجب عليّ حقاً أن أصل إلى حدّ تقديم شروح وتعليلات، بينما أنا ساخط على نفسي منذ الآن لأنني أهنت نفسي إذ ارتضيت أن أكلم زاميوتوف بالأمس في الحانة...

– شيطان يأخذهم. سأذهب إلى بورفيرى بنفسي. ولأتصرفنّ معه تصرف قريب من أقربائه. لا بد أن يفرغ جعبته. أما زاميوتوف...

قال راسكولنيكوف لنفسه: «أخيراً فهم».

وصاح رازوميخين قائلاً وهو يمسكه من كتفه:

– انتظر! انتظر! لقد قلت حماقة من الحماقات. نعم، فكرت في الأمر، فأيقنتُ أنك قلت حماقة من الحماقات. ما هذا الذي تذكره عن فخ نُصب لك؟ أين الفخ في هذا؟ أنت تزعم أن مسألة العمال هذه فخ. ولكن فكّر قليلاً: لو كنت فعلت ذلك الأمر، أفكنت تستسلم فتتذكر أن الشقة كانت تُدهن... وأنك فوق

ذلك قد رأيت العمال؟ بالعكس. ما كنت لتذكر أنك رأيت عمالاً، حتى ولو كنت قد رأيتهم. من ذا الذي يشهد على نفسه؟

أجاب راسكولنيكوف يقول على مضض، مشمئزاً اشمئزازاً واضحاً:

– لو كنت قد فعلت ذلك الأمر، لذكرت حتماً أنني رأيت العمال والشقة.

– ولكن لماذا يشهد المرء على نفسه؟

– لأنه ما من أحد غير الفلاحين السذّج أو الأغرار الذين ليس لهم خبرة ينكر كل شيء على الإطلاق حين يُستجوب. أما الإنسان الذي يملك ولو أقل قدر من الذكاء والخبرة، فإنه لا يفوته أبداً، في حدود الإمكان، أن يعترف بالوقائع الخارجية التي لا سبيل إلى إنكارها، وإنما هو يحاول أن يؤولها تأويلاً آخر، أن يرتبها على النحو الذي يريد، أن يضفي عليها دلالة غير متوقعة، فإذا هي تفسّر تفسيراً جديداً وتُرى في ضوء جديد. ولقد كان بورفيرى يأمل أن أجيب قطعاً بهذه الطريقة، أي أن أذكر له أنني رأيت العمال، من باب إضفاء مزيد من مظهر الصدق على أقوالي، ثم أضيف إلى ذلك تفسيراً ما.

– ولكن لو فعلت ذلك لأجابك فوراً بأنه لم يكن هناك عمال قبل مقتل العجوز بيومين، فلا بد إذن أنك كنت هنالك يومَ مقتل العجوز بعد الساعة السابعة... ولضيّعك هذا الأمر التافه!

– ذلك بعينه هو ما كان يعوّل عليه ويأمل فيه. كان يأمل أن لا يتسع وقتي للتفكير، فإذا أنا أسارع إلى تقديم الجواب الذي يضفي على أقوالي مظهر الصدق، ناسياً أن العمال لم يكونوا هناك قبل وقوع الجريمة بيومين.

– وكيف تنسى هذا؟

– لا أسهل من نسيانه! وفي مثل هذه التفاصيل التافهة أنما يرتبك أمكر الناس بأكبر سهولة. لا يصدق الرجل الماكر أن الأمور التافهة قد توقعه في الفخ. فكلما كان مكر المرء أكبر كانت الأمور الأبسط هي التي توقعه في الفخ. ليس بورفيرى غبيا إلى الحد الذي تتصوره.

– هو وغد كبير على كل حال!

لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الضحك. ولكنه في الوقت نفسه قد استغرب هذه الحماسة وهذا التلذذ اللذين سيطرا عليه وهو يقدم هذا الشرح، ألم يكن قد أجرى ذلك الحديث كله مشمئزاً، مكرهاً، مستجيباً لدواعي الحساب وحده. قال لنفسه: «لا شك أن بعض نقاط هذه القضية تجد هوىً في نفسي؟».

ولكنه في تلك الدقيقة نفسها بدا عليه القلق فجأةً، كأن فكرة غير متوقعة، فكرةً تبعث على الخوف قد ساورته على حين بغتة. وازداد قلقه. وكانا قد وصلا إلى باب عمارة باكالايف.

قال راسكولنيكوف فجأة:

– ادخل وحدك، وسأرجع حالًا.

– ولكن إلى أين تذهب؟ لقد وصلنا!

– يجب عليّ أن... يجب عليّ أن... هناك عمل ينبغي أن أقوم به. سأعود بعد نصف ساعة. قل لهما هذا.

– لك ما تشاء، ولكنني أذهب معك.

فهتف راسكولنيكوف يقول بحنق يبلغ من المرارة والكرب أن رازوميخين شعر بحيرة وارتباك:

– أأنت أيضاً تريد إذن أن تعذبني؟

وظل رازوميخين بعض الوقت واقفاً على درجات المدخل، مظلم الهيئة، ينظر إلى راسكولنيكوف الذي كان يمضي بخطى مديدة في اتجاه الزقاق المؤدي إلى بيته. وأخيراً كزّ أسنانه، وشنج قبضته، وحلف ليعصرنّ بورفيرى في ذلك اليوم نفسه؛ وصعد يهدئ روع بولخيريا الكسندروفنا التي كانت قلقة من تأخرهما الطويل منذ ذلك الحين.

وصل راسكولنيكوف أمام بيته مبلل الصدغين بالعرق، لاهثاً يتنفس تنفساً شاقاً. وصعد السلّم مسرعاً ودخل غرفته التي لم يكن قد أغلق بابها، وأسرع يوصد عليه من الداخل بالكلابة. ثم هرع، وقد جُن جنونه رعباً وذعراً، أسرع نحو الركن الذي كان فيه الثقب الذي يخفيه ورق الجدار، والذي كان قد خبأ فيه الأشياء المسروقة في ذلك اليوم. دسّ يده في الثقب، وظل ينبشه بكثير من العناية خلال عدة دقائق، سابراً جميع الشقوق وجميع ثنيات الورق. فلما لم يعثر على شيء نهض فتنفس تنفسًا عميقاً. لقد تخيّل منذ قليل، حين وصل مع رفيقه إلى عمارة باكالايف، تخيل فجأة أن من الممكن أن يكون أحد الأشياء التي أودعها في هذا الثقب، كسلسلة صغيرة أو زرّ كم أو حتى الورقة التي لفت بها هذه الأشياء وعليها كتابة بخط العجوز، أن يكون أحد هذه الأشياء قد اندس في شق من الشقوق على نحو من الأنحاء، فإذا هو يظهر بعد ذلك قرينة قاطعة أو دليلاً ثابتاً لم يكن متوقعاً ولا يمكن إنكاره.

لبث راسكولنيكوف واقفاً هنالك كالمشدوه، ثم إذا بابتسامة غريبة ذليلة تدور على شفتيه. وأخيرًا تناول قبعته وخرج من الغرفة صامتًا. كانت أفكاره مشوشة مضطربة. ومرّ تحت باب المدخل الكبير شارد الفكر حالماً.

صاح صوت ضخم قائلًا:

– هذا هو!

فرفع راسكولنيكوف رأسه.

كان البواب واقفاً على عتبة حجرته، يومئ إلى راسكولنيكوف لرجل قصير القامة يبدو عليه أنه بائع صغير، يرتدي معطفاً أشبه بثوب من ثياب المنزل وفوقه صديرة، إذا رآه الرائي من بعيد ظنه امرأة، وعلى رأسه قبعة متسخة، ورأسه مائل على صدره؛ وبدا كأنه محدودب، ويدل وجهه الرخو المتغضن على أنه في نحو الخمسين من عمره على أقل تقدير، وتعبّر عيناه الصغيرتان المتورمتان عن قسوة وتجهم واستياء.

سأل راسكولنيكوف البواب وهو يقترب:

– ماذا هنالك؟

فرشقه البائع الصغير بنظرة من تحت، وحدّق إليه يتفحصه بانتباه ودون تعجل، ثم استدار ببطء وابتعد عن باب المدخل وسار في الشارع دون تعجل ودون أن يقول كلمة واحدة.

هتف راسكولنيكوف يقول:

– ولكن ماذا هنالك؟

فأجابه البواب:

– هو رجل سألني هل يسكن في هذه العمارة طالب. وقد ذكر اسمك، وسأل كذلك عن الشخص الذي تقيم عنده. فلما نزلت أنت في تلك اللحظة نفسها دللته عليك، فإذا هو ينصرف... على النحو الذي رأيت.

كان البوّاب مدهوشاً هو أيضاً، لكن دهشته لم تكن قوية كثيراً. وقد فكر لحظة، ثم استدار وعاد يدخل حجرته.

هرع راسكولنيكوف يجري في أثر البائع الصغير، فسرعان ما لمحه سائراً في الجهة الأخرى من الشارع، بخطى متساوية بطيئة، مطرقاً إلى الأرض، كأنه يفكر في شيء ما. ولم يلبث راسكولنيكوف أن لحق به، ولكنه اكتفى في أول الأمر بأن يسير وراءه. ثم أدركه أخيراً، فألقى على وجهه نظرة مواربة. فلاحظه الرجل فوراً، فألقى عليه نظرة سريعة لكنه عاد يخفض عينيه. وسار الرجلان على هذا النحو جنباً إلى جنب مدة دقيقة دون أن يقول أحد منهما شيئاً.

وأخيراً قال راسكولنيكوف بصوت غير عال لسبب ما:

– سألتَ عني... البواب..

فلم يجبه الرجل، حتى إنه لم يرفع إليه بصره. وساد صمت جديد.

عاد راسكولنيكوف يقول بصوت مختنق، فلا تخرج الألفاظ من صدره إلا بعناء كبير:

– إنك قد جئت تسأل عنى... وها أنت ذا تصمت الآن... فما معنى هذا؟

فرفع الرجل عينيه في هذه المرة، وحدّق إلى راسكولنيكوف بنظرة قاتمة مشؤومة، وقال له بصوت خافت لكنه واضح متميز:

– قاتل!

كان راسكولنيكوف يسير إلى جانبه. فلما سمع منه هذه الكلمة، ضعفت ساقاه ضعفا رهيبا، وسرت في ظهره رعدة باردة، وتوقف قلبه عن الخفقان لحظة، ثم أخذ يخفق خفقاناً شديداً كأنه قد انهار انهياراً كاملاً على حين فجأة. وسارا على هذا النحو مسافة مائة خطوة، جنباً إلى جنب، في صمت مطلق. وكان الرجل لا ينظر إليه.

تمتم راسكولنيكوف يقول أخيراً بصوت لا يكاد يُسمع:

– ولكن ماذا تريد أن... من... من هو القاتل؟

فقال الرجل بصوت فيه مزيد من الوضوح، وفيه مزيد من الجزم أيضاً:

– القاتل أنت!

وبنوع من ابتسامة تعبر عن كره وانتصار، نظر إلى راسكولنيكوف من جديد، متفرساً في وجهه الشاحب وعينيه المنطفئتين. وكانا قد وصلا إلى مفترق، فسار الرجل يسرةً، وابتعد دون أن يلتفت. وظل راسكولنيكوف مسمّراً في مكانه يتابعه بنظراته مدةً طويلة. حتى إذا قطع الرجل المجهول مسافة خمسين خطوة، رآه راسكولنيكوف الذي ما يزال جامداً في مكانه، رآه يلتفت وينظر إليه. رغم أن الرؤية كانت غير واضحة فقد بدا لراسكولنيكوف أن الرجل يبتسم من جديد ابتسامة فيها برودة، وانتصار، وكره.

فقفل راسكولنيكوف راجعاً إلى بيته، يسير بخطى مترنحة، مصطكّ الساقين، في جسمه قشعريرة. فلما وصل إلى غرفته خلع قبعته فوضعها على المائدة، ولبث واقفا خلال عشر دقائق كاملة لا يستطيع حراكًا. ثم استلقى على أريكته مهدود القوى، ومدّ ساقيه وذراعيه وهو يئن أنيناً واهناً شاكياً. وانطبقت أجفانه. وظل راقداً على هذه الحال قرابة نصف ساعة.

لم يكن يفكر في شيء. لا شيء إلا بضع خطرات، أو قل بضع شذرات من خطرات كانت تتلاحق في فكره فوضى بغير نظام ولا اتصال ولا اتساق: وجوه أفراد كان قد رآهم في ماضيات الأيام، أثناء طفولته، وجوه صادفها مرة واحدة ثم لم يتذكرها في أحواله العادية بعد ذلك قط؛ برج أجراس الكنيسة فـ...؛ بلياردو في خمارة وضابط يقف قرب هذا البلياردو؛ رائحة سجائر في محل لبيع التبغ في قبو؛ سلمّ خمارة من الخمارات، مظلم جداً يؤدي إلى الفناء، مملوء بالقاذورات، قد تناثرت على درجاته قشور بيض، بينما يترامى إلى المكان

رنين النواقيس في يوم الأحد... وهذه الأشياء تتلاحق سريعةً كأنها يحملها إعصار. ومنها أشياء ممتعة يتشبث بها راسكولنيكوف ويتسلق عليها، ولكنها تغيب وتزول؛ ويظل في نفسه شيء ما يثقل على قلبه، ولكنه لا يسرف في إيلامه... حتى لقد يحس أحياناً بارتياح وهناءة. وثمة رعدة خفيفة لا تبارحه. وهذه أيضاً لذيذة..

سمع راسكولنيكوف وقع أقدام متعجلة، وسمع صوت رازوميخين، فأغمض عينيه متظاهراً بالنوم. فتح رازوميخين الباب، ولبث على العتبة متردداً لحظة. ثم دخل الغرفة بهدوء ورفق، واقترب من الأريكة محاذراً، وسُمعت وشوشة ناستاسيا قائلة:

– لا تزعجه. لينم ما شاء أن ينام! سيأكل فيما بعد.

ويجيبها رازوميخين:

– أنت على حق.

ويخرج رازوميخين وناستاسيا بهدوء، ويغلقان الباب. انقضى على هذه الحال نصف ساعة. وفتح راسكولنيكوف عينيه، ثم تهالك على ظهره من جديد، مصالباً يديه وراء رأسه...

«من كان ذلك الرجل؟ ما هو ذلك الرجل الذي خرج من تحت الأرض؟ أين كان وماذا رأى؟ لا ريب في أنه رأى كل شيء. ولكن أين كان يتوارى؟ من أين كان يراقب ويرصد؟ ولماذا لم يخرج من تحت الأرض إلا الآن؟ كيف استطاع أن يرى؟ هل هذا ممكن؟ هِمْ...»

كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف، ثم تابع تساؤلاته وقد اعترته رعدة باردة سرت في ظهره فارتعش: «والعلبة التي وجدها نيقولاي وراء الباب؟ هل كان يمكن أن يتصور المرء شيئاً كهذا؟.. قرائن قاطعة؟

أدلة ثابتة؟ أيكفي إغفال شيء صغير كحبة رمل حتى يظهر دليل ضخم كأهرام مصر! ذبابة طارت، فرأت الذبابة كل شيء... هل يتصور أحد هذا؟»

وباشمئزاز عميق أدرك راسكولنيكوف ضعفه، أحسّ وهن جسمه.

قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرة: «كان ينبغي لي أن أتصور هذا! كيف تجرأت، وأنا أعرف نفسي، وأنا أتنبأ بقدرتي وطاقتي، كيف تجرأت وتناولت فاساً ولطخت يديّ بالدم؟ كان يجب عليّ أن أعرف هذا سلفاً... آ... ولقد كنت أعرفه سلفاً بالفعل!».

هكذا دمدم يقول وقد بلغ غاية الكرب واليأس.

وكانت تدور في رأسه أحياناً فكرة تشلّه شلاً. قال يحدث نفسه:

«لا، لا، إن أولئك الرجال هم من طينة أخرى غير طينتي! إن المسيطر[٦٦] الحقيقي، الذي يجوز له كل شيء، يقصف طولون بالمدافع، ويقوم بمذبحة في باريس، وينسى جيشه بمصر، وينفق نصف مليون من الرجال في حملة موسكو، ثم يتملص من القضية في فلنو بجملة تشتمل على تلاعب بالألفاظ ثم تقام له التماثيل بعد موته. كل شيء مباح إذاً له! لا، إن أولئك الرجال ليسوا من لحم بل من برونز».

وومضت في فكر راسكولنيكوف فكرة مفاجئة فكاد يضحك. قال يحدث نفسه: «نابوليون، أهرامات مصر، واترلو، ثم عجوز مرابية ناحلة سافلة هي أرملة موظف صغير، تخفي تحت سريرها صندوقاً من جلد أحمر... كيف يمكن تشبيه هذا بذاك، كيف يستطيع إنسان أن يبلع هذا حتى ولو كان بورفيرى

[٦٦] المقصود نابوليون بونابرت الذي قصف طولون بالمدافع فعلا سنة ١٧٩٣، ورمى الملكيين بالرصاص بباريس في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٩٥، وترك جيشه بمصر سنة ١٧٩٩، ويقال إنه بعد أن فقد «الجيش الكبير» قال في فلنا سنة ١٨١٢: «ليس بين الرائع والمضحك إلا خطوة واحدة. فلتفصل الأجيال القادمة في هذا».

بتروفتش؟ كيف يمكنهم أن يهضموا هذا؟ إلا أن الجمال الفني نفسه يرفض ذلك: «هل كان يمكن أن يندسّ نابوليون تحت سرير عجوز حقيرة؟ يا للصغار!»

وكان راسكولنيكوف يحس في بعض اللحظات بأنه يهذي، وكان يحس باندفاعات فيها حمى!..

قال يحدّث نفسه بحميّا مسعورة: «ليست العجوز شيئاً ذا بال. العجوز ليست إلا خطأ. ولكن القضية ليست قضية العجوز. العجوز ليست إلا مرضاً... وقد أردت أن أقفز فوق الحاجز وأن أتخطاه بسرعة. أنا لم أقتل كائناً إنسانياً، وإنما قتلت مبدأً. ولكن لئن قتلت المبدأ، فإنني لم أستطع أن أتخطاه، بل بقيت في الجهة التي كنت فيها. كل ما استطعت أن أفعله هو أنني قتلت. حتى إنني كما تبين، لم أعرف كيف أقتل... هو المبدأ؟ لماذا كان هذا الغبي رازوميخين يهاجم الاشتراكيين منذ قليل؟ هؤلاء أناس عاملون، جادون، يهتمون «بسعادة البشر العامة الشاملة»[٦٧]. لا، لا، لقد وُهبت إلى الحياة مرة واحدة إلى الأبد، ولن أعرف حياةً أخرى ولا أريد أن انتظر «السعادة الشاملة». أريد أن أحيا شخصياً، وإلا فالأفضل أن لا أحيا البتة. أي عيب في هذا؟ أنا لم أزد على أن رفضت أن أمرّ بأم جائعة، قابضاً على قروشي في جيبي، منتظراً تحقق «السعادة العامة الشاملة»، «لقد حملت حجري إلى المبنى الذي يُشاد لتحقق السعادة العامة الشاملة، ومن ذلك أستمد طمأنينة القلب وسكينة النفس!» هأ هأ! لماذا نسيتموني؟ أنا ليس لي إلا حياة واحدة، وإني لأريد أن أحياها! آه... ما أنا إلا قملة محشوة بأفكار فنية. ذلك أنا. ولست شيئاً آخر. (كذلك أضاف يقول فجأة وهو ينفجر في ضحك كضحك المجانين). نعم، أنا قملة فعلاً (هكذا تابع يقول بفرح خبيث وهو يتشبث بفكرته متلذذاً بها): أولاً لأنني أفكر كما أفكر في هذه اللحظة مستدلاً على أنني قملة؛ وثانياً لأنني لبثت شهراً بكامله أزعج العناية الإلهية، وأُشهدها على أنني لم أقرر أن أفعل ما فعلت عن هوى مني بل

[٦٧] ... لقد حملت حجري إلى المبنى الذي يشاد لتحقق السعادة العامة الشاملة... تهكم على الرواية «ما العمل؟» التي أعجب أبطالها بالمثل العليا للاشتراكيين الطوباويين. وتعبير «حملتُ حجري إلى المبنى الذي يشاد للمجتمع المقبل» كثيراً ما يتردد في مؤلفات الاشتراكيين الطوباويين.

في سبيل غاية عظيمة وهدف كبير... هأ هأ هأ، وثالثاً لأنني قررت أن أسلك إلى فعلتي كل العدالة الممكنة، فراعيت في تنفيذها الوزن والقياس والحساب: ألم أختر من بين جميع قمل الكون قملةً هي أقل القمل جدوى؟ وحين قتلتها، ألم أكن أنوي أن لا آخذ منها إلا ما كنت في حاجة إليه لأخطو خطوتي الأولى (ثم يذهب الباقي إلى الدير تنفيذاً لوصيتها، هأ هأ هأ!). نعم، أنا قملة قطعاً (هذا ما أضافه إلى قوله وهو يضغط على أسنانه)، بل لعلني أحقر وأسوأ من قملة مسحوقة، لأنني كنت أعلم سلفاً، كنت أتنبأ سلفاً بأنني بعد قتلها سأقول لنفسي هذا الكلام! هل في العالم كله شيء يمكن أن يقارن بفظاعة كهذه الفظاعة؟ يا للوضاعة! يا للحقارة! إلا أنني لأفهم أعمق الفهم ذلك «النبي» الممتطي صهوة جواده، المشهر سيفه، القائل: الله يريد هذا، فأطع واخضع أيها المخلوق «المرتعش»[٦٨]! لقد كان على حق، كان على حق تماماً، ذلك النبي، الذي صف المدافع في عرض الشارع وأمر بإطلاق القذائف على الأبرياء والجناة على السواء، ولم يرض حتى أن يشرح سلوكه وأن يسوّغه. أطع أيها المخلوق المرتجف، وحذار أن ترغب في أي شيء، فليس هذا شأنك أنت!..

آه... لن أغفر لهذه العجوز في يوم من الأيام، في يوم من الأيام، بحال من الأحوال!»

كان شعره مبتلاً بالعرق، وكانت شفتاه المختلجتان مصوّحتين، وكان بصره يحدّق إلى السقف بنظرة ثابتة.

«أمي، أختي، لشد ما كنت أحبهما! فلماذا صرت أكرههما الآن؟ أجل، أنني أكرههما، أكرههما جسمياً، لا أطيق أن أحتمل وجودهما إلى جانبي!.. منذ قليل، اقتربت من أمي وقبلتها... أنني أتذكر هذا... عانقتها وتساءلت: تُرى لو كانت تعلم... أأقول لها إذن؟ هذا ما أستطيعه... هِمْ! لا شك في أنها مثلي (كذلك أضاف يقول بجهد، كأنه يقاوم الهذيان الذي يجتاحه). أوه! لشدّ ما أكرهها الآن، تلك العجوز! أعتقد

[٦٨] إشارة إلى بيت من الشعر في قصيدة بوشكين «محاكاة القرآن».

أنني مستعد لأن أقتلها مرة أخرى لو بعثت حية! مسكينة اليزافيتا! لماذا وُجدت هناك؟.. ومع ذلك لا تخطر ببالي إلا قليلاً، فكأنني لم أقتلها! ما أغرب هذا! اليزافيتا، صونيا! يا للبنتين المسكينتين، المتواضعتين، الوديعتين... الزاخرة أعينهما رقة وعذوبة! يا هذه المخلوقات العزيزة، لماذا لا تبكين؟ لماذا لا تئنين؟ إنها تعطي كل شيء، وتنظر إليك نظرة تفيض رقة وهدوء وسكينة!.. صونيا! صونيا! يا صونيا الوادعة!»

وأغمى على راسكولنيكوف. واستغرب كيف أمكن أن لا يتذكر كيف وجد نفسه مرة أخرى في الشارع. الوقت متأخر. الظلمات تتكاثف. البدر يسطع وما ينفك يقوى. ولكن الجو خانق. أناس كثيرون يسيرون في الشوارع. فبعضهم من الحرفيين والعمّال يعودون إلى بيوتهم، وبعضهم يتنزهون. وفي الهواء رائحة كلس وغبار ومياه مستنقعة. وراسكولنيكوف يمشي حزيناً مهموماً. وهو يتذكر أنه خرج على نية معينة محدّدة؛ هو يعرف أن عليه أن يتعجل القيام بأمر من الأمور، ولكنه أصبح لا يدري ما هو ذلك الأمر على وجه الدقة. وها هو ذا يتوقف فجأة، فيرى في الجهة الأخرى من الشارع، على الرصيف، رجلاً يومئ له بيده. أخذ يقطع الشارع ليمضي إليه، ولكن الرجل استدار وابتعد فجأة مطرق الرأس، كأن شيئاً لم يكن، حتى دون أن يلتفت وكأنه لم يناديه. تساءل راسكولنيكوف وقد أخذ يلاحقه: «هل ناداني حقاً؟». ولكنه وعن مسافة عشر خطوات تعرّف إليه بغتة فاستولى عليه رعب: إنه ذلك البائع الصغير نفسه، بمعطفه الذي يشبه ثوباً من أثواب المنزل، وبظهره المحدودب. تبعه راسكولنيكوف من بعد، خافق القلب. ودخل الاثنان في شارع صغير. ما زال الرجل لا يلتفت. تساءل راسكولنيكوف: «هل يعرف أنني أمشي وراءه؟». عبر البائع الصغير مدخل عمارة من العمارات. اقترب راسكولنيكوف من الباب بسرعة كبيرة، ونظر: تُرى ألن ينظر إليه هذا الرجل، ألن يناديه؟ وها هو ذا الرجل يلتفت على حين فجأة فعلاً، حين صار في فناء المنزل، فيومئ له بغتة من جديد. ولج راسكولنيكوف مدخل العمارة، ولكن ما أن مرّ تحت الباب حتى اختفى الرجل من الفناء. لا يمكن إلا أن يكون الرجل قد دخل السلم الأول الذي يقع هنا.

اندفع راسكولنيكوف يلاحقه. وكانت ما تزال تُسمع، فعلاً، بعد طابقين، أصواتُ وقع أقدام تسير بخطى منتظمة بطيئة. شيء غريب: إن السلم لا يبدو لراسكولنيكوف مجهولاً. هذه نافذة الطابق الأول. إن ضياء القمر، الحزين السرّي، يتسلل من خلال الزجاج. وهذا هو الطابق الأول. عجيب: إنها الشقة التي كان يعمل فيها الدهانون!.. كيف لم يتعرّف ذلك فورا؟ سكتت أصوات خطوات الرجل الذي كان يتقدمه: «لقد توقف إذاً، أو اختبأ في مكان ما». وهذا هو الطابق الثاني. هل يجب على راسكولنيكوف أن يصعد إلى أعلى؟ إن الصمت رهيب جداً! وظل راسكولنيكوف يصعد رغم ذلك. إن أصوات وقع أقدامه هو نفسه تقلقه، ترعبه. ربما ما أحلك هذا الظلام! لا شك في أن الرجل المجهول قد اختبأ في مكان ما، في ركن ما. آه... إن باب الشقة مفتوح على سعته كلها! فكّر راسكولنيكوف لحظة، ثم دخل. الدهليز مظلم خال، والأثاث يبدو أنه نُقل. تقدّم راسكولنيكوف إلى الصالون سائراً على رؤوس الأصابع في رفق وهدوء: إن ضوء القمر الساطع يغمر الغرفة. كل شيء في الصالون ما يزال كما كان: الكراسي، المرآة، الديوان الأصفر، الصور في أطرها. وهذا قمر ضخم، أحمر بلون النحاس، مدوّر تماماً، يُطل من النافذة رأساً. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «عن القمر إنما يصدر هذا الصمت... لا شك في أن القمر يحاول الآن أن يفضح سراً من الأسرار، أن يكشف لغزاً من الألغاز!» ظل راسكولنيكوف ساكناً جامداً ينتظر، فكلما ازداد القمر صمتاً ازداد خفقان قلبه شدة وعنفاً حتى أصبح يؤلمه. وما يزال الصمت مخيماً! وفجأة تنطلق قرقعة جافة كقرقعة غصن ينكسر، ثم يصمت كل شيء من جديد. وهذه ذبابة تستيقظ وتطير فتصدم الزجاج، وتدندن بصوت كأنه شكاة وأنين. وفي تلك اللحظة نفسها يميز راسكولنيكوف، في الركن، بين الخزانة الصغيرة والنافذة، شيئاً يشبه معطف امرأة، يتدلى على الحائط: تساءل راسكولنيكوف: «لماذا يوجد معطف هنا؟ لم يكن في هذا المكان معطف من قبل!». واقترب سائراً بخطى بطيئة، وحزر أن أحداً لا بد أنه يختبئ وراء هذا المعطف. وأزاح المعطف محاذراً، فرأى كرسياً، ورأى العجوز جالسة على

الكرسي، متكومة على نفسها، خافضة رأسها بحيث لم يستطع أن يرى وجهها. لكنها هي العجوز ما في ذلك ريب. لبث واقفاً إلى جانبها لحظة. قال لنفسه: «إنها خائفة» ثم أخرج الفأس من العلاقة برفق وهدوء، فهوى بها على قمة جمجمة العجوز، مرة أولى، فمرة ثانية. ولكن الشيء الغريب أن العجوز لم تترنح تحت الضربات. لكأنها من خشب. خاف راسكولنيكوف، ومال على العجوز يتفحصها عن كثب. كل ما هنالك أن رأسها قد انخفض مزيداً من الانخفاض. أنحنى راسكولنيكوف عندئذ انحناء كاملاً حتى الأرض، ونظر إليها. نظر إليها فتجمد من الرعب. كانت العجوز تضحك وهي جالسة على كرسيّها، تضحك ضحكاً كبيراً يهز جسمها كله، ولكنه ضحك لا يكاد يدرَك، فهي تخنقه حتى لا يكاد يسمعه راسكولنيكوف. وبدا له فجأة أن باب غرفة النوم يُشق، وأن وراء الباب أيضاً أناساً يضحكون ويتهامسون. استولى عليه الغضب. فأخذ يضرب العجوز على رأسها بكل ما يملك من قوة، ولكن الضحك والتهامس الصادرين عن غرفة النوم يزدادان وضوحاً وقوة كلما هوى على رأس العجوز بضربة جديدة. والعجوز نفسها قد أصبح جسمها يهتز الآن كله من شدة الضحك. أراد راسكولنيكوف أن يهرب. ولكن الدهليز كان قد امتلأ بالناس. وكان الباب الذي يفضي إلى السلم مفتوحاً على سعته كلها. وكان السلم ممتلئاً بالناس كذلك من أسفله إلى أعلاه. جمهور كبير. حشد هائل. رؤوس ثم رؤوس. والجميع ينظرون إليه، ولكنهم في الوقت نفسه يختبئون، وينتظرون، ويصمتون!.. انقبض قلبه، ورفضت ساقاه أن تتحركا، فكأنهما قد أصبحت لهما جذور في الأرض. أراد أن يصرخ. وأفاق من إغمائه.

استرد أنفاسه في جهد وعناء. ولكن الشيء الغريب أنه تراءى له أنه ما يزال يحلم. كان باب غرفته ما يزال مفتوحاً على سعته كلها. وكان يقف على عتبة الباب رجل لا يعرفه راسكولنيكوف إطلاقًا، رجل كان يتفرس فيه بإلحاح.

ما كاد راسكولنيكوف يفتح عينيه تماماً حتى عاد يغمضهما فوراً. كان مستلقياً على ظهره لا يقوم بأية حركة. قال يسأل نفسه: «أهو الحلم ما يزال مستمراً أم لا؟» وفتح جفنيه قليلاً ونظر: كان الرجل المجهول ما يزال واقفاً في المكان نفسه يحدّق إليه. ثم ها هو ذا يجتاز العتبة محاذراً، ويغلق الباب وراءه إغلاقاً محكماً. ويقترب من المائدة، وينتظر دقيقة دون أن يحوّل بصره عن راسكولنيكوف، ثم يجلس على الكرسي قرب الديوان هادئا صامتا. وضع الرجل المجهول قبعته على الأرض إلى جانبه، ثم أسند يديه إلى مقبض عصاه، وألقى بذقنه على يديه. كان واضحاً أنه يتهيأ لانتظار طويل. إذا صحّ ما استطاع راسكولنيكوف أن يلاحظه من خلال أجفانه التي كانت أشبه بالمغمضة، فإن هذا الرجل كان قد تجاوز الشباب، وكان قوي البنية، عريض المنكبين، كثيف اللحية، زاهي الشقرة حتى لتكاد تكون شقرته بياضاً...

انقضت عشر دقائق. لم يكن الظلام قد هبط بعد، ولكن المساء يقترب. إن صمتاً كاملاً يسود الغرفة. حتى السلم لا تصل منه أية ضجة. ليس يُسمع شيء إلا دندنة ذبابة ضخمة كانت قد صدمت الزجاج أثناء طيرانها. نفذ صبر راسكولنيكوف فنهض فجأة وجلس على الديوان، وقال يخاطب الزائر المجهول:

– هيه... تكلم... ماذا تريد؟

فأجابه الزائر المجهول بلهجة غريبة عجيبة، وهو يطلق ضحكة هادئة:

– كنت أعلم أنك لست نائماً، وأنك تتظاهر بالنوم تظاهراً. اسمح لي أن أعرفك بنفسي: آركادي ايفانوفتش سفدريجايلوف.